

ابن نعيم أبو العباس
أحمد بن خالد الناصري

كتاب

الاستفهام

لأخبار دولة المغرب الأقصى

الدولتان المرابطية والموحدية

الجزء الثاني

تحقيقه وتعليقه
الأساتذة

جعفر الناصري و محمد الناصري

دار الكتاب
الدار البيضاء

حقوق الطبع والنشر محفوظة

لدار الكتاب

ساحة المسجد الحمدي

الدار البيضاء

1418هـ / 1997م

رقم الإيداع القانوني والدولي

1399/96

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الدولة المرابطية

الخبر عن الدولة الصنهاجية الممتونية المرابطية وأوليتها

قد تقدم لنا عند الكلام على نسب البرير وشعورها أن صنهاجة إحدى قبائل البرانس من البرير، وأنهم أعظم قبائلها بالمغرب، لا يكاد قطر من أقطاره يخلو من بطن من بطونهم في جبل أو بسيط، حتى زعم كثير من الناس أنهم ثلث البرير.

وتقدم لنا أن النسايين من العرب زعموا أن صنهاجة وكتامة من حمير، خلفهم الملك إفريقيش بالمغرب، فاستحال لغتهم إلى البربرية. والتحقيق خلاف ذلك وأنهم من كنعان بن حام كسائر البرير، وتحت صنهاجة قبائل كثيرة تنتهي إلى السبعين، منهم: لمونة وكدةلة ومسوقة ومصراة ومداسة وبنو وارث وبنو دحير وبنو زياد وبنو موسى وبنو فشتال وغير ذلك، وتحت هذه القبائل بطون وأفخاذ تفوقت الحصر.

وكانت لهم بالمغرب دولتان عظيمتان إحداهما: دولة بني زيري بن مناد الصنهاجيين بأفريقيا، ورثوا ملكها من يد الشيعة العبيديين والأخرى: دولة الملثمين بالمغرب الأقصى والأوسط والأندلس كما سيأتي.

وموطن هؤلاء الملثمين أرض الصحراء والرماد الجنوبية فيما بين بلاد البرير وببلاد السودان، ومساحة أرضهم نحو سبعة أشهر طولاً في أربعة عرضأ، وفيهم قوماً لا يعرفون حرثاً ولا زرعاً ولا فاكهة، وإنما أموالهم الأنعام وعيشهم اللحم واللبن، يقيم أحدهم عمره لا يأكل خبزاً إلا أن يمر ببلادهم التجار فيتحفونهم بالخبز والدقيق، وإنما قيل لهم الملثمون لأنهم

يتلشمون، ولا يكشفون وجوههم أصلًا.

قال ابن خلكان: «اللثام سنة لهم يتوارثونها خلفاً عن سلف، وسبب ذلك على ما قيل إن حمير كانت تتلشم لشدة الحر والبرد تفعله الخواص منهم، فكثير ذلك حتى صار تفعله عامتهم. وقيل كان سببه أن قوماً من أعدائهم كانوا يقصدون غفلتهم إذا غابوا عن بيوتهم فيطردون الحي فيأخذون المال والحرير، فأشار عليهم بعض مشايخهم أن يعيشوا النساء في زي الرجال إلى ناحية، ويقعدوا هم في البيوت متلشين في زي النساء. فإذا أتاهم العدو وظفوهن نساء خرجوا عليهم. فعلوا ذلك وثاروا عليهم بالسيوف فقتلتهم، فلزموا اللثام تبركاً به بما حصل لهم من الظفر بالعدو».

وقال عز الدين ابن الأثير في كامله ما مثاله: وقيل إن سبب تلشمهم أن طائفة من لمتونة خرجن مغيرة على عدو لهم فخالفهم العدو إلى بيوتهم، ولم يكن بها إلا المشايخ والصبيان والنساء، فلما تحقق المشايخ أنه العدو أمروا النساء أن يلبسن ثياب الرجل ويتلشمن ويضيقنه حتى لا يعرفن، ويلبسن السلاح ففعلن ذلك وتقدم المشايخ والصبيان أمامهن واستدار النساء بالبيوت، فلما أشرف العدو رأى جمعاً عظيماً فظننه رجالاً وقالوا: هؤلاء عند حريمهم يقاتلون عنهن قتال الموت، والرأي أن نسوق النعم ونمضي فإن اتبعونا قاتلناهم خارجاً عن حريمهم، في بينما هم في جمع النعم من المراعي إذ أقبل رجال إلى الحي، فبقي العدو بيتهن وبين النساء، فقتلوا من العدو خلقاً كثيراً وكان من قتل النساء أكثر، فمن ذلك الوقت جعلوا اللثام سنة يلزمونه، فلا يعرف الشیخ من الشاب، ولا يزيلونه ليلاً ولا نهاراً.

وفي ذلك يقول أبو محمد بن حامد الكاتب:

قوم لهم شرف العلا من حمير وإذا انتموا صنهاجة، فهم هم
لما حروا أحرازاً كل فضيلة غالب الحياة عليهم، فتلشموا

وقال ابن خلدون: «كان دين صنهاجة أهل اللثام المجنوسية شأن يربرة

المغرب، ولم يزالوا مستقرين بتلك المفالات الصحراوية حتى كان إسلامهم بعد فتح الأندلس، وكانت الرياسة فيهم للمنتونة واستوست^(١) لهم ملك ضخم عند دخول عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس، توارثه ملوك منهم من بني ورتنطيو^(٢) وطالت أعمارهم فيه إلى الشهرين ونحوها ودخلوا تلك البلاد الصحراوية، وجاهدوا من بها من أمم السودان وحملوهم على الإسلام فدان به كثير منهم واتقاهم آخرون بالجزية فقبلوها منهم، ثم افترق أمرهم من بعد ذلك وصار ملكهم طوائف ورياستهم شيئاً، واستمرروا على ذلك مائة وعشرين سنة، إلى أن قام فيهم الأمير أبو عبد الله محمد بن تيفاوت المعروف بتاسرت^(٣) اللمنوني فاجتمعوا عليه وأحبوه وبايده، وكان من أهل الفضل والدين والجهاد والحج فلبث فيهم ثلاث سنين ثم استشهد في بعض غزواته.

الخبر عن رياضة يحيى بن إبراهيم الكدالي وما كان من أمره مع الشيخ أبي عمران الفاسي رحمهما الله

لما توفي أبو عبد الله بن تيفاوت قام بأمر صنهاجة من بعده يحيى بن إبراهيم الكدالي، - وكذلة ولمنتونة أخوان يجتمعان في أب واحد؛ وكل منهما قبل كبير يسكنون الصحراء التي تلي بلاد السودان ويليهما من جهة المغرب البحر المحيط - فاستمر الأمير يحيى بن إبراهيم على رياسة صنهاجة

(١) راجع نص ابن خلدون في صحيفة 235 من الجزء الأول طبع الجزائر ففيه بعض تقديم وتأخير وزيادة بيان.

(٢) الذي في نسخ ابن خلدون إنه ورتنطيق بالقاف.

(٣) الذي في ابن خلدون صحيفة 236 طبع الجزائر جزء أول أنه نشرت ونسخة مطبعة مصر صحيفة 182 من الجزء السادس أنه نشرت وهي القرطاس طبع فاس نشرنا أو نشرت.

وحربيهم لأعدائهم إلى أن كانت سنة سبع وعشرين وأربعين، فاستخلف على
صنهاجة ابنه إبراهيم بن يحيى وارتحل إلى المشرق برسم الحج. فلما قضى
حجه وزيارتـه قفل إلى بلاده، فمر في عودـه بالقيروان فلقـي بها الشيخ الفقيـه
أبا عمران الفاسيـ، وحضر مجلس درسـه وتأثر بوعظهـ، فرأـه الشيخ أبو عمران
محبـاً في الخـير فأعـجبـه حالـهـ، وسـألهـ عن اسمـهـ ونـسبـهـ وبـلـدـهـ فـأخـبرـهـ بذلكـ كـلـهـ
وأعـلمـهـ بـسـعـةـ بـلـادـهـ وـمـاـ فـيهـاـ مـنـ كـثـرـةـ الـخـلـقـ، فـقـالـ لـهـ الشـيـخـ: «ـوـمـاـ يـنـتـحـلـونـ
مـنـ الـمـذـاـهـبـ؟ـ». قـالـ: «ـإـنـهـمـ قـومـ غـلـبـ عـلـيـهـمـ الـجـهـلـ وـلـيـسـ لـهـمـ كـبـيرـ عـلـمـ!ـ»ـ
فـأـخـتـبـرـهـ الشـيـخـ وـسـأـلـهـ عـنـ فـرـوـضـ دـيـنـهـ فـلـمـ يـجـدـهـ يـعـرـفـ مـنـهـ شـيـئـاـ!ـ إـلاـ أـنـهـ
حـرـيـصـ عـلـىـ التـعـلـمـ صـحـيـحـ النـيـةـ وـالـعـقـيـدـةـ!ـ فـقـالـ لـهـ الشـيـخـ: «ـوـمـاـ يـمـنـعـكـ مـنـ
تـعـلـمـ الـعـلـمـ؟ـ»ـ قـالـ: «ـيـاـ سـيـديـ حـدـمـ وـجـودـ عـالـمـ بـأـرـضـيـ، وـلـيـسـ فـيـ بـلـادـيـ مـنـ
يـقـرـأـ الـقـرـآنـ فـضـلـاـ عـنـ الـعـلـمـ!ـ وـمـعـ ذـلـكـ فـأـهـلـ أـرـضـيـ يـحـبـونـ الـخـيـرـ وـيـرـغـبـونـ فـيـهـ
لـوـ وـجـدـوـ مـنـ يـقـرـئـهـ الـقـرـآنـ، وـيـدـرـسـ لـهـمـ الـعـلـمـ وـيـفـقـهـهـمـ فـيـ دـيـنـهـمـ وـيـعـلـمـهـمـ
الـكـتـابـ وـالـسـنـةـ وـشـرـاعـ الـإـسـلـامـ، فـلـوـ رـغـبـتـ فـيـ التـوـابـ مـنـ اللهـ تـعـالـ لـبـعـثـتـ
مـعـ بـعـضـ طـلـبـتـكـ يـقـرـئـهـمـ الـقـرـآنـ وـيـفـقـهـهـمـ فـيـ الدـيـنـ فـيـتـفـعـلـونـ بـهـ وـيـكـونـ لـكـ
وـلـهـ الـأـجـرـ الـعـظـيمـ عـنـ اللهـ تـعـالـ إـذـ كـنـتـ سـبـبـ هـدـاـيـتـهـ!ـ فـنـدـبـ الشـيـخـ أبوـ
عـمـرـانـ تـلـامـذـتـهـ إـلـىـ ذـلـكـ فـاسـتـصـبـعـوـاـ دـخـولـ أـرـضـ الصـحـراءـ وـأـشـفـقـوـاـ مـنـهـ،
فـقـالـ الشـيـخـ أبوـ عـمـرـانـ لـيـحـيـيـ بـنـ إـبـرـاهـيمـ: «ـإـنـيـ أـعـرـفـ بـبـلـدـ نـفـيـسـ⁽¹⁾ـ مـنـ
أـرـضـ الـمـصـامـدـةـ فـقـيـهـاـ حـاذـقـاـ وـرـعـاـ أـخـذـ عـنـيـ عـلـمـاـ كـثـيرـاــ.ـ وـاسـمـهـ وـاجـاجـ بـنـ
زـلـوـ الـلـمـطـيـ مـنـ أـهـلـ السـوـسـ الـأـقـصـيــ.ـ أـكـتـبـ إـلـيـهـ كـتـابـاـ لـيـنـظـرـ فـيـ تـلـامـذـتـهـ مـنـ
يـبـعـهـ مـعـكـ فـسـرـ إـلـيـهـ لـعـلـكـ تـجـدـ حـاجـتـكـ عـنـدـهـ!ـ فـكـتـبـ إـلـيـهـ الشـيـخـ أبوـ عـمـرـانـ
كـتـابـاـ يـقـولـ فـيـهـ: «ـأـمـاـ بـعـدـ إـذـ وـصـلـكـ حـاـمـلـ كـتـابـيـ هـذـاـ وـهـوـ:ـ يـحـيـيـ بـنـ إـبـرـاهـيمـ

(1) بلد نفيس قرب أغمات كانت موجودة زمان الكباري وقد ذكرها في مسالكه
فراجع ما ذكره في حقها في صحفة 160 طبع الجزائر وراج ما كتب عليها في
الجزء الأول من هذه الطبعة صحفة 153 تعليق عدد 2.

الكذالي فابعث معه من طلبتك من تثق بعلمه ودينه وورعه وحسن سياسته ليقرئهم القرآن، ويعلّمهم شرائع الإسلام ويفقههم في دين الله، ولك وله في ذلك الثواب والأجر العظيم، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

وأبو محمد واجاج هذا من رجال التشوّف قال فيه: «ومتهم واجاج بن زلو اللمعطي من أهل السوس الأقصى رحل إلى القิروان، وأخذ عن أبي عمران الفاسي ثم عاد إلى السوس، فبني داراً سماها بدار المرابطين لطلبة العلم وقراء القرآن، وكان المصامدة يزورونه ويتركون بدعائه وإذا أصابهم قحط استسقوا به» اهـ.

فسار يحيى بن إبراهيم بكتاب الشيخ أبي عمران حتى وصل إلى الفقيه واجاج بمدينة نفيس، فسلم عليه ودفع إليه الكتاب، وكان ذلك في رجب سنة ثلاثين وأربعين فنظر الفقيه واجاج في الكتاب، ثم جمع تلامذته فقرأه عليهم ونديهم لما أمر به الشيخ أبو عمران، فانتدب لذلك رجل منهم يقال له عبد الله بن ياسين الجزولي، وكان من حذاق الطلبة ومن أهل الفضل والدين والورع والسياسة، مشاركاً في العلوم، فخرج مع يحيى بن إبراهيم إلى الصحراء، وكان من أمره ما نقصه عليك.

الخبر عن دخول عبد الله بن ياسين أرض الصحراء وابتداء أمره بها

لما انتهى يحيى بن إبراهيم إلى بلاده - ومعه الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولي - تلقاه قبائل كدالة ولمتونة وفرحوا بمقدمهما، وتيمنوا بالفقيه وبالغوا في إكرامه وبره، فشرع يعلّمهم القرآن ويفقّه لهم رسم الدين ويسوسهم بأداب الشرع، وألغاهم يتزوجون بأكثر من أربع حرائر، فقال لهم: «ليس هذا من السنة، وإنما سنة الإسلام أن يجمع الرجل بين أربع نسوة حرائر فقط، وله فيما شاء من ملك اليمين سعة».

وجعل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وكبحهم عن كثیر من مألفاتهم الفاسدة وشدد في ذلك، فأطروحوه واستصعبوا علمه، وتركوا الأخذ عنه لما جشمهم من مشاق التكليف.

فلما رأى عبد الله بن ياسين إعراضهم عنه واتباعهم لأهوائهم عزم على الرحيل عنهم إلى بلاد السودان الذين دخلوا في دين الإسلام يومئذ، فلم يتركه يحيى بن إبراهيم لذلك، وقال له: إنما أتيت بك لأنتفع بعلمك في خاصة نفسي وما عليّ فيمن ضل من قومي. وكان قومه ليس عندهم من الإسلام إلا الشهادة دون ما عدتها من أركان الإسلام وشرائعه.

ثم قال يحيى بن إبراهيم لعبد الله بن ياسين: «هل لك في رأي أشير به عليك إن كنت تrepid الآخرة؟» قال: «وما هو؟» قال: «إن هلتنا جزيرة في البحر». قال ابن خلدون: «هو بحر النيل يحيط بها من جهاتها يكون ضحضاً في المصيف يخاض بالأقدام وغمراً في الشتاء يعبر بالزوارق» قال يحيى بن إبراهيم: وفيها الحلال الممحض من شجر البرية وصيد البر والبحر، ندخل فيها ونقتات من حلالها ونعبد الله تعالى حتى نموت». فقال عبد الله بن ياسين: «إن هذا الرأي حسن! فهلم بنا فلندخلها على اسم الله! فدخلوها ودخل معهما سبعة نفر من كذالة، وابتلى عبد الله رابطة هناك، وأقام في أصحابه يعبدون الله تعالى مدة من ثلاثة أشهر؛ فتسامع الناس بهم وأنهم اعتزلوا بدينهم يطلبون الجنة والنجاة من النار! فكثر الواردون عليهم، والتوابون لديهم، فأخذ عبد الله بن ياسين يقرئهم القرآن ويستمليهم إلى الخير، ويرغبهم في ثواب الله ويحذرهم ألم عقابه حتى تمكن حبه من قلوبهم، فلم تمر عليه إلا مدة يسيرة حتى اجتمع له من التلامذة نحو ألف رجل! وكان من أمرهم ما تسمعه عن قريب.

شروع عبد الله بن ياسين في الجهاد وإعلانه بالدعوة وما كان من أمره في ذلك

لما اجتمع إلى عبد الله بن ياسين من أشراف صنهاجة نحو ألف رجل
سماهم: المرابطين للزروهم رابطه.

ولما تفقهوا ورسيخ فيهم الدين قام فيهم خطيباً فوعظهم وشوّقهم إلى الجنة وخوفهم من النار، وأمرهم بتقوى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأخبرهم بما في ذلك من ثواب الله تعالى وعظيم جزائه، ثم ندبهم إلى جهاد من خالفهم من قبائل صنهاجة وقال لهم: «معشر المرابطين، إنكم اليوم جمع كثير نحو ألف رجل! ولن يغلب ألف من قلة! وأنتم وجوه قبائلكم ورؤسائكم عشائركم، وقد أصلحكم الله تعالى وهذاكم إلى صراطه المستقيم، فوجب عليكم أن تشکروا نعمته عليكم بأن تأموروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر وتجاهدوا في الله حق جهاده!» فقالوا له: «أيها الشیخ المبارك أمرنا بما شئت تجدنا سامعين لك مطيعين! ولو أمرتنا بقتل آباءنا لفعلنا!» فقال لهم: أخرجوا على بركة الله، وأنذروا قومكم وخوفهم عقاب الله وأبلغوهم حجته فإن تابوا فخلوا سبيلهم وإن أبوا من ذلك وتمادوا في غيهم ولدوا في طغيانهم استعنوا بالله تعالى عليهم وجاهذناهم حتى يحكم الله بيتنا وهو خير الحاكفين». فسار كل رجل منهم إلى قومه وعشائره. فوعظهم وأنذرهم ودعاهم إلى الإقلاع عما هم بسبيله، فلم يرفعوا بذلك رأساً.

فخرج إليهم عبد الله بن ياسين بنفسه وجمع أشياخ قبائلهم ووجوهاً وقرأ عليهم حجّة الله! ودعاهم إلى التوبة! ورغمهم في الجنة، وخوفهم من النار، وأقام ينذرهم سبعة أيام! وهم في ذلك كله لا يلتفتون إلى قوله، ولا يزدادون إلا فساداً! فلما يتّس منهم قال لأصحابه: «قد أبلغنا في الحجّة،

وأنذرنا وأعذرنا، وقد وجب علينا الآن جهادهم، فاغزوهם على بركة الله» فيبدأ أولاً بقبيلة كدارلة فغزاهم في ثلاثة آلاف رجل من المرابطين فانهزموا بين يديه، وقتل منهم خلقاً كثيراً. وأسلم الباقيون إسلاماً جديداً، وحسنت حالهم، وأدوا ما يلزمهم من كل ما فرض الله عليهم، وكان ذلك في صفر سنة أربع وثلاثين وأربعين.

ثم سار إلى قبيلة لمتونة فنزل عليها وقاتلهم حتى أظهره الله عليهم، وأذعنوا إلى الطاعة، وبايعوه على إقامة الكتاب والسنّة.

ثم سار إلى قبيلة مسوقة فقاتلهم حتى أذعنوا له، وبايعوه على ما بايعته لمتونة وكدارلة.

فلما رأى ذلك سائر صنهاجة سارعوا إلى التوبية والمباعدة، وأثروا له بالسمع والطاعة. فكان كل من أنهى تائباً منهم يظهره بأن يضرره مائة سوط ثم يعلمه القرآن وشريائع الإسلام، وكان يأمرهم بالصلوة والزكاة وأداء العشر، واتخذ لذلك بيت مال يجمع فيه ما يرفع إليه من ذلك.

ثم أخذ في اشتراء السلاح وأركاب الجيوش من ذلك المال، وجعل يغزو القبائل حتى ملك جميع بلاد الصحراء وذلل قبائلها.

ثم جمع أسلاب القتلى في تلك المغازي وجعلها فينائ للمرابطين وبعث بهمال دثار مما اجتمع لديه من الزكوات والأعشار والأخماس إلى طلبة العلم ببلاد المصامدة، فاشتهر أمره في جميع بلاد الصحراء وما والاها، من بلاد السودان وببلاد القبلة وببلاد المصامدة وسائر أقطار المغرب، وأنه قام رجل بكدارلة يدعو إلى الله تعالى وإلى الصراط المستقيم ويحكم بما أنزل الله، وأنه متواضع زاهد في الدنيا، وطار له ذكر في العالم، وتمكن ناموسه من القلوب وأحبته الناس.

ثم توفي يحيى بن إبراهيم الكدارلي على أثر ذلك، وحكي ابن خلدون أن وفاة يحيى بن إبراهيم كانت قبل اعتزال عبد الله بن ياسين وأصحابه في الجزيرة. والله أعلم.

الخبر عن رياضة يحيى بن عمرو بن تكلاكين اللمنوني

لما توفي يحيى بن إبراهيم الكداري عزم عبد الله بن ياسين على تقديم
رجل يقوم بأمر المرابطين في حربهم وجهادهم لعدوهم .
وكانت قبيلة لمنونة من بين قبائل صنهاجة أكثر صنهاجة لله تعالى وديناً
وصلاحاً، فكان عبد الله بن ياسين يكرمهم ويقدمهم على غيرهم، وذلك لما
أراده الله تعالى من ظهور أمرهم وتملكهم على الخلق، فجمع عبد الله بن
ياسين رؤوس القبائل من صنهاجة وولى عليهم يحيى بن عمر اللمنوني -
وبعد الله بن ياسين هو الأمير على الحقيقة لأنه هو الذي يأمر وينهى ويعطي
ويمنع، وعن رأيه يصدرون - فكان يحيى بن عمر يتولى النظر في أمر
الحرب وعبد الله بن ياسين ينظر في أمر الدين وأحكام الشرع ويتأخذ
الزكوات والأعشار .

وكان يحيى شديد الانتقاد لعبد الله بن ياسين ، واقفاً عند أمره ونهيه
فمن حسن طاعته له أنه قال له يوماً: «قد وجب عليك أدب» قال يحيى:
«فيماذا يا سيد؟» قال: «لا أعرفك به حتى آخذك منك! فكشف له يحيى
عن بشرته فضربه عشرين سوطاً ثم قال له: «إنما ضربتك لأنك باشرت
القتال! واصطليت بنار الحرب بنفسك! وذلك خطأ منك! فإن الأمير لا
يقاتل، وإنما يقف ويحرض الناس، ويقري نفوسهم، فإن حياة الجندي بحياة
أميره، وهلاكه بهلاكه».

واستقام الأمير ليحيى بن عمر، وملك جميع بلاد الصحراء، وغزا بلاد
السودان ففتح كثيراً منها، وكان من أهل الرزد والدين والصلاح .

الخير عن غزو عبد الله بن ياسين ويعيسي بن عمر سجلماسة والسبب في ذلك

قد تقدم لنا عند الكلام على بني مدرار المكناسيين أصحاب سجلماسة أن انقراض دولتهم كان على يد خزرون بن فلفل بن خزر المغراوي، وأنه زحف إلى سجلماسة سنة ست وستين وثلاثمائة، ويرز إليه صاحبها أبو محمد المعتر بالله - آخر ملوك بني مدرار الصفرية - فهزمه خزرون وقتله واستولى على بلده وذريته، وبعث برأسه إلى قرطبة - وكان ذلك لأول حجابة المنصور بن أبي عامر - واستمر خزرون بن فلفل والياً على سجلماسة إلى أن هلك وولي بعده ابنه وانودين بن خزرون إلى أن هلك أيضاً وولي ابنه مسعود بن وانودين.

ولما انقضت الدولة الأموية بالأندلس وافترق أمر الجماعة بها وصار الملك طوائف، استبد أمراء الأطراف وملوك زناتة بالمغرب كل بما في يده، وعدم الرازح وتصرفا في الرعايا بمقتضى أغراضهم وشهواتهم فنال فاساً وأعمالها من جور بني عطيه المغراويين ما حكينا بعضه قبل، ونال أهل سجلماسة ودرعة من بني خزرون بن فلفل المغراويين مثل ذلك أو أكثر.

فلما كانت سنة سبع وأربعين وأربعين - وقد انتشر ذكر عبد الله بن ياسين وأصحابه المرابطين في العالم - اجتمع فقهاء سجلماسة ودرعة وكتبوا إلى عبد الله بن ياسين ويعيسي بن عمر وأشياخ المرابطين كتاباً يرغبون إليهم في الوصول إلى بلادهم، ليظهروا مما هي في من المنكرات وشدة العسف من الأمراء، وعرفوهم بما هم فيه أهل العلم والدين وسائر المسلمين من الذل والصغار مع أميرهم مسعود بن وانودين المغراوي.

فلما وصل الكتاب إلى عبد الله بن ياسين جمع رؤساء المرابطين وقرأه عليهم وشاورهم في الأمر. فقالوا: «أيها الفقيه هذا مما يلزمك ويلزمك! فسر بما على بركة الله» فدعوا لهم بخير وحضهم على الجهاد.

وخرج بهم في عشرين من صفر سنة سبع وأربعين وأربعينات في جيش كثيف من المرابطين - وقيل كان خروجه سنة خمس وأربعين وأربعينات - فسار حتى وصل إلى بلاد درعة فوجدها عامل مسعود بن وانودين فنفاه عنها، ووجد بها خمسين ألف ناقة لمسعود المذكور - وكانت ترعى في حمى حماه لها هنالك - فاكتسحها عبد الله بن ياسين . واتصل الخبر بمسعود فجمع جيشه وخرج نحوه ، فالتقى الجماعان فيما بين درعة وسجلماسة . فكانت بينهما حرب فظيعة منع الله فيها المرابطين النصر على مغراوة ، فقتل أميرهم مسعود وأكثر جيشه وفر الباقيون .

واستولى عبد الله بن ياسين على دوابهم وأسلحتهم وأموالهم مع الإبل التي كان اكتسحها في درعة ، فأخرج الخمس من ذلك كله وفرقه على فقهاء سجلماسة ودرعة وصلاحهما وقسم الأربعية أخماس على المرابطين .

وارتحل من فوره إلى سجلماسة فدخلها وقتل من وجد بها من مغراوة وأقام بها حتى أصلح شأنها وغير ما وجد بها من المترکرات وقطع المزامير وألة النهو وأحرق الدور التي كانت تباع بها الخمور وأزال المكوس وأسقط المغارم المخزنية ومحا ما أوجب الكتاب والسنة محوه . واستعمل على سجلماسة عاملًا من لمتونة وانصرف إلى الصحراء .

ثم توفي الأمير أبو زكرياء يحيى بن عمر في بعض غزواته ببلاد السودان سنة سبع وأربعين وأربعينات .

الخبر عن رياضة أبي بكر بن عمر اللمنوني وفتح بلاد السوس

لما توفي الأمير يحيى بن عمر اللمنوني ولد عبد الله بن ياسين مكانه أخاه أبي بكر بن عمر ، وذلك في محرم سنة ثمان وأربعين وأربعينات ، وقلده أمر الحرب والجهاد ، ثم ندب المرابطين إلى غزو بلاد السوس والمصامدة . فزحف إليها في جيش عظيم في ربيع الثاني من السنة المذكورة .

وكان أبو بكر بن عمر رجلاً صالحًا ورعاً فجعل على مقدمته ابن عمه يوسف بن تاشفين اللمتونى، ثم سار حتى انتهى إلى بلاد السوس. فغزا جزولة من قبائلها وفتح مدينة ماسة^(١) وتارودانت - قاعدة بلاد السوس - وكان بها قوم من الرافضة يقال لهم البجلية^(٢) نسبة إلى علي بن عبد الله البجلي الرافضي - كان سقط إلى بلاد السوس أيام قيام عبد الله الشيعي بأفريقية - فأشاع هنالك مذهب الرافضة فتارثوه عنه جيلاً بعد جيل وعضووا عليه فكانوا لا يرون الحق إلا ما في يدهم. فقاتلهم عبد الله بن ياسين وأبو بكر بن عمر حتى فتحوا مدينة تارودانت عنوة وقتلوا بها خلقاً كثيراً ورجع من بقي منهم إلى مذهب السنة والجماعة.

وحاز عبد الله بن ياسين أسلاب القتلى منهم فجعلها فييناً وأظهر الله المرابطين على من عدتهم ففتحوا معاقل السوس وخضعت لهم قبائله، وفرق عبد الله بن ياسين عماله بنواحيه وأمرهم بإقامة العدل وإظهار السنة وأخذ الزكوات والأعشار وإسقاط ما سوى ذلك من المغارم المحدثة.

فتح بلاد المصامدة وما يتبع ذلك من جهاد برغواطة وفتح بلادهم وذكر نسبهم

ثم ارتحل عبد الله بن ياسين إلى بلاد المصامدة ففتح جبل درن، وببلاد رودة، ومدينة شفشاوة بالسيف. ثم فتح مدينة نفيس وسائر بلاد كدميور ووقدت عليه قبائل رجراجة وحاجة فبايعوه. ثم ارتحل إلى مدينة أغمات

(١) مدينة ماسة ذكرها البكري في مسالكه فقال: إنها قرب السوس ويضاف إليها الوادي المنصب في المحيط صحيحة 161 طبع الجزائر.

(٢) انظر بسط الكلام على البجليين في مسالك البكري صفحة 162 طبع الجزائر وراجع القرطاس أيضاً.

- وبها يومئذ أميرها لقوط بن يوسف بن علي المغراوي . فنزل عليها وحاصرها حصاراً شديداً.

ولما رأى لقوط ما لا طاقة له به أسلمهما وفر عنها ليلاً هو وجميع حشمه إلى تادلا فاستجار ببني يفرن ملوك سلا وتادلا .

ودخل المرابطون مدينة أغمات سنة تسع وأربعين وأربعينات فأقام بها عبد الله بن ياسين نحو الشهرين ريثما استراح الجند، ثم خرج إلى تادلا ففتحها وقتل من وجد بها من بني يفرن ملوكها وظفر بلقوط المغراوي فقتله .

وكان لقوط هذا امرأة اسمها زينب بنت إسحاق التفزاوية . قال ابن خلدون : وكانت من إحدى نساء العالم المشهورات بالجمال والرياسة وكانت قبل لقوط عند يوسف بن علي بن عبد الرحمن بن وطاس شيخ وريكة فلما قتل المرابطون لقوط بن يوسف المغراوي خلفه أبو بكر بن عمر على أمره زينب بنت إسحاق المذكورة إلى أن كان من أمرها ما ذكره .

ثم تقدم عبد الله بن ياسين إلى بلاد تامستا ففتحها واستولى عليها ثم أخبر بأن بساحل تامستا قبائل برغواطة في عدد كثير وجمع عظيم .

ولنذكر هنا كلاماً ملخصاً في برغواطة ودولتهم ثم نرجع إلى ما نحن بصدده فنقول : اختلف الناس في نسب برغواطة هؤلاء إلى أي شيء يرجع فبعضهم يلحقهم بزنانة وبعضهم يقول في متنبئهم صالح بن طريف البرغواطي : إنه يهودي الأصل من سبط شمعون بن يعقوب عليه السلام نشا ببرياط - حصن من عمل شدونة من بلاد الأندلس - ثم رحل إلى المشرق وقرأ على عبيد الله المعتزلي . واشتغل بالسحر وجمع منه فتوناً وقدم المغرب فنزل بلاد تامستا . فوجد بها قبائل جهالاً من البربر فأظهر لهم الصلاح والرهد وموه عليهم وخلبهم بلسانه وسحرهم بنير نجاته فصدقوه واتبعوه فادعى النبوة وشرع لهم شرائع ووضع لهم قرآنـ . حسبما تقدم الخبر عنه مستوفـي - فكان يقال لمن تبعه ودخل في دينه برياطي ثم عربته العرب فقالوا برغواطي فسموا برغواطة .

قال ابن خلدون: «وهذا من الأغالط البينة!» وصحح أن القوم من المصاصدة بشهادة المواطن والجوار وغير ذلك. والتحقيق أن برغواطة قبائل شئليس يجمعهم أب واحد وإنما هم أخلاق من البربر اجتمعوا إلى صالح بن طريف الذي ادعى النبوة بتامستا سنة خمس وعشرين ومائة من الهجرة في خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان وتسمى بصالح المؤمنين وشرع لأنباء الديانة التي أخذوها عنه وكان صالح قد شهد مع أبيه طريف حروب ميسرة المضغري كغير الصفرية لعهده وكان طريف يكنى أباً صبيح ومن كبار أصحاب ميسرة المذكور ويقال إنه ادعى النبوة أيضاً وشرع لقومه الشرائع! ثم هلك سنة سبع وعشرين ومائة، وقام بأمره ابنه صالح بن طريف المذكور فعمت مخارقه على مفارق أبيه! وكان أولأ من أهل العلم والدين ثم انسلاخ من آيات الله وانتحل دعوى النبوة وأتى من البهتان بما أوضحتناه قبل في ولاية حنظلة بن صفوان الكلبي على المغرب.

ثم خرج صالح بن طريف إلى المشرق سنة أربع وسبعين ومائة بعد أن ملك أمرهم سبعاً وأربعين سنة ووعدهم أنه يرجع إليهم في دولة السابع منهم وأوصى بشريعته إلى ابنه إلياس بن صالح. ولم يزل إلياس مظهراً للإسلام مصرأً على ما أوصاه به أبوه من كلمة كفرهم وكان متظاهراً بالعفاف والزهد إلى أن هلك سنة أربع وعشرين ومائتين لمضي خمسين سنة من ولادته. ثم ولد من بعده ابنه يونس بن إلياس فأظهر دينهم ودعا إلى كفرهم، وقتل من لم يدخل في أمره حتى حرق مدائن تامستا وما والاها يقال إنه حرق منها ثلاثة وثمانين مدينة واستلح لهم أهلها بالسيف لمخالفتهم إيمانه وقتل منهم بموضع يقال له تاملوكالات (وهو حجر عال نابت وسط الطريق) سبعة آلاف وسبعمائة وسبعين نفساً.

قال زمور بن صالح^(١): ثم رحل يونس بن إلياس إلى المشرق وحج،

(١) الذي في النسخة المطبوعة بمدينة الجزائر أبو صالح زمور بن موسى بن هشام

صفحة 164 مسالك البدري.

ولم يحج أحد من أهل بيته قبله ولا بعده . وهلك سنة ثمان وستين ومائتين لأربع وأربعين سنة من ملكه . وانتقل الأمر عن بنيه إلى غيرهم من قرابته ، فولي أمرهم أبو غفير محمد بن معاذ بن اليسع بن صالح بن طريف فاستولى على ملك برغواطة وأخذ بدين أبياته واشتدت شوكته وعظم أمره ، وكانت له في البربر وقائع مشهورة وأيام مذكورة أشار إلى شيء منها سعيد بن هشام المصمودي في أبيات منها قوله :

وهدى أمة هلكوا وضلوا
يقولون النبي أبو غفير
فأخزى الله أم الكاذبينا
سيعلم أهل تامسنا إذا ما
أتوا يوم القيمة مفظعينا
هنا لك يونس وبنو أبيه يقودون البرابر حائزتنا

وانتخذ أبو غفير من الزوجات أربعاء وأربعين - لأنهم يبيحون في دينتهم الخيسة أن يتزوج الرجل من النساء ما شاء - وكان له من الولد مثل ذلك أو أكثر . وهلك أواخر المائة الثالثة لتسع وعشرين سنة من ملكه .

ثم ولـي بعده ابنه أبو الأنصار عبد الله بن أبي غفير فاقتضى سنته ، وكان كبير الدعوة مهياً عند ملوك عصره يهادونه ويدافعونه بالمواصلة ، وكان يلبـس الملحفة والسرـاويـلـ ويلبسـ المـخـيطـ منـ الشـيـابـ وـلاـ يـعـتـمـ أـحـدـ فـيـ بـلـادـ إـلـاـ الغـرـيـاءـ ، وـكـانـ حـافـظـاـ لـلـجـارـ وـأـفـيـاـ لـلـعـهـدـ ، وـتـوـفـيـ سـنـةـ إـحـدـيـ وـأـرـبـعـينـ وـثـلـاثـمـائـةـ لأـرـبـعـ وـأـرـبـعـينـ سـنـةـ مـنـ مـلـكـهـ وـدـفـنـ بـتـاسـلـاخـ وـبـهاـ قـبـرـهـ .

وولي بعده ابنه أبو منصور عيسى بن أبي الأنصار - وهو ابن اثنين وعشرين سنة - فصار سيرة أبياته وادعى الشبوة واشتـدـ أمرـهـ وـعـلـاـ سـلـطـانـهـ ، وـدـانـتـ لـهـ قـبـائلـ الـمـغـرـبـ قـالـ زـمـورـ بنـ صـالـحـ : «ـكـانـ عـسـكـرـ يـنـاهـزـ الـثـلـاثـةـ أـلـافـ مـنـ بـرـغـواـطـةـ وـعـشـرـةـ أـلـافـ مـنـ سـوـاهـمـ» .

وقد كان لملوك العدوتين في غزو برغواطة هؤلاء وجهادهم آثار عظيمة من الأدارسة والأمية والشيعة وغيرهم .

ولما زحف بلکین بن زيري بن مناد الصنهاجي إلى المغرب زحفه

المشهور وأجفلت قبائل زناتة وملوکها بين يديه وانحازوا إلى سبتة وأطل عليهم من جبل طوان وعاين جمعهم الكثيف رجع عنهم إلى جهاد برغواطة، فاوقع بهم وقتل أميرهم أبا منصور عيسى بن أبي الأنصار، وبعث بسيبهم إلى القيروان وذلك سنة تسع وستين وثلاثمائة.

ثم حاربهم أيضاً جنود المنصور بن أبي عامر لما عقد ابته عبد الملك المظفر لموالاه واضح على جهاد برغواطة، فعظم أثره فيهم بالقتل والسيبة.

ثم حاربهم أيضاً بتو يفرن لما استقل بتو يعلى بن محمد بن صالح منهم بناحية سلا واقتطعواها عن عمل زيري بن عطية المغراوي صاحب قاس.

وكان لأبي الكمال تميم بن زيري اليفرنى فيهم جهاد كبير حسبما تقدم التنبية عليه وذلك أعوام العشرين وأربعينات فغلبهم على تامسنا وولى عليها من قبله بعد أن أثخن فيهم سياً وقتلأ.

ثم تراجعوا من بعده إلى أن جاءت دولة المرابطين ودخلوا أرض المغرب دخلتهم الثانية وفتحوا بلاد المصامدة وببلاد تادلا وتامسنا، فأخبر عبد الله بن ياسين بأن ساحلها قبائل برغواطة في عدد كثير وجمع عظيم وأنهم مجوس أهل ضلاله وكفر، وأخبر بما تمسكوا به من ديانتهم الخبيثة. وقيل له إن برغواطة قبائل كثيرة وأخلاق شتى، اجتمعوا في أول أمرهم على صالح بن طريف المتنبي^٢ الكلذاب، واستمر حالهم على الضلال والكفر إلى الآن. فلما سمع عبد الله بن ياسين بحال برغواطة وما هم عليه من الكفر رأى أن الواجب تقديم جهادهم على جهاد غيرهم فسار إليهم في جيوش المرابطين - والأمير يومئذ على برغواطة هو أبو حفص عبد الله من ذرية أبي منصور عيسى بن أبي الأنصار عبد الله بن أبي غفير محمد بن معاذ بن أبي سعيد بن طريف - فكانت بينه وبين عبد الله بن ياسين ملاحم عظام، مات فيها من الفريقين خلق كثير وأصييب فيها عبد الله بن ياسين الجزولي - مهدي المرابطين - فكان فيها شهادته رحمة الله.

ولما حضرته الوفاة قال لهم: «يا معشر المرابطين إني ميت من يومي

هذا لا محالة وإنكم في بلاد عدوكم فلياكم أن تجبنوا أو تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، وكونوا أعوناً على الحق وإخواناً في ذات الله، وإياكم والتحاسد على الرياسة فإن الله يؤتى ملكه من يشاء من خلقه، ويستخلف في أرضه من أراد من عباده» في كلام غير هذا.

وتوفي عبد الله بن ياسين عشية ذلك اليوم، وهو يوم الأحد الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة إحدى وخمسين وأربعين، ودفن بموضع يعرف بكريفة، وبني على قبره مسجد وهو مشهور بها إلى الآن.

وكان عبد الله بن ياسين رحمة الله شديد الورع في المطعم والمشرب إنما يتعيش من لحوم الصيد ونحوها لم يأكل شيئاً من لحوم صنهاجة ولا من ألبانها مدة إقامته فيهم.

وكان مع ذلك كثير النكاح يتزوج في كل شهر عدداً من النساء ثم يطلقهن ولا يسمع بأمرأة جميلة إلا خطبها. ومن حسن سياسته أنه أقام في صنهاجة السنة والجماعة حتى أنه ألزمهم أن من فاته صلاة في جماعة ضرب عشرين سوطاً ومن فاته ركعة منها ضرب خمسة أسواط.

ومن كراماته أن المرابطين خرجوا معه في بعض غزواته ببلاد السودان فنفذ ما معهم من الماء حتى أشرفوا على الهلال فقام عبد الله فتيمم وصلى ركعتين ودعا الله تعالى وأمن المرابطون على دعائه فلما فرغ من الدعاء قال لهم: «احفروا تحت مصاري هذا» فحفروا فصادفوا الماء على نحو شبر من الأرض عذباً بادراً فشربوا واستقوا وملقوها أو عيدهم. ومن تقواه وورعه أنه لم يزل صائمًا من يوم دخل بلاد صنهاجة إلى أن توفي رحمة الله.

واستمر الأمير أبو بكر بن عبد الله بن ياسين، فكان أول ما فعله بعد تجهيزه إيه ودفنه أن زحف إلى برغواطة مصمماً في حربهم، متوكلاً على الله في جهادهم، فأنجح فيهم قتالاً وسيأً حتى تفرقوا في المكامن والغياض، واستأصل شأفتهم وأسلم الباقيون إسلاماً جديداً، ومحا أبو بكر بن عبد الله أثر دعوتهم من المغرب وجمع غنائمهم وقسمها بين المرابطين وعاد إلى مدينة أغمات.

خزوة أبي بكر بن عمر بلاد المغرب سوى ما تقدم وفتحه إليها

لما استقر الأمير أبو بكر بن عمر بأغمات، أقام بها إلى صفر من سنة اثنين وخمسين وأربعين. وخرج غازياً بلاد المغرب في أمم لا تحصى من صنهاجة وجزولة والمصادمة. ففتح جبال فازاز وسائر بلاد زناتة وفتح مداشن مكناسة ثم نزل على مدينة لوانة فحاصرها حتى اقتحمتها عنوة بالسيف وقتل بها خلقاً كثيراً منبني يفرن وخربيها فلم تعمر بعد إلى الآن.

وكان تخربيه إليها في آخر يوم من ربيع الثاني من السنة المذكورة ثم رجع إلى مدينة أغمات.

عود أبي بكر بن عمر إلى بلاد الصحراء والسبب في ذلك

كان الأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني قد تزوج زينب بنت إسحاق التفزاوية وكانت بارعة الجمال والحسن كما قلنا وكانت مع ذلك حازمة لبية ذات عقل رصين ورأي متين ومعرفة بإدارة الأمور حتى كان يقال لها الساحرة، فأقام الأمير أبو بكر عندها بأغمات نحو ثلاثة أشهر، ثم ورد عليه رسول من بلاد القبلة فأخبره باختلال أمر الصحراء، ووقوع الخلاف بين أهلها.

وكان الأمير أبو بكر رجلاً متورعاً فعظم عليه أن يقتل المسلمين بعضهم بعضاً، وهو قادر على كفهم، ولم ير أنه في سعة من ذلك وهو متولي أمرهم ومسؤول عنهم، فعزم على الخروج إلى بلاد الصحراء ليصلح أمرها، ويقيم رسم الجهاد بها.

ولما عزم على السفر طلق امرأته زينب وقال لها عند فراقه إليها: «يا

زينب إني ذاهب إلى الصحراء وأنت امرأة جميلة بضعة لا طاقة لك على حرارتها! وإنني مطلقك، فإذا انقضت عدتك فانكحي ابن عمي يوسف بن تاشفين فهو خليفتني على بلاد المغرب!» فطلقها، ثم سافر عن أغمات وجعل طريقه على بلاد تادلا، حتى أتى سجلamasة فدخلها وأقام بها أياماً حتى أصلح أحوالها ثم سافر إلى الصحراء.

ونقل ابن خلكان عن كتاب «المغرب عن سيرة ملوك المغرب» في سبب رجوع الأمير أبي بكر بن عمر إلى الصحراء ما مثاله قال: «كان أبو بكر بن عمر رجلاً ساذجاً خير الطباع مؤثراً لبلاده على بلاد المغرب غير مبال إلى الرفاهية. وكانت ولاة المغرب من زناتة ضعفاء لم يقاوموا الملشين فأخذنوا البلاد من أيديهم من باب تلمسان إلى ساحل البحر المحيط. فلما حصلت البلاد لأبي بكر بن عمر سمع أن عجوزاً في الصحراء ذهبت لها ناقة في غداة فبكى وقالت: ضيعنا أبو بكر بن عمر بدخوله إلى بلاد المغرب! فحمله ذلك على أن استخلف على بلاد المغرب رجلاً من أصحابه اسمه يوسف بن تاشفين! ورجع إلى بلاده الجنوبية!» اهـ.

وكان سفر أبي بكر بن عمر إلى الصحراء في ذي القعدة سنة ثلاثة وخمسين وأربعين، ولما وصل إليها أصلح شأنها ورتب أحوالها وجمع جيشاً كثيفاً وغزا به بلاد السودان فاستولى منها على نحو تسعين مرحلة.

وكان يوسف بن تاشفين قد استفحلاً أمره أيضاً بال المغرب، واستولى على أكثر بلاده. فلما سمع الأمير أبو بكر بن عمر بما آك إليه أمر يوسف بن تاشفين وما منحه الله من النصر أقبل من الصحراء ليختبر أحواله. ويقال إنه كان مضمراً لعزله وتوليه غيره. فأحسن يوسف بذلك فشاور زوجته زينب بنت إسحاق - وكان قد تزوجها بعد أبي بكر بن عمر - فقالت له: «إن ابن عمك متورع عن سفك الدماء. فإذا لقيته فاترك ما كان يعهده منك من الأدب والتواضع معه! وأظهر أثر الترفع والاستبداد حتى كأنك مساو له، ثم لاطقه مع ذلك بالهدايا من الأموال والخلع وسائر طرف المغرب واستكثر من ذلك،

فإنه بأرض صحراء كل ما جلب إليه من هنا فهو مستطرف لديه».

فلما قرب أبو بكر بن عمر من أعمال المغرب خرج إليه يوسف بن تاشفين فلقيه على بعد، وسلم عليه وهو راكب سلاماً مختصراً. ولم ينزل له ولا تأدب معه الأدب المعتاد! فنظر أبو بكر إلى كثرة جيوشه فقال له: «يا يوسف ما تصنع بهذه الجيوش؟» قال: «أستعين بها على من خالفني!» فارتبا أبو بكر به ثم نظر إلى ألف بعير قد أقبلت متوجهة فقال: «ما هذه الإبل المتوجهة؟» قال: «أيها الأمير إني قد جئتكم بكل ما معى من مال وأثاث وطعام وإدام لستعين به على بلاد الصحراء!» فازداد أبو بكر تعرضاً من حاله وعلم أنه لا يتخلى له عن الأمر فقال له يا بن عم: «انزل أوصيك» فنزلوا معاً وجلسا فقال أبو بكر: «إني قد وليتكم هذا الأمر وإنني مسؤول عنه فاتق الله تعالى في المسلمين وأعتقني وأعتق نفسك من النار ولا تضيع من أمور رعيتك شيئاً فإنك مسؤول عنه. والله تعالى يصلاحك ويمدك ويوفقك للعمل الصالح والعدل في رعيتك وهو خليفتي عليك وعليهم» ثم ودعه وانصرف إلى الصحراء فأقام بها مواطناً على الجهاد في كفار السودان إلى أن استشهد من سهم مسموم أصابه في شعبان سنة ثمانين وأربعين بعد أن استقام له أمر الصحراء كافة إلى جبال الذهب من بلاد السودان والله غالب على أمره.

الخبر عن دولة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتوني

لما عزم الأمير أبو بكر بن عمر على السفر إلى بلاد الصحراء دعا ابن عممه يوسف بن تاشفين بن إبراهيم اللمتوني، فعقد له على بلاد المغرب وفوض إليه أمره وأمره بالرجوع إلى قتال من به من مغراوة وبني يفرن وسائر زناته والبربر. واتفق على تقديميه أشيخ المرابطين لما يعلموه من فضله ودينه

وشجاعته ونجدته وعدله وورعه وسداد رأيه ويمن نقيبته. فعاد يوسف من سجلماسة بنصف جيش المرابطين بعد ارتحال أبي بكر بن عمر بالنصف الآخر وذلك في ذي القعدة سنة ثلاثة وخمسين وأربعين.

ولما انتهى يوسف بن تاشفين إلى ملوية ميز جيوشه فوجدها أربعين ألفاً من المرابطين فاختار منهم أربعة من القواد وهم سير بن أبي بكر المتنوبي، ومحمد بن نعيم الكدالي، وعمر بن سليمان المسوفي، ومدرك التلکاني، وعقد لكل قائد منهم على خمسة آلاف من قبيلته وجعلهم مقدمة بين يديه لقتال من بالغرب من مغراوة وبني يفرن وسائر قبائل البربر القائمين به. ثم سار هو في أثرهم يتقرى المغرب يبدأ بذلك ويتبع أهله قبيلة قبيلة، فقوم يقاتلونه ثم يظفر بهم، وقوم يفرون بين يديه، وقوم يلقون إليه المسلم ويبدلون الطاعة حتى دوخ بلاد المغرب. ثم سار حتى دخل مدينة أغمات. ولما استقر بها تزوج زينب بنت إسحاق النفزاوية - التي كانت تحت أبي بكر بن عمر - فكانت عنوان سعاده، والقائمة بملكه، والمديرة لأمره، والفاتحة عليه بحسن سياستها لأكثر بلاد المغرب، ومن ذلك إشارتها عليه في أمر أبي بكر بن عمر وكيفية ملاقاته حسبما ذكرناه آنفاً. وهكذا كان أمرها في كل ما تحاوله رحمة الله.

ومما يستطاب من حديثها ما حكاه ابن الأثير في كتابه وقد تكلم على يوسف بن تاشفين هذا فقال: «كان حسن السيرة خيراً عادلاً يميل إلى أهل العلم والدين يكرمهم ويحكمهم في بلاده، ويصدر عن رأيهم، وكان يحب العفو والصفح عن الذنوب العظام، من ذلك أن ثلاثة نفر اجتمعوا فتمنى أحدهم ألف دينار يتجر بها، وتمنى الآخر عملاً يعمل فيه لأمير المسلمين، وتمنى الآخر زوجته - وكانت من أحسن النساء ولها الحكم في بلاده - فبلغه الخبر فأحضرهم وأعطى متمني المال ألف دينار، واستعمل الآخر وقال للذى تمنى زوجته: «يا جاهل! ما حملك على هذا الذي لا

تصل إلـيـه؟» ثم أرسـلـه إلـيـ زوجـته فـتـركـته فـي خـيـمة ثـلـاثـة آيـامـ، ثـمـ أـمـرـتـ بـأـنـ يـحـمـلـ إـلـيـهـ فـيـ كـلـ يـوـمـ طـعـامـ وـاـحـدـ ثـمـ أـخـضـرـتـ وـقـالـتـ لـهـ: «ـمـاـ أـكـلـتـ فـيـ هـذـهـ ثـلـاثـةـ آيـامـ؟» قـالـ: «ـطـعـامـاـ وـاـحـدـاـ» فـقـالـتـ لـهـ: «ـكـلـ النـسـاءـ شـيـءـ وـاـحـدـاـ» وـأـمـرـتـ لـهـ بـمـالـ وـكـسـوةـ وـسـرـحـتـ إـلـيـ حـالـ سـبـيلـهـ وـكـانـتـ وـفـاتـهاـ سـنـةـ أـرـبعـ وـسـتـينـ وـأـرـبـعـمـائـةـ.

بناء مدينة مراكش

لـمـ دـخـلـتـ سـنـةـ أـرـبعـ وـخـمـسـيـنـ وـأـرـبـعـمـائـةـ كـانـ أـمـرـ يـوسـفـ بـنـ تـاشـفـينـ قـدـ استـفـحلـ بـالـمـغـرـبـ جـداـ وـرـسـخـتـ قـدـمـهـ فـيـ الـمـلـكـ وـعـظـمـ صـيـبـتـهـ فـسـمـتـ هـمـتـهـ إـلـيـ بـنـاءـ مـدـيـنـةـ يـأـوـيـ إـلـيـهـ بـحـشـمـهـ وـجـنـدـهـ، وـتـكـونـ حـصـنـاـ لـهـ وـلـأـرـيـابـ دـوـلـتـهـ فـاشـتـرـىـ مـوـضـعـ مـدـيـنـةـ مـرـاكـشـ مـمـنـ كـانـ يـمـلـكـهـ مـنـ الـمـصـاـمـدـةـ. وـقـالـ صـاحـبـ الـمـعـرـبـ: «ـكـانـ مـلـكـاـ لـعـجـوزـ مـنـهـمـ» ثـمـ نـزـلـ الـمـوـضـعـ الـمـذـكـورـ بـخـيـامـ الـشـعـرـ وـبـنـىـ مـسـجـدـاـ لـصـلـاتـهـ وـقـصـبـةـ صـغـيرـةـ لـاـخـتـرـانـ مـالـهـ وـسـلـاحـهـ وـلـمـ يـبـنـ عـلـىـ ذـلـكـ سـوـرـاـ». وـقـالـ أـبـوـ الـخـطـابـ بـنـ دـحـيـةـ فـيـ كـتـابـ التـبـرـاسـ: «ـإـنـ مـوـضـعـ مـدـيـنـةـ مـرـاكـشـ كـانـ مـزـرـعـةـ لـأـهـلـ نـفـيـسـ فـاشـتـرـاهـ يـوسـفـ مـنـهـمـ بـمـالـهـ الـذـيـ خـرـجـ بـهـ مـنـ الصـحـراءـ». وـفـيـ كـتـابـ الـمـعـرـبـ: «ـإـنـ يـوسـفـ بـنـ تـاشـفـينـ اـخـتـطـ مـدـيـنـةـ مـرـاكـشـ بـمـوـضـعـ كـانـ يـسـمـىـ بـذـلـكـ الـاسـمـ -ـ وـمـعـنـاهـ بـلـغـةـ الـمـصـاـمـدـةـ اـمـشـ مـسـرـعاـ -ـ وـكـانـ ذـلـكـ الـمـوـضـعـ مـكـمـنـاـ لـلـصـوـصـ فـكـانـ الـمـارـوـنـ فـيـ يـقـولـونـ لـرـفـقـائـهـمـ ذـلـكـ الـكـلـمـةـ فـعـرـفـ الـمـوـضـعـ بـهـاـ وـضـبـطـ هـذـهـ الـكـلـمـةـ بـضمـ الـمـيمـ وـفـتـحـ الرـاءـ المـشـدـدـةـ بـعـدـهـاـ أـلـفـ وـبـعـدـ الـأـلـفـ كـافـ مـكـسـوـرـةـ ثـمـ شـيـنـ مـعـجمـةـ^(١) وـيـقـالـ كـانـ فـيـ مـوـضـعـهـ قـرـيـةـ صـغـيرـةـ فـيـ غـابـةـ مـنـ الشـجـرـ وـبـهـاـ قـومـ مـنـ الـبـرـبرـ فـاـخـتـطـهـاـ يـوسـفـ وـبـنـىـ بـهـ القـصـورـ وـالـمـساـكـنـ الـأـثـيـقـةـ. وـهـيـ فـيـ مـرـجـ فـسـيـعـ وـحـولـهـ جـبـالـ عـلـىـ فـرـاسـخـ

(١) كـذـاـ ضـبـطـهـ صـاحـبـ كـشـفـ الـظـنـونـ الـإـمـامـ الـقـسـطـنـطـيـنـيـ رـحـمـهـ اللهـ.

منها، وبالقرب منها جبل لا يزال عليه الثلوج وهو الذي يعدل مزاجها وحرها».

وقال ابن خلدون: «اتخذ يوسف بن تاشفين مدينة مراكش لنزوله ونزول عسكره وللتعرس بقبائل المصامدة المقيمة بمواطنهم منها في جبل درن، إذ لم يكن في قبائل المغرب أشد منهم قوة ولا أكثر جمعاً» وفي القرطاس: «لما شرع يوسف بن تاشفين في بناء مسجد مراكش كان يحترم ويعمل في الطين والبناء بيده مع الخدمة توافضاً منه لله تعالى. قال: «والذي بناء يوسف من ذلك هو الموضع المعروف الآن بسور الحجر من مدينة مراكش جوفاً من جامع الكتبيين منها، ويعرف اليوم بالسجينة». ولم يكن بالموضع ماء فحفر الناس آباراً ظهر لهم الماء على قرب فاستوطنوا وبنوا بها» قالوا: ولم تزل مدينة مراكش لا سور لها إلى أن توفي يوسف بن تاشفين رحمة الله وولي بعده ابنه علي بن يوسف ومضى معظم دولته، فأدار عليها السور ستة ست وعشرين وخمسماة يقال كان ذلك بإشارة القاضي أبي الوليد محمد بن رشد الفقيه المشهور. فإنه كان قد قدم على السلطان بمراكش فأشار عليه بذلك عندما نبغ محمد بن تومرت مهدي الموحدين بجبال المصامدة.

وكانت مدة البناء ثمانية أشهر، وكان الانفاق على السور سبعين ألف دينار، وبنى علي بن يوسف أيضاً الجامع الأعظم المنسوب إليه اليوم والمنار الذي عليه وأنفق عليه ستين ألف دينار أخرى.

ورأيت في كتاب ابن عبد العظيم الأزمروري الموضوع في مناقببني أمغار رضي الله عنهم أن أمير المسلمين علي بن يوسف اللمتوني لما عزم على إدارة السور على مراكش شاور الفقهاء وأهل الخير في ذلك فمنهم من ثبطه، ومنهم من ندبه إليه، وكان من جملة من ندبه القاضي أبو الوليد بن رشد. ثم شاور أبي عبد الله محمد بن إسحاق المعروف بأمغار - صاحب حين

الفطر - فأشار ببنائه ويعث له من ماله الحال وأمره أن يجعله في صندوق صادر البناء ويتولى الإنفاق في ذلك رجل فاضل قبل السلطان إشارته وعمل برأيه فسهل الله أمر البناء.

ثم لما جاءت دولة الموحدين وكان منهم يعقوب المنصور الشهير الذكر اعتنى بمدينة مراكش واحتفل في تشييدها وبالغ في تنمية مساجدها وتنجيد مصانعها ومعاهدها على ما نذكر البعض منه في محله إن شاء الله .
ولم تزل مراكش دار مملكة المرابطين ثم الموحدين من بعدهم سائر أيامهم .

ثم لما جاءت دولة بني مرين من بعدهم اتخذوا كرسي مملكتهم بمدينة فاس وبنوا بها المدينة البيضاء .

ثم جاءت الدولة السعودية من بعدهم فنقلوا الكرسي إلى مراكش وبنوا بها قصر البديع المشهور .

ثم جاءت الدولة الشريفة العلوية فاتخذ المولى إسماعيل بن الشريف كرسي ملكه بمكتابة الزيتون ، واحتفل في بناها احتفالاً عظيماً على ما نذكره إن شاء الله .

ثم لما كانت دولة المولى محمد بن عبد الله رد كرسي الملك إلى مراكش وبنى بها قصوره ومصانعه واستمرت كرسياً لمملكتهم إلى الآن .

وفضل مراكش أشهر من أن يذكر لا سيما ما اشتهرت عليه من مزارات الأولياء ومدافن الصالحة الكبار والأئمة الآخيار، حتى قال الوزير ابن الخطيب في مقامات البلدان عند ذكره مدينة مراكش : «هي تربة الولي وحضررة الملك الأولى» وعبر عنها أبو العباس المقربي في نفح الطيب (بيغداد المغرب) حرسها الله وصانها من ريب الزمان، وطارق الحدثان .

فتح مدينة فاس وغيرها من سائر بلاد المغرب

وفي سنة أربع وخمسين وأربعين المذكورة جند يوسف بن تاشفين الأجناد، واستكثر القواد، وفتح كثيراً من البلاد، واتخذ الطبول والبنود، ورب العمال وكتب العهود، وجعل في جيشه الأغزاز^(١) والرماة كل ذلك إرهاباً لقبائل المغرب، فكم له من الجيش في تلك السنة أكثر من مائة ألف فارس من قبائل صنهاجة وجزلة والمصامدة وزناثة والأغزاز والرماة، فخرج بهم من حضرة مراكش قاصداً مدينة فاس فتلقته قبائلها من زواغة ولعماية ولواثة وصدينة وسدراته ومغيلة وبهلوله ومديونة وغيرهم في خلق عظيم، فقاتلوه فكانت بينه وبينهم ملاحم عظام انهزموا فيها من بين يديه، وانحصروا بمدينة صدينة فدخلتها عليهم بالسيف عنوة فهدم أسوارها، وقتل بها ما يزيد على أربعة آلاف.

ثم رحل إلى فاس فنازلها بعد أن فتح جميع أحوازها وذلك في آخر سنة أربع وخمسين وأربعين. وقال ابن خلدون: «إن يوسف بن تاشفين نازل أولاً قلعة فازاز وبها مهدي بن تولي اليعفشي - وبنو يحفش بطن من زناثة - وكان أبوه تولي صاحب تلك القلعة ووليها هو من بعده فنازله يوسف بن تاشفين ثم استجاش به على فاس مهدي بن يوسف الكزنائي صاحب مكناسة لأنه كان عدو المنصر المغراوي صاحب فاس فزحف في عساكر المرابطين إلى فاس وجمع إليه معنصر فقضى جموعه» أهـ والله أعلم.

ثم أقام يوسف على فاس أياماً ظفر بعاملها بكار بن إبراهيم فقتله وارتحل عنها إلى مدينة صفرو. فدخلتها من يومه عنوة، وقتل ملوكها أولاد

(١) الأغزاز جمع غز جنس من الترك كما في القاموس، وهم هنا قسم من جيش المرتزقة وقد عدتهم صاحب صبح الأعشى من جملة طوائف الأجناد انظر صحيفه 482 منه في الجزء الثالث المطبوع بالطبعية الأميرية بمصر سنة 1332 هـ.

مسعود بن واتودين المغراوي صاحب سجل ماسة وكافروا قد استولوا عليها.

ثم رجع يوسف إلى فاس فحاصرها حتى فتحها وهو الفتح الأول وذلك سنة خمس وخمسين وأربعين قاتل بها أياماً واستعمل عليها عاملأً من لمونة وخرج إلى بلاد غمارة ففتح الكثير منها حتى أشرف على طنجة وبها يومئذ الحاجب سكوت البرغواطي من مواليبني حمود.

ثم رجع إلى منازلة قلعة فازاز فخالقه بنو معنسر بن حماد المغراوي إلى فاس فدخلوها وقتلوا عامل يوسف الذي كان بها.

وكان مهدي بن يوسف الكزنائي - صاحب بلاد مكناسة - قد بايع يوسف بن تاشفين ودخل في طاعة المرابطين فأقره يوسف على عمله وأمره أن يخرج بين يديه بجيشه لفتح بلاد المغرب، فجمع مهدي بن يوسف جيشه وخرج من مدينة عوسجة يريد الاجتماع بيوسف بن تاشفين وهو محاصر لقلعة فازاز فسمع بذلك تميم بن معنسر المغراوي صاحب فاس فعالجه في أنجاد مغراوة وقبائل زناته وأدركه ببعض الطريق وناجهه الحرب فقضى جموعه وقتله، وبعث برأسه إلى الحاجب سكوت صاحب سبتة وطنجة.

ولما قتل مهدي بن يوسف بعث أهل مدائن مكناسة إلى ابن تاشفين بالخبر ويدلوا له الطاعة فملك بلادهم.

ثم توالت عساكر المرابطين على تميم بن معنسر بالغارات والنهب، واشتد عليه الحصار وعدمت الأقوات بفاس، فلما رأى ما نزل به من المرابطين جمع مغراوة ويني يفرن وخرج إليهم لإحدى الراحتين فكانت عليه الهزيمة، فقتل تميم وجماعة من عشيرته، وتقدم مكانه بفاس القاسم بن محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن موسى بن أبي العافية المكناسي، فجمع قبائل زناته وخرج بهم إلى المرابطين فالتقى معهم على وادي صيفير، فكانت بينهم حرب شديدة انهزم فيها المرابطون وقتل جماعة من فرسانهم.

واتصل الخبر بيوسف بن تاشفين وهو على قلعة فازاز فارتحل عنها

وخلف جيشاً من المرابطين لحصارها فأقاموا عليها سبع سنين ثم دخلوها صلحًا سنة خمس وستين وأربعين.

ولما رحل يوسف عن قلعة فازاز وذلك سنة ست وخمسين سار إلى بني مراسن - وأميرهم يومئذ يعلى بن يوسف - فغزاهم وقتل منهم خلق وفتح بلادهم. ثم سار إلى بلاد فندلاوة فغزاها وفتح جميع تلك الجهات. ثم سار منها إلى بلاد ورغة ففتحها وذلك في سنة ثمان وخمسين وأربعين.

وفي سنة ستين فتح جميع بلاد غماره وجبالها من الريف إلى طنجة.

وفي سنة الثتين وستين أقبل إلى فاس فنزل عليها بجميع جيشه بعد أن فرغ من جميع بلاد المغرب سوى سبتة، وشلد الحصار على فاس حتى دخلها عنوة بالسيف فقتل بها من مغراوة وبني يفرن ومكتابة وغيرهم خلقاً كثيراً حتى امتلأت أسواق المدينة وشوارعها بالقتلى وقتل منهم بجامع القرويين وجامع الأندلس ما يزيد على ثلاثة آلاف! وفر من يقي منهم إلى أحواز تلمسان. وهذا هو الفتح الثاني لمدينة فاس وكان يوم الخميس ثاني جمادي الآخرة سنة الثتين وستين وأربعين وفي هذا الخبر بعض مخالفة لـ «فَرَّتْكُمْ أَطْمَمْ يَمْنَ هُوَ أَهْدَى سِيلَا» [الإسراء: ٨٤].

فلما دخل يوسف بن تاشفين مدينة فاس أمر بهدم الأسوار التي كانت فاصلة بين المدينتين عدوة القرويين وعدوه الأندلس وصيرهما مصرًا واحدًا وحصنها وأمر ببناء المساجد في شوارعها وأزقتها وأي زقاق لم يوجد فيه مسجداً عاقب أهله وأمر ببناء الحمامات والفنادق والأرحام وأصلاح بناءها وترتيب أسواقها وأقام بها إلى صفر من سنة ثلاث وستين وأربعين ثم خرج إلى بلاد ملوية ففتح حضون وطاط.

وفي سنة أربع وستين بعدها استدعي يوسف أمراء المغرب وأشياخ القبائل من زناته وغمارة والمصامدة وسائر قبائل البربر فقدموا عليه وبايعوه

وكساهم ووصلهم بالأموال ثم خرج للطوفاف على أعمال المغرب وتفقد أحوال الرعية والنظر في سيرة ولاته وعماله فيها - وهم في صحبته - فصلح على يده الكثير من أمور الناس .

وفي سنة خمس وستين بعدها غزا يوسف مدينة الدمنة من بلاد طنجة فدخلها عنوة وفتح جبل علودان .

وفي سنة سبع وستين وأربعين فتح يوسف جبال غياثة وبني مكود وبني رهينة وقتل منهم خلقاً كثيراً . وفيها فرق عماله على بلاد المغرب فولى سير بن أبي بكر على مدائن مكناسة وببلاد مكلاتة وفازاز ، وولى عمر بن سليمان على فاس وأحوازها ، وداود بن عائشة على سجلamasة ودرعة ، وولى ابنه تميم بن يوسف على مدينة مراكش وأغمات وببلاد السوس والمصامدة وتادلا وقاصينا ، وصفا ملك المغرب ليوسف بن تاشفين سوى سبتة وطنجة وكان من خبرهما ما نذكره .

فتح سبتة^(١) وطنجة وما ترتب عليه من جهاد بالأندلس

كانت سبتة وطنجة لبني حمود الإدريسيين من لدن دولة الأمويين . ولما انقرضت دولتهم وخلفهم بنو حمود المذكورون بها استنابوا على سبتة وطنجة من وثقوا به من موالיהם الصقالبة ولم يزل أمر المدينتين إلى نظر هؤلاء النواب واحداً بعد واحد إلى أن استقل بهما الحاجب سكوت البرغواطي .

وكان عبداً لشيخ حداد من موالى الحمويين اشتراه من سبي برغواطة في بعض أيام جهادهم ، ثم صار إلى علي بن حمود فأخذت النجابة بضمبهيه إلى أن استقل بالأمر واقتعد كرسي عملهم بطنجة وسبتاً ، وأطاعته قبائل غمارة ، واتصلت أيام ولايته إلى أن كانت دولة المرابطين وتغلب يوسف بن

(١) لم يذكر المؤلف داخل هذه الترجمة فتح سبتة وساقه في الترجمة الموالية لها .

تاشفين على بلاد المغرب، ونازل بلاد غمارة فدعا الحاجب سكوت إلى مظاهرته عليهم، فهم بالأجلاب معه ومظاهرته على عدوه ثم ثناه عن ذلك ابنه الفائق الرأي.

فلما فرغ يوسف بن تاشفين من أهل الدمنة وانقاد المغرب لطاعته صرف عزمه إلى الحاجب سكوت.

وكان المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية قد كتب إلى يوسف بن تاشفين يستدعيه للحوز برسم الجهاد ونصر البلاد فأجابه يوسف بقوله: «لا يمكنني ذلك إلا إذا ملكت طنجة وبسبتها» فراجعه ابن عباد يشير عليه بأن يسير هو إليها بعساكره في البر فینازلها ويبعث ابن عباد قطائعه في البحر فینازلوها أيضاً حتى يتملكها. فأخذ يوسف في محاولة ذلك وصرف عزمه إليه، ثم دخلت سنة سبعين وأربعين ألفاً من سائر قبائل المغرب فلما قربوا من طنجة برب إليهم الحاجب سكوت بج逐عه - وهو شيخ كبير قد ناهز التسعين سنة - وقال: «والله لا يسمع أهل سبعة طبول اللمتوني وأنا حي أبداً» فالتحق الجمعان بوادي مني من أحواز طنجة والتحم القتال فقتل سكوت وفضت جموعه وسار المرابطون إلى طنجة فدخلوها واستولوا عليها.

ولحق ضياء الدولة يحيى بن سكوت بسبتها فاعتتصم بها وكتب القائد صالح بن عمران بالفتح إلى يوسف.

وفي سنة التسعين وسبعين وأربعين ألفاً من يوسف بن تاشفين قائد مزدلي بن تيلكان اللمتوني لغزو تلمسان والمغرب الأوسط فسار إليها في عشرين ألفاً من المرابطين. وكان بتلمسان يومئذ العباس بن بختي^(١) من ولد

(١) الذي في النسخة الصحيحة من ابن خلدون المطبوعة بالجزائر سنة 1847 ميلادية في صحيفـة 242 من الجزء الأول أنه يحيى بالياء والفاء المهملة.

يعلى بن محمد بن الخير بن محمد بن خزر المغراوي فدخلوا المغرب الأوسط وتقرروا بلاد زناتة وظفروا بيعلى ابن الأمير العباس بن بختي فقتلوا وانكفووا راجعين إلى يوسف بن تاشفين فألفوه بمراكش ثم دخلت سنة ثلاثة وسبعين فيها غير يوسف بن تاشفين السكة في جميع عمله وكتب عليها اسمه . وفيها فتح مدينة آكرسيف ومدينة مليلية وجميع بلاد الريف وفتح مدينة نكور وخرابها فلم تعمر بعد .

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وأربعين سبتة يوسف بن تاشفين إلى مدينة وجدة ففتحها وفتح بلادبني بزناسن وما والاها . ثم سار إلى تلمسان ففتحها واستلحمن من كان بها من مغراوة وقتل أميرها العباس بن بختي المغراوي ، وأنزل بها عامله محمد بن تينغمر المسؤول في عساكر المرابطين فصارت ثغرأً لمملكته ، واحتضن بها مدينة تاكرارت بمكان محلته - وهو اسم المحلة بلسان البربر - ثم افتتح مدينة تنس ووهران وجبل وانشريس وجميع أعمال شلف إلى الجزائر وانكفاءً راجعاً إلى المغرب فدخل مراكش في ربيع الآخر سنة خمس وسبعين وأربعين .

ثم ورد عليه بها كتاب المعتمد بن عباد يعلمه بحال بلاد الأندلس وما آلت إليه أمرها من تغلب العدو على أكثر ثغورها ويسأله النصر والإعانة فأجابه يوسف بقوله : «إذا فتح الله على سبتة اتصلت بكم وبذلك جهدي في جهاد العدو» وكان الفتنش قد تحرك في هذه السنة في جيوش لا تحصى من الإفرنج والبسكتنس والجلالقة وغيرهم فشق بلاد الأندلس شقاً يقف على كل مدينة منها فيفسد ويخرب ويقتل ويسيء ثم يرتحل إلى غيرها ونزل على إشبيلية فقام عليها ثلاثة أيام فأفسد وخرب وكذلك فعل في شدونة وأحوازها ، وخرب بشرق الأندلس قرى كثيرة ثم صار حتى وصل جزيرة طريف فأدخل قوائمه فرسه في البحر وقال : «هذا آخر بلاد الأندلس قد وطنته» ثم رجع إلى مدينة سرقسطة فنزل عليها وحاصرها وحلف أن لا

يرتحل عنها حتى يدخلها أو يحول الموت دونها، وأراد أن يقدمها بالفتح على غيرها فبدل إليه أميرها المستعين بن هود ملاً عظيماً فلم يقبله منه وقال: «المال والبلاد لي!» وبعث إلى كل قاعدة من قواعد الأندلس جيشاً لحصارها والتضييق عليها ثم ملك مدينة طليطلة من يد صاحبها القادر بن ذي النون سنة سبع وسبعين وأربعين، فكان ذلك من أقوى الأسباب المحركة لعزائم المسلمين بالأندلس والمغرب على الجهاد.

الخبر عن الغزوة الكبرى بالزلقة من أرض الأندلس

لما اقرضت دولة بني أمية بالأندلس صدر المائة الخامسة بعد نزاع بين أعياصها شديد، وقتل منهم عريض مديد، وخلفتها الدولة الحموية فلم يطل أمدها حتى اقتسمت رؤساء الأندلس مملكتها، وتوزعوا أعمالها وصارت الحال إلى ما قال ابن الخطيب:

حتى إذا سلك الخلافة انتشر
ذهب العين جميراً والأثر
قام بكل بقعة مليك! وصاح فوق كل غصن ديك!

فوجد العدو السبيل إلى الاستيلاء على ثغور المسلمين، وانتهاز الفرصة فيها بالتضليل بين ملوكها وإغراء بعضهم بعض، وكان منهم ابن عباد بإشبيلية، وابن الأقطس ببسطليوس؛ وابن ذي النون بطليطلة؛ وابن هود بسرقسطة، ومجاهد العامري بدانية؛ وغير هؤلاء وكلهم يداري الطاغية ويتقيه بالجزية إلى أن كان من أمر الأذفونش ما كان من تخريب بلاد المسلمين، واستيلائه على طليطلة بعد حصاره إليها سبع سنين، ثم حصاره سرقسطة.

فلما رأى رؤساء الأندلس ما نزل بهم من مضائق عدو الدين،
 واستطالته على ثغور المسلمين، أجمع رأيهم على إجازة يوسف بن تاشفين
 فكتبه أهل الأندلس كافة من الخاصة والعلماء يستصرخونه في تنفيض العدو
 عن مختناتهم، ويكونوا معه يداً واحدة عليه.

فلما تواترت رسليهم وكتبهم عليه بعث ابنه المعز بن يوسف في عساكر المرابطين إلى سبتة فرضاً المجاز فنازلها بزأ وأحاطت بها أساطيل ابن عباد بحراً فاقتضمها عنوة في ربيع الآخر سنة سبع وسبعين وأربعين وسبعيناً وقبض على صاحبها ضياء الدولة يحيى بن سكوت البرغواطي وجيء به إلى المعز أسريراً فقتله صبراً، وبعث بكتاب الفتح إلى أبيه وهو يفاس ينظر في أمر الجهاد ويستعد له، ففرح يوسف بفتح سبتة وخرج من حينه قاصداً نحوها ليعبر منها إلى الأندلس.

ولما سمع المعتمد ابن عباد بفتح سبتة ركب البحر إلى المغرب لاستنفار يوسف إلى الجهاد، فلقيه مقلباً ببلاد طنجة بموضع يعرف ببلطة على ثلاث مراحل من سبتة، وقال ابن خلدون: «لقيه بفاس، فأخبره بحال الأندلس وما هي عليه من الضعف وشدة الخوف والاضطراب، وما يلقاه المسلمون من عدوهم من القتل والأسر والحاصر كل يوم». فقال له يوسف: «ارجع إلى بلادك وخذ في أمرك فاني على أثرك» فرجع ابن عباد إلى الأندلس ونزل ليوسف عن الجزيرة الخضراء لتكون رباطاً لجهاده، ودخل يوسف سبتة فنظر في أمرها وأصلاح سفنها، وقدمت عليه بها جنود الله من المغرب والصحراء والقبة والزاب، فشرع في إجازتها إلى الأندلس.

ولما تكاملت بساحل الخضراء عبر هو في أثرها في موكب عظيم من قواد المرابطين وأنجادهم وصلحائهم، فلما استوى على ظهر السفينة رفع يديه وقال: «اللهم إن كنت تعلم أن في جوازنا هذا صلاحاً لل المسلمين فسهل علينا هذا البحر حتى نعبره وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا نعبره» فسهل الله عليهم العبور في أسرع وقت. وكان ذلك يوم الخميس عند الزوال، متتصف ربيع الأول سنة تسع وسبعين وأربعين، ونزل بالخضراء فصلى بها الظهر من يومه ذلك ولقيه المعتمد ابن عباد صاحب إشبيلية وابن الأقطس صاحب بطليوس وغيرهما من ملوك الأندلس.

وانتصل الخبر بالأذفونش وهو محاصر لسرقسطة فارتاحل عنها وقصد نحو أمير المسلمين، ويبعث إلى ابن ردمير والبرهانس وغيرهما من كبار النصرانية، واستنفر أهل قشتالة وجليقية وسائر المجاورين له من أمم النصرانية، فاجتمع له منهم ما يفوت الحصر وصمد إلى ابن تاشفينين والمسلمين. هكذا وقع مساق هذه الغزوة عند ابن خلدون وابن أبي زرع وغيرهما.

وساقها ابن الأثير وابن خلkan وابن عبد المنعم الحميري مساقاً غير هذا. ولنذكر بعض ما نقلوه من ذلك فنقول: لما ملك يوسف بن تاشفين المغرب وبنى مراكش وتلمسان الجديدة، وأطاعته البربر مع شكيمتها الشديدة، وتمهدت له الأقطار العريضة المديدة، تاقت نفسه إلى العبور لجزيرة الأندلس فهم بذلك وأخذ في إنشاء السفن والمراكب ليعبر فيها، فلما علم بذلك ملوك الأندلس كرهوا إمامه بجزرتهم، وأعدوا له العدة والعدد إلا أنهم استهولوا جمعه واستصعبوا مدافعته، وكرهوا أن يصبحوا بين عدوين الفرنج عن شمالهم، والملثمين عن جنوبهم. وكانت الفرنج قد اشتدت وطأتها عليهم فتغير وتنهب وربما يقع بينهم صلح على شيء معلوم كل سنة يأخذونه من المسلمين، والفرنج مع ذلك ترهب جانب ملك المغرب يوسف بن تاشفين إذ كان له اسم كبير وصيت عظيم، لتفاذ أمره ونقله دولة زناتة وملك المغرب إليه في أسرع وقت، مع ما ظهر لأبطال الملثمين ومشايخ صنهاجة في المعارك من ضربات السيف التي تقد الفارس، والطعنات التي تنظم الكل، فكان لهم بذلك تاموس ورعب في قلوب المتدلين لقتالهم.

وكان ملوك الأندلس يغيثون إلى ظلم يوسف ويحدرونه خوفاً على ملكهم مهما عبر إليهم وعاين بلادهم، فلما رأوا عزيمته متوفرة على العبور راسل بعضهم بعضاً يستنجدون آراءهم في أمره، وكان فزعهم في ذلك إلى المعتمد ابن عباد لأنه أشجع القوم وأكبرهم مملكة، فوقع اتفاقهم على مكاتبه - وقد تحققاً أنه يقصدهم - يسألونه الإعراض عنهم وأنهم تحت

طاعته، فكتب عنهم كاتب من أهل الأندلس يقول:

«أما بعد فإنك إن أعرضت عنا نسبت إلى كرم ولم تنسب إلى عجز، وإن أجبينا داعيك نسبنا إلى عقل ولم تنسب إلى وهن، وقد اخترنا لأنفسنا أجمل نسبتنا فاختر لنفسك أكرم نسبتك! فإنك بال محل الذي لا يجوز أن نسبق فيه إلى مكرمة! وإن في استبقائك ذوي البيوت ما شئت من دوام لأمرك وثبوتك! والسلام..» فوصله الكتاب مع تحف وهدايا - وكان يوسف لا يعرف اللسان العربي لكنه كان ذكي الطبع يجيد فهم المقاصد - وكان له كاتب يعرف اللغتين العربية والمرابطية فقال له: «أيها الملك هذا الكتاب من ملوك الأندلس يعظمونك فيه ويعزونك أنهم أهل دعوتك وتحت طاعتك ويلتمسون منك أن لا يجعلهم في منزلة الأعداء فإنهم مسلمون! وهم من ذوي البيوتات فلا تغير بهم وكف بهم من ورائهم من الأعداء الكفار، ويلدهم ضيق لا يحتمل العساكر، فأعرض عنهم إعراضك عن أطاعك من أهل المغرب» فقال يوسف بن تاشفين لكاتبته: «فما ترى أنت؟» فقال: «أيها الملك أعلم أن تاج الملك وبهجهته وشاهده الذي لا يرد بأنه خليق بما حصل في يده من الملك أن يعفو إذا استعنني وأن يهب إذا استوهب وكلما وهب جزيلاً كان أعظم لقدره! فإذا عظم قدره تأصل ملكه وإذا تأصل ملكه تشرف الناس بطاعته! وإذا كانت طاعته شرفاً جاءه الناس ولم يتجرش المشقة إليهم! وكان وارث الملك من غير إهلاك لآخرته! وأعلم أن بعض الملوك الأكبر والحكماء البصراء بطريق تحصيل الملك قال: «من جاد ساد، ومن ساد قاد، ومن قاد ملك البلاد،!» فلما ألقى الكاتب هذا الكلام على السلطان يوسف فهمه وعلم صحته، فقال للكاتب: «أجب القوم واكتب بما يعجب في ذلك واقرأ علينا كتابك» فكتب الكاتب: «بسم الله الرحمن الرحيم من يوسف بن تاشفين سلام عليكم ورحمة الله وبركاته. تحية من سالموكم وسلم إليكم وحكمه التأييد والنصر فيمن حكم عليكم، وإنكم مما بأيديكم من الملك في أوسع إباحة، مخصوصون منا بأكرم إيشار وسماحة! فاستديموا وفعلنَا بوفائقكم، واستصلحوا آخائنا بصلاح آخائكم! والله ولـي التوفيق لنا لكم

والسلام». فلما فرغ من كتابه قرأه على يوسف بن تاشفين بلسنه فاستحسنـه، وقرنـ به ما يصلحـ لهم من التحفـ ودـرـقـ الـلمـطـ مما لا يـكونـ إلاـ فيـ بلـادـهـ، وأـنـفـذـ ذـلـكـ إـلـيـهـمـ، فـلـمـ وـصـلـهـمـ ذـلـكـ وـقـرـؤـواـ كـتـابـهـ فـرـحـواـ بـهـ وـعـظـمـوـهـ وـاعـتـزـواـ بـولـايـتهـ، وـتـقـوتـ نـفـوسـهـمـ عـلـىـ دـفـعـ الفـرنـجـ، وـأـزـمـعـواـ إـنـ رـأـواـ مـاـ فـرـنجـ مـاـ يـرـبـيـهـمـ أـنـ يـجـيـزـواـ إـلـيـهـ يـوـسـفـ بـنـ تـاـشـفـينـ، وـيـكـوـنـواـ مـنـ أـعـوـانـهـ عـلـيـهـ، فـتـائـىـ لـيـوـسـفـ بـنـ تـاـشـفـينـ بـرـأـيـ وـزـيـرـهـ مـاـ أـرـادـ مـنـ مـحـبـةـ أـهـلـ الـأـنـدـلـسـ لـهـ وـكـفـاهـ حـرـبـهـ.

وقـالـ ابنـ الأـثـيرـ فـيـ الـكـامـلـ: «كـانـ الـمـعـتـمـدـ اـبـنـ عـبـادـ أـعـظـمـ مـلـوكـ الـأـنـدـلـسـ وـمـمـتـلـكـاـ لـأـكـبـرـ بـلـادـهـ مـثـلـ قـرـطـبـةـ وـإـشـبـيلـيـةـ، وـكـانـ مـعـ ذـلـكـ يـؤـديـ الضـرـبـةـ إـلـىـ الـأـذـفـونـشـ كـلـ سـنـةـ فـلـمـ تـمـلـكـ الـأـذـفـونـشـ طـلـيـطـلـةـ أـرـسـلـ إـلـيـهـ الـمـعـتـمـدـ الـضـرـبـةـ عـلـىـ عـادـتـهـ، فـرـدـهـاـ عـلـيـهـ، فـرـدـهـاـ عـلـيـهـ وـلـمـ يـقـبـلـهـ مـنـهـ، ثـمـ أـرـسـلـ إـلـيـهـ يـتـهـدـهـ وـيـتـرـعـدـ بـالـمـسـيـرـ إـلـىـ قـرـطـبـةـ وـتـمـلـكـهـ مـنـ يـدـهـ إـلـاـ أـنـ يـسـلـمـ إـلـيـهـ جـمـيعـ الـحـصـونـ الـتـيـ فـيـ الـجـبـلـ وـيـقـيـ السـهـلـ لـلـمـسـلـمـيـنـ. وـكـانـ الرـسـوـلـ فـيـ جـمـعـ كـثـيرـ نـحوـ خـمـسـمـائـةـ فـارـسـ، فـأـنـزلـهـ الـمـعـتـمـدـ وـفـرـقـ أـصـحـابـهـ عـلـىـ قـوـادـ عـسـكـرـهـ، ثـمـ أـمـرـ الـقـوـادـ أـنـ يـقـتـلـ كـلـ مـنـهـمـ مـنـ عـنـدـهـ، وـأـحـضـرـ الرـسـوـلـ فـصـفـعـهـ حـتـىـ بـرـزـتـ عـيـنـاهـ، وـسـلـمـ مـنـ الـجـمـاعـةـ ثـلـاثـةـ نـفـرـ فـعـادـوـ إـلـىـ الـأـذـفـونـشـ وـأـخـبـرـوـهـ الـخـبـرـ، وـكـانـ مـتـوجـهاـ إـلـىـ قـرـطـبـةـ لـيـحـاصـرـهـ، فـلـمـ بـلـغـهـ هـذـاـ الـخـبـرـ رـجـعـ إـلـىـ طـلـيـطـلـةـ لـيـجـمـعـ آـلـاتـ الـحـصـارـ وـيـسـتـعـداـدـاـ غـيـرـ الـذـيـ سـبـقـ. وـعـادـ الـمـعـتـمـدـ إـلـىـ إـشـبـيلـيـةـ وـأـقـامـ بـهـ وـتـرـكـ قـرـطـبـةـ بـدـونـ مـدـافـعـ يـدـافـعـ عـنـهـ.

وقـالـ ابنـ عـبـدـ الـمـنـعـمـ الـحـمـيرـيـ فـيـ كـتـابـ الـرـوـضـ الـمـعـطـارـ مـاـ مـلـخـصـهـ: «إـنـ الـمـعـتـمـدـ اـبـنـ عـبـادـ أـخـرـ فـيـ سـنـةـ مـنـ السـنـينـ الـضـرـبـةـ الـتـيـ كـانـ يـدـفعـهـ لـلـأـذـفـونـشـ عـنـ وـقـتهاـ، ثـمـ أـرـسـلـهـ إـلـيـهـ بـعـدـ، فـغـضـبـ الـأـذـفـونـشـ وـاشـتـطـ وـطـلـبـ بـعـضـ الـحـصـونـ زـيـادـةـ عـلـىـ الـضـرـبـةـ وـأـمـعـنـ فـيـ التـجـنـيـ، حـتـىـ طـلـبـ أـنـ تـأـتـيـ زـوـجـتـهـ إـلـىـ الـجـامـعـ الـأـعـظـمـ بـقـرـطـبـةـ فـتـلـدـ فـيـ إـذـ كـانـ حـامـلاـ، وـكـانـ بـالـجـانـبـ الـغـرـبـيـ مـنـ الـمـسـجـدـ الـمـذـكـورـ مـوـضـعـ كـنـيـسـةـ قـدـيمـةـ بـنـيـ الـمـسـلـمـوـنـ عـلـيـهـ الـمـسـجـدـ فـأـشـارـ عـلـيـهـ الـأـطـيـاءـ وـالـقـسـيسـوـنـ أـنـ تـكـوـنـ زـوـجـتـهـ سـاـكـنـةـ قـرـبـ وـلـادـتـهـ».

بمدينة الزهراء التي بناها عبد الرحمن الناصر لدين الله وأبدع في تشييدها وتنجیدها؛ وتتردد المرأة مع ذلك إلى الجامع المذكور حتى تكون ولادتها بين طيب نسميم الزهراء وفضيلة موضع الكنيسة وكان الرسول في ذلك يهودياً وكان وزيراً للأذفونش، فامتنع ابن عباد من ذلك فراجعه اليهودي وأغاظ له في القول ولسعه بكلمة آسفته! فأخذ ابن عباد محبرة كانت بين يديه وضرب بها رأس اليهودي فأنزـل دماغـه في حلقـه وأمر به فصلـب منكوسـاً بقـرطـبة!

ولما سـكن غضـبـه استـفـتـى الفـقهـاء عن حـكـمـ ما فـعـلـهـ بـالـيهـودـيـ، فـبـادـرـهـ الفـقيـهـ مـحـمـدـ بنـ الطـلـاعـ بـالـرـخـصـةـ فـيـ ذـلـكـ لـتـعـدـيـ الرـسـوـلـ حدـودـ الرـسـالـةـ إـلـىـ ماـ اـسـتـوـجـبـ بـهـ القـتـلـ إـذـ لـيـسـ لـهـ ذـلـكـ!ـ وـقـالـ لـلـفـقـهـاءـ:ـ إـنـمـاـ بـادـرـتـ بـالـفـتوـيـ خـوفـاـ أـنـ يـكـسـلـ الرـجـلـ عـزـمـ عـلـيـهـ مـنـ مـنـابـةـ الـعـدـوـ،ـ وـعـسـىـ اللـهـ أـنـ يـجـعـلـ فـيـ عـزـيمـتـهـ لـلـمـسـلـمـينـ خـيرـاـ!ـ

وـبـلـغـ الأـذـفـونـشـ مـاـ صـنـعـهـ اـبـنـ عـبـادـ،ـ فـأـقـسـمـ بـأـلـهـتـهـ لـيـغـزـونـهـ بـإـشـبـيلـيةـ وـلـيـحـاصـرـهـ فـيـ قـصـرـهـ،ـ ثـمـ زـحـفـ فـيـ عـسـكـرـيـنـ أـحـدـهـماـ عـلـيـهـ وـالـآـخـرـ عـلـىـ بـعـضـ قـوـادـهـ حـتـىـ نـزـلـ عـلـىـ ضـفـةـ النـهـرـ الـأـعـظـمـ بـإـشـبـيلـيةـ قـبـالـةـ قـصـرـ اـبـنـ عـبـادـ وـفـيـ أـيـامـ مـقـامـهـ هـنـالـكـ كـتـبـ إـلـىـ اـبـنـ عـبـادـ زـارـيـاـ عـلـيـهـ:ـ «ـكـثـرـ بـطـولـ مـقـامـيـ فـيـ مـجـلـسـيـ هـذـاـ عـلـيـ الذـيـبـابـ،ـ وـاشـتـدـ الـحرـ فـأـتـحـفـنـيـ مـنـ قـصـرـكـ بـمـرـوـحةـ أـرـوـحـ بـهـاـ عـلـىـ نـفـسـيـ وـأـطـرـدـ بـهـاـ الذـيـبـابـ عـنـ وـجـهـيـ!ـ»ـ فـوـقـعـ لـهـ اـبـنـ عـبـادـ بـخـطـ يـدـهـ فـيـ ظـهـرـ الرـقـعـةـ:ـ «ـقـرـأـتـ كـتـابـكـ وـفـهـمـتـ خـيـلـاءـكـ وـإـعـجـابـكـ وـسـأـنـظـرـ لـكـ فـيـ مـرـاـوحـ مـنـ جـلـودـ الـلـمـطـ تـرـوـحـ مـنـكـ لـاـ عـلـيـكـ إـنـ شـاءـ اللـهـ!ـ»ـ فـلـمـ وـصـلـتـ رـسـالـةـ اـبـنـ عـبـادـ الأـذـفـونـشـ وـقـرـئـتـ عـلـيـهـ وـفـهـمـ مـقـضـاهـاـ أـطـرـاقـ إـطـرـاقـ مـنـ لـمـ يـخـطـ لـهـ ذـلـكـ بـيـالـ،ـ وـفـشـاـ فـيـ الـأـنـدـلـسـ تـوـقـيـعـ اـبـنـ عـبـادـ،ـ وـمـاـ أـظـهـرـ مـنـ العـزـيمـةـ عـلـىـ إـجـازـةـ يـوـسـفـ بـنـ تـاشـفـينـ وـالـاسـتـظـهـارـ بـهـ عـلـىـ الـعـدـوـ،ـ فـأـسـبـشـ النـاسـ وـفـرـحـواـ بـذـلـكـ،ـ وـانـفـتـحـتـ لـهـمـ أـبـوابـ الـأـمـالـ.

وـأـمـاـ مـلـوـكـ طـوـافـ الـأـنـدـلـسـ فـلـمـ تـحـقـقـواـ عـزـمـ اـبـنـ عـبـادـ وـانـفـرـادـهـ بـرأـيـهـ فـيـ ذـلـكـ اـهـتـمـواـ مـنـهـ،ـ فـمـنـهـمـ كـاتـبـهـ وـمـنـهـمـ شـافـهـهـ،ـ وـحـذـرـوـهـ عـاقـبـةـ ذـلـكـ وـقـالـواـ لـهـ:ـ «ـالـمـلـكـ عـقـيمـ!ـ وـالـسـيفـانـ لـاـ يـجـمـعـانـ فـيـ غـمـاـ!ـ»ـ فـأـجـابـهـمـ اـبـنـ عـبـادـ بـكـلـمـتـهـ

التي صارت مثلاً: «رعى الجمال خير من رعى الخنازير!» ومعناه أن كونه مأكولاً ليوسف بن تاشفين أسيراً يرعى جماله في الصحراء خير من كونه ممزقاً للأذفونش أسيراً له يرعى خنازيره وقال لمن لامه: «يا قوم إني من أمري على حاليين: حالة يقين، وحالة شك، ولا بد لي من إدحاهما، أما حالة الشك فإني إن استندت إلى ابن تاشفين، أو إلى الأذفونش، ففي الممكـن أن يـفيـ لي وبـقـىـ عـلـىـ وـفـائـهـ، وـيـمـكـنـ أـنـ لاـ يـفـعـلـ فـهـذـهـ حـالـةـ شـكـ. وأـمـاـ حـالـةـ الـيـقـيـنـ فإـنـيـ إـنـ استـنـدـتـ إـلـىـ اـبـنـ تـاـشـفـيـنـ فإـنـيـ أـرـضـيـ اللـهـ! وـإـنـ استـنـدـتـ إـلـىـ الأـذـفـونـشـ أـسـخـطـتـ اللـهـ! فـإـذـاـ كـانـتـ حـالـةـ الشـكـ فـيـهـماـ عـارـضـةـ، فـلـأـيـ شـيـءـ أـدـعـ ماـ يـرـضـيـ اللـهـ وـآتـيـ ماـ يـسـخـطـهـ!؟» فـجـبـتـ ذـاقـصـاـحـبـهـ عـنـ لـوـمـهـ.

ولما عزم ابن عباد على رأيه أمر صاحب بطليوس المتوكـل على الله عمر بن الأفطـسـ وـصـاحـبـ غـرـنـاطـةـ عـبـدـ اللـهـ بـنـ حـبـوسـ الصـنـهـاجـيـ، أـنـ يـبـعـثـ إـلـيـهـ كـلـ مـنـهـماـ قـاضـيـ حـضـرـتـهـ فـفـعـلـاـ، وـاسـتـحـضـرـ قـاضـيـ الـجـمـاعـةـ بـقـرـطـبةـ عـبـدـ اللـهـ بـنـ مـحـمـدـ بـنـ أـدـهـمـ - وـكـانـ أـعـقـلـ أـهـلـ زـمـانـهـ - فـلـمـاـ اـجـتـمـعـ عـنـ اـبـنـ عـبـادـ الـقـضـاةـ بـإـشـبـيلـيةـ أـضـافـ إـلـيـهـ وزـيـرـهـ أـبـاـ بـكـرـ بـنـ زـيـدـونـ وـعـرـفـهـمـ أـرـبـعـتـهـمـ أـنـهـمـ رـسـلـهـ إـلـىـ يـوـسـفـ بـنـ تـاـشـفـيـنـ، وـأـسـنـدـ إـلـىـ الـقـضـاةـ مـاـ يـلـيقـ بـهـمـ مـنـ وـعـظـ يـوـسـفـ وـتـرـغـيـبـهـ فـيـ الـجـهـادـ، وـأـسـنـدـ إـلـىـ الـوـزـيـرـ مـاـ لـاـ بـدـ مـنـهـ مـنـ إـبـرـامـ الـعـقـودـ السـلـطـانـيـةـ.

وـكـانـ يـوـسـفـ بـنـ تـاـشـفـيـنـ لـاـ تـزاـلـ تـفـدـ عـلـيـهـ وـفـوـدـ ثـغـورـ الـأـنـدـلـسـ مـسـتـعـطـفـيـنـ مجـهـشـيـنـ بـالـبـكـاءـ نـاـشـدـيـنـ بـالـلـهـ وـالـإـسـلـامـ، مـسـتـنـجـدـيـنـ بـفـقـهـاءـ حـضـرـتـهـ، وـوـزـرـاءـ دـوـلـتـهـ، فـيـسـمـعـ إـلـيـهـ وـيـصـغـيـ لـقـولـهـ وـتـرـقـ نـفـسـهـ لـهـ.

ولـمـ اـنـتـهـتـ الرـسـلـ إـلـىـ اـبـنـ تـاـشـفـيـنـ أـقـبـلـ عـلـيـهـ وـأـكـرمـ مـثـواـهـمـ، وـجـرـتـ بـيـنـهـ وـبـيـنـهـ مـرـاوـضـاتـ، ثـمـ اـنـصـرـفـواـ إـلـىـ مـرـسـلـهـمـ.

ثـمـ عـبـرـ يـوـسـفـ الـبـحـرـ عـبـرـأـ سـهـلـاـ حـتـىـ أـتـىـ الـجـزـيرـةـ الـخـضـرـاءـ فـخـرـجـ إـلـيـهـ أـهـلـهـ بـمـاـ عـنـهـمـ مـنـ الـأـقـوـاتـ وـالـضـيـافـاتـ، وـأـقـامـواـ لـهـ سـوقـاـ جـلـبـواـ إـلـيـهـ مـاـ عـنـهـمـ مـنـ سـاـئـرـ الـمـرـافـقـ، وـأـذـنـواـ لـلـغـزـةـ فـيـ دـخـولـ الـبـلـدـ وـالتـصـرـفـ فـيـهـ،

فامتلأت المساجد والرحايا بالمطوعة وتواصوا بهم خيراً» هذا مساق صاحب الروض المعطار.

وقال ابن الأثير: «لما رجع المعتمد ابن عباد إلى إشبيلية وترك قرطبة بدون مدافع وسمع مشايخها بما جرى من قتل ابن عباد لليهودي، ورأوا قوة الفرنج وضعف المسلمين واستعانا بعض ملوكهم بالفرنج على بعض اجتمعوا وقالوا: «هذه بلاد الأندلس قد غلب عليها الفرنج ولم يبق منها إلا القليل، وإن استمرت الأحوال على ما نرى عادت نصرانية كما كانت» وساروا إلى القاضي أبي بكر عبد الله بن محمد بن أدهم فقالوا له: «ألا تنظر إلى ما فيه المسلمون من الصغار والذلة وإعطائهم الجزية بعد أن كانوا يأخذونها! وقد رأينا رأياً نعرضه عليك» قال: «ما هو؟» قالوا: «نكتب إلى عرب إفريقية ونشترط لهم إذا وصلوا إلينا قاسمناهم أموالنا وخرجنَا معهم مجاهدين في سبيل الله!» قال: «أخاف إذا وصلوا إلينا أن يخربوا بلادنا كما فعلوا بإفريقية! ويتركوا الفرنج وينبذوا علينا! والمراقبون أصلح منهم وأقرب إلينا!» قالوا له: «فكاتب يوسف بن تاشفين وارغب إليه في العبور إلينا أو يرسل بعض قواده». وبينما هم يتفاوضون إذ قدم عليهم ابن عباد - وهو في ذلك - فعرض عليه القاضي ابن أدهم ما كانوا فيه. فقال له ابن عباد: «أنت رسولي إليه في ذلك!» فامتنع القاضي - وإنما أراد أن يبرئ نفسه من تهمة تلحقه - فألح عليه المعتمد، فعبر القاضي البحر إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، فأبلغه الرسالة وأعلمته ما فيه المسلمين من الخوف من الأذفونش - وكان أمير المسلمين يومئذ بمدينة سبتة - ففي الحال أمر بعبور العساكر إلى الأندلس، وأرسل إلى مراكش في طلب من بقي من عساكره، فأقبلت إليه يتلو بعضها بعضاً، فلما تكاملت عنده عبر البحر وسار؛ فاجتمع بالمعتمد ابن عباد بإشبيلية.

وكان المعتمد قد جمع عساكره أيضاً، وخرج من أهل قرطبة عسكر كبير، وقصد المطوعة من سائر بلاد الأندلس، ووصلت الأخبار إلى الأذفونش فجمع عساckerه وحشد جنوده، وسار من طليطلة وكتب إلى أمير

المسلمين يوسف بن تاشفين كتاباً كتبه له بعض غواة أدباء المسلمين يغاظله في القول ويصف ما معه من القوة والعدد وبالغ في ذلك. فلما وصل وقرأه يوسف أمر كاتبه أبا بكر بن القصيرة أن يجيئه وكان كاتباً مقلقاً - فكتب وأجاد، فلما قرأه على أمير المسلمين قال: «هذا كتاب طويل» وأحضر كتاب الأذفونش وكتب على ظهره (الذي يكون ستراه!) وأرسله إليه فلما وقف عليه الأذفونش ارتاع له وعلم أنه بلي برجل له دماء وعزم».

وذكر ابن خلكان أن يوسف بن تاشفين أمر بعبور الجمال فعبر منها ما أغص الجزيرة وارتفع رغاؤها إلى عنان السماء، ولم يكن أهل الجزيرة رأوا جمالاً قط ولا خيل لهم رأتها قط، فصارت الخيل تجتمع من رؤية الجمال ورغائهما، وكان ليوسف في عبورها رأي مصيب، فكان يحذق بها عسکره ويخضرها الحرب، فكانت خيل الفرنج تجتمع منها».

وقدم يوسف بن تاشفين بن يديه كتاباً للأذفونش يعرض عليه فيه الدخول في الإسلام أو الجزية أو الحرب كما هي السنة، ومن جملة ما في الكتاب: «بلغنا يا أذفونش أنت دعوت الله في الاجتماع بنا، وتمنيت أن تكون لك سفن تعبر عليها البحر إلينا، فقد عبرناه إليك: وقد جمع الله تعالى في هذه العرصة بيننا وبينك، وسترى عاقبة دعائك! وما دعاء الكافرين إلا في ضلال!» فلما سمع الأذفونش ما كتب إليه يوسف جاش بحر غيظه، وزاد في طغيانه، وأقسم أن لا يربح من موضعه حتى يلقاه.

ولنرجع إلى كلام صاحب الروض المعطار قال رحمه الله: «فلما عبر يوسف وجميع جيشه البحر إلى الخضراء نهض إلى إشبيلية على أحسن الهيئات جيشاً بعد جيش وأميراً بعد أمير وقيلاً بعد قبيل. وبعث المعتمد ابنه إلى لقاء يوسف وأمر عمال البلاد بجلب الأقوات والضيافات ورأى يوسف ما سره من ذلك ونشطه وتواردت الجيوش مع أمرائها على إشبيلية».

وخرج المعتمد إلى لقاء يوسف من إشبيلية في مائة فارس من وجوه أصحابه، فلما أتى محلة يوسف ركب نحومهم وركضوا نحوه ثم برز إليه

يوسف وحده والتقيا منفردين وتصافحا وتعانقا، وأظهر كل منهما لصاحبه المودة والخلوص وشكراً نعم الله، وتواصيا بالصبر والرحمة، ويشروا أنفسهما بما استقبلاه من غزو أهل الكفر وتضرعا إلى الله في أن يجعل ذلك خالصاً لوجهه مقرضاً إليه. وافترقا فعاد يوسف لمحلته وابن عباد إلى جهته، وألحق ابن عباد ما كان أعده من هدايا وتحف وضيافات أوسع بها على محله يوسف بن تاشفين.

وباتوا تلك الليلة فلما أصبحوا وصلوا الصبح ركب الجميع وأشار ابن عباد على يوسف بالتقدم نحو إشبيلية ففعل، ورأى الناس من عزة سلطانهم ما سرهم ولم يبق من ملوك الطوائف بالأندلس إلا من بادر أو أهان، وكذلك فعل الصحراويون مع يوسف أهل كل صقع من أصقاعه رابطوا وكابدوا.

وكان الأذفونش لما رأى اجتماع العزائم على مناجته علم أنه عام نطاح! فاستنصر الفرنجة للخروج ورفع القسيسون والرهبان والأساقفة صلبائهم ونشروا أناجيلهم فاجتمع له من الجلالقة والإفرنج ما لا يحصى عدده وجواسيس كل فريق تتردد من الجميع وبعث الأذفونش إلى ابن عباد: «إن أصحابكم يوسف قد تعنى بالمجيء من بلاده وخوض البحر وأنا أكفيه العناء فيما بقي ولا أكلفكم تعباً: أمضي إليكم وألقاكم في بلادكم رفقة بكم وتوفيراً عليكم!» وقال لخاسته وأهل مشورته: «إني رأيت أنني إن أمكنتكم من الدخول إلى بلادي فناجزوني فيها وبين جدرها - وربما كانت الدائرة عليّ - يستحكمون البلد ويحصلون من فيها غذاء واحدة! ولكنني أجعل يومهم معي في حوز بلادهم فإن كانت عليّ اكتفوا بما نالوه، ولم يجعلوا الدروب وراءهم إلا بعد أهبة أخرى فيكون في ذلك صون لبلادي وجبر لمكاري! وإن كانت الدائرة عليهم كان مني فيهم وفي بلادهم ما خفت أن يكون في وفي بلادي إذا ناجزوني في وسطها!».

ثم بُرِزَ بالمختار من جنوده وأنجاد جموعه على باب دربه وترك بقية جموعه خلفه وقال حين نظر إلى ما اختاره منهم: «بهؤلاء أقاتل الجن والإنس وملائكة السماء!» فالمقمل يقول: «المختارون أربعون ألف دارع

ولكل واحد أتباعاً! وأما النصارى فيعجبون من يزعم ذلك ويرون أنهم أكثر من ذلك كله.

وأتفق الكل أن عدد المسلمين كان أقل من عدد الكفار! ورأى الأذفونش في نومه بأنه راكب فيلاً وبين يديه طبل صغير وهو ينقر فيه، فقصص رؤياه على القسيسين فلم يعرفوا تأويلها، فأحضر رجلاً مسلماً حالماً بتنفسه الرؤيا فقصصها عليه، فاستعفاه من تعبيرها فلم يعفه. فقال: «تأويل هذه الرؤيا من كتاب الله تعالى وهو قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَرَ كَيْنَ فَعَلَ رَبُّكَ يَأْخُذُ الْغَيْلَ﴾ [الفيل: ١] إلى آخر السورة، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُرِئَ فِي الْأَنْذِرِ﴾ ﴿ذَلِكَ يَوْمُ عَيْرَ﴾ ﴿عَلَى الْكُفَّارِ عَيْرَ يَسِيرَ﴾ [المدثر: ٨-١٠] وذلك يقتضي هلاك هذا الجيش الذي تجمعه!» فلما اجتمع جيشه ورأى كثرة أعدمه فأحضر ذلك المعبر وقال له: «بهذا الجيش ألقى الله محمد صاحب كتابكم! فانصرف المعبر وقال لبعض المسلمين: «هذا الملك هالك وكل من معه!» وذكر الحديث: «ثلاث مهلكات وفيه واعجب المرء بنفسه!».

ثم خرج الأذفونش إلى بلاد الأندلس وتقدم السلطان يوسف نحوه أيضاً وتأخر ابن عباس لبعض مهماته، ثم انزعج بظهوره بجيش فيه حماة الشعور ورؤساء الأندلس وجعل ابنه عبد الله على مقدمته، وسار وهو ينشد متفائلاً بيت ساتر، مجيزاً له بآيات من شعره:

يأتيك بالعجب العجيب	لا بد من فرج قريب
سيعود بالفتح القربي	غزو عليك مبارك
نكس على دين الصليب	لله سعادتك إنـه
نـ له أخـا يوم يـكـوـ	لا بد من يوم يـكـوـ

ووافت الجيوش كلها بطليوس فأناخوا بظاهرها، وخرج إليهم أصحابها المتوكـل عمر بن محمد بن الأقطـس، فلقيـهم بما يـجـبـ من الضـيـافـاتـ والأـقوـاتـ وبـذـلـ المـجهـودـ. ثـمـ جاءـهمـ الخبرـ بشـخـوصـ الأـذـفـونـشـ إـلـيـهمـ».

وقال ابن أبي زرع: «ارتـحلـ يوسفـ بنـ تـاشـفينـ منـ الخـضرـاءـ قـاصـداـ

نحو الأذفونش وقدم بين يديه قائد أبا سليمان داود بن عائشة - وكان بطلًا من الأبطال - في عشرة آلاف فارس من المرابطين، بعد أن قدم أمامه المعتمد ابن عباد مع أمراء الأندلس وجيوشهم منهم ابن صمادح صاحب المرية، وابن حبوس صاحب غرناطة، وابن مسلمة صاحب الثغر الأعلى، وابن ذي النون، وابن الأفطس وغيرهم، فامرهم يوسف أن يكونوا مع المعتمد ف تكون محلة ملوك الأندلس واحدة، ومحللة المرابطين أخرى، فتقدم بهم ابن عباد ف كانوا إذا ارتحل ابن عباد من موضع نزله يوسف بمحلته، فلم يزالوا كذلك حتى نزلوا مدينة طرطوشة، فأقاموا بها ثلاثة وكتب منها يوسف إلى الأذفونش يدعوه إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب، وكان جواب الأذفونش ما تقدم، ثم ارتحل يوسف وارتاحل الأذفونش حتى نزل معاً بالقرب من بطليوس، وكان نزول يوسف بموضع يعرف بالزلقة^(١) وتقى المعتمد فنزل ناحية أخرى تحجز بينه وبين يوسف ربوة، وبين المسلمين والفرنج نهر بطليوس حاجزاً يشرب منه هؤلاء وهوئاء، فأقاموا ثلاثة أيام، والرسل تختلف بينهم إلى أن وقع اللقاء على ما ذكره.

ولما ازدلف بعضهم إلى بعض أذكى المعتمد عيونه في محلات الصحراويين خوفاً عليهم من مكاييد الأذفونش - إذ هم غرباء لا علم لهم بالبلاد - وجعل يتولى ذلك بنفسه حتى قيل إن الرجل من الصحراويين كان لا يخرج إلى طرف المحلة لقضاء أمر أو حاجة إلا ويجد ابن عباد بنفسه مطيفاً بال محلة بعد ترتيب الخيل والرجال على أبواب المحلات، ثم قامت الأساقفة والرهبان ورفعوا صلباتهم ونشروا أناجيلهم وتبايعوا على الموت.

ووعظ يوسف وابن عباد أصحابهما وقام الفقهاء والصالحون في الناس مقام الوعظ وحضوهم على الصبر والثبات وخذلوهم من الفشل والفرار. وجاءت الطلائع تخبر أن العدو مشرف عليهم صبيحة يومهم - وهو يوم الأربعاء - فأصبح المسلمون وقد أخذوا مصافهم فكع الأذفونش ورجع إلى

(١) ويسميه المسيحيون ساكن الياس هكذا: «Sacralias».

أعمال المكر والخدع. فعاد الناس إلى محلاتهم وياتوا ليتلهم. ثم أصبح يوم الخميس فبعث الأذفونش إلى ابن عباد يقول: «إذاً يوم الجمعة وهو عيدهم والأحد عيدهنا فليكن لقاونا بينهما وهو يوم السبت» فعرف المعتمد بذلك السلطان يوسف وأعلم أنه حيلة منه وخدعة وإنما قصده الفتى بنا يوم الجمعة، فليكن الناس على استعداد له يوم الجمعة كل النهار. ويقال إن الأذفونش واعدهم ل يوم الاثنين ويات الناس ليتلهم على أهبة واحتراس كما أشار ابن عباد.

وبعد مضي جزء من الليل انتبه الفقيه الناسك أبو العباس أحمد بن رمبلة القرطبي، - وكان في محله ابن عباد - فرحاً مسروراً يقول: «إن رأى النبي ﷺ تلك الليلة في النوم فبشره بالفتح والموت على الشهادة في صبيحة تلك الليلة» فتأهب ودعا وتضرع ودهن رأسه وتطيب. وانتهى ذلك إلى ابن عباد بعث إلى يوسف يخبره بها تحقيقاً لما توقعه من خدر العدو الكافر، ثم جاء بالليل فارسان من طلائع المعتمد يخبران أنهما أشرفا على محله الأذفونش، وسمعا ضوضاء الجيش وخشخشة السلاح، ثم تلاحق بقية الطلائع محققين لتحرك الأذفونش ثم جاءت الجواسيس من داخل محلتهم تقول: «استرقنا السمع فسمينا الأذفونش يقول لأصحابه: «ابن عباد مسرع هذه الحروب وهؤلاء الصحراويون وإن كانوا أهل حفاظ وذوي بصائر في الحرب فهم غير عارفين بهذه البلاد. وإنما قادهم ابن عباد فامحاجموا عليه وأصبروا له، فإن انكشف لكم هان عليكم الصحراويون بعده. ولا أراه يصبر لكم إن صدقتموه الحملة» فعند ذلك بعث ابن عباد الكاتب أبي بكر بن القصيرة إلى السلطان يوسف يعرفه بياقبال الأذفونش ويستحث نصرته فمضى ابن القصيرة يطوي المحلات حتى جاء يوسف بن تاشفين فعرفه بجلية الأمر فقال له: «قل له: إني سأتر إليك إن شاء الله» وأمر يوسف بعض قواه أن يمضي بكتيبة رسمها له حتى يدخل محلة النصارى فيضرمها ناراً ما دام الأذفونش مشغلاً مع ابن عباد.

وأنصرف ابن القصيرة إلى المعتمد فلم يصله إلا وقد غشته جنود الطاغية فقصد ابن عباد صدمة قطعت آماله . ومال الأذفونش عليه بجموعه وأحاطوا به من كل جهة فهاجت الحرب وحمي الوطيس . واستحر القتل في أصحاب ابن عباد وصبر صبراً لم يعهد مثله ، واستبطأ السلطان يوسف وهو يلاحظ طريقه وعضته الحرب وأشتد عليه وعلى أصحابه البلاء وساعت الظنو وانكشف البعض منهم - وفيهم ابنه عبد الله بن المعتمد - وأنخر هو جراحات في رأسه وبدنـه وعقرت تحته في ذلك اليوم ثلاث أفراـس كلـما هـلـك واحد قـدم له آخر وتذكر في تلك الحـالة ابـناً له صـغـيراً يـكـنـىـ : أبا هـاشـمـ - وـكانـ قدـ تـرـكـهـ يـاـشـيـلـيـةـ عـلـيـلاـ - فـقـالـ :

أبا هاشم هشمتني الشفار فـلـلـهـ صـبـرـيـ لـذـلـكـ الـأـوـارـ
ذـكـرـتـ شـخـصـكـ تـحـتـ العـجـاجـ فـلـمـ يـشـنـشـيـ ذـكـرـهـ لـلـفـرـارـ

ثم كان أول من وافق ابن عباد من قواد يوسف بن تاشفين داود بن عائشة . وكان بطلاً شهماً، فنفس يمجيئه على ابن عباد ثم أقبل يوسف بعد ذلك . وطبوـلهـ قدـ مـلـأـتـ أـصـوـاتـهـ الـجـوـ . فـلـمـ أـبـصـرـهـ الأـذـفـونـشـ وجهـ حـمـلـتـهـ إـلـيـهـ وـقـصـدـهـ بـعـضـ جـنـوـدـهـ فـبـادـرـ إـلـيـهـ السـلـطـانـ يـوـسـفـ وـصـدـمـهـمـ صـدـمـةـ قـطـعـتـ آـمـالـهـ إـلـيـهـ وـأـنـظـمـهـ مـرـكـزـهـ وـأـنـظـمـهـ بـشـمـلـهـ اـبـنـ عـبـادـ وـأـسـتـشـقـهـ النـاسـ رـيـحـ الـظـفـرـ وـتـبـاـشـرـوـاـ بـالـنـصـرـ . ثـمـ صـدـقـوـاـ جـمـيـعـاـ الـحـمـلـةـ فـزـلـقـلـتـ الـأـرـضـ مـنـ حـوـافـرـ الـخـيلـ وـأـظـلـمـ الـنـهـارـ بـالـعـجـاجـ وـخـاصـتـ الـخـيلـ فـيـ الدـمـاءـ وـصـبـرـ الـفـرـيقـانـ صـبـراـ عـظـيـماـ .

ثـمـ تـرـاجـعـ اـبـنـ عـبـادـ إـلـىـ يـوـسـفـ وـحـمـلـ مـعـهـ حـمـلـةـ جاءـ مـعـهـ النـصرـ وـتـرـاجـعـ الـمـنـهـزـمـونـ مـنـ أـصـحـابـ اـبـنـ عـبـادـ حـينـ عـلـمـواـ بـالـتـحـامـ الـفـتـيـنـ وـصـدـقـوـاـ الـحـمـلـةـ فـانـكـشـفـ الـطـاغـيـةـ وـمـرـ هـارـبـاـ مـنـهـزـمـاـ وـقـدـ طـعنـ فـيـ إـحـدـىـ رـكـبـتـيـهـ طـعـنةـ بـقـيـ يـخـمـعـ بـهـاـ بـقـيـةـ عـمـرـهـ . قـالـواـ : وـكـانـ أـمـيرـ الـمـسـلـمـينـ يـوـسـفـ بـنـ تـاشـفـينـ عـلـىـ فـرـسـ يـوـمـئـذـ أـنـشـيـ يـمـرـ بـيـنـ سـاقـاتـ الـمـسـلـمـينـ وـصـفـوـهـمـ يـحـرـضـهـمـ وـيـقـوـيـ نـفـوسـهـمـ عـلـىـ الـجـهـادـ وـيـحـضـهـمـ عـلـىـ الصـبـرـ فـقـاتـلـ النـاسـ ذـلـكـ الـيـوـمـ قـتـالـ مـنـ يـطـلـبـ الشـهـادـةـ وـيـرـغـبـ فـيـ الـمـوـتـ .

وعلى سياق ابن خلkan: «إن ابن تاشفين نزل على أقل من فرسخ من عسكر العدو في يوم الأربعاء. وكان الموعد بالمناجزة يوم السبت فغدر الأذفونش ومكر، فلما كان سحر يوم الجمعة متتصف رجب أقبلت طلائع ابن عباد - والروم في أثرها والناس على طمأنينة - فبادر ابن عباد للركوب وانتسب الخبر في العساكر، فماجت بأهلها، ورجفت الأرض، وصارت الناس فوضى على غير تعبئة ولا أهبة ودهمتهم خيل العدو، فغمزت ابن عباد وحطمت ما تعرض لها وتركت الأرض حصيناً خلفها. وصرع ابن عباد وأصحابه جرح أشواه وفر رؤساء الأندلس وأسلموا محلاتهم وظنوا أنه وهي لا يرفع، ونازلة لا تدفع، وظن الأذفونش أن أمير المسلمين في المنهزمين، ولم يعلم أن العاقبة للمنتقين، فتقدم أمير المسلمين وأحدقت به أنجاد خيله ورجاله من صنهاجة ورؤساء القبائل، وقصدوا محلة الأذفونش فاقتتحموها وقتلوا حاميتها، وضررت الطبلول، وزعمت البوقات الأرض وتجاوزت الجبال والأفاق، وتراجع الروم إلى محلتهم بعد أن علموا أن أمير المسلمين فيها فقصدوه فأخرج لهم عنها ثم كر عليهم فأخرجهم منها، ثم كروا عليه فأخرج لهم عنها. ولم تزل الكرات بينهم تتواتي إلى أن أمر أمير المسلمين حشمه السودان، فترجل منهم زهاء أربعة آلاف ودخلوا المعترك بدرق اللمنط وسيوف الهند، ومزاريب الزنان فخالطوا الخيال وطعنوها فرمحت بفرسانها وأحجمت عن أقرانها وتلاحقن الأذفونش بأسود نفذت مزاريقه فأهوى ليضرمه بالسيف فلصق به الأسود وبقض على عنانه! وانتقض خنجرأ كان متمنطاً به فأثبته في فخدنه. فهتك حلق درعه وشك فخدنه مع بداد سرجه. وكان وقت الزوال يوم الجمعة متتصف رجب ستة تسع وسبعين وأربعين. وهبت ريح النصر فأنزل الله سكينته على المسلمين ونصر دينه القويم وصدقوا الحملة على الأذفونش وأصحابه فأخرجوهم عن محلتهم فولوا ظهورهم وأعطوا أقفاءهم - وسيوف تصفعهم والرماح تطعنهم - إلى أن لحقوا ببرية لجووا إليها واعتصموا بها وأحدقت بهم الخيال فلما أظلم الليل انساب الأذفونش وأصحابه من الريوة وأفلتوا من بعد ما نشببت فيهم أظفار المنية، واستولى

المسلمون على ما كان في محلتهم من الآثار والأآية والمضارب والأسلحة وغير ذلك، وأمر ابن عباد باسم رؤوس قتلى المشركين فاجتمع من ذلك تل عظيم».

وقال صاحب الروض المعطار: لجأ الأذفونش إلى تل كان يلي محلته في نحو خمسمائة فارس ما منهم إلا مكلوم. وأباد القتل والأسر من عدتهم من أصحابه، وعمل المسلمون من رؤوسهم مآذن يؤذنون عليها والمخدول ينظر إلى موضع الواقعية ومكان الهزيمة فلا يرى إلا نكالاً محيطاً به وب أصحابه.

وأقبل ابن عباد على السلطان يوسف وصافحه وهناء وشكره وأثنى عليه، وشكر يوسف صير ابن عباد ومقامه وحسن بلائه وسأله عن حاله عندما أسلمه رجالة يأنهزفهم عنه فقال له: «ها هم هؤلاء قد حضروا بين يديك فليخبروك!».

وكتب ابن عباد إلى ابنه بإسبانيا كتاباً مضمونه: «كتابي هذا إليك من المحلة المنصورة يوم الجمعة منتصف رجب، وقد أغز الله الدين ونصر المسلمين وفتح لهم الفتح المبين وهزم الكفارة المشركين، وأذاقهم العذاب الأليم، والخطب الجسيم فالحمد لله على ما يسره وسناء من هذه المسرة العظيمة والنعمة الجسيمة في تشتيت شمل الأذفونش والاحتواء على جميع عساكره أصلاء الله نكال الجحيم، ولا أعدمه الوبال العظيم، بعد إتیان النهب على محلاته واستئصال القتل بجميع أبطاله وحماته، حتى اتخذ المسلمون من هماماتهم صوامع يؤذنون عليها، فللهم الحمد على جميل صنعه ولم يصبني والحمد لله إلا جراحات يسيرة آلمت، لكنها فرحت بعد ذلك فللهم الحمد والمنة والسلام».

واستشهد في ذلك اليوم جماعة من الفضلاء والعلماء، مثل ابن رميدة صاحب الرؤيا المذكورة وقاضي مراكش أبي مروان عبد الملك المصمودي وغيرهما رحم الله الجميع.

وحكى أن موضع المعركة كان على اتساعه ما فيه موضع قدم إلا على ميت أو دم. وأقامت العساكر بالموضع أربعة أيام حتى جمعت الغنائم واستؤذن في ذلك السلطان يوسف فعف عنها وأثر بها ملوك الأندلس، وعرفهم أن مقصوده الجهاد والأجر العظيم، وما عند الله في ذلك من الثواب المقيم. فلما رأى ملوك الأندلس إشار يوسف لهم بالغنائم استكرومه وأحبوه وشكروا له صنعه وأمر أمير المسلمين بقطع رؤوس القتلى وجمعها فقطعت وجمع بين يديه منها أمثال الجبال، فبعث منها إلى إشبيلية عشرة آلاف رأس، وإلى قرطبة مثل ذلك، وإلى بلنسية مثلها، وإلى سرقسطة ومرسية مثلها وبعث إلى بلاد العدوة أربعين ألف رأس، فقسمت على مدن العدوة ليراها الناس فيشكروا الله على ما منحهم من النصر والظفر العظيم».

قال ابن أبي زرع: «وفي هذا اليوم تسمى يوسف بن تاشفين بأمير المسلمين ولم يكن يدعى به قبل ذلك، وأظهر الله تعالى الإسلام وأعز أهله وكتب أمير المسلمين بالفتح إلى بلاد العدوة وإلى تميم بن المعز الصنهاجي صاحب إفريقية، فعمت المفرحت في جميع بلاد إفريقية والمغرب والأندلس، واجتمعت كلمة الإسلام وأخرج الناس الصدقات، وأعتقوا الرقاب شكرأ الله تعالى».

ولما بلغ الأذفونش إلى بلاده وسأل عن أصحابه وأبطاله فقد هم ولم يسمع إلا نواح الشكالي عليهم اغتنم ولم يأكل ولم يشرب حتى هلك أسفًا وغمًا، وراح إلى أمه الهاوية، ولم يختلف إلا بنتاً واحدة جعل الأمر إليها فتحصنت بطيطلة.

ورحل المعتمد إلى إشبيلية ومعه السلطان يوسف بن تاشفين فأقام يوسف بظاهر إشبيلية ثلاثة أيام، وورد عليه الخبر بوفاة ولده أبي بكر بن يوسف - وكان قد تركه مريضاً بسببة - فاغتنم لذلك وانصرف راجعاً إلى العدوة، وذهب معه ابن عياد يوماً وليلة، فعزم عليه يوسف في الرجوع إلى منزله، وكانت جراحاته قد تورمت عليه، فسير معه ولده عبد الله إلى أن وصل البحر وعبر إلى المغرب.

وكان أمير المسلمين عند مجيئه إلى بلاد الأندلس وقصده ملاقة الأذفونش قد تحرى المسير بالعراء من غير أن يمر بمدينة أو رستاق حتى نزل الزلاقة تجاه الأذفونش وهناك اجتمع بعساكر الأندلس . قاله ابن خلكان .

ولما فرغ من الوجعة رجع عوده على بدئه كل ذلك تورع منه ونكرم وتخفييف عن الرعايا رحمة الله ورضي عنه .

ولما رجع ابن عباد إلى إشبيلية جلس للناس وهنئ بالفتح ، وقرأت القراء وقامت على رأسه الشعراة فأنشدوه . قال عبد الجليل بن وهبون : «حضرت ذلك اليوم وأعددت قصيدة أنشدتها بين يديه ، فقرأ قارئه : ﴿إِلَّا تَصُرُّوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ [التوبه: ٤٠] فقلت : «بعداً لي ولشعري ! والله ما أبنت لي هذه الآية معنى أحضره وأقوم به». اهـ.

ومن هنا اختلفت أقوال المؤرخين في حال أمير المسلمين في الجهاد ، فقيل إنه لم يرجع إلى بلاد الأندلس بعد هذه المرة لكنه ترك قواده فيها ورسم لهم بالجهاد وشن الغارات على بلاد العدو . وقيل إنه عاد إليها ثانيةً وثالثاً وعلى هذا القول فاختلعوا في زمان ذلك العود وتاريخه . والله تعالى أعلم .

بقية أخبار أمير المسلمين في الجهاد وما اتفق له مع ملوك الأندلس وكبيرهم ابن عباد

اعلم أن أقوال المؤرخين اختلفت في أمر يوسف بن تاشفين بعد غزوة الزلاقة فحكى ابن خلكان وغيره أن أمير المسلمين لما عزم على النهوض إلى بلاد المغرب ترك قاتله سير بن أبي بكر اللمنوني بأراضي الأندلس وخلف معه جيشاً برسم غزو الفرنج ، فاستراح سير بن أبي بكر أيامًا قلائل ثم دخل بلاد الأذفونش وشن الغارات فنهب وقتل وسبى وفتح الحصون المنيعة والمعاقل الصعبة وتوغل في بلاد العدو وحصل على أموال جليلة وذخائر عظيمة ، ورتب رجالاً وفرساناً في جميع ما استولى عليه . وأرسل إلى السلطان يوسف

بجميع ما حصله وكتب إليه يعرفه أن الجيوش بالشغور مقيمة على مكابدة العدو وملازمة الحرب والقتال في أضيق عيش وأنكده وملوك الأندلس في بلادهم وأهليهم في أرغم عيش وأطبيه وسأله مرسومه فكتب إليه «أن يأمرهم بالنفقة والرحيل إلى أرض العدو فمن فعل فذاك ومن أبي فحاصره وقاتله ولا تنفس عليه، ولتبداً بمن والى الشغور منهم، ولا ت تعرض لابن عباد إلا بعد استيلائك على البلاد وكل بلد أخذته فول عليه أميراً من عسكرك» فامتثل سير بن أبي بكر أمره واستنزلهم واحداً بعد واحد حتى كان آخرهم ابن عباد فألحقه بهم ونظمه في سلکهم على ما ذكره.

وقال ابن أبي زرع: «لما كانت سنة إحدى وثمانين وأربعينمائة جاز أمير المسلمين إلى الأندلس الجواز الثاني برسم الجهاد. قال: وسبب جوازه أن الأذفونش لعنه الله لما هزم وجروح وقتلت جموعه عمداً إلى حصن لبيط الموالي لعمل ابن عباد فشحنته بالخيول والرجال والرماة، وأمرهم أن يكونوا ينزلون من الحصن المذكور فيغيرون في أطراف بلاد ابن عباد دون سائر بلاد الأندلس، إذ كان السبب في جواز أمير المسلمين إلى الأندلس فكانوا ينزلون من الحصن في الخيول والرجل فيغيرون ويقتلون ويأسرون قد جعلوا ذلك وظيفة عليهم في كل يوم. فسأله ابن عباد ذلك وضاق به ذرعاً. ثم عبر البحر إلى العدو مستنفراً لأمير المسلمين فلقيه بالمعمورة من حلق وادي سبو - وهذه المعمورة هي المسمة اليوم بالمهدية، من أحواز سلا - فشكاه إليه حصن لبيط وما يلقاه المسلمون من أهله، فروعده الجواز إليه، فرجع المعتمد.

وسار يوسف في أثره، فركب البحر من قصر المجاز إلى الخضراء، فتلقاء ابن عباد بها بآلف دابة تحمل الميرة والضيافة، فلما نزل يوسف بالخضراء كتب منها إلى أمراء الأندلس يدعوهم إلى الجهاد، وقال لهم: «الموعد بيتنا وبينكم حصن لبيط» ثم تحرك يوسف من الخضراء، وذلك في ربيع الأول من السنة المذكورة، فنزل على حصن لبيط - وفي القاموس لبطيط

كزنبيل بلد بالجزيرة الخضراء الأندلسية، ولعله هو هذا - فلما نزله أمير المسلمين لم يأته من كتب إليه من أمراء الأندلس غير ابن عبد العزيز صاحب مرسية، وابن عباد صاحب إشبيلية فنازلا معه الحصن وشرعوا في القتال والتضييق عليه.

وكان يوسف رحمة الله يشن الغارات على بلاد الفرنج كل يوم ودام الحصار على الحصن أربعة أشهر لم ينقطع القتال فيها يوماً واحداً إلى أن دخل فصل الشتاء ووقع بين ابن عبد العزيز وابن عباد نزاع وشأن، فشكى المعتمد إلى أمير المسلمين ابن عبد العزيز فقبض عليه أمير المسلمين وأسلمه إلى ابن عباد فاختل أمر المحلة بسبب ذلك وفر جيش ابن عبد العزيز وقواده عنها وقطعوا الميرة عن المحلة ووقع بها الغلاء.

ولما علم الأذفونش بذلك حشد أمم النصرانية وقصد إلى حماية الحصن في أمم لا تحصى، فلما قرب من الحصن انحر له يوسف عنه إلى ناحية لورقة، ثم إلى العريبة ثم جاز إلى العدوة وقد تغير على أمراء الأندلس لكونه لم يأته منهم أحد عندما دعاهم إلى الجهاد ومنازلة الحصن.

ولما أفرج أمير المسلمين عن الحصن المذكور، أقبل الأذفونش حتى نزل عليه فأخلأه مما كان فيه من آلة الحصار ومادته، وأخرج من كان فيه من بقية النصارى المنفلتين من مخالب المنية، وعاد إلى طليطلة فاستولى ابن عباد عليه بعد خلاته وفداء جميع حماته بالقتل والجوع سوى تلك الصباية المنفلته.

وكان فيه عندما نازله أمير المسلمين اثنا عشر ألف مقاتل دون العيال والذرية، فأتى عليهم القتل والجوع حتى لم يبق فيه سوى نحو المائة وهم المنفلتون منه عند إخلاته.

ثم لما كانت سنة ثلاثة وثمانين وأربعينمائة جاز أمير المسلمين إلى الأندلس الجواز الثالث برسم الجهاد؛ فسار حتى نزل على طليطلة وحاصر بها الأذفونش وشن الغارات بأطرافهم فاكتسحها وانتسف ثمارها وزروعها

وخراب عمرانها وقتل وسبي ولم يأنه من ملوك الأندلس أحد، ولا عرج عليه منهم معراج ففاظه ذلك ! .

ولما قفل من غزو طليطلة عمد إلى غرناطة فنازلها . وكان صاحبها عبد الله بن بلکین بن بادیس بن حبوس قد صالح الأذفونش وظاهره على أمير المسلمين ، وبعث إليه بمال واشتغل بتحصين بلده . وفي ذلك يقول بعض شعراء عصره :

يبني على نفسه سفاماً كأنه دودة الـحرير
دعوه يبني، فسوف يدرى إذا أنت قدرة القديس

ولما انتهى أمير المسلمين إلى غرناطة تحصن منه صاحبها عبد الله بن بلکین وأغلق أبوابها دونه فحاصره أمير المسلمين نحو شهرين . ولما اشتد عليه الحصار أرسل يطلب الأمان فأمنه أمير المسلمين وتسلم منه البلاد فملكتها ، وبعث بعد الله وأخيه تميم بن بلکین صاحب مالقة إلى مراكش مع حريمهما وأولادهما فأقاما بها وأجرى عليهما الإنفاق إلى أن ماتا بها .

ولما خلع أمير المسلمين بنی بادیس وملك غرناطة ومالقة وما أضيف إليهما خاف منه المعتمد ابن عباد وانقض عنده . ويقال : إن ابن عباد طمع في غرناطة وأن أمير المسلمين يعطيه إياها فعرض له بذلك فأعرض عنه أمير المسلمين فخاف ابن عباد منه وعمل على الخروج عليه ، ثم سعى بيتهما الوشاة فتغير عليه أمير المسلمين وعبر إلى العدو في رمضان سنة ثلاث وثمانين المذكورة .

ولما انتهى إلى مراكش ولد على الأندلس قائده سیر بن أبي بكر اللمنوني وقوض إليه جميع أمرها كلها ولم يأمره في ابن عباد بشيء فسار سیر بن أبي بكر نحو إشبيلية ، وهو يظن أن ابن عباد إذا سمع به يخرج إليه ويتلقاء على بعد ويحمل إليه الضيافات على العادة فلم يفعل ، وتحصن منه ولم يلتفت إليه ! فراسله سیر بن أبي بكر أن يسلم إليه البلاد ويدخل في طاعة

أمير المسلمين، فامتنع ابن عباد فعند ذلك تقدم سير إلى حصاره وقتاله. وبعث بعض قواده إلى قرطبة ليحاصرها وبها يومئذ المأمون بن المعتمد ابن عباد، فنازلها في عساكر المرابطين حتى فتحها يوم الأربعاء ثالث صفر سنة أربع وثمانين وأربعين. وقتل صاحبها المأمون بن المعتمد ثم فتح بيسة وأبدة وحصن البلاط والمدور والصخيرة وشقرة، ولم ينقض شهر صفر المذكور حتى لم يبق لابن عباد بلد إلا وقد ملكه المرابطون ما عدا قرمونة وإشبيلية. ثم ارتحل سير بن أبي بكر إلى قرمونة فنازلها حتى دخلها عنوة زوال يوم السبت السابع عشر من ربيع الأول من السنة المذكورة. فاشتد الأمر على ابن عباد وطال عليه الحصار فبعث إلى الأذفونش لعنه الله يستغيث به على لمتونه ويعده بإعطاء البلاد ويدل الطريق والتلاد إن هو كشف عنه ما هو فيه من الحصار! فبعث إليه الأذفونش قائد القومس في جيش من عشرين ألف فارس وأربعين ألف راجل.

فلما علم سير بقدوم الفرجن إلىه انتخب من جيشه عشرة آلاف فارس من أهل الشجاعة والنجدة، وقدم عليهم إبراهيم بن إسحاق اللمنوني وبعثه للقاء الفرجن. فالتقى الجمعان بالقرب من حصن المدور فكانت بينهم حروب شديدة مات فيها خلق كثير من المرابطين، ومنهم الله النصر فهزموا الفرجن وقتلوهم حتى لم يفلت منهم إلا القليل.

ثم شد سير بن أبي بكر في الحصار والتضييق على إشبيلية حتى اقتحمها عنوة وقبض على المعتمد وجماعة من أهل بيته! فقيدهم وحملهم في السفين بنهر إشبيلية وبعث بهم إلى أمير المسلمين بمراكنش. فأمر أمير المسلمين بإرسال المعتمد إلى مدينة أغمات فسجن بها واستمر في السجن إلى أن مات به لإحدى عشرة ليلة خلت من شوال سنة ثمان وثمانين وأربعين.

وكان دخول سير بن أبي بكر مدينة إشبيلية يوم الأحد الثاني والعشرين من رجب سنة أربع وثمانين وأربعين.

ثم ملك المرابطون بعد ذلك ما بقي من بلاد الأندلس إلى أن خلصت لهم ولم يبق لملوك الطوائف بها ذكر. وهذه الأخبار نقلناها عن ابن أبي زرع ممزوجة باليسir من كلام غيره واعتمدنا كلامه لأنه موضوع بالقصد الأول لأخبار المغرب فيكون أعني به من غيره.

وفي تاريخ ابن خلدون بعض مخالفة لما مر. قال: «أجاز يوسف بن تاشفين البحر إلى الأندلس الجواز الثاني سنة ست وثمانين وأربعين وثلاثين أمراء الطوائف عن لقائه لما أحسوا من نكيره عليهم لما يسمون به رعاباهم من الظلمات والمكوس وتلاحق المغارم، فوجد عليهم. وعهد برفع المكوس وتحري المعدلة» وقال أيضاً: «إن الفقهاء بالأندلس طلبوا من يوسف بن تاشفين رفع المكوس والظلمات عنهم، فتقدم بذلك إلى ملوك الطوائف فأجابوه بالامتناع. حتى إذا رجع عن بلادهم رجعوا إلى حاليهم. فلما أجاز ثانية انقضوا عنه إلا ابن عباد فإنه بادر إلى لقائه وأغرىه بالكثير منهم! فتقبض على ابن رشيق البناء وأمكن ابن عباد منه للعداوة التي بينهما. وبعث جيشاً إلى المرية، ففر عنها صاحبها ابن صمادح ونزل بجایة من أرض إفريقية. وتوافق ملوك الطوائف على قطع المدد عن عساكر أمير المسلمين ومحلاته. فساء نظره وأفتاب الفقهاء وأهل الشورى من المغرب والأندلس بخلعهم وانتزاع الأمر من أيديهم، وسارط إليه بذلك فتاوى أهل المشرق الأعلام مثل الغزالى والطرطوشى وغيرهما.

فعمد إلى غرناطة واستنزل صاحبها عبد الله بن بلکين وأخاه تميمًا عن مالقة، بعد أن كان منها مداخلة للطاغية في عداوة يوسف بن تاشفين، وبعث بهما إلى المغرب. فخاف ابن عباد عند ذلك منه وانقضى عن لقائه، وفتشت السعيايات بينهما. ونهض أمير المسلمين إلى سبعة فاستقر بها وعقد للأمير سير بن أبي بكر على الأندلس وأجازه. فانتهى إليها، وقعد ابن عباد عن تلقيه وميرته فاحفظه ذلك وطالبه بالطاعة لأمير المسلمين والتزول عن الأمر، ففسد ذات بينهما ثم غلبه على جميع عمله. ثم صمد إلى إشبيلية فحاصره بها واستدرج الطاغية. فعمد إلى استئقاده من هذا الحصار فلم يغن

عنه شيئاً. وكان دفاع لمtonة مما فت في عضده. واقتصر المراطون إسبانية عنونه سنة أربع وثمانين وأربعين. وتقبض سير على المعتمد وقاده أسيراً إلى مراكش، فلم يزل في اعتقال يوسف بن تاشفين إلى أن هلك في محبسه من أغمات سنة تسعين وأربعين.

ثم عمد إلى بطليوس وتقبض على صاحبها عمر بن الأفطس فقتله وأبنيه يوم الأضحى سنة تسعة وثمانين وأربعين بما صر عنه من مداخلتهم الطاغية وأن يملأه مدينة بطليوس.

ورثاهم الأديب أبو محمد عبد المجيد بن عبدون بقصيده المشهورة التي يقول في أولها:

الدهر يفجع بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح والصور

وهي قصيدة غريبة في منوالها و موضوعها، عدد فيها أهل النكبات، ومن عثر به الزمان بما يبكي منه الجماد، وتستشرف لسماعه الأنجاد والوهاد.

ثم أجاز يوسف بن تاشفين الجواز الثالث إلى الأندلس سنة تسعين وأربعين، وزحف إليه الطاغية. فبعث أمير المسلمين عساكر المراطين لنظر محمد بن الحاج اللمنوني، فانهزم النصارى أمامه وكان الظهور للمسلمين.

ثم أجاز الأمير يحيى بن أبي بكر بن يوسف بن تاشفين سنة ثلاثة وتسعين، وانضم إليه محمد بن الحاج وسير بن أبي بكر، فافتتحوا عامة الأندلس من أيدي ملوك الطوائف، ولم يبق منها إلا سرقسطة في يد المستعين بن هود معتصماً بالنصارى. وأغزى الأمير مزدلي صاحب بنسية إلى بلاد برشلونة فأثخن فيها، ويبلغ إلى حيث لم يبلغ أحد قبله ورجع.

وانتظمت بلاد الأندلس في مملكة يوسف بن تاشفين وانقرض ملك الطوائف منها أجمع كان لم يكن. واستولى أمير المسلمين على العدوتين معاً واتصلت هزائم المراطين على الفرنج مراراً والله غالب على أمره». فهذا كلام ابن خلدون في سياقه هذه الأخبار.

واعلم أنه قد يوجد هنا لبعض المؤرخين حط من رتبة أمير المسلمين وغض عليه إما في كونه كان يربيراً من أهل الصحراء بعيداً عن مناصي الملك والأدب ورقة الحاشية، وإما في كونه تحامل على ملوك الأندلس حتى فعل بهم ما فعل، وذلك حيث عاين حسن بلادهم ورفاهية عيشهم.

واعلم أن هذا الكلام جدير بالرد، وأصله من بعض أدباء الأندلس الذين كانوا ينادمون ملوكها ويستظلون بظلهم ويعبدون ويروحون في نعمتهم، فحين فعل أمير المسلمين بسادتهم ورؤسائهم ما فعل أخذهم من ذلك ما يأخذ التفوس البشرية من الذب عن الصديق والمحاماة عن القريب حتى باللسان، وإن فقد كان أمير المسلمين رحمة الله من الدين والورع على ما قد علمت، ومن ركوب الجادة وتحري طريق الحق على الوصف الذي سمعت.

وهذا ابن خلدون إمام الفن ومتحري الصدق، قد نقل أن ملوك الأندلس كانوا يظلمون رعاياهم بضرب المكوس وغيرها، ثم وصلوا أيديهم بالطاغية ويدلوا له بالأموال في مظاهرته إياهم على أمير المسلمين، ثم لم يقدم على قتالهم واستنزالهم عن سرير ملكهم حتى تعددت لديه فتاوى الأئمة الأعلام من أهل المشرق والمغرب بذلك فافهم هذا واعرفه. والله تعالى يقابل الجميع بالعفو والصفح الجميل بمته وكرمه.

بقية أخبار أمير المسلمين يوسف بن تاشفين سوى ما نقدم

قال ابن خلkan: «كان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين حازماً، سائساً للأمور، ضابطاً لمصالح مملكته، مؤثراً لأهل العلم والدين، كثير المشورة لهم» قال: «وبلغني أن الإمام حجة الإسلام أبي حامد الغزالى رحمة الله لما سمع ما هو عليه من الأوصاف الحميدة، وميله إلى أهل العلم، عزم إلى

التوجه إليه، فوصل إلى الإسكندرية وشرع في تجهيز ما يحتاج إليه، فجاء إليه الخبر بوفاته، فرجع عن ذلك العزم» قال: «وكلت وقفت على هذا الفصل في بعض الكتب وقد ذهب عني في هذا الوقت من أين وجده». .

وكان أمير المسلمين يوسف معتدل القامة، أسمرا اللون، نحيف الجسم، خفيف العارضين، دقيق الصوت.

وكان يخطب لبني العباس، وهو أول من تسمى بأمير المسلمين. ولم يزل على حاله وعزم سلطانه إلى أن توفي يوم الاثنين لثلاث خلون من المحرم سنة خمسماة. وعاش سبعين سنة، ملك منها مدة خمسين سنة رحمة الله.

وقال ابن خلدون: «تسمى يوسف بن تاشفين بأمير المسلمين، وخطب الخليفة لعهده ببغداد وهو أبو العباس أحمد المستظر بالله العباسي - وبعث إليه عبد الله بن محمد بن العربي المعافري الإشبيلي وولده القاضي أبي بكر بن العربي الإمام المشهور، فلتطفا في القول وأحسنا في الإبلاغ، وطلبا من الخليفة أن يعقد لأمير المسلمين بالمغرب والأندلس، فعقد له، وتضمن ذلك مكتوب من الخليفة متفقون في أيدي الناس. واتقلبا إليه بتقليد الخليفة وعهده على ما إلى نظره من الأقطار والأقاليم، وخطبه الإمام الغزالى والقاضي أبو بكر الطرطوشى يحضانه على العدل والتمسك بالخير، ثم أجاز يوسف بن تاشفين الجواز الرابع إلى الأندلس سنة سبع وتسعين وأربعين وأربعمائة» أهـ كلام ابن خلدون.

وإنما احتاج أمير المسلمين إلى التقليد من الخليفة المستظر بالله - مع أنه كان بعيداً عنه وأقوى شوكته منه - لتكون ولادته مستندة إلى الشيعـ . وهذا من ورـه رحـمه اللهـ .

وإنما تسمى بأمير المسلمين دون أمير المؤمنين أدباً مع الخليفة، حتى لا يشاركه في لقبه! لأن لقب أمير المؤمنين خاص بال الخليفة، وال الخليفة من قريش كما في الحديث فافهمـ .

ومن أخبار يوسف بن تاشفين أيضاً ما نقله غير واحد من الأئمة، أن أمير المسلمين طلب من أهل البلاد المغربية والأندلسية المعاونة بشيء من المال على ما هو بصدره من الجهاد، وأنه كاتب إلى قاضي المرية أبي عبد الله محمد بن يحيى - يأمره بفرض معونة المرية، ويرسل بها إليه، فامتنع محمد بن يحيى من فرضها، وكتب إليه يخبره بأنه لا يجوز له ذلك، فأجابه أمير المسلمين بأن القضاة عندي والفقهاء قد أباحوا فرضها، وأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد فرضها في زمانه. فراجعه القاضي عن ذلك بكتاب يقول فيه: «الحمد لله الذي إليه مأبنا، وعليه حسابنا». وبعد، فقد بلغني ما ذكره أمير المسلمين من اقتضاء المعونة وتأخرها عن ذلك، وأن أبو الوليد الباقي وجميع القضاة والفقهاء بالعدوة والأندلس افتوه بأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه اقتضاها، فالقضاة والفقهاء إلى النار دون زيانة فإن كان عمر اقتضاها فقد كان صاحب رسول الله ﷺ وزيره وضجيعه في قبره، ولا يشك في عدله، وليس أمير المسلمين بصاحب رسول الله ﷺ ولا بوزيره ولا بضجيعه في قبره، ولا من لا يشك في عدله. فإن كان القضاة والفقهاء أنزلوك متزلفه في العدل فانه تعالى سائلهم وحسبيهم عن تقليلهم فيك. وما اقتضاها عمر رضي الله عنه حتى دخل مسجد رسول الله ﷺ، وحضر من كان معه من الصحابة رضي الله عنهم، وحلف أن ليس عنده في بيته مال المسلمين درهم واحد ينفقه عليهم. فليدخل أمير المسلمين المسجد الجامع بحضوره من هناك من أهل العلم، وليحلف أن ليس عنده في بيته مال المسلمين درهم ينفقه عليهم، وحينئذ تجب معونته، والله تعالى على ذلك كله والسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته». فلما بلغ كتابه إلى أمير المسلمين وعظه الله بقوله، ولم يعد عليه في ذلك قوله، والأعمال بالنيات.

وكان أمير المسلمين حين ورد عليه التقليد من الخليفة ضرب السكة

باسمه، ونقش على الدينار: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدُ رَسُولُ اللَّهِ» وتحت ذلك: «أمير المسلمين يوسف بن تاشفين» وكتب على الدائرة: «وَمَنْ يَكْفَئْ
عَيْرَ الْأَتْلَمْ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ يَتَّهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِيرِينَ» [آل عمران: ٨٥]
وكتب على الصفحة الأخرى: «عبد الله أحمد أمير المؤمنين العباسى» وعلى الدائرة تاريخ ضربه وموضع سكته.

وكان ملكه قد انتهى إلى مدينة أفراغة من قاصية شرق الأندلس، وإلى
مدينة أشبونة على البحر المحيط من بحر الأندلس، وذلك مسيرة ثلاثة
وثلثين يوماً طولاً. وفي العرض ما يقرب من ذلك.

وملك بعده المغرب من جزائربني مزغنة إلى طنجة، إلى آخر
السوس الأقصى إلى جبال الذهب من بلاد السودان.

ولم ير في بلده ولا عمل من أعماله على طول أيامه رسم
مكس ولا خراج، لا في حاضرة ولا في بادية إلا ما أمر الله به، وأوجبه
حكم الكتاب والسنة من الزكوات والأعشار، وجزيات أهل النمة، وأخماس
الغنائم.

وقد جبى في ذلك من الأموال على وجهها ما لم يجبيه أحد قبله. يقال
إنه وجد في بيت ماله بعد وفاته ثلاثة عشر ألف ربع من الورق، وخمسة
آلاف وأربعون ربعاً من مطبوع الذهب.

وكان رحمة الله زاهداً في زينة الدنيا وزهرتها، ورعاً مت遁ساً، لباسه
الصوف، لم يلبس قط غيره. وماكله الشعير ولحوم الإبل وألبانها، مقتصرًا
على ذلك، لم ينقل عنه مدة عمره على ما منحه الله من سعة الملك وخلوه
من نعمة الدنيا. وقد رد أحكام البلاد إلى القضاة، وأسقط ما دون الأحكام
الشرعية. وكان يسير في أعماله بنفسه، فيتفقد أحوال الرعية في كل سنة.
وكان محباً للفقهاء وأهل العلم والفضل. مكرماً لهم، صادراً عن رأيهم،
يجري عليهم أرزاقهم من بيت المال. وكان مع ذلك حسن الأخلاق
متواضعاً، كثير الحباء جاماً لخصال الخير. رحمة الله تعالى ورضي عنه.

الخبر عن دولة أمير المسلمين أبي الحسن علي بن يوسف بن تاشفين اللمتونى

لما توفي أمير المسلمين يوسف بن تاشفين في التاريخ المتقدم، بايع الناس ابنه علي بن يوسف المذكور بمراكبش بعهد من أبيه إليه، وتسمى بأمير المسلمين.

وكان سنه يوم بويع ثلاثة وعشرين سنة. وملك من البلاد ما لم يملكه أبوه، لأنّه صادف البلاد ساكنة، والأموال وافرة، والرعايا آمنة بانقطاع الشوار واجتماع الكلمة، وسلك طريقة أبيه في جميع أمره واهتدى بهديه.

خروج يحيى بن أبي بكر بن يوسف بن تاشفين على عمه أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين

لما توفي أمير المسلمين يوسف بن تاشفين سجاه ابنه علي بن يوسف بشوره، وخرج إلى المرابطين - ويده في يد أخيه أبي الطاهر تميم بن يوسف فباعه. ثم قال للمرابطين: «قوموا فباعوا أمير المسلمين». فباعه جميع من حضر من ل茅ونة وسائر قبائل صنهاجة، وباعه الفقهاء وأشياخ القبائل، فتمت البيعة بمراكبش.

ثم كتب إلى سائر بلاد المغرب والأندلس وبلاد القبلة يعلمهم بوفاة أبيه واستخلافه من بعده، ويأمرهم بالبيعة، فأتته البيعة من جميع البلاد، وأقبلت نحوه الوقود للتعزية والتهنئة إلا أهل مدينة فاس. فإن ابن أخيه يحيى بن أبي بكر بن يوسف كان أميراً عليها من قبل جده يوسف. فلما انتهى إليه الخبر بموت جده وولاية عمّه عظم عليه ذلك وأنف من مبايعة عمّه، فخرج عليه ووافقه على ذلك جماعة من قواد ل茅ونة، فزحف إليه علي بن يوسف من

مراكش، حتى إذا دنا من فاس خاف يحيى بن أبي بكر على نفسه، وعلم أنه لا طاقة له بحرب عمه. فأسلم فاساً لعمه. وخرج منها خائفاً يترقب. فدخلها علي بن يوسف يوم الأربعاء الثامن من ربيع الآخر سنة خمسماة. واستقام له الأمر.

وقيل إن علي بن يوسف لما دنا من فاس نزل بمدينة مغيلة من أحوازها ثم كتب إلى ابن أخيه يعاتيه على ما ارتكبه من الخلاف، ويدعوه إلى الدخول في الطاعة كما دخل الناس. وكتب كتاباً آخر إلى أشياخ البلد يدعوهم فيه إلى بيته، ويتهذبهم ويتوعدهم، فلما وصل الكتاب إلى يحيى وقرأه، جمع أهل البلد واستشارهم في المقابلة والمحصار، فلم يوافقوه. فلما يشن منهم خرج فاراً إلى مزدلي بن تيلكان - وكان عاماً على تلمسان - فلقيه مزدلي بروادي ملوية مقلباً برسم البيعة لعلي بن يوسف. فأعلمه يحيى بما كان من شأنه، فضمن له مزدلي عن عمه العفو والصفح، فرجع معه حتى إذا وصلا إلى فاس، دخل مزدلي على أمير المسلمين علي بن يوسف، ونزل يحيى مستخفياً بحومة وادي شروع.

ولما اجتمع مزدلي بأمير المسلمين وسلم عليه ورأى منه إكراماً وقبلاً أعلمه بخبر يحيى، وما ضمن له من العفو، فأجابه إلى ذلك وعفا عنه وأمه! ثم جاء يحيى فباعيه، وخيرة أمير المسلمين بين أن يسكن بجزيرة ميروقة بشرق الأندلس أو ينصرف إلى بلاد الصحراء. فاختار الصحراء فانصرف إليها، ثم سافر منها إلى الحجاز فحج البيت ورجع إلى عمه فاستأذنه أن يكون في جملته، ويكون سكناه معه بحضورة مراكش، فأذن له في ذلك فسكنها مدة، ثم اتهمه عمه بالتشغيب عليه فتفقه، ويعث به إلى الجزيرة الخضراء فاستمر بها إلى أن مات.

أخبار الولاة بال المغرب والأندلس

لما بُويع أمير المسلمين علي بن يوسف عزل عن قرطبة الأمير أبا عبد الله محمد بن الحاج المعموني، وولي مكانه القائد أبا عبد الله محمد بن أبي زلفى، فغزا طليطلة، وأوقع بالنصارى فقتلهم قتلاً ذريعاً بباب القنطرة أخذهم على غرة.

وفي سنة إحدى وخمسين عزل أمير المسلمين أخاه تميم بن يوسف بن تاشفين عن بلاد المغرب، وولي مكانه أبا عبد الله بن الحاج، فأقام والياً على فاس وسائر أعمال المغرب نحو ستة أشهر، ثم عزله وولاه بلنسية وأعمالها من بلاد شرق الأندلس.

ولما عزل أمير المسلمين أخاه تميم بن يوسف عن بلاد المغرب ولاه غرناطة وأعمالها من بلاد الأندلس، فكانت له على النصارى وقعة أفليج، وذلك أنه خرج غازياً بلاد الفرنج سنة اثنين وخمسين فنزل حصن أفليج - وبه جمع عظيم من الفرنج - فحاصرهم حتى اقتحم عليهم الحصن، فأرز النصارى إلى القصبة فتحصتوا بها، وانتهى خبرهم إلى الفتن فاستعد للخروج لإغاثتهم، فأشارت عليه زوجته أن يبعث ولده عوضاً منه، لأن تميم بن يوسف ابن ملك المسلمين، وسائحة ابن ملك النصارى، فامتثل إشارتها، وبعث ولده سانحة في جيش كثيف من زعماء الفرنج وأنجادهم. فسار حتى إذا دنا من أفليج أخبر تميم بن يوسف بمقولمه، فعزم على الإفراج عن الحصن وأن لا يلقى الفرنج. فأشار عليه قواد لمتونة منهم عبد الله بن محمد ابن فاطمة ومحمد بن عائشة وغيرهم بالمقام. وشجعوا وهونوا عليه أمرهم. فقالوا: «إنما قدموا في ثلاثة آلاف فارس، وبيننا وبينهم مسافة». فرجع إلى رأيهم، فلم يكن إلا عشي ذلك اليوم حتى وافتهم جيوش الفرنج في ألواف

كثيرة، فهم تميم بالفارار فلم يجد له سبيلاً ثم صمم قواد لمتونة على مناجزة العدو، وصعدوا إليه فكانت بينهم حرب عظيمة بعد العهد بمثلها، فهزم الله تعالى العدو ونصر المسلمين، وقتل ولد الفنش، وقتل معه من الروم ثلاثة وعشرون ألفاً ونيف. ودخل المسلمون أقليج بالسيف عنوة، واستشهد في هذه الواقعة جماعة من المسلمين رحمهم الله. واتصل الخبر بالفنش فاغتتم لقتل ولده وأخذ بلده وهلاك جنده، فمرض ومات أسفًا لعشرين يوماً من الواقعة. وكتب تميم بن يوسف إلى أمير المسلمين بالفتح.

واعلم أنه يقال في ملوك الجالقة الذين نسميهم اليوم الإصينيون الأذفونش، ويقال الفنش. فقال ابن خلkan: «الأذفونش بضم الهمزة وسكون الدال المعجمة وضم القاء وسكون الواو بعدها نون ثم شين معجمة هو اسم لأكبر ملوك الإفرنج وهو صاحب طليطلة». وقال ابن خلدون: «بني أذفونش هم ولد أذفونش بن بطرة أول ملوك الجالقة» اهـ. وأما قولهم الفنش فهو اسم علم لبعض ملوكهم، وليس لقباً لجميعهم.

وكان محمد بن الحاج رحمه الله مدة مقامه ببلنسية قد ضيق على النصارى تضييقاً فاحشاً بالغارات والنهب، فخرج في غزوة له ذات مرة فأخذ على طريق البرية فغنم وسبى، وكان معه جماعة من قواد لمتونة، فبعث بالمعنى على الطريق الكبير، وأخذ هو على بريه تقرب من بلاد المسلمين. وكان أكثر الناس مع المعنم. وكان طريق البرية الذي أخذ عليه محمد بن الحاج لا يسلك إلا على سرب واحد لصعوبته وشدة وعورته. فلما توسمه محمد بن الحاج وأخذته الأوعار والمضايق من بين يديه ومن خلفه وجد النصارى قد كمنوا له في جهة من تلك الجهات. فقاتلهم قتال من أيقن بالموت واغتنم الشهادة، إذ لم يجد منفذًا يخلص منه. فاستشهد رحمه الله واستشهد معه جماعة من المتطوعة، وتخلص منهم القائد محمد بن عائشة في نهر يسير بحيلة أعملها.

وأتصل خبر الوعة بأمير المسلمين فاسفة موت أبي عبد الله بن الحاج وولى مكانه أبي بكر بن إبراهيم بن تافلوت، وهو ممدوح بن خفاجة ومخدوم أبي بكر بن باجة الحكيم المعروف بابن الصائغ - وكان عاماً على مرسية - فوصل إليه العهد بالولاية على بلنسية وطرطوشة وما والاهما، وهو بمرسية. ثم خرج بجيشه مرسية إلى بلنسية، فاجتمع إليه من كان بها من الجندي. ثم زحف بهم إلى برشلونة فنازلها، وأقام عليها عشرين يوماً، فانتسف ما حولها وقطع ثمارها وخرب قراها، فأتاه ابن رذمير من قرابة الأذقونش في جيوش كثيرة من حشود بسيط برشلونة وببلاد أربونة فكانت بينهم حرب عظيمة مات فيها خلق كثير من الفرج، واستشهد فيها من المسلمين نحو السبعين

رحمهم الله تعالى.

أخبار أمير المسلمين علي بن يوسف في الجهاد وجوازه الأول إلى بلاد الأندلس

لما دخلت سنة ثلاثة وخمسين جاز أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين إلى الأندلس برسم الجهاد، فعبر البحر من سبتة منتصف المحرم من السنة المذكورة في جيوش عظيمة تزيد على مائة ألف فارس، فانتهى إلى قرطبة فأقام بها شهراً، ثم خرج منها غازياً إلى مدينة طليبوت، ففتحها عنوة بالسيف. وفتح من أعمال طليطلة سبعة وعشرين حصناً، وفتح مجريط^(١) ووادي الحجارة، وانتهى إلى طليطلة فحاصرها شهراً وانتسف ما حولها، وبالغ في النكبة، ثم قفل إلى قرطبة بعد أن دوخ البلاد.

وفي سنة أربع وخمسين فتح الأمير سير بن أبي بكر شنترين،

(١) هي المسماة اليوم مادرید دار ملك الإصبعیول. مؤلف.

وبطليوس، ويبورة، وبرنغال، وأشبونة؛ وغير ذلك من بلاد غرب الأندلس. وكان ذلك في شهر ذي القعدة من السنة المذكورة، وكتب بالفتح إلى أمير المسلمين.

وفي سنة سبع وخمسينات توفي الأمير سير بن أبي يكر بإشبيلية ودفن بها، وولي إشبيلية عوضاً منه أبو عبد الله محمد بن فاطمة، فلم يزل عليها إلى أن توفي سنة عشر وخمسينات.

وفي سنة سبع المذكورة غزا الأمير مزدلي طليطلة وأعمالها، فدروخها وفتح حصن أرجنة عنوة، فقتل المقاتلة وسبي النساء والذرية. واتصل الخبر بالبرهانس - كبير الفرنج - فأقبل لنصرتهم واستنقاذهم، فصمد القائد مزدلي للقاء، ففر أمامه ليلاً، وعاد مزدلي إلى قرطبة ظافراً غانماً.

ثم كانت له في الفرنج وقائع أخرى، إلى أن توفي رحمه الله غازياً ببلاد الفرنج سنة ثمان وخمسينات. فولى أمير المسلمين مكانه على قرطبة ابنه محمد بن مزدلي، فأقام ولaceaً عليها ثلاثة أشهر، ثم توفي شهيداً في بعض غزوته أيضاً.

استيلاء العدو على سرقسطة

كانت سرقسطة وأعمالها من شرق الأندلس بيدبني هود الجذاميين، تغلبوا عليها في صدر المائة الخامسة أيام الطوائف، وتوارثوها إلى أن كان منهم أحمد بن يوسف الملقب بالمستعين بالله، فزحف إليه ابن رذمير سنة ثلاث وخمسينات، فخرج إليه المستعين فالتقوا بظاهر سرقسطة، فانهزم المسلمون واستشهد منهم جماعة منهم المستعين بن هود.

ثم لما كانت سنة اثنين عشرة - وصاحب سرقسطة يومئذ عبد الملك بن المستعين بن هود الملقب بعماد الدولة - زحف ابن رذمير

إليها وزحف الفتنش أيضاً في أمم من النصرانية إلى لاردة من بلاد الجوف فنازلتها. واتصل الخبر بأمير المسلمين، فكتب إلى أمراء غرب الأندلس يأمرهم بالمسير إلى أخيه تميم بن يوسف - وكان يومئذ واليأ على شرق الأندلس - فيسرون معه لاستنقاذ سرقسطة ولاردة، فقدم على تميم عبد الله بن مزدلي وأبو يحيى بن تاشفين - صاحب قرطبة - بعساكرهما، فخرج تميم بن يوسف من بلنسية مع أمراء الأندلس، فصمد نحو لاردة، وكان بينه وبين الفتنش قتال عظيم أزعجه عن لاردة خاستاً صاغراً، بعد أن بذل جهده في حصارها، وأفقد من جيشه عليها ما يزيد على العشرة آلاف فارس، ورجع تميم إلى بلنسية.

ولما رأى ابن رذمير ذلك بعث إلى طوائف الإفرنج يستصرخهم على سرقسطة، فأتوا في أمم كالنمل حتى نازلها معه وشرعوا في القتال، وصنعوا أبراجاً من خشب تجري على بركات وقربوها منها، ونصبوا فيها الرعادات، ونصبوا عليها عشرين منجنيقاً، وقوى طمعهم فيها، فاشتد الحصار واستمر حتى فنيت الأقوات وهلك أكثر الناس جوعاً، فراسل المسلمون الذين بها ابن رذمير على أن يرفع عنهم القتال إلى أجل، فإن لم يأتينهم من ينصرهم أخلوا له البلد وأسلموه إليه، فعاهدتهم على ذلك، فتم الأجل ولم يأتهم أحد، فدفعوا إليه المدينة وخرجوا إلى مرسيه وبلنسيه، وذلك سنة الثنتي عشرة وخمسماهية. وبعد استيلاء النصارى عليها وصل من بر العدو جيش فيه عشرة آلاف فارس بعثه أمير المسلمين لاستنقاذها فوجدوها قد فرغ منه ونفذ حكم الله فيها.

وفي سنة ثلث عشرة وخمسماهية، تغلب ابن رذمير على بلاد شرق الأندلس، وملك قلعة أيوب التي ليس في بلاد شرق الأندلس أمنع منها، وألح بالغارات على بلاد الجوف، فاتصلت هذه الأخبار بأمير المسلمين وهو بمراكش، فجاز إلى الأندلس برسم الجهاد وضبط التغور، وهو جوازه الثاني

فجاز معه خلق كثير من المرابطين والمتطوعة من العرب وزنانة والمصادمة وسائر قبائل البربر، فوصل بجيشه إلى قرطبة، ونزل خارجها وأتته وفود الأندلس للسلام عليه، فسألهم عن أحوال بلادهم وشغورهم بلداً بلداً، فعرفوه بما كان.

وعزل القاضي أبي الوليد بن رشد عن قضاء قرطبة، وولى مكانه أبي القاسم بن حمدين ويقال إنما عزل ابن رشد لأنَّه استغافاه، وكان قد اشتغل بتأليف البيان والتحصيل.

ثم سار أمير المسلمين حتى نزل على مدينة شنتمرية ففتحها عنوة، وسار في بلاد الفرنج يقتل ويسيب ويقطع الشمار، ويخرب القرى والديار حتى دوخ بلاد غرب الأندلس، وفر أمامه الفرنج وتحصنوا بالمعاقل المنيعة.

وفي سنة خمس عشرة وخمسين عاد أمير المسلمين إلى بلاد العدوة، بعد أن ولَّ أخاه تميم بن يوسف على جميع بلاد الأندلس، فلم يزل عليها إلى أن توفي ستة عشرين وخمسين.

ولاية الأمير تاشفين بن علي بن يوسف على بلاد الأندلس وأخباره في الجهاد

لما توفي الأمير تميم بن يوسف في التاريخ المتقدم ولَّ أمير المسلمين على بلاد الأندلس ابنه تاشفين بن علي بن يوسف، ما عدا الجزائر الشرقية فإنه قد عقد عليها لمحمد بن علي المسوفي المعروف بابن غانية، فعبر الأمير تاشفين البحر إلى الأندلس في خمسة آلاف من الجناد، وبعث إلى أجناد البلاد فأتوه فخرج بهم غازياً طليطلة، ففتح بعض حصونها بالسيف وانتسف ما حولها.

وفي السنة المذكورة، أعني سنة عشرين وخمسين هزم الأمير تاشفين

النصارى بفحص الصباب وقتلهم قتلاً ذريعاً، وفتح ثلاثين حصناً من حصون غرب الأندلس، وكتب بالفتح إلى أبيه.

وفي سنة ثلاثين وخمسة هزم الأمير تاشفين جموع الفرنج بفحص عطية، وأفني منهم خلقاً كثيراً بالسيف.

وفي سنة إحدى وثلاثين بعدها دخل الأمير تاشفين مدينة كركى بالسيف، فلم يبق بها بشراً.

وفي سنة اثنين وثلاثين بعدها جاز الأمير تاشفين من الأندلس إلى المغرب، بعد أن غزا مدينة أشكونية ففتحها عنوة، وحمل معه من سبيها إلى العدو ستة آلاف سيدة، فانتهى إلى مراكش، وخرج أمير المسلمين للقاء في ذي عظيم وسرور كبير.

وفي سنة ثلث وثلاثين بعدها أخذ أمير المسلمين البيعة لولده تاشفين.

وفي سنة سبع وثلاثين وخمسة كانت وفاة أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين الممتوني رحمة الله. وذلك لسبعين خلون من رجب من السنة المذكورة. قال ابن خلكان: «كان أبو الحسن علي بن يوسف بن تاشفين رجلاً حليماً، وقوراً، صالحًا، عادلاً، منقاداً إلى الحق والعلماء؛ تعجبى إليه الأموال من البلاد، ولم يزعزعه عن سريره قط حادث ولا طاف به مكروه».

قلت قد طاف به في آخر دولته أعظم مكروه. وذلك محمد بن تومرت النابغ تحت إيطه بجبال المصاصدة كما يأتي خبره إن شاء الله.

الخبر عن دولة أبي المعز تاشفين بن علي بن يوسف ابن تاشفين الممتوبي

لما توفي أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين في التاريخ المتقدم ولبي بعده ابنه أبو المعز تاشفين بن علي بعهد من أبيه إليه، وأخذ بطاعته ويعنته أهل العدويتين معاً كما كانوا في عهد أبيه.

وكان أمر عبد المؤمن بن علي يومئذ قد استفحلاً بيتميلل وسائر بلاد المصامدة أهل جبل درن. قال ابن الخطيب: «كان تاشفين بن علي قد استخلفه أبوه على بلاد الأندلس، ثم استقدمه لمدافعة أصحاب محمد بن تومرت مهدي الموحدين، فلم ينجع أمره، بخلاف ما عوده الله في بلاد الأندلس من النصر، لما قضاه الله من الإدبار على دولتهم».

ولما خرج عبد المؤمن بن علي من بيتميلل يريد فتح بلاد المغرب - وكان مسيرة على طريق الجبال - سير أمير المسلمين علي بن يوسف ابنه تاشفين المذكور معارضًا له على طريق السهل، وأقاموا على ذلك مدة توفي أمير المسلمين علي بن يوسف في أثنائها، وأفدى الأمر إلى ابنه تاشفين وهو في الحرب.

وقدم أهل مراكش إسحاق بن علي بن تاشفين ناتيًّا عن أخيه تاشفين بمراكب وأعمالها، ومضى تاشفين بعد البيعة له متبعًا لعبد المؤمن حتى انتهى تلمسان، فنزل عبد المؤمن بكهف الضحاك بين الصخريتين من جبل تيطري المطل عليها، ونزل تاشفين بالبسط مما يلي الصفصاف، ووصله هناك مدد صنهاجة، من قبل يحيى بن العزيز صاحب بجاية، مع قائده طاهر بن كياب، لعصبية الصنهاجية. وفي يوم وصوله أشرف على عسكر الموحدين، وكان يدل بإقدام وشجاعة. فقال لجيش لمتونة: «إنما جئتكم لأخلكم من أصحابكم عبد المؤمن هذا وأرجع إلى قومي!» فامتعض تاشفين لكلمه وأذن له في المناجزة، فحمل على القوم فركبوا وصمموا للقاءه فكان آخر العهد به

وب العسكرية. وكان الموحدون قد قتلوا قبل ذلك الروبرتير قائد تاشفين على الروم، وقتلوا عسكره في بعض الغارات، ثم فتكوا بعسكر ثالث من عساكر تاشفين، ونالوا منه أعظم النيل.

وفي القرطاس: «زحف المرابطون لقتال الموحدين فتهاجم تاشفين فلم ينتهوا، وتعلقوا في الجبل لقتالهم، فهبط عليهم الموحدون فهزموهم هزيمة شناء». .

ولما توالت هذه الواقائع على تاشفين أجمع الرحلة إلى وهران. فبعث ابنه إبراهيم ولي عهده إلى مراكش في جماعة من لمنونة، وبعث كاتباً معه أحمد بن عطية، ورحل هو إلى وهران سنة تسع وثلاثين وخمسة، فأقام عليها شهراً يتظاهر قائداً لسطوله محمد بن ميمون، إلى أن وصل إليه من المرية عشرة أساطيل، فأرسى قريباً من عسكره، وزحف عبد المؤمن من تلمسان، وبعث في مقدمته الشيخ أبي حفص عمر بن يحيى، فقدموا وهران، وقضوا جموع المرابطين الذين بها، ولجأ تاشفين إلى رابية هناك، فأحدقوا بها وأضروا النيران حولها، حتى إذا غشيهم الليل خرج تاشفين من الحصن راكباً على فرسه، فتردى من بعض حافات الجبل، وهلك لسيع وعشرين من رمضان سنة تسع وثلاثين وخمسة. ونجا فل العسكري إلى وهران، فانحصروا مع أهلها، حتى جهدهم العطش، ونزلوا جميعاً على حكم عبد المؤمن يوم عيد الفطر من السنة المذكورة، فأنى عليهم القتل رحمة الله! .

وقال في القرطاس: «إن تاشفين بن علي خرج ذات ليلة - وهو بوران - ليضرب في محله الموحدين، فتكاثرت عليه الخيل والرجل، ففر آمامهم، وكان بجبل عال مشرف على البحر، فظن أن الأرض متصلة به، فأهوى من شاهق بيازاء رابطة وهران، فمات رحمة الله. وكان ذلك في ليلة مظلمة ممطرة وهي ليلة السابع والعشرين من رمضان من السنة المذكورة آنفاً. .

فوجد من العقد بإزاء البحر ميتاً، فاحتز رأسه وحمل إلى تينملل، فعلق على شجرة هناك. وذلك بعد ملازمة الحرب مع الموحدين في البيداء، لم يأو إلى ظل قط من يوم بوييع إلى أن مات. وكانت مدة ولادته سنتين وشهراً ونصف شهر».

وقال ابن خلكان: «لما تيقن تاشفين بن علي أن دولتهم ستزول أني مدينة وهران - وهي على البحر - وقصد أن يجعلها مقراً، فإن غلب على الأمر ركب منها إلى الأندلس. وكان في ظاهر وهران ربوة على البحر تسمى صلب الكلب، وبأعلاها رباط يأوي إليه المتعبدون. وفي ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان سنة تسع وثلاثين وخمسين صعد تاشفين إلى ذلك الرباط ليحضر الختم في جماعة يسيرة من خواصه، وكان عبد المؤمن بجتمعه في تاكرارت وهي وطنه. واتفق أنه أرسل منسراً من الخيل إلى وهران، فوصلوها في اليوم السادس والعشرين من رمضان وقدمهم الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى - صاحب المهدى - فكمنوا عشية، وأعلموا بانفراد تاشفين في ذلك الرباط، فقصدوه وأحاطوا به وأحرقوا بابه فرأي الذين فيه بالهلاك، فخرج راكباً فرسه وشد الركض عليه ليثب الفرس النار وينجو، فترامى الفرس نازياً لروعته ولم يملكه اللجام حتى تردى من جرف هنالك إلى جهة البحر على حجارة في محل وعر، فتكسر الفرس وهلك تاشفين في الوقت وقتل الخواص الذين كانوا معه وكان عسركه في ناحية أخرى لا علم لهم بما جرى في ذلك الليل. وجاء الخبر بذلك إلى عبد المؤمن فوصل إلى وهران. وسمى ذلك الموضع الذي فيه الرباط صليب الفتاح. ومن ذلك الوقت نزل عبد المؤمن من الجبل إلى السهل. ثم توجه إلى تلمسان، وهي مدینتان قديمة وحادثة بينهما شوط فرس. ثم توجه إلى فاس فحاصرها واستولى عليها سنة أربعين وخمسين. ثم قصد مراكش سنة إحدى وأربعين بعدها فحاصرها أحد عشر شهراً وفيها إسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين

وجماعة من مشايخ دولتهم. فقلموه بعد موت أبيه علي بن يوسف نائباً عن أخيه تاشفين، فاستولى عليها وقد بلغ القحط من أهلها كل مبلغ، وأخرج إليه إسحاق بن علي ومعه سير بن الحاج - وكان من الشجعان ومن خواص دولتهم - وكانا مكتوفين، وإسحاق دون بلوغ، فعزم عبد المؤمن أن يغفو عن إسحاق لصغر سنّه، فلم يوافقه خواصه وكان لا يخالفهم، فخلى بينهم وبينهما فقتلوهما. ثم نزل عبد المؤمن القصر وذلك سنة اثنتين وأربعين وخمسين». .

وقال ابن خلدون: «أقام الموحدون على مراكش تسعه أشهر، وأمير الملثمين يومئذ إسحاق بن علي بن يوسف، بايعوه صبياً صغيراً عند بلوغ خبر أخيه، ولما طال عليهم الحصار وجهدهم الجوع بربوا إلى مدفععة الموحدين فانهزموا وتبعهم الموحدون بالقتل واقتتلوا عليهم المدينة في أخرىات شوال سنة إحدى وأربعين وخمسين. وقتل عامة الملثمين، ونجا إسحاق في جملته وأعيان قومه إلى القصبة حتى نزلوا على حكم الموحدين وأحضر إسحاق بين يدي عبد المؤمن فقتله الموحدون بأيديهم، وتولى كبير ذلك أبو حفص عمر بن واكاك منهم وأنمحى أثر الملثمين، واستولى الموحدون على البلاد والله غالب على أمره».

قال ابن جنون: «كانت لمتونة أهل ديانة وصدق ونية خالصة وصحة مذهب، ملكوا بالأندلس من بلاد الإفرنج إلى البحر الغربي المحيط، ومن بلاد العدوة من مدينة يجایة إلى جبل الذهب من بلاد السودان، وخطب لهم على أزيد من ألفي منبر بالثلثية، وكانت أيامهم أيام دعة ورفاهية ورخاء متصل، وعافية وأمن، تناهى القمع في أيامهم إلى أن بيع أربعة أوسق بنصف مقابل، وبيعت الثمار ثمانية أوسق بنصف مقابل. والقطاني لا تباع ولا تشتري، وكان ذلك مصحوباً بطول أيامهم، ولم يكن في عمل من أعمالهم خراج ولا معونة ولا تسقيط، ولا وظيف من الوظائف المخزنية حاشا الزكاة والعشر. وكثرت

الخيرات في دولتهم وعمرت البلاد ووّقعت الغبطة، ولم يكن في أيامهم نفاق ولا قطاع طريق، ولا من يقوم عليهم، وأحبهم الناس إلى أن خرج عليهم محمد بن تومرت مهدي الموحدين سنة خمس عشرة وخمسماة».

وأما الأحداث الواقعة في أيامهم ففي شهر ذي الحجة من سنة سبع وستين وأربعمائة ظهر النجم المعكف بالغرب.

وفي سنة إحدى وسبعين وأربعمائة كشفت الشمس الكسوف الكلي الذي لم يعهد قبله مثله، وكان ذلك يوم الاثنين عند الزوال في اليوم الثامن والعشرين من الشهر.

وفي سنةاثنين وسبعين بعدها كانت الزلزلة العظيمة التي لم ير الناس مثلها بالغرب، انهارت منها الأبنية، ووّقعت الصوامع والمنارات، ومات فيها خلق كثير تحت الهدم، ولم تزل الزلزلة تتعاقب في كل يوم وليلة من أول يوم ربيع الأول إلى آخر يوم من جمادى الآخرة من السنة المذكورة.

وفي سنة أربع وسبعين وأربعمائة ولد الفقيه القاضي أبو عبد الله محمد بن الأصبهن المعروف بابن المناصف صاحب الأرجوزة.

وفي سنة سبع وتسعين وأربعمائة توفي الفقيه الحافظ أبو عبد الله محمد بن الطلاع.

وفي سنة ثلاث عشرة وخمسماة توفي أبو الفضل يوسف بن محمد بن يوسف المعروف بابن التحوي بقلعة حماد، صاحب أبي الحسن اللخمي وغيره من المشايخ، وكان أبو الفضل من أهل العلم والدين على هدى السلف الصالح وكان مجتب الدعوة. ولما أفتى فقهاء المغرب بإحرق كتب الشيخ أبي حامد الغزالى رضي الله عنه، وأمر أمير المسلمين علي بن يوسف بحرقها انتصر أبو الفضل هذا لأبي حامد رحمة الله، وكتب إلى أمير المسلمين في ذلك. وحدث صاحب التشوف - وهو أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلى المراكشي الدار عرف بابن الزيات - بحسبه عن أبي الحسن علي بن حرزهم

قال: لما وصل إلى فاس كتاب أمير المسلمين علي بن يوسف بالتحريج على كتاب الإحياء، وأن يحلف الناس بالأيمان المغلظة أن كتاب الإحياء ليس عندهم ذهبت إلى أبي الفضل استفتته في تلك الأيمان فأفتي بأنها لا تلزم! وكانت إلى جنبه أسفار، فقال لي: «هذه الأسفار من كتاب الإحياء، وددت أنني لم أنظر في عمري سواها!» وكان أبو الفضل قد أنسخ كتاب الإحياء في ثلاثين جزءاً فإذا دخل شهر رمضان قرأ في كل يوم جزءاً. ومناقبه كثيرة رحمة الله.

قلت: لم يقع في دولة المرابطين أشنع من هذه النازلة وهي إحراق كتاب الإحياء فإنه لما وصلت نسخه إلى بلاد المغرب تصفحها جماعة من فقهائه منهم القاضي أبو القاسم بن حمدين، فانتقدوا فيها أشياء على الشيخ أبي حامد رضي الله عنه، وأعلموا السلطان بأمرها، وأفتوه بأنها يجب إحراقها، ولا تجوز قراءتها بحال.

وكان علي بن يوسف واقفاً - كأبيه - عند إشارة الفقهاء وأهل العلم قد رد جميع الأحكام إليهم، فلما أفتوا بإحرق كتاب الإحياء كتب إلى أهل مملكته فيسائر الأمصار والأنطوار بأن يبحث عن نسخ الإحياء بحثاً أكيداً، ويحرق ما عشر عليه منها، فجمع من نسخها عدد كثير ببلاد الأندلس، ووضعت بصحن جامع قرطبة وصب عليها الزيت ثم أوقدها على النار! وكذا فعل بما ألفى من نسخها بمراكش، وتواتي الإحرق علىها فيسائر بلاد المغرب! ويقال إن ذلك كان في حياة الشيخ أبي حامد رحمة الله وأنه دعا بسبب ذلك على المرابطين أن يمزق ملكهم، فاستجيب له فيهم! فإن كان كذلك فتاريχ الإحرق يكون فيما بين الخمسينات^(١) والخمس بعدها، لأن بيعة علي بن يوسف كانت على رأس الخمسينات، ووفاة الشيخ أبي حامد

(١) وهو كذلك كما في المعيار ذكر أنه في سنة اثنين أو ثلاثة مؤلف.

الغزالى رضي الله عنه كانت يوم الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة سنة خمس وخمسينات.

وفي سنة ست وثلاثين وخمسينات توفي الشيخ الفقيه أبو العباس أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله الصنهاجى المعروف بابن العريف كان متناهياً في الفضل والدين والزهد في الدنيا، منقطعاً إلى الخير، يقصده الناس ويألفونه فيحتمدون صحبته، وسعى به إلى أمير المسلمين علي بن يوسف فأمر بإشخاصه إلى حضرة مراكش، فوصلها وتوفي بها ليلة الجمعة الثالث والعشرين من صفر من السنة المذكورة، واحتفل الناس لجنازته، وندم أمير المسلمين على ما كان منه له في حياته، وظهرت له كرامات رحمه الله، ودفن بقرب الجامع القديم الذي بوسط مراكش في روضة القاضي موسى بن أحمد الصنهاجى.

قلت: وقبره الآن مشهور بسوق العطارين من مراكش عليه بناء حقيل.

وفي هذه السنة أيضاً أعني سنة ست وثلاثين وخمسينات توفي أبو الحكم بن برجان، قال ابن خلkan: «هو أبو الحكم عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الخمي عرف بابن برجان بفتح الباء الموحدة وتشديد الراء وبعدها جيم وبعد الألف نون، وكان عبداً صالحاً وله تفسير القرآن الكريم. وأكثر كلامه فيه على طريق أرباب الأحوال والمقامات». اهـ.

وقال في الت Shawf: «لما أشخص أبو الحكم بن برجان^(١) من قرطبة إلى حضرة مراكش وكان فقهاء العصر انتقدوا عليه مسائل قال أبو الحكم: «والله لا عشت ولا عاش الذي أشخصني بعد موتي!» يعني أمير المسلمين علي بن يوسف، فمات أبو الحكم فأمر أمير المسلمين أن يطرح على المزبلة ولا

(١) انظر السبب في تغريب هذين الزاهدين من المرية إلى مراكش في كتاب أعمال الأعلام لابن الخطيب صفحة 285، وفي المعجب للمراكيسي صفحة 136، وفي لسان الميزان لابن حجر صفحة 247 الجزء الأول.

يصلى عليه، وقلد فيه من تكلم فيه من الفقهاء.

وكان أبو الحسن علي بن حرزهم يومئذ بمراكش، فدخل عليه رجل أسود كان يخدمه ويحضر مجلسه، فأخبره بما أمر به السلطان في شأن أبي الحكم، فقال له أبو الحسن: «إن كنت تبيع نفسك من الله فافعل ما أقوله لك» فقال له: «أمرني بما شئت أفعله!» فقال له: «اتنادي في طرق مراكش وأسوقها: يقول لكم ابن حرزهم احضروا جنازة الشيخ الفقيه الصالح الزاهد أبي الحكم بن برجان، ومن قدر على حضورها ولم يحضر فعله لعنة الله» ففعل ما أمره، فبلغ ذلك أمير المسلمين، فقال: «من عرف فضله ولم يحضر جنازته فعله لعنة الله!».

قال ابن عبد الملك في كتاب الذيل والتكميلة: «أبو الحكم بن برجان مدفون بمراكش برحبة الحنطة منها» قال: «وهو الذي تقول له العامة سيدى أبو الرجال».

وكان الشيخ أبو ينور المشتراني موجوداً في هذه المدة، إلا أنى لم أقف على تاريخ وفاته. قال في التسوف: «هو أبو ينور عبد الله بن واكريس الدكالي من مشتارية من أشياخ أبي شعيب أبيوب السارية، كبير الشأن من أهل الزهد والورع. حدثوا عنه أنه مات أخوه فتزوج امرأته فقدمت إليه طعاماً يأكله فوقع في نفسه أن فيه نصيب الأيتام الذين هم أولاد أخيه فامسكت عنه وبات طاوياً. وجاءه رجل من أشياخ مشتارية فقال له: «إن عامل علي بن يوسف تهدمي بالقتل والصلب وقد خرج من مراكش متوجهاً إلى دكالة» فقال له أبو ينور: «رده الله عنك» فسار إلى أن بقى بينه وبين قرية يليسكاون - وهي أمتى تسميتها العامة بوسكاون - نصف يوم» فأصاب العامل وجع قضى عليه من حينه».

وفي سنة تسع وثلاثين وخمسماة ثار القاضي أبو القاسم بن حمدين بقرطبة مع العامة على المرابطين فقتلهم، والله وارث الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين.

الدولة الموحدية

الخبر عن دولة الموحدين من المصاصدة وقيامها على يد محمد بن تومرت المعروف بالمهدي

قال ابن خلدون: «كان للمصاصدة في صدر الإسلام بجبال درن عدد وقوة وطاعة للدين ومخالفة لإخوانهم برغواطة في نحلة كفرهم، وكان منهم قبل الإسلام ملوك وأمراء ولهم مع لمتونة ملوك المغرب حروب وفتنه أيامهم حتى كان اجتماعهم على المهدي وقيامهم بدعوته. فكانت لهم دولة عظيمة أذلت من لمتونة بالعدوين، ومن صنهاجة يافريقيا، حسبما هو مشهور ويأتي ذكره إن شاء الله تعالى. قال: «وأصل المهدي من هرغة من بطون المصاصدة يسمى أبوه عبد الله وتومرت، وكان يلقب في صغره أيضاً أمغار، وزعم كثير من المؤرخين أن نسبة في أهل البيت، فبعضهم ينسبه سليمان بن عبد الله الكامل بن حسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب، والله أعلم بحقيقة الأمر».

وكان أهل بيته أهل نسك ورباط، وكانت ولادته على ما عند ابن خلikan يوم عاشوراء سنة خمس وثمانين وأربعين، وشب المهدي قارئاً محباً للعلم. ثم ارتحل في طلبه إلى المشرق على رأس المائة الخامسة، ومر بالأندلس ودخل قرطبة وهي يومئذ دار علم، ثم لحق بالإسكندرية وحج ودخل العراق ولقي به جملة من العلماء وفحول النظار وأفاد علمًا واسعًا.

وكان يحدث نفسه بالدولة لقومه على يده. ولقي أبو حامد الغزالى وفاظبه بذاته صدره في ذلك فأراده عليه.

قال ابن خلkan: «اجتمع محمد بن تومرت بأبي حامد الغزالى، والكيا الهراسى، والطرطوشى وغيرهم، وحج وأقام بمكة مدة مديدة، وحصل قدرأ صالحأ من علم الشريعة والحديث النبوى وأصول الفقه والدين وكان ورعا ناسكاً، متقدساً مخشنوسناً مخلوقاً، كثير الإطراف، بساماً في وجوه الناس، مقبلاً على العبادة، لا يصحبه من متع الدنيا إلا عصا وركوة. وكان شجاعاً فصيحاً في لسان العرب والبربر، شديد الإنكار على الناس فيما يخالف الشرع، لا يقنع في أمر الله بغير إظهاره، وكان مطبوعاً على الإلذاد بذلك، متحملاً للأذى من الناس بسيبه. وناله بمكة - شرفها الله - شيء من المكروره من أجل ذلك، فخرج منها إلى مصر، وبالغ في الإنكار فزادوا في أذاه وطردته الولاة. وكان إذا خاف من البطش وإيقاع الفعل به خلط في كلامه، فينسب إلى الجنون، فخرج من مصر إلى الإسكندرية وركب البحر متوجهاً إلى بلاده.

وكان قد رأى في منامه وهو في بلاد المشرق بأنه شرب ماء البحر جمیعه كرتین، فلما ركب السفينة شرع في تغيير المنكر على أهل السفينة وألزمهم إقامة الصلوات وقراءة أحزاب من القرآن العظيم، ولم يزل على ذلك حتى انتهى إلى المهدية من أرض إفريقية، وكان ملكها يومئذ يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي وذلك في سنة خمس وخمسينه. هكذا ذكره ابن أخيه أبو محمد عبد العزيز بن شداد بن تميم الصنهاجي في كتاب الجمع والبيان في أخبار القبور. وقيل إن ارتحال محمد بن تومرت عن بلاد المشرق كان سنة عشر وخمسينه. واجتيازه بمصر كان سنة إحدى عشرة بعدها والله أعلم بالصواب.

ولما انتهى إلى المهدية نزل بمسجد مغلق وهو على الطريق، وجلس في طاق شارع إلى المحجة ينظر إلى المارة، فلا يرى منكراً من آلة الملاهي أو أوانى الخمر إلا نزل إليها وكسرها، فتسامع الناس به في البلد فجاوزوا إليه

وقرروا عليه كتاباً من أصول الدين، فبلغ خبره الأمير يحيى، فاستدعاه مع جماعة من الفقهاء. فلما رأى سنته وسمع كلامه أكرمه وأجله وسألته الدعاء، فقال له: «أصلحك الله لرعيتك». ولم يقم بعد ذلك بالمهديّة إلا أيامًا يسيرة، ثم انتقل إلى بجاية فأقام بها مدة وهو على حاله في الإنكار فأخرج منها إلى بعض قراها وأسمها ملالة فوجدها عبد المؤمن بن علي القيسي الكومي.

وقال ابن خلدون: «انطوى المهدي راجعاً إلى المغرب بحرأ متجرأ من العلم وشهاباً وارباً من الدين، وكان قد لقي بالشرق أئمة الأشعرية من أهل السنة وأخذ عنهم، واستحسن طريقهم في الانتصار للعقائد السلفية والذب عنها بالحجج العقلية الدافعة في صدر أهل البدعة، وذهب في رأيهما إلى تأويل المشابه من الآي والأحاديث بعد أن كان أهل المغرب بعزل عن اتباعهم في التأويل والأخذ برأيهما فيه اقتداء بالسلف في ترك التأويل وإقرار المشابهات كما جاءت. فبصر المهدي أهل المغرب في ذلك، وحملهم على القول بالتأويل والأخذ بمذاهب الأشعرية في كافة العقائد وأعلن بإمامتهم ووجوب تقليلهم، وألف العقائد على رأيهما مثل المرشدة في التوحيد.

وكان من رأيه القول بعصمة الإمام علي على رأي الإمامية من الشيعة، ولم تحفظ عنه فلتة في البدعة سواها! واحتل بطرابلس الغرب معنياً بمنهجه ذلك مظهراً للنکير على علماء المغرب في عدولهم عنه. آخذاً نفسه بتدریس العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما استطاع، حتى لقي بسبب ذلك إذایات في نفسه احتسبها من صالح عمله.

ولما دخل بجاية وبها يومئذ العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس بن حماد من أمراء صنهاجة وكان من المقتربين، فأغفل له ولأتباعه بالنکير، وتعرض يوماً لتغيير بعض المنكريات في الطرق، فوقع في هيبة نكرها السلطان والخاصية واتمروا به، فخرج منها خائفاً يترقب ولحق بملالة على فرسخ منها، وبها يومئذ بنو ورياكيل من قبائل صنهاجة وكان لهم اعتزار

ومنعة فاؤوه وأجاروه، وطلبهم السلطان صاحب بجایة بإسلامه إليه فأبوا وأسخطوه، وأقام بينهم يدرس العلم أياماً وكان يجلس إذا فرغ على صخرة بقارعة الطريق قريباً من ديار ملالة، وهناك لقيه كبير أصحابه عبد المؤمن بن علي حاجاً مع عمه، فأعجب بعلمه وصرف عزمه إليه فاختص به وشمر للأخذ عنه.

وفي كتاب المغرب عن سيرة ملوك المغرب: أن المهدي كان قد اطلع على كتاب يسمى الجفر من علوم أهل البيت - يقال إنه عشر عليه عند الشيخ أبي حامد الغزالى رضي الله عنه - وإن رأى فيه صفة رجل يظهر بالمغرب الأقصى بمكان يسمى السوس، وهو من ذرية رسول الله ﷺ، يدعو إلى الله، يكون مقامه ومدفنه بموضع من المغرب يسمى باسم هجاء حروفة ت ي ن م ل ل، ورأى فيه أيضاً: أن استقامة ذلك الأمر واستيلاته وتمكّنه يكون على يد رجل من أصحابه هجاء اسمه ع ب د م ن⁽¹⁾ ويحاوز وقته المائة الخامسة للهجرة، فأوقع الله سبحانه في نفسه أنه القائم بهذا الأمر وأن آوانه قد أزف، فما كان محمد يمر بموضع إلا ويسأل عنه، ولا يرى أحداً إلا أخذ اسمه وتتفقده حليته.

وكانت حلية عبد المؤمن معه، فيينما هو في الطريق رأى شاباً قد بلغ أشدّه على الصفة التي معه فقال له محمد بن تومرت - وقد تجاوزه - : «ما اسمك يا شاب؟» فقال: «عبد المؤمن» فرجع إليه وقال له: «الله أكبر! أنت بغيتي»! ونظر في حليته فوافقت ما عنده، فقال له: «من أين أقبلت؟» قال: «من كومية» قال: «أين مقصدك؟» فقال: «المشرق» قال: «ما تبغى؟» قال:

(1) راجع في كتاب أخبار المهدي وابتداء دولة الموحدين لأبي بكر الصنهاجي المطبوع بباريس على يد الأستاذ ليفي برو فانسال طبع كوتنيير سنة 1928م. كيفية اتصال عبد المؤمن بالمهدي فقد بسط الكلام في ذلك، صفحة 55 من النص العربي وما بعدها.

«علمأً وشرفاً» قال: «قد وجدت علمأً وشرفاً ذكرأً أصحبني تنهأ!» فوافقه على ذلك، فألقى إليه محمد بأمره وأودعه سره.

قال ابن خلدون: «وارتحل المهدي إلى المغرب - وعبد المؤمن في جملته - ولحق بوانشريس فصحبه منها أبو محمد عبد الله الوانشريسي المعروف بال بشير». .

وقال ابن خلكان: «وكان جميلاً فصيحاً في لغتي العرب والبربر، ففاظبه المهدي فيما عزم عليه من القيام، فوافقه على ذلك أتم موافقة. وكان البشير من تهذب وقرأ فقهاً، فتذاكرا يوماً في كيفية الوصول إلى المطلوب، فقال المهدي لل بشير: «أرى أن تستر ما أنت عليه من العلم والفصاحة عن الناس، وتظهر من العجز واللcken والحضر والتعرى عن الفضائل ما تشتهر به عند الناس، لتنخد المخروج عن ذلك واكتساب العلم والفصاحة دفعه واحدة سبيلاً إلى المطلوب! ويقوم لنا ذلك مقام المعجزة عند حاجتنا إليه فنصدق فيما نقول» ففعل البشير ذلك.

ثم لحق المهدي بتلمسان وقد تسامع الناس بخبره فأحضره القاضي بها - وهو ابن صاحب الصلاة - ووبخه على متنحله ذلك وعلى خلافه لأهل قطره، وظن القاضي أن من العدل نزعه عن ذلك، فقسم عن قوله واستمر على طريقه إلى فاس، فنزل بمسجد طربانة وأقام بها يدرس العلم إلى سنة أربع عشرة وخمسيناتة. ثم انتقل إلى مكناسة فنهى بها عن بعض المنكرات، فثار إليه الغوغاء وأوجعوه ضرباً. ثم لحق بمراکش وأقام بها آخذاً في شأنه، ولقي بها أمير المسلمين علي بن يوسف بالمسجد الجامع عند صلاة الجمعة فوعظه وأغلظ له في القول. ولقي ذات يوم أخت أمير المسلمين حاسرة قناعها على عادة قومها الملثمين في زي نسائهم فوبخها ودخلت على أخيها باكية لما نالها من تكريمه، ففاظب أمير المسلمين الفقهاء في شأنه بما وصل إليه من سيرته، وكانوا قد ملئوا منه حسدأً وحفيظة لما كان يتحل من مذهب

الأشعرية في تأويل المتشابه، وينكر عليهم جمودهم على مذهب السلف في إقراره كما جاء، ويرى أن الجمهور لقنوه تجسيماً، ويذهب إلى تكفيرون بذلك على أحد قولي الأشعرية في التكبير، فأغروا الأمير به فأخضره للمناظرة معهم، فكان له الفلاح والظهور عليهم.

وقال ابن خلkan: «كان محمد المهدي قد استدنى أشخاصاً من أهل المغرب جلاداً في القوى الجسمانية أعماراً. وكان أميل إلى الأعمار من أولى الفطن والاستبصار فاجتمع له منهم ستة نفر سوى أبي محمد البشير. ثم أنه رحل إلى أقصى المغرب، وتوجه في أصحابه إلى مراكش - وملكها يومئذ أبو الحسن علي بن يوسف بن تاشفين - وكان ملكاً عظيماً حليماً ورعاً عادلاً متواضعاً، وكان بحضرته رجل يقال له مالك بن وهيب^(١) الأندلسي وكان عالماً صالحاً - زاد ابن خلدون عارفاً بالنجوم - فشرع محمد المهدي في الإنكار على جري عادته حتى أنكر على ابنة الملك، فبلغ خبره الملك، وأنه يتحدث في تغيير الدولة، فتحدث مع مالك بن وهيب في أمره. فقال مالك بن وهيب: «نخاف من فتح باب يعسر علينا سده، والرأي أن تحضر هذا الشخص وأصحابه لنسمع كلامهم بحضور جماعة من علماء البلاد». فأجاب الملك إلى ذلك.

وكان المهدي وأصحابه مقيمين في مسجد خراب خارج البلد، فطلبواهم فلما ضمهم المجلس قال الملك لعلماء بلده: «سلوا هذا الرجل ما يبيغي منا» فانتدب له قاضي المرية - وأسمه محمد بن أسود - فقال: «ما هذا الذي يذكر عنك من الأقوال في حق الملك العادل الحليم المنتقاد إلى الحق المؤثر طاعة الله تعالى على هواه؟» فقال له المهدي: «أما ما نقل عنني فقد

(١) راجع ما قاله المقرري فيه في نفح الطيب ج 2 ص 925. وما ذكره أبو بكر الصنهاجي البيذن في كتابه أخبار المهدي وابتداء دولة الموحدين المطبوع بباريس سنة 1928 م ص 68 وما بعدها من النص العربي.

قلته ولی من ورائه أقوال! وأما قولك إنه يؤثر طاعة الله على هواه وينقاد إلى الحق فقد حضر اعتبار صحة هذا القول عنه ليعلم بتعريه عن هذه الصفة إنه مغدور بما تقولون له وتضرونه به مع علمكم أن الحججة متوجهة عليه. فهل بلغك يا قاضي أن الخمر تباع جهاراً! وتمشي الخنازير بين المسلمين! وتؤخذ أموال اليتامي؟» وعدد من ذلك شيئاً كثيراً. فلما سمع الملك كلامه ذرفت عيناه وأطرق حياء، ففهم الحاضرون من فحوى كلامه أنه طامع في المملكة لنفسه.

ولما رأوا سكوت الملك وانخداعه لقوله لم يتكلم أحد منهم. فقال الملك بن وهيب - وكان كثير الاجتراء على الملك - : «أيها الملك عندي لنصيحة إن قبليتها حمدت عاقبتها وإن تركتها لم تأمن غائلتتها» فقال الملك: «ما هي؟» فقال: «إنني أخاف عليك من هذا الرجل وأرى أن تعتقه وأصحابه وتنفق عليهم كل يوم ديناراً لتكتفي شره وإن لم تفعل فلتنتفقن عليه خزانتك كلها، ثم لا ينفعك ذلك» فوافقه الملك على رأيه، فقال له وزيره: «يصبح بك أن تبكي من موعدة رجل ثم تسيء إليه في مجلس واحد! وإن يظهر منك الخوف منه على عظم ملكك وهو رجل فقير لا يملك سد جوعه!» فلما سمع الملك كلامه أخذته عزة النفس واستهون أمره فصرفه وسأله الدعاء.

وقال ابن خلدون: «كان مالك بن وهيب حزاء ينظر في النجوم وكان الكهان يتحدثون بأن ملكاً كائناً بالمغرب في أمّة من البربر، ويتغير فيه شكل السمكة لقرآن بين الكوكبين العلويين من السيارة يقتضي ذلك، فقال مالك بن وهيب: «احتفظوا بالدولة من الرجل فإنه صاحب القرآن والدرهم المربيع». فطلبـه عليـ بن يـوسـف فـفـقـدـهـ، وـسـرـحـ الـخـيـالـةـ فـيـ طـلـبـهـ فـفـاتـهـمـ.

وحكى صاحب المعرف: «إن المهدي لما خرج من عند أمير المسلمين لم يزل وجهه تلقاه وجهه إلى أن فارقه فقيل له تراك قد تأدبت مع الملك إذ لم توله ظهرك! فقال: «أردت أن لا يفارق وجهي الباطل حتى أغيره ما استطعت» اهـ كلامـهـ.

فلما خرج المهدي وأصحابه من عند الملك قال لهم: «لا مقام لكم هنا بمراسكش مع وجود مالك بن وهيب فما نأمن أن يعاود الملك في أمرنا فينالنا منه مكروه، وإن لنا بمدينة أغمات أخاً في الله فنقصد المرور به فلن نعدم منه رأياً ودعاء صالحًا» واسم هذا الشخص عبد الحق بن إبراهيم وهو من فقهاء المصادمة. فخرجوا إليه ونزلوا عليه وأخبره محمد بن تومرت خبرهم وأطلعه على مقصدهم وما جرى لهم مع الملك. فقال عبد الحق: «هذا الموضع لا يحميكم، وإن أحسنوا المواقع المجاورة لهذا البلد تينملل وبيننا وبينها مسافة يوم في هذا الجبل، فانقطعوا فيه برهة ريشما يتناسى ذركم» فلما سمع المهدي بهذا الاسم تجدد له ذكر اسم الموضع الذي رأه في كتاب العجر فقصده مع أصحابه.

وقال ابن خلدون: «لما لحق المهدي بأغمات غير المنكريات على عادته فأغرى به أهل أغمات علي بن يوسف وطيروا إليه بخبره. فخرج منها هو وتلامذته الذين كانوا معه في صحبته، فلحق أولاً بمسفيوة ثم بهنتاتة، ولقيه بها الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الهاشمي - جد الملوك الحفصيين أصحاب تونس وإفريقية .. ثم ارتحل المهدي عنهم إلى هرغة فنزل على قومه، وذلك سنة خمس عشر وخمسمائة وبنى رابطة للعباد، فاجتمع عليه الطلبة من القبائل، وأخذ يعلمهم المرشدة له في التوحيد باللسان البربري وشاع أمره.

ثم دخل عامل لمتونة على السوس أناساً من هرغة في قتله، ونذر بهم إخوانهم، فقتلو المهدي إلى معقل من أشياعهم، وقتلوا من داخل في أمره، ودعوا المصادمة إلى مبايعته على التوحيد، وقتل المجسمة دونه، سنة خمس عشرة وخمسمائة. فتقىد إليها رجالاتهم من العشرة وغيرهم وكان فيهم من هنتاتة أبو حفص عمر بن يحيى، وأبو يحيى بن يكير، ويونس بن وانودين، وابن يغمور، ومن تينملل أبو حفص عمر بن علي الصناعي،

ومحمد بن سليمان، وعمر بن تافراكين، وغيرهم. وأوعلت قبيلة هرغة. فدخلوا في أمره كلهم، ثم دخل معهم كدمية وكفيسة.

ولما كملت بيعته لقبوه بالمهدي، وكان قبلها يلقب بالإمام، وكان يسمى أصحابه الطلبة، وأهل دعوته الموحدين تعرضاً لمتونة في أخذهم بالعدول على التأويل وميلهم إلى التجسم.

ولما تم له من أصحابه خمسون سماهم آيت الخمسين. ثم زحف إليهم عامل لمتونة على السوس - وهم بمكانتهم من هرغة - فاستجاشوا إخوانهم من هناتة وتنملل، فاجتمعوا إليهم وأوقعوا بعسكر لمتونة، فكانت تلك باكورة الفتح، وكان المهدي يعدهم بذلك فاستبصروا في أمره، وتسابقت كافتهم إلى الدخول في دعوته، وترددت إليهم عساكر لمتونة مرة بعد أخرى ففضوهم، وانتقل لثلاث سنين من بيعته إلى جبل تينملل فأوطنه وبني داره ومسجده بينهم وحولي منبع وادي نفيس، وقاتل من تخلف عن بيعته من المصادمة حتى استقاموا له. هذا كلام ابن خلدون في سياقه هذا الخبر جتنا به مختصراً.

واقتضى كلام ابن خلukan أن ظهور المهدي ومباعته لم تكن إلا بتينملل، فإنه قد عقب ما سبق له من أن الفقيه عبد الحق بن إبراهيم المصمودي أشار على المهدي بالمسير إلى تينملل، وأن المهدي لما سمع هذا الاسم تجدد له ذكر فيه فقصده مع أصحابه، فلما أتوه رأهم أهله على تلك الصورة فعلموا أنهم طلاب علم، فقاموا إليهم وأكرمواهم، وتلقوهم بالترحاب، وأنزلوهم في أكرم منازلهم. وسأل أمير المسلمين عنهم بعد خروجهم من مجلسه، فقيل له: إنهم سافروا، فسره ذلك وقال: «تخلصنا من الإنم بحبسهم!». ثم إن أهل الجبل تسامعوا بوصول المهدي إليهم، وكان قد سار فيهم ذكره فجاواه من كل فج عميق، وتبركوا بزيارتة. وكان كل من أتاه استدناه وعرض عليه ما في نفسه من الخروج على السلطان، فإن

أجابه أضافه إلى خواصه، وإن خالقه أعرض عنه. وكان يستميل الأحداث وذوي الغرة! وكان ذوق الحنكة والعقل والحلם من أهاليهم ينهونهم ويحدرونهم من اتباعه، ويخوّفونهم سطوة السلطان، فكان لا يتم له مع ذلك أمر. وطالت المدة وخف المهدى من مفاجأة الأجل قبل بلوغ الأمل، وخشي أن يطرق على أهل الجبل من جهة الملك ما يحوجهم إلى استسلامه إليه والتخلّي عنه، فشرع في إعمال الحيلة فيما يشاركونه فيه ليعصوا على الملك يسبّيه، فرأى بعض أولاد القوم شقراً زرقاً وألوان آبائهم السمرة والكحل! فسألهم عن سبب ذلك، فلم يجيبوه، فألزمهم الإجابة، فقالوا: «نحن من رعية هذا الملك وله علينا خراج، وفي كل سنة تصعد ممالكه إلينا وينزلون في بيوتنا ويخرجوننا عنها، ويختلون بمن فيها من النساء، فتأتي أولادنا على هذه الصفة! وما لنا قدرة على دفع ذلك عنا» فقال المهدى: «والله إن الموت خير من هذه الحياة، وكيف رضيتم بهذا وأنتم أضرب خلق الله بالسيف وأطعنهم بالرمح؟» فقالوا: «بالرغم لا بالرضي» فقال: «أرأيتم لو أن ناصراً نصركم على أعدائكم ما كنتم تصنعون؟» قالوا: «كنا نقدم أنفسنا بين يديه للموت» ثم قالوا: «من هو؟» قال: «هو ضيفكم!» يعني نفسه. فقالوا: «السمع والطاعة» وكانوا يغالون في تعظيمه، فأخذ عليهم العهود والمواثيق، واطمأن قلبه، ثم قال لهم: «استعدوا للحضور هؤلاء بالسلاح، فإذا جاؤوكم فأجروهم على عادتهم، وخلوا بينهم وبين النساء، وميلوا عليهم بالخمور، فإذا سكرروا فاذنوني بهم!».

فلما حضر المماليك وفعل بهم أهل الجبل ما أشار به المهدى - وكان ذلك ليلاً - أعلموا بذلك، أمر بقتلهم كلهم، فلم يمض من الليل ساعة حتى أتوا على آخرهم. ولم يفلت منهم سوى مملوك واحد - كان خارج المنازل لحاجة له - فسمع التكبير عليهم والإيقاع بهم، فهرب على غير الطريق حتى خلص من الجبل. ولحق بمراكبش فأخبر الملك بما جرى فندم على فوات

محمد بن تومرت من يده، وعلم أن الحزم كان مع مالك بن وهيب فيما أشار به، فجهز من وقته خيلاً يمقدار ما يسع وادي تينملل، فإنه ضيق المسلك.

وعلم المهدي أنه لا بد من عسكر يصل إليهم، فأمر أهل الجبل بالقعود على أنقاب الوادي ومراصده، واستنجد لهم بعض المجاورين، فلما وصلت الخيل إليهم أقبلت عليهم الحجارة من جانبي الوادي مثل المطر، وكان ذلك من أول النهار إلى آخره، وحال بينهم الليل، فرجع العسكر إلى الملك وأخبروه بما تم لهم، فعلم أنه لا طاقة له بأهل الجبل لتحصنتهم فأعرض عنهم.

وتحقق المهدي ذلك منه وصفت له مودة أهل الجبل، فعند ذلك استدعى أبي محمد البشير وقال له: «هذا أوان إظهار فضائلك دفعه واحدة ليقوم لك مقام المعجزة! لنستميل بذلك قلوب من لم يدخل في الطاعة». ثم انفقا على أنه يصلي الصبح ويقول بلسان فصيح - بعد استعمال العجمة واللکنة في تلك المدة - : «إني رأيت البارحة في منامي أنه نزل إلي ملكان من السماء وشقا فوادي وغسلاه وحشواه علمًا وحكمة وقرآنًا». فلما أصبح فعل ذلك - وهو فصل يطول شرحه - فانقاد له كل صعب القياد، وعجبوا من حاله وحفظه القرآن في النوم، فقال له محمد بن تومرت: «فعجل لنا بالبشرى في أنفسنا، وعرفنا أسعداء نحن ألم أشقياء» فقال له: «أما أنت فإنك المهدي القائم بأمر الله ومن تبعك سعد ومن خالفك هلك» ثم قال: «اعرض أصحابك علىي حتى أميز أهل الجنة من أهل النار» وعمل في ذلك حيلة قتل بها كل من خالف أمر محمد بن تومرت، وأبقى من أطاعه. وشرح ذلك يطول.

وكان غرضه أن لا يبقى في الجبل مخالفًا لهم، فلما قتل من قتل علم محمد بن تومرت أن في الباقين من له أهل وعشيرة قتلوا وأنهم لا تطيب

نفوسهم بذلك، فجمعهم وبشرهم بانتقال ملك مراكش إليهم وأغتنام أموالهم، فسرهم ذلك وسلامهم عن أهلهم. وبالجملة فإن تفصيل هذه الواقعة طويل ولستنا بصادد ذلك.

وخلاصة الأمر: أن محمد بن تومرت لم ينزل حتى جهز جيشاً عدد رجاله عشرة آلاف بين فارس ورجل، وفيهم عبد المؤمن بن علي، وأبو محمد البشير وأصحابه كلهم وأقام هو بالجبل فنزل القوم لحصار مراكش وأقاموا عليها شهراً، ثم كسروا كسرة شنيعة وهرب من سلم منهم من القتل. وكان فيمن سلم عبد المؤمن، وقتل البشير ويبلغ الخبر المهدى - وهو بالجبل - وقد حضرته الوفاة قبل عود أصحابه إليه، فأوصى من حضر أن يبلغ الغائبين: «إن النصر لهم، وإن العاقبة حميدة»، فلا يضجروا وليعاودوا القتال، فإن الله سبحانه وتعالى سيفتح على أيديهم، وإن الحرب سجال، وإنكم ستقوون ويضعفون، ويقلون وتکثرون، وأنتم في مبدأ أمر وهم في آخره» وأشباه هذه الوصايا وهي وصية طويلة اهدى كلام ابن خلkan.

وقال ابن خلدون: «لما كان شأن أبي محمد البشير وميز الموحد من المنافق اعتزم المهدى على غزو لمتونة، فجمع كافة أهل دعوته من المصامدة إليهم فلقوه بكبكب، وهزمهم الموحدون واتبعوهم إلى أغمات فلقتيهم هنالك زحوف لمتونة مع أبي بكر بن علي بن يوسف وإبراهيم بن تاعماشت، فهزمهم الموحدون وقتل إبراهيم وجنته، واتبعوهم إلى مراكش فنزلوا البحيرة في زهاء أربعين ألفاً كلهم راجل إلا أربعمائة فارس. واحتفل علي بن يوسف في الاحتشاد ويرز إليهم لأربعين من نزولهم: خرج عليهم من باب آيلان فهزمهم وأثخن فيهم قتلاً وسيماً. وقد البشير واستحر القتل في هيلانة، وأبلى عبد المؤمن في ذلك اليوم أحسن البلاء». وقيل للمهدى: «إن الموحدين قد هلكوا» فقال لهم: «ما فعل عبد المؤمن؟» قالوا: «هو على جوارده الأدهم قد أحسن البلاء» فقال: «ما بقي عبد المؤمن فلم يهلك أحداً».

وقال ابن الخطيب في رقم الحلل: «كانت وقعة البحيرة بأحواز مراكش قد استأصلت معظم أصحاب المهدي وكادت تأتي عليهم، ومع ذلك فلم تضع منه ولا وهنت صبره. وكان يقول: «مثل هذا الأمر كالفجر يتقدمه الفجر الكاذب وبعدة ينبلج الصبح ويستعلى الضوء، ويأمرهم باتخاذ مرابط الخيل التي ينالون من في عدوهم بعدها وإنه يعطي الرجل على قدر ما أعد من الرباط إلى غير ذلك».

فهذا خبر المهدي مختصراً من ابن خلدون ممزوجاً بما نقله ابن خلkan من ذلك. وقد ساق ابن أبي زرع في القرطاس خبر المهدي هذا وفيه بعض مخالفة لما تقدم. فلنأت به وإن أدى إلى بعض التكرار زيادة في الامتناع، وتحليلية للأسماء، فنقول:

قال ابن أبي زرع ما ملخصه: «إن المهدي رحل إلى المشرق في طلب العلم ولقي مشايخاً سمع منهم وأخذ عنهم علمًا كثيراً، وحفظ جملة من حديث رسول الله ﷺ، ونبغ في علم الأصول والاعتقادات».

وكان في جملة من لقي من العلماء الشيخ أحمد الغزالى رضي الله عنه، لازمه ثلاثة سنين. وكان الشيخ أبو حامد كثيراً ما يشير إلى المهدي ويقول: «إنه لا بد أن يكون له شأن!» ونمى الخبر بذلك إلى المهدي فلم يزل يتقارب إلى الشيخ بأنواع الخدمة حتى أطلعه على ما عنده من العلم في ذلك. فلما تحققت عنده الحال استخار الله وعز على الترحال فخرج فاصداً بلاد المغرب غرة ربيع الأول سنة عشر وخمسمائة، ولازم في طريقه درس العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى أن اجتمع به عبد المؤمن بن علي فبايعه على مؤازرته في الشدة والرخاء والعسر واليسر. ثم قدم بلاد المغرب واستقر بمراكش - وكانت له فصاحة وعليه مهابة - فأخذ يطعن على المرابطين وينسبهم إلى الكفر والتجمسيم ويشيع عند من يثق به ويسكن إليه أنه المهدي المنتظر الذي يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً. وجرى منه

بمراكش من تغيير المنكر ونحوه ما تقدم ذكره، فانصل خبره بعلي بن يوسف اللمنوني فأحضره وقال له: «ما هذا الذي بلغنا عنك؟» فقال: «إنما أنا رجل فقير أطلب الآخرة وأمر بالمعروف وأنهى عن المنكر. وأنت أيها الملك أولى من يفعل ذلك فإليك المسؤول عنه. وقد ظهرت بمملكتك المنكرات، وفشت البدع، وقد وجّب الله عليك إحياء السنة وإمامنة البدعة. وقد عاب الله تعالى أمّة تركوا النهي عن المنكر، فقال: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهُونَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوْهُ لِئَنَّهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدah: ٧٩]. فلما سمع أمير المسلمين كلامه تأثر له وأخذه وأطرق مفكراً. ثم أمر بإحضار الفقهاء فحضر منهم ما أخص المجلس، ثم قال أمير المسلمين: «اخترعوا الرجل فإن كان عالماً أتبعنه وإلا أذهبناه»، وكان المهدي فصيحاً لسناً ذا معرفة بالأصول والجدل، وكان الفقهاء الذين حضروا أصحاب حديث وفروع، فدارت بينهم محاورة ومذاكرة أستكثهم فيها وبيان عجزهم عنه، فعدلوا عن المذاكرة إلى الممالة، وأغرى به أمير المسلمين، وقالوا: «هذا رجل خارجي، وإن بقى بالمدينة أفسد عقائد أهلها!» فأمره أمير المسلمين بالخروج من البلد، فخرج إلى الجبانة وضرب بها خيمة جلس فيها، وصار الطلبة يتزدرون إليه لأخذ العلم عنه، فكثر جمهور وأحبته العامة وعظموه.

وأنهى خبره إلى أمير المسلمين ثانية، ونقل إليه أنه يطعن على الدولة فأحضره مرة أخرى وقال له: «أيها الرجل اتق الله في نفسك، ألم أنهك عن عقد الجمع ومحاذيب وأمرتك بالخروج من البلد؟». فقال: «أيها الملك قد امتنعت أمرك وخرجت من المدينة إلى الجبانة واشتغلت بما يعنيني، فلا تسمع لأقوال المبطلين!» فتوعده أمير المسلمين وهو بالقبض عليه، ثم عصمه الله منه ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

ولما انفصل المهدي عن المجلس أغري الحاضرون أمير المسلمين به، وشرحوا له جلبة أمره وما يدعوه إليه. فاستدرك أمير المسلمين فيه رأيه،

ويبعث إليه من يأتيه برأسه، فسمع بذلك بعض بطانته فمر مسرعاً، حتى إذا قرب من الخيمة قرأ قوله تعالى: «يَمْوِعُ إِلَكَ الْمَلَأُ يَأْتِيُونَ إِلَكَ لِيَقْتُلُوكُمْ» [القصص: ٢٠] الآية. فسمعوا المهدى وفقط لها فانسل من حيثه وخرج حتى أتى بيتميلل فأقام بها، وذلك في شوال سنة أربع عشرة وخمسينات ثم لحق به أصحابه العشرة السابقون إلى دعوته والمصدقون بإمامته، وهم: «عبد المؤمن بن علي الكومي»، وأبو محمد البشير الوانشريسي، وأبو حفص عمر بن يحيى الهمتاني، وأبو يحيى بن يكت الهمتاني: وأبو حفص عمر بن علي آصناك، وإبراهيم بن إسماعيل الخزرجي، وأبو محمد عبد الواحد الحضرمي، وأبو عمران موسى بن تمار، وسلامان بن خلوف، وعاشر، فأقاموا بيتميلل إلى رمضان من ستة خمس عشرة وخمسينات فعظم صيته بجبل درن وكثرت أتباعه. فلما رأى ذلك أظهر دعوته ودعا الناس إلى بيته، فباعه العشرة البيعة الخاصة عقب صلاة الجمعة خامس عشر رمضان من السنة.

ولما كان الغد - وهو يوم السبت - خرج المهدى في أصحابه العشرة متقلدين السيوف، وتقدم إلى الجامع فصعد المنبر وخطب الناس وأعلمهم أنه المهدى المنتظر، ودعاهم إلى بيته، فباعوه البيعة العامة، ثم بث دعاته في بلاد المصامدة يدعون الناس إلى بيته ويزرعون محبته في قلوبهم بالثناء عليه ووصفه بالزهد وتحري الحق وإظهار الكرامات، فانثال الناس عليه من كل جهة، وسمى أتباعه الموحدين، ولقنهم عقائد التوحيد باللسان البربرى، وجعل لهم فيه الأشعار والأحزاب والسور! وقال: «من لم يحفظ هذا التوحيد فليس بموحد، لا تجوز إمامته ولا تؤكل ذبيحته!» فاستولت محبته على قلوبهم، وعظموا ظاهراً وباطناً، حتى كانوا يستغيثون به في شدائدهم، وينتهون باسمه على منابرهم، ولم تزل الوقود تترافق عليه حتى اجتمع عليه جم غفير، فلما علم أن ناموسه قد رسخ وسلطانه قد تمكن قام فيهم خطيباً، وندبهم إلى جهاد المرابطين وأباح لهم دماءهم وأموالهم، فانتدب الناس

لذلك وبابيعوه على الموت ، فانتخب منهم عشرة آلاف من أجناد الموحدين ، وقدم عليهم أبا محمد البشير وعقد له راية بيضاء ودعا لهم وانصرفوا ، فصمدوا إلى مدينة أغمات .

وانتهى الخبر إلى أمير المسلمين ، فجهز لقتالهم جيشاً من الحشم والأجناد ، فلما التقوا انتصر عليهم الموحدون وهزموهم واتبعوهم حتى أدخلوهم مراكش وحاصروها أياماً ، ثم أفرجوا عنها حين تكاثرت عليهم جيوش لمتونة ، وكان ذلك ثالث شعبان سنة ست عشرة وخمسماة ، وقسم المهدي الغنائم التي غنمها من عسكر المرابطين ، وتلا عليهم قوله تعالى : ﴿وَعَدَنَا اللَّهُ مَعَانِدَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَا فَعَجَلَ لَكُمْ هُنُوْ﴾ [الفتح: ٢٠] الآية . وانتشر ذكر المهدي بجميع أقطار المغرب والأندلس . وأركب جل جيشه من خيل المرابطين التي غنمها . ثم غزا مراكش بنفسه فعبأ جيشه وسار حتى نزل بجبل كيليز بقرب المدينة ، فأقام محااصراً لها ثلاثة سنين بياكرها بالقتال ويراوحها من ستة ست عشرة إلى ستة تسعة عشرة .

ولما ضجر من مقامه هناك نهض إلى وادي نفيس ، وانحدر مع مسليه يدعو الناس لطاعته ويقاتل من أبي منهم فانقاد له أهل السهل والجبل . وبابيعته كلمبية ، ثم غزا بلاد ركراكة ، فأخذهم بالدعاء إلى توحيد الله وشرائع دينه ، وسار في بلاد المصامدة يقاتل من أبي ويسالم من أجاب ففتح بلاداً كثيرة ، ودخل في دعوته عالم كثير من المصامدة ، ورجع إلى تينملل فأقام بها شهرين ريثما استراح الناس ، ثم غزا مدينة أغمات وبلاط هزرجة في ثلاثين ألفاً من الموحدين ، فاجتمع على حرره أهل أغمات وهزرجة وخلق كثير من الحشم ولمتونة وغيرهم فانتصر عليهم الموحدون ، فهزموهم وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وقسم المهدي أنفالهم بين الموحدين . ثم غزا أهل درن ففتح قلاعه وحصونه ، وطاع له جميع من فيه من قبائل هرغة وهتاتة وكنتفيسة وغيرهم .

ثم عاد إلى تينملل فأقام بها ريثما استراح الناس . ثم ندبهم إلى غزو

مراكش وجهاد المرابطين، وقدم عليهم عبد المؤمن بن علي وأبا محمد البشير، وشخص عبد المؤمن بإماماة الصلاة، فساروا حتى انتهوا إلى أغمات، فلقيهم بها أبو بكر بن علي بن يوسف في جيش كثيف من لمتونة وقبائل صنهاجة، فاقتتلوا ودامت الحرب بينهم ثمانية أيام ثم انتصر عليهم الموحدون فهزموا أبي بكر وجيشه إلى مراكش وقتلوهم في كل طريق، وحصروا مراكش أيامًا، ثم رجعوا إلى تينملل فخرج المهدى للقائهم فرحب بهم وعرفهم بما يكون لهم من النصر والفتح وما يملكونه من البلاد. ثم كانت وفاته عقب ذلك على ما نذكره إن شاء الله، فهذا سياق ابن أبي زرع لهذه الأخبار والله أعلم بالصواب.

بقية أخبار المهدى وبعض سيرته إلى وفاته

كان المهدى رجلاً ربعة، أسمراً، عظيم الهمة، غائر العينين، حديد النظر، خفيف العارضين، له شامة سوداء على كتفه الأيمن، ذا سياسة ودهاء وناموس عظيم. وكان مع ذلك عالماً فقيهاً، راوياً للحديث، عارفاً بالأصول والجدل، فصيح اللسان، مقداماً على الأمور العظام، غير متوقف في سفك الدماء، يهون عليه إتلاف عالم في بلوغ غرضه، وكان حصوراً لا يأتي النساء، وكان متيقظاً في أحواله ضابطاً لماولي من سلطانه، أنشد صاحب كتاب المغرب في حقه:

آثاره تنبيك عن أخباره حتى كأنك بالعيان تراه

ثم قال:

«له قدم في الشرى وهمة في الثريا، ونفس ترى إراقة ماء الحياة دون إراقة ماء المعينا، أغفل المرابطون عقله وريشه، حتى دب إليهم دبيب القلق في الغسق، وترك في الدنيا دويًا. أنشأ دولة لو شاهدها أبو مسلم لكان لعزمها فيها غير مسلم، وكان قوله من غزل أخت له في كل يوم رغيفاً بقليل سمن أو

زيت! ولم ينتقل عن هذا حين كثرت عليه الدنيا! ورأى أصحابه يوماً وقد مالت نفوسهم إلى كثرة ما غنمه، فأمر بضم ذلك جميعه وإحرافه! وقال: «من كان يتبعني لأجل الدنيا فليس له عنتي إلا ما رأى! ومن تبعني للأخرة فجزاؤه عند الله!» وكان على خمول زيه وبسط وجهه مهيباً منيع الحجاب إلا عند مظلمة، وله رجل مختص بخدمته والإذن عليه. وكان له شعر فمن ذلك قوله:

أخذت بأعضاهم إذ نؤوا
وخلفك القوم إذ دعوا
فكم أنت تنهى ولا تنتهي
وتسمع وعظاً ولا تسمع
فيما حجر السن حتى متى
تسن الحديد ولا تقطع
وكان كثيراً ما ينشد:

تجرد من الدنيا فإنك إنما
خرجت إلى الدنيا وأنت مجرد
وكان يتمثل أيضاً بقول أبي الطيب المتنبي:

إذا غامرت في شرف مروم
فلا تقنع بما دون النجوم
قطعم الموت في أمر حقير
ويقوله أيضاً:

ومن عرف الأيام معرفتي بها
وبالناس روى رمحه غير راحم
ولأن الردى الجاري عليهم بائم
فليس بمرحوم إذا ظفروا به
ويقوله أيضاً:

وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام

وقال ابن الخطيب في رقم الحلل: «قالوا كان محمد بن تومرت يزعم أنه مأمور بنوع من الوحي والإلهام، وينكر كتب الرأي والتقليد، وله باع في علم الكلام، وغلبت عليه نزعة خارجية، وكان يتحل القضايا الاستقبالية، ويشير إلى الكواطن الآتية، ورتب قومه ترتيباً غريباً. فمتهם أهل الدار، وأهل الجماعة، وأهل الساقفة، وأهل خمسين. وأهل سبعين، والطلبة، والحافظ،

وأهل القبائل. فأهل الدار للامتهان والخدمة. وأهل الجماعة للتفاوض والمشورة، وأهل الساقفة للمباهاة، وأهل سبعين وخمسين والحفظة والطلبة لحمل العلم والتلقى، وسائر القبائل لمدافعة العدو. وكان يعلمهم أوجه العبادات في العادات».

قلت: من ذلك أن طائفة من المصامدة عسر عليهم حفظ الفاتحة لشدة عجمتهم، فعدد كلمات ألم القرآن ولقب بكل كلمة منها رجلاً، فصفهم صفاً وقال لأولئم: «اسْمُكَ الْحَمْدُ لِلّهِ» وللثاني: «رَبُّ الْعَالَمِينَ» وهكذا حتى تمت كلمات الفاتحة. ثم قال لهم: «لَا يَقْبِلُ اللَّهُ مِنْكُمْ صَلَاةً حَتَّى تَجْمِعُوهَا هَذِهِ الْأَسْمَاءُ عَلَى نِسْقِهَا فِي كُلِّ رُكُوعٍ! فَسَهَّلْتُ عَلَيْهِمُ الْأَمْرَ وَحَفَظُوا أَمْرَ الْقُرْآنَ. ذكره صاحب المعرف.

قالوا: وهو أول من أحدث «أصبح وله الحمد» في أذان الصبح.

ومن جراءته وإقدامه وتهالكه على تحصيل مرامه ما حكاه صاحب القرطاس قال: «كانت بين الموحدين والمرابطين حرب فقتل من الموحدين خلق كثير فعظم ذلك على عشائرهم، فاحتال المهدى بأن انتخب قوماً من أتباعه ودفنهم أحياهم بموضع المعركة وجعل لكل واحد منهم متنفساً في قبره»! وقال لهم: «إذا سئلتم عن حالكم فقولوا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً. وأن ما دعا إليه الإمام المهدى هو الحق! فجدوا في جهاد عدوكم»! وقال لهم: «إذا فعلتم ذلك أخرجتكم وكانت لكم عندي المنزلة العالية»! وقد بدأ ذلك أن يثبتهم على التمسك بدعوته، ويجهرون عليهم ما لاقوا من القتل والجرحات بسببه. ثم جمع أصحابه عند السحر وقال لهم: «أنتم يا عشر الموحدين حزب الله وأنصار دينه وأعون الحق، فجدوا في قتال عدوكم فإنكم على بصيرة من أمركم، وإن كنتم ترتباون فيما أقوله لكم فأتوا موضع المعركة وسلوا من استشهد اليوم من إخوانكم يخبروكم بما لقوا من الشراب عند الله!»! ثم أتى بهم إلى موضع المعركة ونادى «يا عشر الشهداء ماذا لقيتم

من الله عز وجل؟» فقالوا: «قد أعطانا من الشواب ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر!» فافتتن الناس وظنوا أن الموتى قد كلّوهم! وحكوا ذلك لبقية إخوانهم، فازدادوا بصيرة في أمره وثباتاً على رأيه. والله أعلم بحقيقة الحال.

وفاة المهدي رحمه الله

كانت وفاة المهدي عقب وقعة البحيرة. قال ابن خلدون: «الأربعة أشهر بعدها» وقال ابن الخطيب وغيره: كانت وفاته يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلة خلت من رمضان سنة أربع وعشرين وخمسماة. وقيل غير ذلك.

وقال في القرطاس: «لما رجع الموحدون من غزو مراكش إلى تينملل خرج إليهم المهدي فسلم عليهم ورحب بهم، وأعلمهم بما يكون لهم من النصر والفتح وما يملكونه من البلاد وبمدة ملكهم، وأعلمهم أنه يموت في تلك السنة. فبكوا وأسفوا ثم مرضه الذي مات منه، وقدم عبد المؤمن للصلوة أيام مرضه، ثم توفي في التاريخ المتقدم».

وذكر بعض المؤرخين: «أن المهدي رأى في منامه قبل وفاته كأن آتياً أتاه فأنشده أبياتاً نهى له فيه نفسه، وأعلمته باليوم الذي يموت فيه فكان كذلك» انظر القرطاس.

وقد مر في هذه الأخبار ذكر «كتاب الجفر» وربما تتشوّق النفس لمعرفة حقيقته، فقد قال ابن خلدون في كتاب طبيعة العمران: «واعلم أن كتاب الجفر كان أصله أن هارون بن سعيد العجمي - وهو رأس الزيدية - كان له كتاب يرويه عن جعفر الصادق رضي الله عنه، وفيه علم ما سيقع لأهل البيت على العموم، ولبعض الأشخاص منهم على الخصوص وقع ذلك لجعفر ونظائره من رجالاتهم على طريق الكراهة والكشف الذي يقع لمثلهم من الأولياء، وكان مكتوباً عند جعفر الصادق في جلد ثور صغير، فرواه عنه

هارون العجلي، وكتبه وسماه «الجفر» باسم الجلد الذي كتب فيه (لأن الجفر في اللغة هو الصغير) فصار هذا الاسم علماً على هذا الكتاب عندهم. وكان فيه تفسير القرآن الكريم وما في باطنها من غرائب المعاني مروية عن جعفر الصادق رضي الله عنه».

وذكره ابن قتيبة في أوائل كتاب اختلاف الحديث فقال بعد كلام طريل: «وأعجب من هذا التفسير تفسير الروافض للقرآن الكريم، وما يدعونه من علم باطنها بما وقع إليهم من الجفر الذي ذكره العجلي» ثم قال ابن قتيبة:

الْمَ تَرَ أَنَّ الرَّافِضِينَ تَفَرَّقُوا
فَكُلُّهُمْ فِي جَعْفَرٍ قَالَ مُنْكِرًا
فَطَائِفَةٌ قَالُوا إِمَامٌ وَمِنْهُمْ
طَوَافِ سَمْتَهُ الشَّبِيْهُ الْمَطَهْرَا
وَمِنْ عَجَبِ لَمْ أَقْضِهِ جَلْدُ جَعْفَرِهِمْ
بِرَأْتَ إِلَى الرَّحْمَنِ مَمْنَ تَجَفَّرَا

في أبيات غير هذه، ثم قال ابن قتيبة: «وهو جلد جفر ادعوا أنه كتب لهم فيه الإمام جعفر الصادق كل ما يحتاجون إليه، وكل ما يكون إلى يوم القيمة» أهـ وهذا تزييف من ابن قتيبة لكتاب الجفر، وخالف هذا المذهب أبو العلاء المعري فقال:

لَقَدْ عَجِبْنَا لِأَهْلِ الْبَيْتِ لِمَا
أَنَّهُمْ عَلِمُوهُمْ فِي مَسْكِ جَفَرٍ
وَمَرْأَةِ الْمَنْجَمِ - وَهِيَ صَغِيرَى -
أَرْتَهُ كُلَّ عَامِرَةٍ وَقَفَرَ
وَالْمَسْكُ بِفَتْحِ الْمِيمِ الْجَلْدُ، وَالْجَفَرُ بِفَتْحِ الْجِيمِ مَا بَلَغَ أَرْبِيعَةَ أَشْهَرٍ مِنْ
أَوْلَادِ الْمَعْزِ وَكَانَتْ عَادِتُهُمْ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ أَنَّهُمْ يَكْتُبُونَ فِي الْجَلْدِ وَمَا
شَاكِلَهَا لِقْلَةُ الْأُورَاقِ يَوْمَئِذٍ.

وقال ابن خلدون: كتاب الجفر لم تتصل روایته عن جعفر الصادق رضي الله عنه ولا عرف عيته، وإنما يظهر منه شواد من الكلمات لا يصحبها دليل. ولو صحت النسبة إلى جعفر الصادق لكان فيه نعم المستند من نفسه أو من رجال قومه. فهم أهل الكرامات رضي الله عنهم.

الخبر عن دولة أبي محمد عبد المؤمن بن علي الكومي وأوليتها

اعلم أنبني عبد المؤمن ليسوا من المصامدة، وإنما هم من كومية، ثم منبني عابد منهم وكومية، ويعرفون قدماً بصفة بطن منبني فاتن بن تامصيت بن ضري بن زجيك بن مادغيس الأبتر، فهم بنو عم زناته يجتمعون في ضري بن زجيك. هذا هو الصحيح. وبعض المؤرخين يرفعون نسب عبد المؤمن إلى قيس عيلان بن مصر، وهو ضعيف.

قال ابن خلدون: «كان عبد المؤمن منبني عابد أحد بيوتات كومية وأشرافهم» قال: «وموطنه بتاكرارت وهو حصن في الجبل المطل على هنبن من ناحية الشرق».

وقال ابن خلكان: «كان والد عبد المؤمن وسيطاً في قومه، وكان صانعاً في عمل الطين يعمل منه الآنية فيبيعها، وكان عاقلاً من الرجال وقوراً».

ويحكى أن عبد المؤمن في صباح كان نائماً تجاه أبيه وأبوه مشتغل بعمله في الطين، فسمع أبوه دويًّا في السماء، فرفع رأسه فرأى سحابة سوداء من النحل قد هوت مطبة على الدار، فنزلت كلها مجتمعة على عبد المؤمن، وهو نائم فغطته، ولم يظهر من تحتها ولا استيقظ لها، فرأته أمه على تلك الحال، فصاحت خوفاً على ولدها فسكتها أبوه، فقالت: «أخاف عليه» فقال: «لا يأس عليه، بل إني متعجب مما يدل عليه ذلك» ثم إنه غسل يديه من الطين ولبس ثيابه ووقف ينتظر ما يكون من أمر النحل، فطار عنه بأجمعه، فاستيقظ الصبي، وما به من ألم! فتفقدت أمه جسده فلم تر به آثراً! ولم يشك أبداً».

وكان بالقرب منهم رجل معروف بالزجر، فمضى أبوه إليه فأخبره بما

رأه من النحل مع ولده، فقال الزاجر: «يوشك أن يكون له شأن يجتمع على طاعته أهل المغرب» فكان من أمره ما اشتهر.

وقد تقدم لنا أن المهدي كان عنده كتاب الجفر، وكان فيه أن أمره لا يتم إلا على يد رجل اسمه كذا، وحليته كذا، وهو عبد المؤمن بن علي فأقام المهدي يتطلبه مدة إلى أن لقيه بملالة، وعبد المؤمن إذ ذاك شاب حدث طالب علم، فلازم المهدي واستمسك بغرره إلى أن كان من أمره ما كان.

وكان المهدي يفسر فيه النجاشية وينشد إذا أبصره:

نكمالت فيك أوصاف خصصت بها
فكملنا بك مسرور ومغتبط
السن ضاحكة، والكف مانحة، والوجه منبسط
والبيتان لأبي الشيص الخزاعي. وكان يقول لأصحابه: صاحبكم
غلاب الدول! وكان يقول: عبد المؤمن من صديقي هذه الدائرة! .

وقال ابن خلدون: «أثر المهدي عبد المؤمن بمزيد الشخصية والقرب بما خصه الله به من الفهم والوعي للتعليم، حتى كان خالصة المهدي وكثير أصحابه، وكان مؤمله لخلافته لما أظهره عليه من الشواهد المؤذنة بذلك. وفي ذلك يقول ابن الخطيب:

وخلف الأمر لعبد المؤمن فانقادت الدنيا له في رسن
حباه بين القوم بالإماراة إذ وضحت له فيه الأمارة
ولما اجتاز المهدي في طريقه إلى المغرب بالشعالبة - عرب الجزائر -
أهدوا إليه حماراً فاركه لأنه كان ساعياً على رجليه، فكان يؤثر به
عبد المؤمن ويقول لأصحابه: «أركبوه الحمار يركبكم الخيول المسمومة!»
وزعم بنو عبد المؤمن أن المهدي كان استخلفه من بعده. وقال ابن خلكان:
«لم يصح أنه استخلفه وإنما راعى أصحابه في تقديم إشارته فتم له الأمر».
والله أعلم.

بيعة عبد المؤمن بن علي والسبب فيها

لما توفي المهدي في التاريخ المتقدم تولى عبد المؤمن تجهيزه والصلاة عليه، ثم دفنه بمسجده الملاصق لداره من تينملل.

ولما فرغ الموحدون من أمره ت Shawf كل واحد من العشرة إلى الخلافة بعده، وكانتوا من قبائل شتى، وأحببت كل قبيلة أن يكون الخليفة منها، وأن لا يتولى عليها من هو من غيرها، فتنافسوا في ذلك، فاجتمع العشرة والخمسون وتأمروا فيما بينهم وخالفوا على أنفسهم التفاق، وأن نفسد نياتهم وتفترق جماعتهم، فاتفقوا على خلافة عبد المؤمن لكونه كان غريباً بين أظهرهم، ليس من المصامدة لأن المصامدة من البرانس، وكومية قبيلة عبد المؤمن من البتر، فقلدوه لذلك مع ما كانوا يرون من ميل المهدي إليه وإيثاره على غيره فتم له الأمر.

وقال ابن خلدون: «لما مات المهدي خشي أصحابه من افتراق الكلمة وما يتوقع من سخط المصامدة لولاية عبد المؤمن. لكونه من غير جلدتهم، فأرجعوا الأمر إلى أن تختلط بشاشة الدعوة قلوبهم، وكتموا موته ثلاثة سنين يموهون فيها بمرضه، ويقيمون سنته في الصلاة والحزب الراتب، ويدخل أصحابه إلى بيته كأنه اختصهم بعيادته، فيجلسون حوالى قبره، ويتفاوضون في شؤونهم، ثم يخرجون لإنفاذ ما أبرموه، ويتولى ذلك عبد المؤمن. حتى إذا استحکم أمرهم وتمكنوا الدعوة من كافتهم كشفوا القناع عن حالهم، وتعالاً من بقي من العشرة على تقديم عبد المؤمن، وتولى كبر ذلك الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الهمتاني جد الملوك الحنفيين أصحاب تونس. فأظهروا للناس موت المهدي وعهده لصاحب، وانقاد بقية أصحابه لذلك، وروى لهم يحيى بن يغمور أنه كان يقول في دعائه أثر صلواته: «اللهم بارك في الصاحب الأفضل» فرضي الكافة وانقادوا له وأجمعوا على بيته.

وزعموا^(١) أن عبد المؤمن استعمل في ذلك حيلة تم له بها ما أراد وذلك أنه عمد إلى طائر وأسد فضراهما حتى أنسا به، وعلم الطائر أن يقول عند علامه نصبهما له: «النصر والتمكين لعبد المؤمن أمير المؤمنين!» وعلم الأسد أن يصيغ له ويتمسح به كلما رأه! ثم جمع عبد المؤمن الموحدين وخطبهم وحضهم على الألفة واجتماع الكلمة، وحضرهم عاقبة البغي والخلاف، وبينما هو في ذلك إذ أرسل سائس الأسد أسله، وصفر صاحب الطائر لطائره، فقبض على الأسد! وأعلن بالنصر هذا! فعجب الحاضرون من ذلك ورأوا أنها كرامة لعبد المؤمن فازدادوا بها بصيرة في أمره وثباتاً على بيته، مع ما كان من تقديم المهدى له في الصلاة أيام مرضه، وفي ذلك يقول بعضهم:

أنس الشبل ابتهاجاً بالأسد
ورأى شبه أبيه فقصد
ودعا الطائر بالنصر لكم
فقضى حركم حين وفد
والله أعلم.

وكانت بيعة عبد المؤمن العامة بعد صلاة الجمعة لعشرين يوماً من ربيع الأول ستة عشر وخمسمائة بجامع تينملل. وأول من بايعه العشرة أصحاب المهدى، ثم الخمسون من أشياخ الموحدين ثم كافة الموحدين؛ لم يتخلَّ عن بيته منهم أحد، فاستوسق له الأمر واستولى على المغرب بأسره وفتح بلاد إفريقية إلى برقة، وببلاد الأندلس بأسرها، وخطب له على منابر

(١) قد نقل العلامة المقرى عن ناج الدين بن حمويه السرخسي في رحلته إلى المغرب الأقصى أن هذه القصة وقعت ليعقوب المنصور الموحدى وذلك أن قوماً من الغرباء قصدوا ومعهم حيوانات معلمة منها أسد وغراب فريض الأسد بين يدي المنصور ودعا الغراب له بالنصر فقال بعضهم الآيات المذكورة وهذا هو الصحيح لأن السرخسي يحدث عن مشاهدة لوجوده من زمن المنصور انظر نفع الطيب ج 2 ص 739.

هذه الأقاليم كلها على ما سيأتي تفصيله إن شاء الله.

ولما تمت بيعته غزا من حيثه بلاد تادلا فقتل بها وسبى، ثم غزا بلاد درعة فاستولى عليها، ثم غزا بلاد غمارة فافتتح البعض منها وقتل واليها، ثم ت سابق الناس إلى دعوته أثروا جأ، وانتقضت البربر على المرابطين في سائر أقطار المغرب. وكان ما نذكره:

غزوة عبد المؤمن الطويلة التي استولى فيها على المغاربة

ثم صرف عبد المؤمن عزمه لفتح بلاد المغرب فغزا غزوه الطويلة التي مكث فيها سبع سنين، وأجلت عن فتح المغاربة معاً الأقصى والأوسط. خرج لها من تينملل في صفر سنة أربع وثلاثين وخمسمائة. فلم يزل يتقدى بلاد المغرب ويفتح معاقلها ويستنزل حماتها ويدلل صعابها إلى سنة إحدى وأربعين وخمسمائة.

وكان خروجه من تينملل على طريق الجبل، وخرج تاشفين بن علي في أتباعه من مراكش على طريق السهل إلى أن وصل إلى تلمسان حسبما قدمناه في أخبار المرابطين.

قال ابن خلدون: خرج عبد المؤمن في هذه الغزوة من تينملل يعني على طريق الجبل كما قلنا، وخرج تاشفين بن علي - يعني في حياة والله بعساكره يحاذيه في البسيط - والناس يفرون منه إلى عبد المؤمن، وهو ينتقل في الجبال في سعة من الفواكه للأكل والخطب للدفء، إلى أن وصل إلى جبال غمارة، واشتعلت نار الفتنة والغلاء بالمغرب، وأقشع الرعایا عن البلاد، وألح الطاغية على المسلمين بالعدوة الأندلسية، وهلك خلال ذلك أمير المسلمين علي بن يوسف سنة سبع وثلاثين وخمسمائة، وولي بعده ابنه تاشفين بن علي المذكور وهو في غزاته هذه.

وفي القرطاس: «ارتحل عبد المؤمن إلى جبال غمارة، وارتحل تاشفين بن علي في أثره، فنزل بازاء عين القديم وذلك في فصل الشتاء فأقام بذلك المتنزل شهرين حتى أحرق أهل محلته أوتاد أخبيتهم ورماحهم، وهدموا بيوتهم وخيامهم» انتهى.

ونشأت فتنة بين لمتونة ومسوفة فنزع جماعة من أمراء مسوفة - منهم عامل تلمسان يحيى بن إسحاق المعروف بآنكمار - ولحقوا بعد المؤمن ودخلوا في دعوته، فنجد إليهم المرابطون العهد وإلى سائر مسوفة. واستمر عبد المؤمن على حاله، فنازل سبتة فامتنعت عليه. وتولى كبير دفاعه عنها القاضي أبو الفضل عياض بن موسى الشهير الذكر، وكان رئيسها يومئذ بأبوته ومنصبه وعلمه ودينه.

قال ابن خلدون: «ولذلك سخطته الدولة - يعني دولة الموحدين - آخر الأيام حتى مات مغرباً عن سبتة مستعملاً في خطة القضاء بالبادية من تادلا رحمة الله. وتمادي عبد المؤمن في غزاته إلى جبال غيانة وبطورية فافتتحها ثم نازل ملوية فافتتح حصونها ثم تخطى إلى بلاد زناتة فأطاعته قبائل مدبونة، وكان قد بعث إليهم جيشاً من الموحدين إلى نظر يوسف بن وانودين، فخرج إليهم محمد بن يحيى بن عامل تلمسان من قبل المرابطين فيمن معه من جيوش لمتونة وزناتة، فهزمهما الموحدون، وقتل ابن فانوا وانقض جمع زناتة ورجعوا إلى بلادهم. وولى تاشفين بن علي على تلمسان أبا بكر بن مزدلي، وقدم على عبد المؤمن - وهو بمكانه من الريف - أبو بكر بن ماخوخ ويوسف بن بدر - من أمراءبني ومانوا من زناتة - فبعث معهم يحيى بن يغمور ويوسف بن وانودين في عسكر، فاتخروا في بلادبني عبد الواد وبني يلومي من زناتة سبياً وأسراً، ولحق صريخهم بتاشفين بن علي، فأمددهم بعساكر لمتونة - ومعهم الروبرتير قائد الروم - ونزلوا منداس، وانضمت إليهم قبائل زناتة من بني يلومي، وبني عبد الواد مع شيخهم حمامه بن مظفر وإخوانهم بني توجين وغيرهم، فأوقفوا ببني ومانوا وقتلوا

أبا بكر بن ماخوخ في ستمائة من قومه، واستنقذوا غنائمهم، وتحصن الموحدون وفل بنى ومانوا بجبل سيرات.

ولحق تاشفين بن ماخوخ صريحاً بعد المؤمن ومستجيحاً به على لمتونة وزناته. فارتاحل معه عبد المؤمن إلى تلمسان ثم أجاز إلى سيرات.

وقصد محلة لمتونة وزناته فأوقع بهم، ورجع إلى تلمسان فنزل ما بين الصخريتين من جبل تبطرى، ونزل تاشفين بن علي بالسهل مما يلي الصفاصاف، ثم وصل مدد صنهاجة من قبل يحيى بن العزيز صاحب بجاية لنظر قائده طاهر بن كباب، أمدوا به تاشفين بن علي وقومه لعصبية الصنهاجية، وفي يوم وصوله أشرف على معسكر الموحدين، وكان يدل بإقدام. فعرض بلمنونة وأميرهم تاشفين بن علي لقعودهم عن مناجزة الموحدين، وقال: «إنما جتكم لأخلصكم من أصحابكم عبد المؤمن هذا وأرجع إلى قومي» فامتنع تاشفين بن علي من كلمته وأذن له في المناجة، فحمل على القوم، فركبوا وصمموا لمقائه فكان آخر العهد به وانقض عسكره. وكان تاشفين بعث من قبل ذلك قائده على الروم وهو الروبرتير في عسكر ضخم، فأغار على قوم من زناته كانوا في بسيط لهم فاكتسحهم ورجع بالغنائم، فاعتراضه الموحدون من عسكر عبد المؤمن فقتلواهم وقتلوا الروبرتير في جملتهم.

ثم بعث تاشفين بن علي بعثاً آخر إلى جهة أخرى، فلقيهم تاشفين بن ماخوخ ومن كان معه من الموحدين. واعتراضوا عسكر بجاية عند رجوعهم فنالوا منهم أعظم النيل.

وتواتت هذه الواقع على تاشفين بن علي اللمنوني فأجمع الرحلة إلى وهران، وبعث ابنه - ولـي عهده - إبراهيم بن تاشفين إلى مراكش في جماعة من لمتونة، وبعث كتاباً معه أحمد بن عطية، ورحل هو إلى وهران سنة تسع وثلاثين وخمسماة، فأقام عليها شهراً ينتظر قائد أساطوله محمد بن ميمون

إلى أن وصله من المريعة بعشرة أساطيل، فأرسى قريباً من معسکره، وزحف عبد المؤمن من تلمسان، وبعث في مقدمته الشيخ أبي حفص عمر بن يحيى الهاشمي، ومعه بنو ومانوا من زناتة فتقدمو إلى بلاد زناتة وتزلوا منداس وسط بلادهم، وجمع له بنو يادين كلهم وبنو يلومي وبنو مرين ومغراوة، فأئذن فيهم الموحدون حتى أذعنوا للطاعة ودخلوا في دعوتهم. ووفد على عبد المؤمن جماعة من رؤسائهم، وكان منهم سيد الناس ابن أمير الناسشيخبنييلومي، وحمامة بن مظهرشيخبنيعبدالواحد وغيرهم، فتلقاهم بالقبول وسار بهم في جموع الموحدين إلى وهران، فيستوا لمتونة بمعسکرهم ففضواهم، ولجأ تاشفين إلى رابية هناك فأحدقوا بها وأضرموا النيران حولها حتى إذا غشيمهم الليل خرج تاشفين من الحصن راكباً فرسه فتردى به من بعض حفافات الجبل، وهلك لسبعين وعشرين من رمضان سنة تسعة وثلاثين وخمسماة، وبعث برأسه إلى تبملل ونجا فل العسكري إلى وهران، فانحصروا بها مع أهلها حتى جهدهم العطش فنزلوا على حكم عبد المؤمن يوم عيد الفطر من السنة المذكورة فاستأصلهم القتل رحمة الله. وبلغ خبر مقتل تاشفين بن علي إلى تلمسان مع قل لمتونة الذين نجوا من وقعة وهران وفيهم سير بن الحاج في آخرين من أصحابهم، ففر معهم من كان بها من لمتونة.

ولما وصل عبد المؤمن إلى تلمسان استباح أهل تاكرارت لما كان أكثرهم من الحشم بعد أن كان بعثوا ستين من وجوههم فلقاهم يصلحون من مشيخةبني عبدالواحد فقتلهم أجمعين. وافتتح عبد المؤمن تلمسان وعفا عن أهلها ورحل عنها لسبعة أشهر من فتحها بعد أن ولّ عليها سليمان بن محمد بن وانودين وقيل يوسف بن وانودين.

فتح مدينة فاس

نقل بعض المؤرخين أن عبد المؤمن لم ينزل محاصراً لتلمسان والفتح ترد عليه وهناك وصلته بيعة أهل سجلماسة، إلى أن اعتزم على الرحيل إلى المغرب. فترك إبراهيم بن جامع محاصراً لتلمسان، وقصد مدينة فاس سنة إحدى وأربعين وخمسة وسبعين بها يحيى بن أبي بكر الصحاوي من قل تاشفين بن علي من وهران، فنازلها عبد المؤمن وبعث عسكراً لحصار مكناسة، ثم نهض في أتباعه وترك عسكراً من الموحدين على فاس، وعليهم الشيخ أبو حفص، وأبو إبراهيم من صحابة المهدى العشرة فحاصروها سبعة أشهر، ثم داخلهم ابن الجياني فسرب البلد وأدخل الموحدين ليلاً، وفر يحيى بن أبي بكر الصحاوي إلى طنجة، ثم أجاز منها إلى يحيى بن علي المسوفى المعروف بابن خانية بالأندلس - وكان والياً على قرطبة من قبل المرابطين - فأقام عنده إلى أن كان من أمره ما ذكره. وانتهى خبر فتح فاس إلى عبد المؤمن وهو بمكانه من حصار مكناسة فرجع إليها ودخلها.

وحكى صاحب القرطاس في فتح فاس خلاف هذا الوجه فقال: وفي سنة أربعين وخمسة وسبعين فتح عبد المؤمن فاساً بعد حصار شديد: قطع عنها ماء النهر الداخل إليها وسده بالبناء والخشب حتى انحبس الماء فوق بسيط الأرض وانتهى إلى مراكزه منها ثم خرق السد فانحدر الماء على المدينة دفعة واحدة وهدم سورها ثم هدم من دورها ما يزيد عن ألفي دار بالثنية وهلك بها خلق كثير وكان الماء يأتي على أكثرها، ثم دخلها عبد المؤمن وأمن أهلها إلا من كان بها من المرابطين فإنه أمر أن لا يمضى لهم أمان، وقتلهم قتل عاد. ثم أمر ب سور المدينة فهدم منه ثلم كثيرة أوسعها جداً، وقال: «إنا لا نحتاج إلى سور وإنما أسوارنا سيوفنا وعدتنا» فلم تزل فاس لا سور لها إلى أن تداركها حافظه يعقوب المنصور فابتداً بناءه، ومات فاتمه ابنه الناصر ستة ستمائة.

ولما فتح عبد المؤمن فاساً ولـى عليها إبراهيم بن جامع الذي خلفه على تلمسان، فإنه لما فتحها ارتحل إلى عبد المؤمن فاتصل به وهو محاصر لفاس، ففتحها عبد المؤمن وولاه عليها، وكان قد اعترضه في طريقه المخضب بن عسـكرـ شـيخـ بـنـيـ مـرـيـنـ وـنـالـوـاـ مـهـ وـمـنـ رـفـقـتـهـ، وـكـانـ مـعـهـ أـمـوـالـ لـمـتـونـةـ وـذـخـيرـتـهـ الـتـيـ اـسـتـولـىـ عـلـىـ تـلـمـسـانـ يـوـسـفـ بـنـ وـاـنـدـوـدـيـنـ يـأـمـرـهـ أـنـ إـلـىـ عـدـ المؤـمنـ فـكـتـبـ إـلـىـ عـاـمـلـهـ عـلـىـ تـلـمـسـانـ يـوـسـفـ بـنـ وـاـنـدـوـدـيـنـ يـأـمـرـهـ أـنـ يـجـهزـ الـعـساـكـرـ إـلـىـ بـنـيـ مـرـيـنـ، فـبـعـثـهـ صـحـبةـ عـدـ الـحـقـ بـنـ مـنـفـادـ شـيخـ بـنـ عـدـ الـوـادـ، فـأـلـقـعـواـ بـنـيـ مـرـيـنـ وـقـتـلـ الـمـخـضـبـ شـيخـهـ.

فتح مراكش واستئصال بقية الممتوبيين

ثم ارتحل عبد المؤمن من فاس عـامـداـ إـلـىـ مـرـاكـشـ فـوـافـتـهـ فـيـ طـرـيقـهـ بـيـعـةـ أـهـلـ سـبـتـ، فـوـلـىـ عـلـيـهـ يـوـسـفـ بـنـ مـخـلـوفـ مـنـ مـشـيخـ هـتـاتـةـ، وـمـرـ عـلـىـ مـدـيـنـةـ سـلاـ فـاـفـتـحـهـ بـعـدـ مـوـاـقـعـةـ قـلـيـةـ وـلـئـمـ سـوـرـهـ كـفـاسـ، وـنـزـلـ مـنـهـ بـدـارـ اـبـنـ عـشـرـةـ، وـكـانـ هـذـهـ الدـارـ قـصـراـ بـدـيـعـاـ بـمـدـيـنـةـ سـلاـ، بـنـاهـ الـفـقـيـهـ أـبـوـ الـعـبـاسـ بـنـ الـقـاسـمـ مـنـ بـنـيـ عـشـرـةـ، فـشـيـدـهـ وـأـنـقـهـ، وـلـماـ فـرـغـ مـنـهـ وـصـفـتـهـ الشـعـرـاءـ وـهـتـتـهـ بـهـ وـدـعـتـ لـهـ، وـكـانـ بـالـحـضـرـةـ يـوـمـيـدـ الـأـدـيـبـ اـبـنـ الـحـمـارـةـ وـلـمـ يـكـنـ أـعـدـ شـيـئـاـ فـقـكـرـ قـلـيـلاـ ثـمـ قـالـ :

يا أـوـحـدـ النـاسـ قـدـ شـيـدـتـ وـاحـدـةـ
فـحـلـ فـيـهـ حـلـوـلـ الشـمـسـ فـيـ الـحـمـلـ
فـمـاـ كـدـارـكـ فـيـ الـدـنـيـاـ لـذـيـ أـمـلـ
وـلـاـ كـدـارـكـ فـيـ الـأـخـرـىـ لـذـيـ عـلـمـ

وهـذـاـ القـصـرـ لـمـ يـقـيـدـ لـهـ الـيـوـمـ اـسـمـ وـلـاـ رـسـمـ. ثـمـ تـمـادـيـ عـدـ المؤـمنـ إـلـىـ مـرـاكـشـ وـسـرـحـ الشـيـخـ أـبـاـ حـفـصـ لـغـزـوـ بـرـغـوـاطـةـ، فـأـنـخـنـ فـيـهـ وـرـجـعـ فـلـقـيـهـ فـيـ طـرـيقـهـ وـأـنـهـوـ جـمـيـعـاـ إـلـىـ مـرـاكـشـ، وـقـدـ اـنـضـمـ إـلـيـهـ جـمـوعـ لـمـطـةـ، فـأـلـقـعـ بـهـمـ الـمـوـحـدـونـ وـأـنـخـنـوـ فـيـهـمـ قـتـلـاـ، وـاـكـتـسـحـوـ أـمـوـالـهـمـ وـظـعـانـهـمـ، وـأـقـامـوـاـ عـلـىـ

مراكش تسعه أشهر، وأميرهم يومئذ إسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين، وكانتوا قد بايعوا أولاً إبراهيم بن تاشفين بن علي فألفوه مضعفاً عاجزاً، فخلعوه وبايعوا عمه إسحاق بن علي المذكور، وهو صبي صغير؛ ولما طال عليهم الحصار وجهدهم الجوع بربوا إلى مدافعة الموحدين فانهزموا وتبعدوا بالقتل، فاقتتلوا عليهم المدينة في آخريات شوال سنة إحدى وأربعين وخمسة، وقتل عامة الملثمين، ونجا إسحاق في جملته وأعيان قومه إلى القصبة حتى نزلوا على حكم الموحدين، وأحضر إسحاق بين يدي عبد المؤمن فقتله الموحدون بأيديهم، وتولى كبير ذلك أبو حفص بن واجاج منهم.

وانمحى أثر الملثمين، واستولى الموحدون على جميع البلاد. وقد قيل في ترتيب هذه الأخبار غير هذا الوجه.

قال ابن مطرود القيسى: لما بويع عبد المؤمن بتينملل ارتحل بجيوش الموحدين نحو مراكش فحاصرها أياماً وذلك في شوال سنة ست وعشرين وخمسة، ثم ارتحل عنها إلى تادلا، ثم إلى سلا، فتلقاء أهلها سامعين مطعدين. فدخلتها يوم السبت الرابع والعشرين من ذي الحجة من السنة المذكورة وخطب له بها.

وفي سنة سبع وعشرين بعدها فتح عبد المؤمن بلاد تازا.

وفي سنة ثمان وعشرين بعدها تسمى عبد المؤمن بأمير المؤمنين^(١). واعلم أن اللقب كان في صدر الإسلام خاصاً بال الخليفة بالشرق من بني أمية أو من بني العباس بعدهم. ولما قام عبيد الله المهدي أول ملوك العبيديين بإفريقية تسمى بأمير المؤمنين لأنه كان يرى أنه أحق بالخلافة من بني العباس

(١) وعبيد المؤمن هذا هو أول من تصور على اللقب بأمير المؤمنين من غير جنس العرب، ولم يتجرأ أحد من العجم قبله على هذه الدعوى، وكانت سبب انتقاض المغرب عليه. انظر تحقيق القول في هذا المبحث في مقدمة تاريخنا المغربي.

المعاصرين له بالشرق، فهو أول من زاحم الخليفة في هذا اللقب، ثم تبعه على ذلك عبد الرحمن الناصر الأموي صاحب الأندلس، ورأى أن له في الخلافة حقاً اقتداء بسلفه الذين كانوا خلفاء بالشرق وكلاهما - أعني العبيدي والأموي - قرشي من عبد مناف، ثم لم يتجرأ أحد لا من ملوك العجم بالشرق ولا من ملوك البربر من المغرب على اللقب بأمير المؤمنين لأنه لقب الخليفة الأعظم القرشي كما علمت، إلى أن جاءت دولة المرابطين وكان منهم يوسف بن تاشفين واستولى على المغاربة والأندلس، وعظم سلطانه واتسعت مملكته، وخاطب الخليفة العباسي بالشرق فولاه على ما بيده، وتسمى بأمير المسلمين أديباً مع الخليفة حسبما أشرنا إليه سالفاً ولما جاء عبد المؤمن هذا لم يبال بذلك كله واتسم بال الخليفة وتلقب بأمير المؤمنين وتبعد على ذلك بنوه من بعده ولسان الحال ينشد:

لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها، وحتى سامها كل مقلس

وفي سنة تسع وعشرين وخمسينه أمر عبد المؤمن ببناء رباط مدينة تازة، فبنيت وحصن سورها، ثم كانت محاربته لتأشين بن علي على نحو ما أسلفناه. والله تعالى أعلم.

ثورة محمد بن هود السلاوي المعروفة بالماسي

كان محمد بن هود بن عبد الله السلاوي رجلاً من سوقة أهل سلا وكان أبوه سمساراً بها يبيع الكنابيش، وكان هو فزارها بها مدة، ثم لحق بعبد المؤمن عندما ظهر وبايده وشهد معه فتح مراكش، ثم فارقه وظهر برباط ماسة من ناحية السوس، ودعا لنفسه وتسمى بالهادي، وتمكن ناموسه من قلوب العامة وكثير من الخاصة، فأقبل إليه الشزاد من كل جانب، وانصرفت إليه وجوه الأغمار من أهل الأفاق، وأخذ بدعونه أهل سجلamasة ودرعة وقبائل دكالة ورجراجة وقبائل تامسنا وهوارة، وفشت ضلالته في جميع المغرب.

قال في القرطاس: بايده جميع القبائل حتى لم يبق تحت طاعة عبد المؤمن إلا مراكش، فسرح إليه عبد المؤمن عسكراً من الموحدين لنظر يحيى بن إسحاق أنكمار النازع إليه من إيمانه تأشفين بن علي حسبما تقدم، فالتحقى بالماسي وقاتلته فانتصر الماسي عليه وعاد مهزوماً إلى عبد المؤمن، فسرح إليه عبد المؤمن ثانياً الشيخ أبو حفص الهمتاتي في جيش عظيم من أشياخ الموحدين وغيرهم، واحتفل عبد المؤمن في الاستعداد. ونهض الشيخ أبو حفص من مراكش فاتح ذي القعدة سنة اثنين وأربعين وخمسماه، وشييعه عبد المؤمن إلى وادي تانسيفت، ثم دعا له ووادعه وانصرف الشيخ أبو حفص في جيوش الموحدين حتى انتهوا إلى رابطة ماسة فيبرز إليهم محمد بن هود في نحو ستين ألفاً من الرجال وسبعمائة من الفرسان، فكانت بينهم حرب شديدة ثم انتصر عليهم الموحدون فهزموهم، وقتل محمد بن هود في المعركة مع كثير من أتباعه وفضلت جموعه، وكان ذلك في ذي الحجة من السنة المذكورة، وكان الذي باشر قتل ابن هود هو الشيخ أبو حفص رئيس الجيش، فلقبه الموحدون سيف الله تشبيهاً له بخالد بن الوليد رضي الله عنه.

وكتب الشيخ أبو حفص إلى عبد المؤمن برسالة الفتح من إنشاء الفقيه أبي جعفر بن عطيه القضاعي الكاتب المشهور يقول فيها: «كتابنا هذا من وادي ماسة بعد ما تجدد من أمر الله الكريم، ونصره تعالى المعهود القديم، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم، ففتح بهر الأنوار إشراقاً؛ وأحدق بنفوس المؤمنين إشراقاً، ونبه للأمانى النائمة جفونا وأحداقاً، واستغرق خاتمة الشكر استغرقاً، فلا تطيق الألسن لكنه وصفه إدراكاً ولا لحافاً، جمع أشتات الطلب والأرب، وتقلب في النعم أكرم منقلب، وملا دلاء الأمل إلى عقد الكرب».

فتح تفتح أبواب السماء له وتبزر الأرض في أثوابها القشب

وتقىدمنا بشارتنا به جملة، حين لم تعط الحال بشرحه مهلة، كان أولئك الضاللون قد بطروا عدواناً وظلماً، واقتطعوا الكفر معنى وأسماء، وأملى الله تعالى لهم ليزدادوا إثماً، وكان مقدمهم الشقي قد استمال النفوس بخزعبلاته، واستهوى القلوب بمهوّلاته، وتنصّب له الشيطان من حجلاته؛ ففأته المخاطبيات من بعد وكثب، وانسللت إليه الرسل من كل حدب، واعتقدته الخواطر أعجب عجب، وكان الذي قادهم إلى ذلك؛ وأوردهم تلك المهالك؛ وصول من كان بتلك السواحل، ممن ارتسم برسم الانقطاع عن الناس، فيما سلف من الأعوام، واشتغل على زعمه بالقيام والصيام؛ آناء الليالي والأيام، لبسوا الناموس أثواباً، وتدرعوا الرياء جلباباً، فلم يفتح الله تعالى لهم للتوفيق باباً.

ومنها في ذكر صاحبهم الماسي المدعى للهداية: «فصرع بحمد الله تعالى لحيته، وبادرت إليه بوادر متنونه، وأنته واندات الخطايا عن يساره ويمينه؛ وقد كان يدعى أنه بشر بأن المنية في هذه الأعوام لا تصيبه: والنواب لا تنوره! ويقول في سواه قوله كثيراً، ويختلق على الله تعالى إفكاً وزوراً! فلما رأوا هيبة اضطجاعه، وما خطته الأسنة في أعضائه وأضلاعه، ونفذ فيه من أمر الله تعالى ما لم يقدروا على استرجاعه؛ هزم من كان لهم من الأحزاب؛ وتساقطوا على وجوههم تساقط الذباب، وأعطوا على يكرة أيّهم صفحات الرقاب، ولم تقطر كلومهم إلا على الأعقاب، فامتلأت تلك الجهات بأجسامهم، وأذنت الآجال بانقراض أمادهم، وأخذهم الله تعالى بكفرهم وفسادهم، فلم يعاين منهم إلا من خر صريراً، وسقى الأرض نجيعاً؛ ولقي من أمر الهنديات قظيغاً، ودعت الضرورة باقيهم إلى الترامي في الوادي، فمن كان يؤمل القرار ويرتجيه، ويسبح طامعاً في الخروج إلى ما ينتجه؛ اختطفته الأسنة اختطافاً، وأذاقه موتاً ذعافاً، ومن لج في الترامي على لوجهه؛ ورماه البقاء في ثبجه، قضى عليه شرقه، وألوى بذقه غرقه؛ ودخل

الموحدين إلى البقية الكائنة فيه، يتناولون قتلهم طعنًا وضررًا، ويلقونهم بأمر الله تعالى هولاً عظيمًا وكربلاً، حتى انبسطت مراقات الدماء، على صفحات الماء، وحكت حمرتها على زرقته؛ حمرة الشفق على زرقة السماء، وجزت العبرة للمعتبر، في جري ذلك الدم جري الأبحراً.

وبالجملة فهي رسالة بلية، وهي التي أورثت منشئها الرتبة العلية، والمنزلة السنوية، فإن عبد المؤمن لما وقف عليها استحسنها ووَقَعَتْ بِهِ موقعاً كبيراً، فاستكتب أولًا، ثم استوزره ثانية، ثم نكبه وقتله ثالثاً كما سيأتي.

ولما انصرف الشيخ أبو حفص من غزوة ماسة أراح بمراكبش أيامًا ثم خرج غازياً بلاد القائمين بدعوة محمد بن هود بجبار درن فأوقع بأهل نفيس وهيلانة، وأثخن فيهم بالقتل والسببي حتى أذعنوا للطاعة ورجع.

ثم خرج إلى هسکورة فأوقع بهم وافتتح معاقلهم وحصونهم.

ثم نهض إلى سجل ماسة فاستولى عليها ورجع إلى مراكش.

ثم خرج ثالثة إلى برغواطة فحاربوه مدة، ثم هزموه، واضطربت نار الفتنة بالمغرب وكان ما ذكره.

انتقاض أهل سبطة على الموحدين وخبر القاضي عياض رحمة الله معهم

قد تقدم لنا أن عبد المؤمن كان غزا سبطة في غزوته الطويلة، وأن القاضي عياض رحمة الله دافعه عنها، وأنه لما قتل تاشفين بن علي وفتحت تلمسان وفاس واستفحَل أمر عبد المؤمن بايع أهل سبطة في جملة من بايع من أمرصار المغرب.

قالوا: «وابادر القاضي عياض إلى لقاء عبد المؤمن فاجتمع به بمدينة سلا حين كان ذاهباً لفتح مراكش فأجزل صلته، وولى على سبطة يوسف بن

مخلوف التينملي وساكن الموحدون أهل سبعة في ديارهم واطمأنوا إليهم.

فلما انتقض المغرب على عبد المؤمن بسبب قيام محمد بن هود وما نشأ عن ذلك من الفتنة انتقض أهل سبعة أيضاً، وكان انتقاضهم كما في القرطاس - برأي القاضي عياض رحمة الله فقتلوا عامل المؤمنين ومن كان معه من أصحابه وحاميته وحرقوهم بالنار.

وركب القاضي عياض البحر إلى يحيى بن علي المسوفي المعروف بابن غانية، وكان معتصماً بقرطبة متمسكاً بدعوة المرابطين، فلقيه وأدى إليه البيعة؛ وطلب منه والياً على سبعة فبعث معه يحيى بن أبي بكر الصحاوي الذي كان معتصماً بفاس أيام حصار عبد المؤمن لها، ففر ولحق بابن غانية كما قلنا، ويقي في جملته إلى أن بعثه مع القاضي عياض في هذه المرة فدخل يحيى سبعة وقام بأمرها.

ولما اتصلت عبد المؤمن بهذه الأخبار مع ما تقدم من هزيمة برغواطة للشيخ أبي حفص خرج من مراكش قاصداً بلاد برغواطة أولاً، ثم من بعدهم ثانياً، فتسامعت برغواطة بخروج عبد المؤمن إليهم، فكتبوا إلى يحيى بن أبي بكر بمكانه من سبعة يستنصرونه عليهم، فأتاهم وبايدهم واجتمعوا عليه وقاتلوا عبد المؤمن فهزموه، ثم كانت له الكثرة عليهم فهزمهم وحكم السيف فيهم واستأصل شأفتهم حتى انقادوا للطاعة؛ وتبرقوا من يحيى الصحاوي ولمتنونه، وفر الصحاوي إلى منجاته، ثم طلب الأمان من عبد المؤمن وتشفع إليه بشيخ القبائل فأمنه ووقد عليه قبایعه وحسن طاعته لديه، وكان ذلك سنة اثنين وأربعين وخمسماة.

ولما رأى أهل سبعة ذلك كله سقط في أيديهم وندموا على صنيعهم وكتبوا بيعتهم إلى عبد المؤمن وقدم بها بشيخ سبعة وطلبتها تائبين، فعفا عنهم وعن القاضي عياض، وأمره بسكنى مراكش، وال الصحيح أنه ولاه القضاء بتادلاً ثم دخل مراكش، قيل دخلها مريضاً مرض موته، وقيل مات بالطريق

وحمل إليها؛ وأمر عبد المؤمن مع ذلك بهدم سور سبعة فهدم وكذلك فعل بفاس وسلا.

واعلم أن ما صدر من القاضي عياض رحمه الله في جانب الموحدين دليل على أنه كان يرى أن لا حق لهم في الأمر والإمامية وإنما هم متغلبون وهذا أمر لا خفاء به كما هو واضح. ولما كانت شوكة عبد المؤمن لا زالت ضعيفة وتأشين بن علي أمير الوقت لا زال قائم العين امتنع القاضي عياض رحمه الله من مبايعة عبد المؤمن، ودافعه عن سبعة إذ لا موجب لذلك لأن بيعة تأشين في أعقاهم وهو لا زال حياً، فلا يعدل عن بيعته إلى غيره بلا موجب.

وأما ما غالط به المهدي رحمه الله من أن المرابطين مجسمة، وأن جهادهم أوجب من جهاد الكفار، فضلاً عن أن تكون طاعتهم واجبة، فسفسطة منه عفا الله عنا عنه!

ولما قتل تأشين وفتحت تلمسان وفاس وقويت شوكة عبد المؤمن ببيعة القاضي عياض حيث ذكر وقبل صلته، لأن من قويت شوكته وجبت طاعته.

ثم لما ضعف أمره ثانياً بسبب قيام الماسي عليه وإجماع قبائل المغرب على التمسك بدعوته رجع القاضي بأهل سبعة عن بيعته إلى طاعة المرابطين الذين لهم الحق في الإمامة بطريق الأصالة، ولم يأخذ بدعاوة الماسي لأنه ثائر أيضاً، هذا مع ما كان ينقل عن المهدي من أنه غلب نزعة خارجية عليه، وأنه يقول بعصمة الإمام وذلك بدعة كما لا يخفى، فتكون إمامته وإمامية أتباعه مقدوراً فيها من هذه الحيثية، لكن حيث حصل التغلب والاستيلاء وجبت الطاعة. فالحاصل أن ما فعله القاضي عياض أولاً وثانياً كله صواب موافق للحكم الشرعي، فهكذا يتبعي أن تفهم أحوال أئمة الدين، وأعلام المسلمين رضي الله عنهم وتفعلن بعلومهم.

وأما القتل والتحريق الذي صدر من أهل سبعة فالظن بالقاضي عياض رحمة الله أنه لا يوفق على ذلك ولا يرضاه، لكن العامة تنسع إلى مجاوزة الحدود، لا سيما أيام الفتنة، وذلك معروف من حالهم والله الموفق.

ولما دخلت سنة ثلاث وأربعين وخمسة فتح الموحدون مدينة مكتasseة القديمة بعد حصارهم إليها سبع سنين: اقتحموها عنوة يوم الأربعاء ثالث جمادى الأولى من السنة المذكورة فخررت وقتل أكثر رجالها وسيبي حريمهم وخمسة أموالهم، ثم بنيت مكتasseة تاكرارت المدينة الموجودة الآن.

أخبار الأندلس وفتحها

كان عبد المؤمن لما فتح تلمسان وفاساً بعث إلى الأندلس جيشاً من عشرة آلاف فارس من أنجاد الموحدين.

وقال ابن خلدون: بعث عبد المؤمن بعد فتح مراكش جيشاً من الموحدين لنظر بدران بن محمد المسؤول في النازع إلى عبد المؤمن من جملة تاشفين بن علي، وعقد له على حرب الأندلس ومن بها من لمتونة والشوار، وأمده بعسكر آخر لنظر موسى بن سعيد، وبعده بعسكر آخر لنظر عمر بن صالح الصنهاجي.

ولما أجازوا إلى الأندلس نزلوا بأبي الغمر بن عزرون، صاحب شريش، فكان أول بلد فتحوا من الأندلس بلد شريش. خرج إليهم صاحبها أبو الغمر فيمن معه من المرابطين وباييعهم لعبد المؤمن ودخل في طاعته، فكان الموحدون يسمون أهل شريش بالسابقين الأولين. وحررت أملاكهم، فلم تزل محررة سائر أيامهم، فلم يكن في أملاكهم رباعة وجميع بلاد

الأندلس مريعة. وكان ملوك الموحدين إذا قدم عليهم وفود الأندلس كان أول من ينادي منهم أهل شريش، فكان يقال: أين السابقون؟ فيدخلون للسلام، فإذا سلموا وقضيت حاجاتهم انتصروا فدخل غيرهم حيثما، وكان فتح شريش فاتح ذي الحجة سنة تسع وثلاثين وخمسة وسبعين.

ثم زحف الموحدون إلى لبلة، وكان بها من الثوار يوسف بن أحمد البطروجي، فبذل لهم الطاعة، ثم زحفوا إلى شب قفتحوها، ثم نهضوا إلى باجة، وبطليوس، ففتحوهما أيضاً، ثم زحفوا إلى إشبيلية فحاصروها برأ وبحراً إلى أن فتحوها في شعبان سنة إحدى وأربعين وخمسة وسبعين، وقتل من كان بها من المرابطين إلى قرمنة، وقتل من أدركه القتل منهم، وقتل في جملتهم عبد الله ولد القاضي أبي بكر محمد بن عبد الله بن العربي المعافري الحافظ المشهور: وأصيب في هيبة تلك الدخلة من غير قصد.

وكتب الموحدون بالفتح إلى عبد المؤمن، ثم قدم عليه وفدهم بمراكب مباعين له ستة اثنين وأربعين وخمسة وسبعين، ورئيس الوفد يومئذ القاضي أبو بكر بن العربي المذكور، فألفوا عبد المؤمن مشغولاً بحرب محمد بن هود الماسي، فأقاموا بمراكب ستة ونصفاً، لم يلقوه فيها حتى كان يوم عيد الأضحى من ستة اثنين وأربعين وخمسة وسبعين فلقوه بالمصلى فسلموا عليه سلام الجماعة، ثم بعد ذلك دخلوا عليه فسلموا عليه السلام الخاص، وقبلت بيعتهم.

وسأله عبد المؤمن القاضي أبي بكر بن العربي عن المهدى هل كان لقيه عند الإمام أبي حامد الغزالى، فقال: «ما لقيته، ولكن سمعت به» فقال له: «فما كان أبو حامد يقول فيه؟» قال: «كان يقول: إن هذا البربرى لا بد أن سيظهر» ثم صرف عبد المؤمن أهل إشبيلية بعد أن أجازهم، وكتب لهم منشوراً بتحرير أملاكهم، فانصرفوا عنه في جمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعين وخمسة وسبعين، فلما قربوا من مدينة فاس توفي الإمام أبو بكر بن العربي رحمه

الله، فحمل ودفن خارج باب المحروق منها، بتربة القائد مظفر، وقبره مزاره إلى الآن، وعليه قبة حسنة.

وفي هذه السنة ملك الموحدون قرطبة؛ وكان بها يحيى بن علي المسوفي - المعروف بابن غانية - مقيناً لدعوة المرابطين، فلما دخل الموحدون الأندلس واشتعلت نار الفتنة بحرب المرابطين انتهز الطاغية الفرصة في بلاد الإسلام، وضائق ابن غانية بقرطبة، وألح على جهاته؛ حتى نزل له عن بساطة وأيده؛ وتغلب على أشبونة، وطرطوشة، والمرية؛ ومارة، وأفراغة، وشترين، وشتمرة؛ وغيرها من حصون الأندلس وطالب ابن غانية بالزيادة على ما بذل له أو الإفراج عن قرطبة، فأرسل ابن غانية إلى بدران بن محمد أمير الموحدين، واجتمعوا بأسطجة، وضمن له بدران أمان الخليفة عبد المؤمن على أن يتخلل له عن قرطبة وقromoته ففعل ثم لحق بغرناطة، وبها ميمون بن بدر اللمنوني في جماعة من المرابطين، وأراد أن يكلمه في الدخول في طاعة الموحدين وأن يمكنهم من غرناطة كما فعل هو بقرطبة، فتوفي بغرناطة يوم الجمعة الرابع والعشرين من شعبان سنة ثلاثة وأربعين وخمسين، ودفن في القصبة بإزاء قبر باديس بن حبوس الصنهاجي، وانتهز الطاغية الفرصة في قرطبة فزحف إليها وحاصرها، فجهز إليها مدد يوسف البطروجي من لبلة، وبلغ الخبر عبد المؤمن فبعث إليها عسكراً من الموحدين لنظر يحيى بن يغمور، ولما دخلها أفرج عنها الطاغية لأيام من مدخله، ويادر ثوار الأندلس إلى يحيى بن يغمور في طلب الأمان من عبد المؤمن، ثم تلاحقوا به بمراكب فتقبلهم، وصفح لهم عما سلف.

قدوم عبد المؤمن إلى سلا ووفادة أهل الأندلس عليه بها

لما كانت سنة خمس وأربعين وخمسماة قدم عبد المؤمن من مراكش إلى سلا، فتظر في أمرها وأجري إليها ماء عين غبولة، حتى وصل إلى رباطها؛ ولم تكن رباط الفتح يومئذ قد بنيت، لأن بانيها حافظه يعقوب المنصور كما سيأتي إن شاء الله، وإنما كان يقال رباط سلا.

ثم أذن عبد المؤمن لأهل الأندلس في الوفادة عليه بسلا، فقدموا عليه في نحو خمسماة فارس من الفقهاء والقضاة والخطباء والأشياخ والقواد، فتلقاهم الشيخ أبو حفص الهمتاني، والوزير الكاتب أبو جعفر بن عطية، وأشياخ الموحدين على نحو ميلين من المدينة، فأمر عبد المؤمن بإذن لهم، وأفاض عليهم سجال الإكرام، وأنواع الضيافات والإنعم؛ ويقوا على ذلك ثلاثة أيام، ثم أذن لهم في الدخول فدخلوا عليه أول يوم من المحرم فاتح سنة ست وأربعين وخمسماة؛ فسلموا عليه.

وأشار الوزير ابن عطية لأهل قرطبة بالتقدم، فتقدم قاضيهم أبو القاسم بن الحاج فرار أداءً أن يتكلم فدهش، ثم وصف حال قرطبة؛ فقال: «يا أمير المؤمنين، إن الفتن لعنة الله قد أضعفها».

فتلاه أبو بكر بن الجد بالخطبة البليغة، فجلى في ذلك المجلس، واستحسن عبد المؤمن خطبته، ووصل الجميع كلاماً على قدره، وقضى مطالبهم؛ وأوصاهم بما اقتضاه الحال، وأمرهم بالانصراف إلى بلادهم، فانصرفوا فرحين مغبطين.

وقال ابن خلدون: «استدعي عبد المؤمن أهل الأندلس - وهو بسلا - فرفدوا عليه وبايده جميـعاً، وبابـعه الرؤسـاء من الشوارـ على الانـخلـاع من الأمر؛ مثل سدراتـي ابن وزـير صـاحـب باـحة وـيـابـرة، وـيوـسـف الـبـطـروـجي صـاحـب لـبـلة، وـابـن عـزـرونـ صـاحـب شـريـش وـرنـدة، وـمـحمدـ بـنـ الحـجامـ

صاحب بطليوس، وعامل بن مهيب صاحب طلبرة، وتختلف ابن القيسي وأهل شلب عن هذا الجمع فكان سبباً لقتله من بعد، وانصرف أهل الأندلس إلى بلادهم، ورجع عبد المؤمن إلى مراكش واستصحب الثوار فلم يزالوا بحضرته. والله تعالى أعلم.

غزو إفريقيا وفتح مدينة بجاية

ثم بلغ عبد المؤمن اضطراب بلاد إفريقيا بسبب تنازع ملوكها منبني زيري بن مناد الصنهاجيين واستطالة العرب عليهم بها، فأجمع الرحلة إلى غزوهما، بعد أن شاور الشيخ أبي حفص وأبا إبراهيم وغيرهما من المشيخة فوافقوه، فخرج من مراكش أواخر سنة ست وأربعين وخمسة، واستخلف عليها الشيخ أبي حفص الهناتي؛ وسار حتى وصل إلى سلا فأقام بها شهرين، ثم نھض منها إلى سبتة مظهراً أنه يريد العبور إلى الأندلس بقصد الجهاد.

فلما وصل إلى سبتة استدعي فقهاء قرطبة وإشبيلية وأعيان الأندلس وقوادها فاستوضح منهم أحوال البلاد، وأوصاهم بما إليهم منها وودعهم.

ورحل عن سبتة مظهراً العود إلى مراكش، وصار حتى وصل إلى القصر الكبير؛ وهو قصر كثامة، فميز جيوشه وأزاح علّالهم وفرق فيهم الأموال، وأمرهم بتجدد الأزواباد، وخرج يعتسف البلاد على غير طريق يجعل مدينة فاس عن يمينه، وجد السير حتى خرج على وادي ملوية، ثم سار إلى تلمسان فأقام بها يوماً واحداً، ثم خرج منها وولى السير قاصداً بجاية؛ فطرق الجزائر على حين غفلة من أهلها، فدخلها وأمنهم، وفر صاحبها القائم بن يحيى بن العزيز إلى أبيه يحيى بجاية.

وخرج إلى عبد المؤمن الحسن بن علي الصنهاجي صاحب المهدية، وكان الفرنج قد أخرجوه منها، فقصد ابن عمه يحيى بن العزيز صاحب

بجاية فعدل به إلى الجزائر وأنزله بها كالمسجون. فلما طرق عبد المؤمن الجزائر في هذه المرة خرج إليه الحسن بن علي المذكور، فصحبه ووصل يده بيده، حتى كان من أمره ما ذكره إن شاء الله.

ثم اعترضت جيوش صنهاجة عبد المؤمن بأم العلو فهزهم وصبع بجاية من الغد فدخلتها، وفر صاحبها يحيى بن العزيز الصنهاجي آخر ملوكبني حماد أصحاب القلعة. فركب البحر في أسطولين كان أعدهما لذلك، واحتمل فيما ذخيرته وأمواله، وعزم على المسير إلى مصر؛ ثم عدل إلى بونة فنزل على أخيه الحارث، فأنكر عليه سوء صنيعه وإفراجه عن البلد، فارت حل عنه إلى قسطنطينة فنزل على أخيه الحسن فتخلى له عن الأمر.

وفي خلال ذلك دخل الموحدون قلعة حماد عنوة، وكان عبد المؤمن وجه جيشاً من الموحدين إليها وأمر عليهم ابنه أبي محمد عبد الله فدخلوها وأضرموا النيران في مساكنها وخرابها وقتلوا بها نحو ثمانية عشر ألفاً، وأمتلأت أيدي الموحدين من الغنائم والسببي، ثم جمع لهم العرب الذين هناك من الأثيج وزغبة ورياح وغيرهم بسطيف، فأوقعوا بهم واستلموهم وسيروا نسائهم واكتسحوا أموالهم.

وأما يحيى بن العزيز فإنه بايع لعبد المؤمن سنة سبع وأربعين وخمسة. ونزل له عن قسطنطينة واشتربط لنفسه فوقى له عبد المؤمن ونقله إلى مراكش بأهله وخاصته فسكنها وأفاض عليه سجال الإحسان، وأنزله متزلة رفيعة، ثم انتقل إلى سلا سنة ثمان وخمسين وخمسة، فسكن بقصر ابن عشرة منها إلى أن مات من ستة رحمة الله.

ووفد على عبد المؤمن بمراكش كبراء العرب من أهل إفريقيا طائعين، فوصلتهم ورجعوا إلى قومهم، مختبظين.

فتح المرية وبساطة وأبدة

كانت هذه البلاد قد استولى عليها الفرنج أيام الموحدين والمرابطين بالأندلس، فلما كانت سنة ست وأربعين وخمسمائة عبر الشيخ أبو حفص إلى الأندلس في جيش كثيف من الموحدين ومعه السيد أبو سعيد ابن أمير المؤمنين برسم الجهاد. وكان بنو عبد المؤمن يسمون أبناءهم بالسادة - فنزلوا المرية وضيقوا عليها بالحصار، وبيني السيد أبو سعيد على محلته سوراً، واستغاث نصارى المرية بالفنش فأغارتهم بمحمد بن مردنيش - وكان وأصلاً يده بيده - ووجه معه السلطان أحد قواد الفرنج في جيش كثيف، فلم يتمكنوا من البلد ولا من محلة الموحدين لكونها محصنة بالسور. فرجع ابن مردنيش والسلطان بخفق خنين وأفتقرا فلم يجتمعا بعد.

ثم عمد السلطان إلى بساطة وأبدة فأخلاهما من النصارى الذين كانوا بهما خوفاً عليهم؛ ورجع عوده على بدنه. وأما السيد أبو سعيد فإنه شدد الحصار على المرية حتى نزلوا على الأمان بواسطة الوزير ابن عطية.

وفي سنة ثمان وأربعين وخمسمائة وجه عبد المؤمن على يصلين قريب المهدى فأئم به مكتولاً من سبعة، فأمر بقتله وصلبه بباب مراكش لأمر نقمته عليه.

ثم ارتحل عبد المؤمن بعد مقتل يصلين إلى تينملل بقصد زيارة قبر المهدى، فزار وفرق في أهلها أموالاً عظيمة، وأمر ببناء مسجدها وتوسيتها.

قدوم عبد المؤمن مدينة سلا وتولية أولاده على التواصي بها

لما قضى عبد المؤمن إربه من تينمل ارتحل منها إلى سلا، فأقام بها بقية سنة ثمان وأربعين وخمسة.

ثم دخلت سنة تسع وأربعين بعدها، فباع لابنه السيد أبي عبد الله محمد بولاية العهد، وأمر أن يذكر في الخطبة بعده، وكتب بذلك إلى جميع الآفاق.

ثم عقد لابنه السيد أبي الحسن علي على فاس وأعمالها، واستوزر له أبي الحجاج يوسف بن سليمان. وعقد لانه السيد أبي حفص عمر على تلمسان وأعمالها واستوزر له أبي محمد عبد الحق بن وانودين، واستكتب له أبي الحسن عبد الملك بن عياش. وعقد لابنه السيد أبي سعيد عثمان على سبتة وطنجة، واستوزر له أبي محمد عبد الله بن سليمان، وأبا عثمان سعيد بن ميمون الصنهاجي، واستكتب له أبي بكر بن طفيل القيسي، وأبا بكر بن حبيش الباقي. وعقد لابنه السيد أبي محمد عبد الله على بجاية وأعمالها، واستوزر له أبي سعيد يخلف بن الحسن. وعقد للشيخ أبي زيد بن يكثير على قرطبة وأعمالها، ويقال إن قرطبة كانت في هذا التاريخ بيد يحيى بن يغمور والله أعلم.

واستقامت الأحوال لعبد المؤمن وبنيه، وصفا له المغاربة والأندلس والله غالب على أمره.

إيقاع عبد المؤمن بعد العزيز وعيسي أخيو المهدى والسبب في ذلك

كان عبد العزيز وعيسي أخيو المهدى من مشيخة العسكر ووجوه الجيش بإشبيلية أيام فتحها ووفادة أهلها على عبد المؤمن بمراكش حسينا تقدم. ثم ساء أثرهما بها، واستطالت أيديهما على أهلها، واستباحا الدماء والأموال؛ ثم اعتزما على الفتك بيوسف البطروجى صاحب لبلة، فلحق بيده وأخرج الموحدين الذين بها وحول الدعوة عنهم إلى المرابطين، ونشأ عن ذلك فساد كبير بالأندلس؛ ثم لحق أخوا المهدى بالعدوة في خبر طويل؛ واستمر حالهما إلى أن بايع عبد المؤمن لابنه محمد بولاية العهد، وعقد لأخوته على العمالات والتواحي، ففسدت نية عبد العزيز وعيسي بذلك، مع ما كان صلبه من عبد المؤمن من قتل ابن عمهم يصلتين، وكانت يومئذ بفاس عبد المؤمن بسلا، فخرجا من فاس إلى مراكش على طريق المعدن مضمرين للغدر.

وأتصل خبر خروجهما بعد المؤمن، فخرج من سلا في أثرهما متلافياً أمر مراكش، وقدم أمامه وزيره أبي جعفر بن عطية، فسيقهاه إليها وداخلاً بعض الأوياش بها في شأنهما، فوثبوا بعاملها أبي حفص عمر بن تافراكت فقتلوه بمكانه من القصبة.

ووصل على أثرهما الوزير ابن عطية ثم عبد المؤمن على أثره، فأطافا تلك الناثرة، وتقبض عبد المؤمن على عبد العزيز وعيسي فقتلهم وصلبهم وتتبع المداخلين لهما فألحقهم بهما وانقطع الشغب وزال الفساد.

إيقاع يحيى بن يغمور بأهل لبلة وإسرافه في ذلك

لما كانت سنة تسع وأربعين وخمسمائة فتح الموحدون مدينة لبلة، وكان المتولي لفتحها يحيى بن يغمور والي قرطبة وإشبيلية، حاصرها مدة ثم افتحهما عنوة، وقبض على أهلها فخرج بهم إلى ظاهر المدينة، وصفهم في صعيد واحد ثم عرضهم على السيف أجمعين حتى خلص القتل منهم إلى الفقيه المحدث أبي الحكم بن بطال، والفقيق الصالح أبي عامر بن الجد.

وكان عدد من قتل من أهل لبلة في ذلك الصعيد ثمانية آلاف وقتل بأحوازها نحو أربعة آلاف ثم بيعت نساؤهم وأبناؤهم وأمتعتهم وأسلابهم فعل ذلك اقتياضاً على عبد المؤمن! وبلغه الخبر وهو بمراكش، فسخطه. وبعث إليه عبد الله بن سليمان فجاء به معتقلًا إلى الحضرة يوم عيد الفطر، فألزمته بيته وبقي على ذلك مدة ثم عفا عنه وسرحه مع ابنه السيد أبي حفص إلى تلمسان. ولم يصرف إلى أهل لبلة شيئاً مما أخذ لهم واستقام أمر الأندلس وتزل ميمون بن بدر اللمنوني عن غرناطة للموحدين فملكوها، وأجاز إليها السيد أبو سعيد صاحب سبتة، بعهد أبيه عبد المؤمن إليه بذلك ولحق الملثمون بمراكش.

أمر^(١) عبد المؤمن بتحريض كتب الفروع ورد الناس إلى الأصول من الكتاب والسنة

لما كانت سنة خمسين وخمسمائة أمر أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي بإصلاح المساجد وبنائها في جميع ممالكه، وبنغير المنكرات ما كانت. وأمر مع ذلك بتحريض كتب الفروع ورد الناس إلى قراءة كتب الحديث واستنباط الأحكام منها، وكتب بذلك إلى جميع طلبة العلم من بلاد الأندلس والعدوة فجزاه الله خيراً.

نقل المصحف العثماني من قرطبة إلى مراكش وبناء جامع الكتبيين بها

كان بقرطبة ثم بجامعها الأعظم المشهور مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، ذكر ذلك جماعة من المؤرخين منهم ابن بشكوال وغيره وكان ذلك المصحف الكريم متداولاً عندبني أمية وأهل الأندلس، واستمر بقرطبة إلى دولة الموحدين فنقله عبد المؤمن إلى مراكش. قال ابن بشكوال: «أخرج المصحف العثماني من قرطبة وغرب منها، وكان بجامعها الأعظم ليلة السبت الحادي عشر من شوال سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة في أيام أبي محمد عبد المؤمن بن علي وبأمره، وهذا

(١) الذي في كتاب المعجب بعد الواحد المراكشي: أن يعقوب المنصور هو الأمر بذلك. فانتظر هل فعل هذا اقتداء بجده أم من ذاته لأول الأمر، لكن الظاهر من كلام المراكشي أن إحراق كتب الفروع ورد الناس إلى الكتاب والسنة كان مقصداً وعزاً لعبد المؤمن وابنه يوسف، إلا أنهما لم يظهرا، وأظهره يعقوب بعدهما أه. وما ذكره المؤلف هنا منقولاً عن صاحب القرطاس. وكلام صاحب المعجب أولى بالاعتبار لقربه من الزمن المذكور ومشاهدته للواقع.

أحد المصايف الأربع التي بعث بها عثمان رضي الله عنه إلى الأمصار: مكة؛ والبصرة، والكوفة؛ والشام. وما قيل من أن فيه دم عثمان بعيد وإن يكن أحدها فعله الشامي^٤.

قال ابن عبد الملك قال أبو القاسم التجيبي السبتي : «أما الشامي فهو باق بمقصورة جامع بنى أمية بدمشق ، وعايته هنالك سنة سبع وخمسين وستمائة كما عاينت المكي بقبة الشراب». قال : «فعله الكوفي أو البصري».

قال الخطيب ابن مرزوق في كتاب المسند الصحيح الحسن : «اختبرت الذي بالمدينة والذي نقل من الأندلس ، فألفيت خطهما سواه ؛ وما توهمو أنه خطه بيمنيه فليس بصحيح فلم يخط عثمان واحداً منها ؛ وإنما جمع عليها بعضاً من الصحابة كما هو مكتوب على ظهر المتنى ، ونص ما على ظهره : هذا ما أجمع عليه جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ ، منهم زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ؛ وذكر العدد الذي جمعه عثمان رضي الله تعالى عنه من الصحابة رضي الله عنهم على كتب المصحف» اهـ.

وكان من خبر نقله إلى مراكش ما ذكره ابن رشيد في رحلته عن أبي زكريا يحيى بن أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الملك بن طفيلي القيسي عن كتاب جده الوزير أبي بكر محمد بن عبد الملك بن طفيلي المذكور ، قال : «وصل إلى عبد المؤمن ابنه السيدان أبو سعيد ، وأبو يعقوب من الأندلس ؛ وفي صحبتهما مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه وهو الإمام الذي لم يختلف فيه مختلف ، فتلقي وصوله بالإجلال والإعظام وبوادر إليه بما يجب من التبجيل والإكرام .

وكان في وصوله ذلك الوقت من عظيم العناية ويظهر الكرامة ما هو معتبر لأولي الألباب . وذلك أن أمير المؤمنين عبد المؤمن كان قبل ذلك بأيام قد جرى ذكره في خاطره ، وتروى مع نفسه في كيفية جلبه من مدينة قرطبة محل مشواه القديم ، فتوقع أن يتأنى أهل ذلك القطر بفراته ؛ ويستوحشوا لفقدان إضاءته وإشرافه ، فوقف عن ذلك فأوصله الله إليه تحفة سينية ؛ وهدية

هنية، دون أن يكدرها من البشر اكتساب؛ أو يتقدّمها استدعاء أو اجتلاف. بل أوقع الله تعالى في نفوس أهل ذلك القطر من الفرح بإرساله، ما أطّلع بالمشاهدة على صحة صدقه، وعصلت مخايل برقه، سواكب ودقة؛ وعد ذلك من كرامات أمير المؤمنين عبد المؤمن وسعادته.

ثم عزم عبد المؤمن على تعظيم المصحف الكريم وشرع في انتخاب كسوته واختيار حليته، فحضر الصناع المتقين ممن كان بالحضورة وسائر بلاد المغرب والأندلس؛ فاجتمع لذلك حذاق كل صناعة من المهندسين والصواغين والنظماء والحلائين والنقاشين والمرصعين والتجارين والزواقين والرسامين والمجلدين وعرفاء البنائيين! ولم يبق من يوصف ببراعة، أو ينسب إلى الحذق في صناعة، إلا أحضر للعمل فيه؛ والاشتغال بمعنى من معانيه!

وبالجملة، فقد صنعت له أغشية بعضها من السنديس؛ وبعضها من الذهب والفضة، ورصع ذلك بأنواع اليواقيت وأصناف الأحجار الغربية النوع والشكل العديمة المثال. واتخذ للغشاء محملاً بديع مما يناسب ذلك في غرابة الصنعة وبداعة الصبّغة.

واتخذ للمحمل كرسي على شاكلته، ثم اتّخذ للجميع تابوت يصان فيه على ذلك المتناول! ووصف ذلك يطول.

وفي خلال هذه المدة أمر عبد المؤمن ببناء المسجد الجامع بحضورة مراكش حرسها الله، فبدىء ببنائه وتأسیيس قبّلته في العشر الأول من شهر ربیع الآخر سنة ثلاثة وخمسين وخمسمائة، وكمّل في متتصف شعبان من السنة المذكورة على أكمل الوجوه وأغرب الصنائع، وأفسح المساحة؛ وأحکم البناء والتجارة، وفيه من شمسيات الزجاج ودرجات المنبر وسياج المقصورة ما لو عمل في السنتين العديدة لاستغرب تمامه؛ فكيف في هذا الأمد اليسير الذي لم يتخيل أحد من الصناع أن يتم فيه تقديره وتحطيمه فضلاً عن بنائه! ووصلت فيه صلاة الجمعة متتصف شعبان المذكور.

ونهض عبد المؤمن عقب ذلك لزيارة روضة المهدي بمدينة تینملل،

فأقام بها بقية شعبان وم معظم رمضان، وحمل في صحبته المصحف العثماني في التابوت المذكور، ومعه مصحف المهدى؛ وختم القرآن العزيز في مسجد المهدى وعند ضريحه ختمات كثيرة، وعاد إلى مراكش.

ولم يزل الموحدون يعتنون بهذا المصحف الكريم ويحملونه في أسفارهم متبركين به كتابوتبني إسرائيل إلى أن حمله منهم السعيد وهو علي بن إدريس بن يعقوب المنصور الملقب بالمعتضد بالله حين توجه إلى تلمسان، آخر سنة خمس وأربعين وستمائة، فقتل السعيد قريباً من تلمسان؛ ووقع النهب في الخزانة، واستولت العرب وغيرهم على معظم العسكر؛ ونهب المصحف في جملة ما نهب منه، وعثر عليه ملك بني عبد الواد أصحاب تلمسان؛ فلم يزل في خزانتهم بها إلى أن افتحها السلطان الأعظم أبو الحسن المربي أو أخر شهر رمضان سنة سبع وثلاثين وسبعمائة، وحصل عنده فكان يتبرك به ويحمله في أسفاره على العادة إلى أن أصبح في وقعة طريف وحصل في بلاد البرتغال، وأعمل أبو الحسن الحيلة في استخلاصه حتى وصل إلى فاس سنة خمس وأربعين وسبعمائة على يد بعض تجار آرمور واستمر في خزانته إلى أن سافر أبو الحسن سفرته المعلومة إلى إفريقية فاستولى عليها.

ولما كانت سنة خمسين وسبعمائة ركب أبو الحسن البحر من تونس قائلاً إلى المغرب؛ وذلك في إيان هيجان البحر؛ فغرقت مراكبه وهلكت نفوس تجل عن الحصر؛ وضاعت نفائس يعز وجود مثلها؛ ومن جملتها المصحف العثماني فكان ذلك آخر العهد به.

ومما يناسب ذكره هنا المصحف العقابي؛ وهو مصحف عقبة بن نافع الفهري فاتح المغرب؛ وكان متداولاً عند ملوكه ومتركتاً به وثاني المصنفين في المنزلة عند أهل المغرب.

قال أبو عبد الله اليفرنى في كتاب النزهة: «إن السلطان أبا العباس أحمد المنصور بالله المعروف بالذهبي لما جدد ولاية العهد لولده المأمون

بعث إليه بالقدوم من مدينة فاس؛ فوافاه بتأمننا؛ وبasher المنصور أخذ البيعة له بنفسه وحضر الأعيان وأهل العقد والحل؛ وأحضر المصحف الكريم الذي هو مصحف عقبة بن نافع الفهرري رضي الله عنه» قال: «وهو من ذخائر الخلفاء. وأحضر الصديحان للشيخين؛ وقرىء ظهير البيعة وذلك في شوال سنة اثنين وتسعين وتسعمائة. ولم يزل المصحف العقاباني متداولاً بين الملوك السعديين إلى أن انقرضت دولتهم وجاءت الدولة الشريفة العلوية السجلamasية فانتقل المصحف المذكور إليها. وتداولته ملوكها إلى أن جاء السلطان المولى عبد الله بن إسماعيل بن الشريف رحمة الله؛ فبعث هدية سنوية مع ركب الحاج للحرم النبوي؛ ويعث في جملتها المصحف المذكور».

قال صاحب البستان: «ولما سافر الركب النبوي يعني سنة خمس وخمسين ومائة وألف وجه معه السلطان المولى عبد الله ثلاثة وعشرين مصحفاً - بين كبير وصغير - كلها محللة بالذهب؛ منبطة بالدر والياقوت؛ ومن جملتها المصحف الكبير العقاباني الذي كان الملوك يتداولونه بعد المصحف العثماني؛ وهو مصحف عقبة بن نافع الفهرري نسخه بالقيروان من المصحف العثماني؛ فوقع هذا المصحف بيد الأشراف الزيدانيين يتداولونه بينهم إلى أن بلغ إلى السلطان المولى عبد الله المذكور فغريه من المغرب إلى المشرق؛ ورجع الدر إلى صدفه والإبريز إلى معده».

قال الشيخ المستاوي: «وقد وقفت عليه حين أمر السلطان المولى عبد الله بتوجيهه إلى الحجرة النبوية؛ وظهر لي أن تاريخ كتبه بالقيروان فيه نظر بعد ما بينهما».

ووجه معه السلطان المذكور ألغى حصة بالثلثية وسبعمائة حصة من الياقوت المختلفة الألوان إلى الحجرة النبوية على الحال بها أفضل الصلاة وأذكى السلام.

وهذه الأخبار وإن كانت متباudeة التاريخ فهي متناسبة المعنى؛ جمعناها هنا ليقف الناظر عليها في محل واحد وتحصل فائتها متناسبة. والله الموفق.

نكتة الوزير ابن عطية والسبب فيها

كان الوزير أبو جعفر أحمد بن عطية من أهل مراكش وأصله القديم من طرطوشة؛ ثم بعد من دانية.

وكان أبوه أبو أحمد بن عطية كاتباً لأمير المسلمين علي بن يوسف اللمنوني. ثم لابنه تاشفين من بعده؛ وتحصل في قبضة الموحدين فعفا عنه عبد المؤمن.

ولما حاصر عبد المؤمن فاساً اعتمز أبو أحمد هذا الفرار فتقبض عليه في طريقه؛ وسيق إلى عبد المؤمن فاعتذر؛ فلم يقبل عبد المؤمن عنده. وسحب إلى مصر عه فقتل رحمة الله.

وكان ابنه أبو جعفر صاحب الترجمة كاتباً لإسحاق بن علي اللمنوني بمراكش فشمله عفو أمير المؤمنين فيمن شمله من ذلك الفل. وخرج في جملة الشيخ أبي حفص الهاشمي حين نهض لقتال محمد بن هود الماسي.

فلما كان الفتح وكتب رسالته المتقدمة وقف عليها عبد المؤمن فاستحسنها واستكتبه لذلك. ثم ارتفعت مكانته عنده فاستوزره؛ فظهر عناؤه وكفایته، وحمدت سيرته وإدارته؛ وقاد العساكر وجمع الأموال وبذلها؛ وبعد في الدولة صيته، وزال من الرتبة عند السلطان ما لم يبنله أحد في دولته؛ وتحبب إلى الناس بإجمال السعي والإحسان؛ فعمت صنائعه وفشا معروفة. وكان محمود السيرة ميخت المحاولات؛ ناجح المساعي؛ سعيد المآخذ ميسر المآرب. وكانت وزارته زينةً للوقت؛ وكمالاً للدولة رحمة الله.

ثم لما كانت سنة إحدى وخمسين وخمسمائة وفديأشياخ إشبيلية على عبد المؤمن ورغبوا منه في ولاية بعض أبناءه عليهم، فعقد لابنه السيد أبي يعقوب عليها؛ وبعث معه الوزير ابن عطية المذكور لمباشرة الأمور وإصلاح الأحوال، فأضفى في ذلك الغناء الجميل.

ولما غاب وجهه عن الحضرة وجد حсадه السبيل إلى التلبيير عليه

والسعى به، حتى أغرروه صدر الخليفة عليه؛ فاستوزر عبد السلام بن محمد الكومي؛ وانبرى لمطالبة ابن عطية وجده في التماس عوراته؛ وتشنيع سقطانه، وطرحت بمجلس السلطان أبيات منها:

قل للإمام أطّال الله ملته
إن الزراجين قوم قد وترتهم
وللوزير إلى آرائهم ميل
فبادر الحزم في إطفاء نارهم
هم العدو ومن والاهم كهم
الله يعلم أني ناصح لكم
والحق أبلغ لا تخفي طرائقه

قالوا فلما وقف عبد المؤمن على هذه الأبيات البليغة في معناها وغر صدره على وزير أبي جعفر وأضمر له في نفسه شرًا، فكان ذلك من أقوى أسباب نكتبه وقيل أفضى إليه بسر فأفشاء.

وانتهى ذلك كله إلى أبي جعفر وهو بالأندلس فقلق وعجل الانصراف إلى مراكش، فحجب عنده قومه؛ ثم قيد إلى المسجد في اليوم بعده حاسر العمامة واستحضر الناس على طبقاتهم؛ وقررها على ما يعلمون من أمره وما صار إليه منهم؛ فأجاب كل بما اقتضاه هواه؛ وأمر بسجنه ولف معه آخره أبو عقيل عطية؛ وتوجه في أثر ذلك عبد المؤمن إلى زيارة تربة المهدى؛ فاستصحبهما بحال ثقاف.

وصدر عن أبي جعفر في هذه الحركة من لطائف الآداب نظماً ونثراً في سبيل التوصل بتربة إمامهم المهدى عجائب؛ فلم تجد شيئاً مع نفوذ الله تعالى فيه. ولما انصرف من وجهته أعادهما معه قافلاً إلى مراكش؛ فلما حاذى تاكمارت أفقد الأمر بقتلهما بالشعراء المتصلة بالحصن على مقربة من الملاحة هنالك؛ فمضياً لسيلهما وذلك في شوال سنة ثلاثة وخمسين وخمسمائة. ومما خاطب به الوزير المذكور عبد المؤمن مستعطفاً له من رسالة تغالى فيها فغالته المنية؛ ولم يتب الأمينة؛ وهذه سنة الله تعالى فيمن لا يحترم

جناب الألوهية، ولم يحرض لسانه من الواقع فيما يخدش في وجه فضل الأنبياء على غيرهم؛ قوله سامحه الله: «تالله لو أحاطت بي كل خطبة، ولم تتفكر نفسي عن الخيرات بطية؛ حتى سخرت بمن في الوجود؛ وألقت لأدم من السجود؛ وقلت إن الله تعالى لم يوحى في الفلك إلى نوح وأبرمت لخطب نار الخليل حبلاً؛ وبريت لقدر ثمود نبلاً؛ وحططت عن يونس شجرة اليقطين، وأوقدت مع هامان على الطين؛ وقبضت قبضة من أثر الرسول فنبتها؛ واقتربت على العترة البطل فقدتها؛ وكتبت صحيفة القطيعة بدار الندوة، وظاهرت الأحزاب بالقصوى من العدوا؛ وأبغضت كل قرشي؛ وأكرمت لأجل وحشى كل حشى؛ وقلت إن بيعة السقيفة، لا توجب إماماً الخليفة؛ وشحدت شفرة غلام المغيرة بن شعبة، واعتلت من حصار الدار وقتل أশمطها بشعبه؛ وقلت تقاتلوا رغبة في الأبيض والأصف، وسفكوا الدماء على الشريد الأعفر؛ وغادرت الوجه من الهامة خصيباً؛ وناولت من قرع سن الحسين قضيماً، ثم أتيت حضرة المعصوم لائذاً؛ وبقى الإمام المهدي عائداً، لأذن لمقالتي أن تسمع؛ وتغفر لي هذه الخطيبات أجمع، مع أنني مفتر؛ وبالذنب معترف.

فعفوا أمير المؤمنين فمن لنا بحمل قلوب هداها الخففان
والسلام على المقام الكريم، ورحمة الله تعالى وبركاته».

وكتب مع ابن له صغير آخرة:

بان العزاء لفروط البث والحزن
ورحمة منكم أنجى من السفن
وعطفة منكم أوفى من الجن
بمن أجارتكم رحماكم من المحن
بنصره لم يخف بطيشاً من الزمن
والطرف يرهض بعد الركض في سنن
من دون من عليهم لا ولا أثمن
كلنا الحيائين من نفس ومن بدن
عطفاً علينا أمير المؤمنين فقد
قد أغرقتنا ذنوب كلها لحج
وصادفنا سهام كلنا غرض
هيئات للخطب أن تسقط حوادثه
من جاء عندكم يسعى على ثقة
فالثوب يظهر عند الغسل من درن
أنتم بذلكم حياة الخلق كلهم
ونحن من بعض من أحبت مكاركم

وصبية كفراخ الورق من صغر لم يألفوا النوح في فرع ولا فرن
قد أوجدتهم أياد منك سابقة والكل لولاك لم يوجد ولم يكن
فوقع عبد المؤمن على هذه القصيدة: الآن وقد عصيت قبل و كنت من
المفسدين!

ومما كتب به من السجن:

أنوح على نفسي أم أنظر الصحفا؟
فقد آن أن تنسى الذنب وأن تمحي
فها أنا في ليل من السخط حائز ولا اهتمي حتى أرى للرضا صبحاً!

وامتحن عبد المؤمن الشعرا بهجو ابن عطية، فلما أسمعوه ما قالوا
أعرض عنهم وقال: «ذهب ابن عطية وذهب الأدب معه».

وكان لأبي جعفر أخ اسمه عطية قتل معه كما قلنا؛ ولعطية هذا ابن
أديب كاتب، وهو أبو طالب عقيل بن عطية؛ ومن نظمه في رجل تعشق قينة
كانت ورثت مالاً من مولاها فكانت تتفق عليه منه؛ فلما فرغ المال ملها.
فقال أبو طالب:

لاتلـهـ إنـ مـلـ منـ حـبـهاـ فـلـمـ يـكـنـ ذـلـكـ عنـ وـدـ
لـمـ رـآـهـاـ قـدـ صـفـاـ مـالـهـاـ قـالـ صـفـاـ الـوـجـدـ مـعـ الـوـجـدـ!
ويروى أن الوزير ابن عطية رحمه الله مر مع الخليفة عبد المؤمن
بعض طرق مراكش فأطلقت جارية بارعة الجمال من شباك فقال عبد المؤمن:
قدت فؤادي من الشباك إذ نظرت

فقال الوزير مجيزاً له:

حوراء تربو إلى العشاق بالمقابل

فقال عبد المؤمن:

كأنما لحظها في قلب عاشقها

فقال الوزير:

سيف المؤيد عبد المؤمن بن علي
ولا خفاء أن هذه طبقة عالية، رحم الله الجميع بمئه.

غزو إفريقية ثانياً وفتح المهدية وغيرها من التغور

كانت بلاد إفريقية بيدبني زيري بن مناد الصنهاجيين من لدن الدولة العبيدية بها. وفي هذا التاريخ كانت دولتهم قد أشرفوا على الهرم، وكثُر التنازع بينهم وزاحمتهم الشوار من العرب وغيرهم بتلك الأقطار، فانهزم الفرنج أصحاب صقلية الفرصة فيهم وملكونا منهم عدة ثغور مثل صفاقس وسوسة وغيرها. ثم ملكونا بعد ذلك المهدية وهي يومئذ دار ملك الحسن بن علي الصنهاجي آخر ملوكبني زيري بن مناد، ففر الحسن عنها إلى ابن عمه يحيى بن العزيز صاحب بجاية فأنزله بالجزائر.

ولما طرق عبد المؤمن ثغر الجزائر في غزوه الأولى إلى إفريقية خرج إليه الحسن بن علي هذا وصحابه وصار في جملته، فكان الحسن يغريه بغزو إفريقية واستقاذها من يد العدو.

وكان عبد المؤمن يحب ذلك ويرغب فيه إلا أنه كان ينتظر إبان الفرصة. فاتفق أن فرنج صقلية أوقعوا بأهل زويلة - وهي مدينة بينها وبين المهدية نحو ميدان - وقعة شديدة، حتى أنهم قتلوا النساء والأطفال! ففر جماعة منهم إلى عبد المؤمن بن علي وهو بمراكن يستغيثونه ويستنصرونه على العدو.

فلما وصلوا إليه أكرمهم وأخبروه بما جرى على المسلمين، وأنه ليس في ملوك الإسلام من يقصد سواه، ولا يكشف هذا الكرب غيره؛ فدمعت عيناه وأطرق، ثم رفع رأسه وقال: «أبشروا لأنصرنكم ولو بعد حين» وأمر بإيذائهم وأطلق لهم ألفي دينار.

ثم أمر بعمل الروايا والقرب وما يحتاج إليه العسكر في السفر، وكتب إلى جميع نوابه في المغرب - وكان قد ملك العدوتين الأندلس والمغرب واسع خطة مملكته إلى قرب مدينة تونس - فكتب إلى من بطريقه من النواب يأمرهم بحفظ جميع ما يتحصل من الغلات وأن يترك الزرع في سبله

ويخزن في موضعه وأن يحفروا الآبار في الطرق؛ ففعلوا جميع ما أمرهم به؛ وجمعوا غلات الحب ثلاثة سنين؛ ونقلوها إلى المنازل التي على الطريق؛ وطبقوا عليها فصارت كأنها تلال.

فلما كان صفر من سنة أربع وخمسين وخمسماة سار عبد المؤمن من مراكش يوم بلاد إفريقية.

وقال ابن خلدون: «كان عبد المؤمن في هذه السفرة قد عزم على العبور إلى الأندلس لما بلغه من اضطراب أحوالها واستطالة الطاغية بها، فنهض يريد الجهاد واحتل بسلا فبلغه انتقام إفريقية، وأهمه شأن النصارى بالمهديّة. فلما توافت العساكر بسلا استخلف الشيّخ أبي حفص الهمتاتي على المغرب، وعقد ليوسف بن سليمان على مدينة فاس، ونهض يغدو السير إلى إفريقية؛ واجتمع عليه من العساكر مائة ألف مقاتل ومن الأتباع والسوق أمثالهم، وكان هذا الجند يمتد أميالاً.

وبلغ من حفظه وضيّقه أنهم كانوا يمشون بين الزروع فلا تتأذى بهم سبلة وإذا نزلوا صلوا بإمام واحد بتكبيرة واحدة، لا يتخلّف منهم أحد كائناً من كان.

وقدم بين يديه الحسن بن علي الصنهاجي صاحب المهدية، وكان قد اتصل به كما قلنا، فلم يزل يسير إلى أن وصل إلى مدينة تونس في الرابع والعشرين من جمادى الآخرة من السنة، وبها صاحبها أحمد بن خراسان؛ وأقبل أسطوله في البحر في سبعين شيئاً وطريدة وشلinda.

فلما نازلها راسل أهلها يدعوهم إلى الطاعة فامتنعوا. فقاتلهم من الغد أشد قتال. ولما جن الليل نزل سبعة عشر رجلاً من أعيان أهلها إلى عبد المؤمن يسألونه الأمان لأهل بلدتهم، فأجابهم عبد المؤمن بأن لهم الأمان في أنفسهم وأهليهم وأموالهم لمبادرتهم إلى الطاعة، وأما من عداهم من سائر أهل البلد فيؤذن لهم في أنفسهم وأهليهم، ويقاسمهم على أموالهم وأملاكهم نصفين! وأن يخرج صاحب البلد هو وأهله. فاستقر الأمر على

ذلك وتسلم البلد، ويعث إليهم من يمنع العساكر من الدخول عليهم، ويبعث أمناء ليقاسموا الناس على أموالهم وأملاكهم؛ وأقام أهل تونس بها على أجراة تؤخذ عن نصف مساكنهم! وعرض عبد المؤمن الإسلام على من بها من اليهود والنصارى فمن أسلم سلم ومن أبي قتل.

وأقام عليها ثلاثة أيام ثم سار إلى المهدية وأسطوله يحاذيه في البحر، فوصل إليها ثامن عشر رجب من السنة المذكورة، وكان بالمهدية يومئذ خواص الفرنج من أولاد ملوكها وأبطال فرسانها، وقد أخلوا مدينة زويلة المجاورة للمهدية فدخلها عبد المؤمن، وامتلأت بالعساكر والسوق؛ فصارت مدينة معمرة في ساعة واحدة؛ ومن لم يكن له موضع من العسكر نزل بظاهرها. وانضاف إليه من صنهاجة والعرب وأهل إفريقية ما يخرج عن الإحصاء، وأقبلوا يقاتلون المهدية مدة أيام فلا يؤثر فيها لحصانتها وقوتها سورها وضيق محال القتال عليها لأن البحر دائرة بأكثراها فكأنها كف في البحر، وزندها متصل بالبر؛ وكانت الفرنج تخراج شجاعتها إلى أطراف العسكر، فتناهى منه ويعودون سريعاً؛ فأمر عبد المؤمن ببناء سور غربي المدينة يمنعهم من الخروج، وأحاط الأسطول بها في البحر؛ وركب عبد المؤمن شيئاً ومعه الحسن بن علي الذي كان صاحبها، وتطوف بها في البحر؛ فهاله ما رأى من حصانتها وعلم أنها لا تفتح بقتال براً ولا بحراً، وليس لها إلا المطاولة وقال للحسن: «كيف نزلت عن مثل هذا الحصن؟!» فقال: «قلة من يوثق به، وعدم القوت؛ وحكم القدر» فقال: «صدقت!».

وعاد عبد المؤمن من البحر وأمر بجمع الغلات والأقوات، وترك القتال؛ فلم يمض غير قليل حتى صار في المعسكر مثل الجبلين من الحنطة والشعير فكان من يصل إلى المعسكر من بعيد يقول: «متى حدثت هذه الجبال؟» فيقال: «هي حنطة وشعير!» فيتعجب من ذلك، وتمادي الحصار. وفي مدة هذا الحصار استولى عبد المؤمن على طرابلس وصفاقص وسوسة وجبل نفوسه وقصور إفريقية وما والاها، وفتح مدينة قابس بالسيف؛ وسير ابنه السيد أبو محمد من مكان حصاره للمهدية في جيش فتح بلاداً أخرى؛

ثم أطاعه أهل مدينة قصبة، وقدم عليه صاحبها فوصله بـألف دينار. وبالجملة فإنه استخلص في هذه المدة جميع بلاد إفريقية من أيدي القائمين بها.

ولما كان الثاني والعشرون من شعبان من السنة المذكورة جاء أسطول صاحب صقلية في مائة وخمسين شيئاً غير الطرائد ممداً لأهل المهدية، وكان هذا الأسطول قد قدم من جزيرة يابسة من بلاد الأندلس، وقد سبى أهلها وأسرهم وحملهم معه، فأرسل إليهم ملك الفرنج يأمرهم بالمسير إلى المهدية ليمدوا إخوانهم الذين بها، فقدموها في التاريخ المذكور؛ فلما قاربوا المدينة حطوا شراعهم ليدخلوا الميناء فخرج إليهم أسطول عبد المؤمن، وركب العسكر جميعه، ووقفوا على جانب البحر؛ فاستعظم الفرنج ما رأوا من كثرة العسكر وداخل الرعب قلوبهم.

ونزل عبد المؤمن إلى الأرض فجعل يمرغ وجهه ويبكي ويذعن لل المسلمين بالنصر واقتتلوا في البحر، فانهزمت شواني الفرنج وأعادوا القلوع وساروا وتبعهم المسلمون فأخذوا منهم سبع شواني، وكان أمراً عجبياً وفتحاً غريباً.

وعاد أسطول المسلمين مظفراً منصوراً، وفرق فيهم عبد المؤمن الأموال ويسس أهل المهدية حينئذ من النجاة، ومع ذلك فقد صبروا على الحصار أربعة أشهر أخرى إلى آخر ذي الحجة من السنة، فنزل حينئذ من فرسان الفرنج إلى عبد المؤمن عشرة وسألوا الأمان لمن فيها من الفرنج على أنفسهم وأموالهم ليخرجوا منها إلى بلادهم، وكان قوتهم قد فنى حتى أكلوا الخيل؛ فعرض عليهم عبد المؤمن الإسلام ودعاهم إليه، فقالوا: «ما جتنا لهذا وإنما جتنا نطلب فضلك» وترددوا إليه أيامًا.

وكان من جملة ما استعطفو به أن قالوا: «أيها الخليفة، ما عسى أن تكون المهدية ومن بها بالنسبة إلى ملكك العظيم وأمرك الكبير، وإن آنعت علينا كنا أرقاء لك في أرضنا!» فعفا عنهم - وكان الفضل شيمته - وأعطاهم سفناً ركبوا فيها وساروا وكان الزمان شتاً ففرق أكثرهم، ولم يصل منهم إلى صقلية إلا التفرّيسير.

وكان صاحب صقلية قد قال: «إن قتل عبد المؤمن أصحابنا بالمهدية قتلنا المسلمين الذين عندنا بجزيرة صقلية وأخلنا حرهم وأموالهم». فأهلك الله الفرنج غرقاً.

وكانت مدة استيلائهم على المهدية اثنتي عشرة سنة. فدخلها عبد المؤمن صبيحة يوم عاشوراء من المحرم سنة خمس وخمسين وخمسماة، فكان يقال لهذه السنة سنة الأخماس.

وأقام عبد المؤمن بالمهدية عشرين يوماً حتى رتب أحوالها وأصلاح ما اثنى من سورها ونقل إليها الذخائر والأقوات والرجال والعدد.

واستختلف عليها أبي عبد الله محمد بن فرج الكومي وجعل معه الحسن بن علي الصنهاجي الذي كان أصحابها، وأمره أن يقتدي برأيه في أفعاله؛ وأقطع الحسن بها إقطاعاً؛ وأعطاه دوراً نفيسة يسكنها وكذلك فعل بأولاده.

وصفت إفريقية كلها لعبد المؤمن ودخل أهلها في طاعته من برقة إلى تلمسان، ولم يبق له بها منازع؛ ففرق فيها عماله وقضاته وضبط ثغورها وأصلح شؤونها.

وثنى عنانه إلى المغرب أول صفر من السنة المذكورة، وانقطعت عاديه الفرنج عن بلاد إفريقية مدة مديدة. والله تعالى أعلم.

توظيف عبد المؤمن الخراج على أرض المغرب

وفي هذه السنة أعني ستة خمس وخمسين وخمسماة أمر عبد المؤمن بتكسير بلاد إفريقية والمغرب، فكسر من برقة في جهة الشرق إلى بلاد نول من السوس الأقصى في جهة الغرب بالفراخ والأمالي، طولاً وعرضًا. ثم أسقط في التكسير الثالث في العجیل والغياض والأنهار والسماخ والخزون والطرق، وما يقى قسط عليه الخراج، وألزم كل قبيلة بقتطعها من الزرع والورق، فهو أول من أحدث ذلك في المغرب عفا الله عنه.

بناء عبد المؤمن جبل طارق

كان عبد المؤمن رحمه الله - وهو بإفريقية - قد أمر ببناء جبل الفتح وتحصينه، وهو جبل طارق، فبني وشيد حصنه. وكان ابتداء البناء به في تاسع ربيع الأول من سنة خمس وخمسين وخمسمائة المذكورة، وكمي بناؤه في ذي القعدة منها.

بناء عبد المؤمن مدينة البطحاء

لما كان عبد المؤمن قافلاً من بلاد إفريقية بني مدينة البطحاء، وسبب بنائه إياها أنه لما طالب بالموحدين الإقامة بالشرق والتغرب عن أوطانهم عزمت طائفة منهم على قتل عبد المؤمن والفتوك به في خبانه إذا نام فأئم شيخ من أشياخ الموحدين ممن اطلع على ذلك إلى عبد المؤمن فأخبره الخبر، وقال له: «دعني أبت الليلة في موضعك وأنم على فراشك، فإن فعلوا ما انفقوا عليه كنت قد فديتك بنفسك في حق المسلمين وأجري في ذلك على الله! وإن حصلت السلامة فمن الله تعالى، ويكون أجيري على قدر نيتني!» فبات على فراشه، فاستشهد في تلك الليلة. فلما أصبح عبد المؤمن وصلى الصبح افتقده فوجده قتيلاً على فراشه، فأخذته وحمله بين يديه على ناقة لا يقودها أحد، فسارت الناقة يميناً وشمالاً حتى بركت وحدها، فأنعم عبد المؤمن بالشيخ فأنزل عنها، وأخذ بزمام الناقة فأزيلاً عن ميراثها، وحضر قبره فيه ودفن، وبنى عليه قبة، وبنى بزايم القبة جاماً.

ثم أمر ببناء المدينة حول المسجد، وترك بها عشرة أهل بيت من كل قبيلة من قبائل المغرب، فقرر الشيخ هنالك مزارعه عند أهل تلك البلاد إلى اليوم قاله في القرطاس.

ولما دخل عبد المؤمن إلى تلمسان في هذه الرجعة قبض على وزيره عبد السلام بن محمد الكومي فسجنه ثم سمه من جرعة لين هلك بها من ليلته.

عبور عبد المؤمن إلى جبل طارق والسبب في ذلك

كان عبد المؤمن - وهو يافريقياً - قد بلغه أن محمد بن مردنيش الثائر بشرق الأندلس قد خرج من مرسية ونازل جيان، وأطاعه وإليها محمد بن علي الكومي، ثم نازل بعدها قرطبة ورحل عنها، وحضر بقرمونة وملكتها ثم رجع إلى قرطبة وخرج ابن يكير لحربه فهزمه ابن مردنيش وقتلته.

فكتب عبد المؤمن إلى عماله بالأندلس يخبرهم بفتح إفريقيا عليه وأنه واصل إليهم. فلما نهض من تلمسان في رجعته هذه عدل إلى طنجة فدخلها في ذي الحجة سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وأقام بها إلى أن دخلت سنة ست وخمسين بعدها، فعبر منها إلى الأندلس ونزل بجبل طارق فأقام به شهرين، واستشرف منه أحوال الأندلس، ووفد عليه قوادها وأشياخها فأمر ببغزو غرب الأندلس، فنهض إليه الشيخ أبو محمد عبد الله بن أبي حفص الهمتاني من قرطبة في جيش كثيف من الموحدين، ففتح حصن المرنكش من أحواز بطليوس وقتل جميع من كان به من النصارى، وخرج الفئران من طليطلة لإغاثته فوجده قد فتح. وصمد الموحدون لقتاله فهزمه الله، وقتل من عسكره ستة آلاف، وساق المسلمين السبي إلى قرطبة وإشبيلية.

وفي هذه السنة ملك الموحدون بطليوس، وباجة، وبابورة؛ وحصن القصر؛ فولى عليها عبد المؤمن محمد بن علي بن الحاج وعاد إلى مراكش.

قدوم كومية قبيلة عبد المؤمن
عليه بمراکش والسبب في ذلك

تقدّم لنا أن عبد المؤمن لم يكن من المصاومة، وإنما كان من كومية إحدى بطون بني فاتن من البرابرة البتير، وكانت مواطنهم بال المغرب الأوسط، إلى أن استدعاهم عبد المؤمن إلى مراكش سنة سبع وخمسين وخمسماه.

والسبب في ذلك أنه لما همت الطائفة من الموحدين بقتله وقتلوا الشيخ الذي فداء بنفسه وتحقق ذلك منهم ورأى أنه غريب بين أظهرهم ليس له قبيل يستند إليه، ولا عشير يثق به ويعتمد عليه، أرسل في خفية إلى أشياخ كومية الذين هم قبيلته وعشائرتهم، وأمرهم بالقدوم عليه وأن يركبوا كل من بلغ الحلم منهم، و يأتيوه في أحسن زyi وأكمل عدة، وسرب إليهم الأموال والكسى؛ فاجتمع منهم أربعون ألف فارس، ثم أقبلوا إلى عبد المؤمن وهو بمراكش - برسم خدمته، والقيام بين يديه.

ولما دخلوا أرض المغرب تشوّش أهله من قدوم هذا الجيش الحفيل،
من غير أن يتقدّم لهم سبب ظاهر، وتقول الناس الأقاويل، فسار جيش كومية
حتى نزلوا على وادي أم الربيع، وتسامع الموحدون بِاقْبَالِهِمْ فارتباوا منهم،
وعرفوا أمير المؤمنين عبد المؤمن بن خبرهم، فأمر عبد المؤمن الشّيخ أبي
حفص الهمتاتي أن يخرج إليه في جماعة من الموحدين وأشياخهم ليتعرفوا
خبرهم، فسار حتى لقيهم على وادي أم الربيع فقال لهم: «ما أنتم أسلم لنا
أم حرب؟» قالوا: «بل نحن سلم، نحن قبيل أمير المؤمنين، نحن كومية
قصدنا زيارة والسلام عليه». فرجع أبو حفص وأصحابه وعرف عبد المؤمن
الأخير، فأمر جميع الموحدين أن يخرجوه إلى لقائهم ففعلوا وأحتفلوا بذلك.

وكان يوم دخولهم مراكش يوماً مشهوداً، فربتهم عبد المؤمن في الطبقة الثانية من أهل الديوان، وجعلهم بين قبيلة تينملل والقبيلة التابعة لهم،

وجعلهم بطانته يركبون خلف ظهره ويمشون بين يديه إذا خرج ويتقون على رأسه إذا جلس، فاعتتصد بهم عبد المؤمن وينوه سائر دولتهم إلى انفراطها. والله غالب على أمره.

استعداد عبد المؤمن للجهاد

وإنشاؤه الأساطيل بسواحل المغرب وما يتبع ذلك من وفاته رحمة الله

لما تمهد لعبد المؤمن ملك المغاربة وإفريقية والأندلس وطاعت له سائر الأقطار وخضعت له الرقاب في البوادي والأماصار تفرغ لشأنه، ونالت نفسه للجهاد، فعزم على غزو بلاد الفرنج بزراً وبحراً، فأمر رحمة الله في هذه السنة التي هي سنة سبع وخمسين وخمسماة بإنشاء الأساطيل في جميع سواحل ممالكه، فأنشىء له منها أربعمائة قطعة، فمنها بعلن المعمورة وهي التي تسمى اليوم المهدية؛ مائة وعشرون قطعة، ومنها بطنجة وسبتة وبادييس ومراسى الريف مائة قطعة؛ ومنها ببلاد إفريقية ووهان ومرسى هنفين مائة قطعة، ومنها ببلاد الأندلس ثمانون قطعة.

ونظر في استجلاب الخيل للجهاد والاستكثار من أنواع السلاح والعدب، وأمر بضرب السهام في جميع عمله، فكان يضرب له منها في كل يوم نحو عشرة قناطير جديدة! فجمع له من ذلك ما لا يحصى كثرة، وفي خلال هذا وفدت عليه قبيلة كرمية كما مر.

ثم لما دخلت سنة ثمان وخمسين وخمسماة خرج أمير المؤمنين عبد المؤمن من مراكش قاصداً الأندلس برسم الجهاد، وكان خروجه يوم الخميس خامس ربيع الأول من السنة المذكورة، فوصل إلى رباط سلا فكتب إلى جميع بلاد المغرب والقبلة وإفريقية والسوس وغير ذلك يستنفرهم إلى الجهاد، فأجابه خلق كثير، واجتمع له من عساكر الموحدين والمرتزقة ومن

قبائل العرب والبربر وزنانة أزيد من ثلاثة ألف فارس! ومن جيوش المتطرفة ثمانون ألف فارس، ومائة ألف راجل! فضاقت بهم الأرض وانتشرت المحلات والعساكر في أرض سلا، من عين غبولة إلى عين خميس؛ إلى حلق المعمورة.

فَلَمَّا اسْتُوْدِيَتْ لَدِيهِ الْحَشُودُ، وَتَكَامَلَتْ لَدِيهِ الْجَنُودُ وَالْوَفُودُ؛ كَانَ
الْمَعْنَى الَّذِي أَشَارَ اللَّهُ الْقَاتِلُ:

إذ تم أمر بـنقصه ترقب زوالاً إذا قيل تم
فابتداً بعيد المؤمن مرضه الذي توفي منه، وتمادي به ألمه فخاف أن
يفجأه الحمام فأمر بعزل ولده محمد عن ولاية العهد وإسقاط اسمه من
الخطبة، لما ظهر له من العجز عن القيام بأمر الخلافة.

وكان ذلك يوم الجمعة الثاني من جمادى الآخرة من السنة المذكورة
وكتب بذلك إلى جميع طاعته . وتمادى به مرضه واشتد ألمه فتوفي ليلة
الجمعة الثامن من جمادى الآخرة من السنة المذكورة وقيل غير ذلك ، وحمل
إلي تينملل فدفن بها إلى جنب قبر الإمام المهدي رحمة الله ، فسبحان من لا
سيد ملکه ولا ينقضي عزه .

ونقل ابن خلkan في كيفية عزلولي العهد وجها^(١) آخر، قال ناقلاً من خط العماد بن جبريل: «أن عبد المؤمن كان في حياته عهد إلى أكبر أولاده، وهو محمد؛ وبياعه الناس بعد تحليف الجندي له، وكتب ببيعته إلى البلاد؛ فلما مات عبد المؤمن لم يتم له الأمر، لأنه كان على أمر لا يصلح معها للملمة؛ من إدمان شرب الخمر، واختلاف الرأي، وكثرة الطيش؛ وجبن النفس. ويقال إنه مع هذا كله كان به ضرب من الجذام. واضطرب أمره

(١) على هذا الوجه اقتصر صاحب الموجب طبع سلا صحيفة 142، والوجه الأول ذكره صاحب القرطاس وain الأثير في تاريخه جزء 11 صحيفة 117.

واختلف الناس عليه فخلع. وكانت مدة ولايته خمسة وأربعين يوماً، وذلك في شعبان من سنة ثمان وخمسين وخمسمائة، وكان الذي سعى في خلعه أخيه أبي يعقوب يوسف وأبا حفص عمر ابني عبد المؤمن، ولما تم خلعه دار الأمر بين الأخرين المذكورين، وهما من نجاءه أولاد عبد المؤمن ومن ذوي الرأي فتأخر منها أبو حفص عمر، وسلم الأمر إلى أخيه أبي يعقوب يوسف، فباعوه الناس وافتقت عليه الكلمة. والله تعالى أعلم.

بقية أخبار عبد المؤمن وسيرته

قال ابن خلكان: «كان عبد المؤمن عند وفاته شيئاً نقيّاً ببياضه، قال: «ونقلت من تاريخ فيه سيرته وحليله فقال مؤلفه رأيته شيئاً معتملاً القامة عظيم الهمامة، أشهل العينين، كث اللحية؛ ششن الكفين؛ طويل القعدة؛ واضح بياض الأسنان؛ بخدنه الأيمن خال». ➤

وكان رحمه الله فصيحاً فقيهاً عالماً بالأصول والجدل والحديث مشاركاً في كثير من العلوم الدينية والدنوية، ذا حزم وسياسة وإقدام في الحرب ومهمات الأمور، سري الهمة؛ ميمون النقيبة، لم يقصد قط بلداً إلا فتحه، ولا جيشاً إلا هجمه. محباً لأهل العلم والأدب، مكرماً لوفادتهم؛ منتفقاً لبضاعتهم. ذكر العmad الأصبهاني في كتاب الخريدة أن الفقيه أبي عبد الله محمد بن أبي العباس التيفاشي لما أنسده:

ما هز عطفيه بين البيض والأسل مثل الخليفة عبد المؤمن بن علي
 وأشار عليه أن يقتصر على هذا البيت؛ وأمر له بألف دينار.

وقد تقدم ما دار بينه وبين وزيره ابن عطية من الشعر الذي تجادلاته في أمر الجارية التي أطلت في الشباك، وذلك دليل على سراوة طبعه، وخفة روحه. رحمه الله.

الخبر عن دولة أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن بن علي

قال ابن خلدون: «لما هلك عبد المؤمن أخذ السيد أبو حفص بن عبد المؤمن البيعة على الناس لأخيه أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن باتفاق من الموحدين كافة، ورضى من الشيخ أبي حفص الهاشمي خاصة؛ واستقل في رتبة وزارته».

وذكر القاضي أبو الحجاج يوسف بن عمر مؤرخ دولتهم أن أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن بريغ بيضة الجمعة يوم الجمعة ثامن ربيع الأول ستة ستين وخمسمائة، وذلك بعد وفاة والده عبد المؤمن بستين؛ لأنه لما بريغ بعد وفاة والده توقف عن بيته ناس من أشياخ الموحدين، وأمتنع من بيته أخواه: السيد أبو محمد صاحب بجایة، والسيد أبو عبد الله صاحب قرطبة؛ فكف عنهم، ولم يطالبهم بيته، وتسمى بالأمير؛ ولم يتسم بأمير المؤمنين حتى اجتمع عليه الناس.

وذكر ابن مطرروح في تاريخه أنه لما مات عبد المؤمن كان ولده يوسف يأشبيلية، فأخفى أصحابه موته، وأرسلوا إلى يوسف؛ فوصل من إشبيلية إلى سلا في أقرب وقت فبريع بها ولم يختلف عن بيته إلا ناس قليلون، فلم يلتفت إليهم.

وكان أول شيء فعله بعد البيعة أن سرح الجيوش المجتمعة للجهاد إلى بلادهم وقبائلهم؛ وكتب إلى البلاد بتسريع المساجين وت分区 الصدقات في جميع عمله، وتسمى بالأمير، ثم ارتحل إلى مراكش فدخلها وأقام بها؛ وكتب إلى جميع أهل طاعته من الموحدين يطلبهم بالبيعة، فأتته البيعة من جميع بلاد إفريقيا والمغرب والأندلس؛ ما خلا قرطبة وبجایة، فإن ولاتهما وهما أخواه توقفا عن ذلك؛ وانتشر خبر أمير المؤمنين يوسف في أقطار

البلاد، وأدان له من بالعدوتين من العباد؛ وفرق الأموال في القبائل والأجناد.

وفي سنة تسع وخمسين وخمسمائة قدم عليه أخوه السيد أبو محمد صاحب بجایة، والسيد أبو عبد الله صاحب قرطبة تائبین مبایعین؛ وقدم معهما أشیا خ بليهما، وفقهائهما؛ فوصلهم أمیر المؤمنین يوسف بالأموال والخلع، وأحسن إليهم.

وفي هذه السنة ثار مرزدغ الصنهاجي من صنهاجة مفتاح. وضرب السكة باسمه. وكتب فيها «مرزدغ الغريب، نصره الله عن قريب». وكانت ثورته ببلاد غمارة، فباعه خلق كثير من غمارة وصنهاجة وأوربة، فأفسد تلك الناحية ودخل مدينة تازا وقتل بها خلقاً كثيراً وسبى، فبعث إليه أمیر المؤمنین يوسف جيشاً من الموحدین، فقتل وحمل رأسه إلى مراكش.

وفي سنة ستين وخمسمائة كانت وقعة الجلاب بالأندلس بين السيد أبي سعيد بن عبد المؤمن وجيوش الفرنج مع ابن مرديش، وكانت الفرنج ثلاثة عشر ألفاً، فهزم ابن مرديش وقتل من معه من الفرنج بأجمعهم، وكتب السيد أبو سعيد بالفتح إلى أخيه أمیر المؤمنین يوسف.

وفي سنة إحدى وستين وخمسمائة عقد أمیر المؤمنین يوسف على بجایة لأخيه السيد أبي ذكرياء، وعلى إشبيلية للشيخ أبي عبد الله محمد بن إبراهيم، ثم أدار منه بأخيه السيد أبي إبراهيم، وأقر الشيخ أبي عبد الله على وزارته؛ وعقد على قرطبة لأخيه السيد أبي إسحاق، وأقر السيد أبي سعيد على غرناطة.

ثم نظر الموحدون في وضع العلامة المكتوبة بخط الخليفة فاختاروا: «الحمد لله وحده» لما وقفوا عليها بخط الإمام المهدي في بعض مخاطباته، فكانت علامتهم إلى آخر دولتهم. والله أعلم.

ثورة سبع بن منفهاد بجبال غمارة

وفي سنة إحدى وستين وخمسماة ثار سبع بن منفهاد، وسماه ابن أبي ذرع يوسف بن منفهاد بجبل تيزران من بلاد غمارة. وعظمت الفتنة في قبائلها، وجاذبهم فيها جيرانهم من صنهاجة، فبعث إليهم أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن عساكر الموحدين، إلى نظر الشيخ أبي حفص الهاشمي، ثم تعاظمت الفتنة غمارة وصنهاجة. فخرج إليهم أمير المؤمنين بنفسه وأوقع بهم واستأصلهم، وقتل سبع بن منفهاد وحمل رأسه إلى مراكش وأنحسم داؤهم؛ وعقد يوسف لأخيه السيد أبي علي الحسن على سبتة وسائر بلادهم.

وفي سنة ثلاثة وستين اجتمع الموحدون على تجديد البيعة ليوسف بن عبد المؤمن واللقب بأمير المؤمنين، وذلك في جمادى الآخرة منها، وخطب العرب بإفريقية يستدعيهم إلى الغزو ويحرضهم. وكتب إليهم في ذلك بقصيدة ورسالة مشهورة بين الناس؛ فكان من احتفالهم ووفودهم عليه ما هو معروف.

وفي سنة أربع وستين بعدها وقد عليه أهل الأمصار من إفريقية والمغرب والأندلس: القضاة والفقهاء والخطباء والشعراء والأشياخ والأعيان يرسم التهيبة والمطالعة بأحوال بلادهم، فوصلت الوفود إلى مراكش؛ فدخلوا عليه وهنزوه بالخلافة؛ ووصل الجميع كل على قدره، وأوصاهم بما اقتضاه الحال. وكتب لهم الظهاير بمطالبهم وإصلاح شؤونهم، وانصرفو شاكرين.

وفي هذه السنة أيضاً بعث أمير المؤمنين الشيخ أبي حفص الهاشمي في جيوش الموحدين إلى الأندلس لاستنقاذ بطليوس من حصار العدو، واحتفل أمير المؤمنين في ذلك فلما انتهوا إلى إشبيلية بلغه أن الموحدين وأهل بطليوس هزموا العدو وأسرموا قائد جيشه، فسار الشيخ أبو حفص إلى قرطبة.

وفي سنة خمس وستين بعدها وجه يوسف بن عبد المؤمن أخاه السيد أبي حفص إلى الأندلس برسم الجهاد، فعبر البحر من قصر المجاز إلى طريف في عشرين ألفاً من الموحدين والمتطوعة، فدخلوا بلاد العدو. وبعث السيد أبو حفص أخاه السيد أبي سعيد إلى بطليوس؛ فعقد الصلح مع الطاغية ابن أذفونش - وهو يومئذ أعظم ملوك فرنج الجزيرة - وانصرف، ونهضوا جميعاً إلى مرسيه ومعهم إبراهيم بن همشك كان من قواد ابن مردنيش فترع عنه إلى الموحدين فحاصروا ابن مردنيش الثائر بمرسيه وأعمالها، واستولوا على أكثر بلاده، واتصل الخبر بال الخليفة بمراكش وقد خف إلى الجهاد.

وفي سنة ست وستين أمر أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن ببناء قنطرة تانسيفت^(١) وكان الشروع في بنائها يوم الأحد ثالث صفر من السنة المذكورة.

الجواز الأول لأمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن إلى الأندلس بقصد الجهاد

لما اتصل بأمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن ما اتفق لشقيقه السيد أبي حفص من الاستيلاء على غالب بلاد ابن مردنيش، وظهور المسلمين على عدوهم بها، وكان بعض ملوك الفرنج بها لم يزالوا يشغبون على المسلمين بالغارات على أطراف بلادهم، ناقت نفسه إلى العبور إلى بلاد الأندلس بقصد إصلاح حالها وجهاد العدو بها؛ وقد توافت لديه وهو بمراكش جموع العرب من إفريقية صحبة السيد أبي زكريا صاحب بجاية، والسيد أبي عمران صاحب تلمسان.

وكان يوم قدومهم عليه يوماً مشهوداً، فاعتراضهم وسائر عساكرهم،

(١) جاء في كتاب الروض المعطار - أن علي بن يوسف بن تاشفين المتنبي كان قد بنى قنطرة تانسيفت وأن السيل أتى بعد ذلك فهدمها.

ونهض إلى الأندلس في مائة ألف من العرب والموحدين، واستخلف على مراكش أخاه السيد أبا عمران، فاحتل بقرطبة سنة سبع وستين وخمسين ثم ارتحل بعدها إلى إشبيلية ولقيه السيد أبو حفص هنالك منتصراً من بعض عزاته.

ولما نزل أمير المؤمنين يوسف بإشبيلية خافه محمد بن مرنيش، وحمل على قلبه فمرض ومات! وقيل إن أمه سمعت أنه كان قد أساء إلى خواصه وكبار دولته، فنصحته فتهدها، وخافت بطشه فسمته! ولما مات محمد بن مرنيش جاء أولاده وأخواته إلى أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن - وهو بإشبيلية - فسلموا إليه جميع بلاد شرق الأندلس التي كانت لأبيهم، فأحسن إليهم أمير المؤمنين وتزوج أختهم، وأصبحوا عنده في أعز منزلة؛ وصنم في وليتها مهرجاناً عظيماً يقتصر الوصف عنه.

ولما صفت لأمير المؤمنين يوسف الأندلس خرج من إشبيلية غازياً بلاط العدو؛ فنزل على مدينة له تسمى ويدة، فأقام محااصراً لها شهوراً إلى أن اشتد عليهم الحصار وعطشاوا، فراسلوه في تسليم المدينة، وأن يعطيهم الأمان على نفوسهم؛ فامتنع من ذلك فلما اشتد بهم العطش سمع لهم في بعض الليالي لغط عظيم وأصوات هائلة، وذلك أنهem اجتمعوا بأسرهم ودعوا الله تعالى فجاءهم مطر عظيم ملاً ما كان عندهم من الصهاريج، فارتروا وتقروا على المسلمين، فانصرف عنهم إلى إشبيلية، بعد أن هادنهم مدة سبع سنين.

فليعتبر الواقف على هذه القضية، وليعلم أن هؤلاء الكفار جاحدون،
ينسبون إلى الله تعالى ما لا يليق به من التشليث وأنواع الكفر، ومع ذلك لما
انقطع رجاؤهم، ورجعوا إليه تعالى بالاضطرار الصادق، رحّمهم سبحانه وهو
أرحم الراحمين؛ فلا ينبغي بعد هذا للمؤمن الموحد إذا حصل في شدة أن
يبيس من رحمة الله، فإنه **﴿لَا يَأْتِيهنَّ مِنْ تَرْكَعَ اللَّهَ إِلَّا أَلْقَمُ الْكُفَّارُونَ﴾** [يوسف:
87] والسر في الاضطرار. فإنه عند أرباب البصائر، هو اسم الله الأعظم الذي

إذا دعى به أجياب وإذا سئل به أعطى ، اللهم اجعلنا يا مولانا عندك من المرحومين واجعل كل من يرحمنا عندك من المرحومين ، فأنت أهل ذلك والقادر عليه .

ثم بلغ أمير المؤمنين خروج العدو إلى أرض المسلمين مع القوم الأحدب ، فخرج إليهم وأوقع بهم بناحية قلعة رياح ، وأثخن فيهم ؛ ورجع إلى إشبيلية .

وفي هذه السنة أعني سنة سبع وستين وخمسماة ، شرع أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن في بناء جامع إشبيلية ، فتم وصلت به الجمعة في ذي الحجة منها .

وفي هذه السنة أيضاً عقد أمير المؤمنين الجسر على وادي إشبيلية بالقوارب وبنى قصبتها الداخلية ، وبنى الزلايل للسور ، وبنى سور باب جوهرة ؛ وبنى الرصفان المتدرجة بضفتى الوادي ، وجلب الماء من قلعة جابر حتى أدخله إشبيلية ، وأتفق في ذلك أموالاً لا تمحى .

ثم انتقض ابن أذفونش وأغار على بلاد المسلمين فاحتشد الخليفة وسرح السيد أبو حفص إليه فغزاه بعقر داره ، وافتتح قنطرة بالسيف ، وهزم جموعه في كل جهة .

ثم ارتحل الخليفة من إشبيلية راجعاً إلى مراكش سنة إحدى وسبعين لخمس سنين من إجازته إلى الأندلس ، وعقد على قربطة لأخيه أبي الحسن وعلى إشبيلية لأخيه أبي علي .

وأصاب مراكش طاعون فهلك من السادة : أبو عمران ؛ وأبو سعيد وأبو زكريا وقدم الشيخ أبو حفص الهاشمي من قربطة فهلك في طريقه ودفن بمدينة سلا ، وهو جد الملوك الحفصيين أصحاب تونس وإفريقية .

واستدعى الخليفة أخيه السيدتين أبي علي وأبي الحسن فعقد لأبي علي على سجل ماسة ، ورجع أبو الحسن إلى قربطة ؛ وعقد لابني أخيه السيد أبي حفص : لأبي زيد منها على غرناطة ، ولأبي محمد على مالقة .

وفي سنة ثلث وسبعين سطا بذريةبني جامع وزرائه وغريهم إلى ماردة.

وفي سنة خمس وسبعين وخمسماة عقد لغائم بن محمد بن مردش على أسطوله، وأغازه مدينة أشبونة، فغنم ورجع.

وفيها كانت وفاة أخيه الوزير السيد أبي حفص بن عبد المؤمن بعد ما أبلى في الجهاد، وبالغ في نكبة العدو، وتقدم ابناء من الأندلس فأخيراً الخليفة بانتقام الطاغية؛ واعترض على الجهاد، وأخذ في استدعاء العرب من إفريقيا، والله تعالى أعلم.

غزو أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن بلاد إفريقية وفتح مدينة قصبة والسبب في ذلك

كانت قصبة من بلاد إفريقيا قد استبد بها بني الرند أواخر دولة صنهاجة من بني زيري بن مناد، كان جدهم عبد الله بن محمد بن الرند عاملاً لهم بها، فتوارثها بنوه من بعده، فاستبدوا بها آخر الدولة؛ ولما غزا عبد المؤمن بلاد إفريقيا استنزلهم في جملة من استنزل من الشوار بها. ولما مات عبد المؤمن وبיע ابنه يوسف بلغه سنة أربع وسبعين وخمسماة أن بعض بني الرند قد عاد إلى قصبة وثار بها فاضطربت لأجل ذلك أحوالها فنهض إليها في سنة خمس وسبعين بعدها، فانتهى إلى إفريقيا، ونزل على مدينة قصبة؛ وضيق عليها بالقتال والمحصار حتى دخلها، وظفر بابن الرند القائم بها فقتلها، وذلك في سنة ست وسبعين وخمسماة.

ثم عاد إلى مراكش فدخلها في سنة سبع وسبعين بعدها. هكذا في القرطاس، ونحوه لابن خلدون في أخباربني عبد المؤمن.

وذكر عند الكلام على بني الرند وجهاً آخر فقال: «كان عبد المؤمن قد ولّى على قصبة عمران بن موسى الصنهاجي، فأساء إلى الرعية، فبعثوا عن

علي بن العزيز بن المعتز الرندي من بجاية وكان بها في مضيحة يحترف بالخياطة، فقدم عليهم وثاروا بعمران بن موسى عامل الموحدين فقتلوه، وقدموا مكانه علي بن العزيز فساس ملكه وحاط رعيته وأغزاه يوسف بن عبد المؤمن سنة ثلاثة وستين وخمسة وأربعين وأخاه السيد أبي زكريا، فحاصره وسيق عليه وأخذنه، وأشخاصه إلى مراكش بأهله وماله، واستعمله على الأشغال بمدينة سلا إلى أن هلك بها، وفنيت دولةبني الرندي. والبقاء لله وحده» اهـ. كلامه فالله أعلم أي ذلك كان.

وفي سنة ثمان وسبعين وخمسة وأربعين خرج أمير المؤمنين يوسف من مراكش لبناء حصن أزكنا، فبناء على المعدن الذي ظهر هناك.

الجواز الثاني لأمير المؤمنين يوسف ابن عبد المؤمن إلى الأندلس برسم الجهاد وما يتصل بذلك من وفاته رحمه الله

لما قدم أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن من فتح قصبة سنة سبع وسبعين وخمسة وأربعين قدم عليه ولاة الأندلس ورؤساؤها يهتلونه بالإياب، فأكرم وقادتهم وانصرفوا.

ثم بلغه الخبر بأن أذفونش بن سانجة نازل قرطبة وشن الغارات على جهة مالقة ورندة وغرناطة، ثم نزل إستجة وتغلب على حصن شقيقة. وأسكن به النصارى وانصرف.

فاستنصر السيد أبو إسحاق سائر الناس للغزو، ونازل الحصن نحوأ من أربعين يوماً، ثم بلغه خروج أذفونش من طليطلة بمدده فانكفأ راجعاً، وخرج محمد بن يوسف بن وانودين من إشبيلية في جموع الموحدين، ونازل طليطلة فبرز إليها أهلها فأوقع بهم وانصرف بالغنائم.

فاعتزم الخليفة يوسف بن عبد المؤمن على معاودة الجهاد، وولى على

الأندلس أمناءه وقدمهم للاحتشاد، فعقد لابنه السيد أبي زيد على غرناطة، ولابنه السيد أبي عبد الله على مرسية، ونهض سنة تسع وسبعين وخمسة.

وفي القرطاس: كان خروجه من مراكش في التاريخ المذكور على باب دكالة، قال برسم غزو إفريقية، فلما وصل إلى سلا أتاه أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن جامع من إفريقية؛ فأعلمه بهدوتها وسكنها، فصرف عزمه إلى الأندلس. فنهض من سلا صحوة يوم الخميس الموافق لثلاثين من ذي القعدة من السنة المذكورة، فنزل بظاهرها وبيات هناك. ثم نهض يوم الجمعة الموالي له فوصل إلى مكانة يوم الأربعاء السادس من ذي الحجة، فعيده بها عيد الأضحى خارجها. ثم ارتحل إلى فاس فدخلها وأقام بها بقية الشهر.

ثم دخلت سنة ثمان وخمسة، ففي اليوم الرابع بها نهض من فاس وسار حتى انتهى إلى سبتة، فأقام بها بقية الشهر المحرم، وأمر الناس بالجواز إلى الأندلس؛ فجازت قبائل العرب أولاً، ثم قبائل زناتة، ثم المصامدة؛ ثم مغراوة وصنهاجة وأوربة، وأصناف البربر. ثم عبرت جيوش الموحدين والأغزاز والرماء. فلما استكمل الناس الجواز عبر هو في آخرهم في الحاشية والعبيد.

وكان جوازه يوم الخميس الخامس صفر من السنة المذكورة، فنزل بجبل الفتح، ثم ارتحل منه إلى الجزيرة الخضراء، ثم سار إلى إشبيلية. فلما أشرف عليها يوم الجمعة الثالث والعشرين من صفر خرج إليه ولده السيد أبو إسحاق ومعه فقهاء إشبيلية وأشياعها فبعث إليهم يأمرهم بالوقوف بأخر المنية حتى يصل إليهم، فلما صلى الظهر وركب اجتاز بهم، فلما دنا منهم نزلوا عن دوابهم فوقف لهم حتى سلموا عن آخرهم وركبوا.

ثم نهض إلى غزو مدينة شنترين من بلاد غرب الأندلس فانتهى إليها في السابع من ربيع الأول فنزل عليها، وأدار به الجيوش، وشدد عليها في

الحصار والقتال؛ وبذل المجهود إلى ليلة الثاني والعشرين من ربيع المذكور، فانتقل من موضع نزوله بجوفي شترن إلى غربها، فأنكر المسلمون ذلك ولم يعلموا له سبباً؛ فلما جن الليل وصلى العشاء الآخرة بعث إلى ولده السيد أبي إسحاق صاحب إشبيلية فأمره بالرحيل من غد تلك الليلة لغزو أشبونة، وشن الغارات على أنحائها، وأن يسير إليها في جيوش الأندلس خاصة. وأن يكون رحيله نهاراً، فأساء الفهم وظن أنه أمره بالرحيل ليلاً، وصرخ الشيطان في محلة المسلمين، أن أمير المؤمنين قد عزم على الرحيل في هذه الليلة، وتحدث الناس بذلك وتأبهوا له، ورحلت طائفة منهم بالليل؛ ولما كان قرب الفجر ألقع السيد أبو إسحاق وألقع من كان مواليأ له، وتتابع الناس بالرحيل؛ وتسابقوا لاختيار المنازل وأمير المؤمنين مقيم في مكانه لا علم له بذلك، فلما أصبح وصلى الصبح وأضاء النهار لم يجد حوله من أهل المحلات أحداً إلا يسيراً من خاصته وحشمه الذين يرحلون لرحيله، وينزلون لنزوله؛ وإلا - قواد الأندلس فإنهم الذين كانوا يسيرون أمام ساقته وخلف محلته من أجل من يتخلّف عنها من الضعفاء، فلما طلعت الشمس وتطلع النصارى الممحصرون على المحلة من سور البلد ورأوا أمير المؤمنين منفرداً في عيده وحشمه، وتحققوا ذلك من جواسيسهم فتحروا البلد؛ وخرج جميع من فيه خرجه منكرة، وهم ينادون: الري الري، أي اقصدوا السلطان؛ فضربوا في محلة العييد إلى أن وصلوا إلى أخيبة أمير المؤمنين فمزقوها واقتسموها، فبرزت عليهم وقاتلهم بسيفه، حتى قتل ستة منهم، ثم طعنوه طعنة نافذة وقتل عليه ثلاثة من جواريه كن قد أكببن عليه! ولما طعن وقع بالأرض وتصابع العييد ونادوا بالفرسان والأجناد فتراجع المسلمون وقاتلوا النصارى حتى أذاجوهم عن الأخيبة، واشتد القتال بينهم، وتوافقوا ساعة ثم انهزم الفرنج وركبهم المسلمون بسيف حتى دخلوهم المدينة؛ وقتل منهم خلق كثير يزيدون على العشرة آلاف، واستشهد من المسلمين جماعة. وركب أمير المؤمنين يوسف

وقد أنفذته الطعنة؛ وارتحل الناس ولا يدرؤن أين. ثم اهتدوا بالطبلول فقصدوا جهة إشبيلية، ثم سار أمير المؤمنين يريد العبور إلى المغرب فاشتاد ألمه ومات بالطريق رحمة الله؛ قاله ابن مطروح.

وكانت وفاته يوم السبت العاشر من شهر ربيع الآخر سنة ثمانين وخمسماة قرب الجزيرة الخضراء، فحمل إلى تينملل فدفن بها إلى جنب قبر أبيه، وقيل إنه لم يمت حتى وصل إلى مراكش. وكان ولده يعقوب الخليفة بعده هو الذي يدخل على أبيه ويخرج ويصرف الأمور بين يديه من يوم طعن إلى أن مات. قالوا وكتم ولده موته حتى وصل إلى مدينة سلا فأفشاها. وكان قبل موته بأشهر كثيراً ما ينشد قول الشاعر ويردد:

طوى الجديدان ما قد كنت أنشره وأنكرتني ذوات الأعين النجل
ورثاء الأديب أبو بكر يحيى بن معير بقصيدة طويلة أجاد فيها وأولها:
جل الأسى، فأسى دم الأحفان ماء الشوون لغير هذا الشان

بقية أخبار أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن وسيرته

قال ابن خلكان: كان يوسف بن عبد المؤمن أبيض تعلوه حمرة، شديد سواد الشعر، مستدير الوجه، أفوه؛ أعين؛ إلى الطول ما هو؛ في صوته جهارة؛ رقيق حواشي الطبع حلو الألفاظ؛ حسن الحديث، طيب المجالسة، أعرف الناس كيف تكلمت العرب؛ وأحفظهم لأيامها في الجاهلية والإسلام؛ صرف عنايته إلى ذلك، ولقي فضلاء إشبيلية أيام ولايته بها. وكان فقيهاً حافظاً مفتنتاً، لأن آباء هذبه وقرن به وبإخوته أكمل رجال الحرب والمعارف؛ فنشأ في ظهور الخيل بين أبطال الفرسان، وفي قراءة العلم بين أفالصل العلماء، وكان ميله إلى الحكمـة والفلسفة أكثر من ميله إلى الأدب وبقيه العلوم، ويقال إنه كان يحفظ صحيح البخاري، وكان يحفظ القرآن

الكريم مع جملة صالحة من الفقه؛ ثم طمع إلى علم الحكمة وبدأ من ذلك بعلم الطب؛ وجمع من كتب الحكمة شيئاً كثيراً.

وكان من من صحبه من العلماء بهذا الشأن الوزير أبو بكر محمد بن طفيلي، كان متحققاً بجميع أجزاء الحكم، قرأ على جماعة من أهلها منهم أبو بكر بن الصائغ المعروف بابن باجة وغيره؛ ولابن طفيلي هذا تصانيف كثيرة.

وكان يوسف بن عبد المؤمن حريصاً على الجمع بين علم الشريعة والحكمة، ولم يزل يجمع إليه العلماء من كل فن من جميع الأقطار؛ ومن جملتهم القاضي أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد المعروف بالحفيظ.

وكان يوسف بن عبد المؤمن شديد الملوكيّة، بعيد الهمة، جماعاً مناعاً، ضابطاً لخارج مملكته، عارفاً بسياسة رعيته، وكان سخياً جواداً في محل السخاء والجود؛ قد استغنى الناس في أيامه؛ وكان من ضبطه وسياساته، ربما يحضر حتى لا يكاد يغيب حتى لا يكاد يحضر، وله في غيابه نواب؛ وخلفاء وحكام قد فوض الأمور إليهم، لما علم من صلاحهم وأهليتهم لذلك.

قال ابن خلكان: «والدنا ناصر اليوسفية المغربية منسوبة إليه».

ومما يستطرف من أخباره رحمة الله: أن الأديب أبي العباس أحمد بن عبد السلام الكرواني - وكروان قبيلة من البربر منازلهم بضواحي فاس - كان نهاية في حفظ الأشعار القديمة والمحدثة، وتقدم في هذا الشأن ولو فيه تأكيل، وكان مع ذلك صاحب نوادر، جالس بها عبد المؤمن؛ ثم ولده يوسف؛ ثم ولده يعقوب.

فمن توادره: أنه حضر يوماً إلى باب أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن المذكور؛ وحضر إليه أيضاً الطبيب سعيد الغماري، فقال أمير

المؤمنين لبعض خدمه: «انظر من بالباب من الأصحاب» فخرج الخادم ثم عاد إليه فقال: «يا سيدى به أحمد الكروانى وسعيد الغمارى» فقال أمير المؤمنين يوسف: «من عجائب الدنيا شاعر من كروان وطبيب من غماره» فبلغ ذلك الكروانى: «وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه! أعجب منهما والله، خليفة من كومية!» فيقال إن أمير المؤمنين يوسف لما بلغه ذلك قال: «أعاقبه بالحلب عنه ففيه تكذيب له» ومن شعر الكروانى من جملة قصيدة يمدح بها أمير المؤمنين يوسف المذكور وهو بديع:

إن الإمام هو الطبيب وقد شفا علل البرايا ظاهراً ودخلاً
حمل البسيطة وهي تحمل شخصه كالروح يوجد حاملاً محمولاً!

الخبر عن دولة أمير المؤمنين المنصور بالله يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي

قال ابن خلدون: «لما توفي الخليفة يوسف بن عبد المؤمن على حصن شترن في التاريخ المتقدم بوضع ابنه أبو يوسف يعقوب بن عبد المؤمن، ورجع الناس إلى إشبيلية فاستكملا البيعة، واستوزر الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهناتي واستنفر الناس للغزو مع أخيه السيد يحيى، فاستولى على بعض الحصون، وأنخر في بلاد الكفار؛ ثم أجاز البحر إلى الحضرة.

ولقيه بقصر مصمودة السيد أبي زكريا ابن السيد أبي حفص، قادماً من تلمسان، مع مشيخةبني زغبة من عرب هلال؛ وممضى إلى مراكش فغير المناكر ويسط العدل، ونشر الأحكام» اهـ وفيه نوع مخالفة لما قلمناه.

وقال ابن أبي زرع: لما تمت له البيعة وطاعت له الأمة كان أول شيء فعله أن أخرج مائة ألف دينار ذهباً من بيت المال، ففرقها في الضعفاء من بيوتات المغرب، وكتب إلى جميع بلاده، بتسريع السجون ورد المظالم التي

ظلمها العمال في أيام أبيه؛ وأكرم الفقهاء، وراعى الصالحة وأهل الفضل، وأجرى على أكثرهم الإنفاق من بيت المال، وفرق في الموحدين وسائر الأجناد أموالاً جمة؛ وكان أول شيء حدث في دولته شأن بني غانية المسوفيين. أصحاب جزيرة ميورقة وأعمالها، فلنأت بشيء من ذلك.

خروج علي بن إسحاق المسوفي المعروف بابن غانية علي يعقوب المنصور

قد تقدم لنا في أخبار الدولة اللمتونية أن أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين اللمتوني كان قد استعمل على الجزائر الشرقية من بلاد الأندلس وهي ميورقة وبايسة محمد بن علي بن يحيى المسوفي المعروف بابن غانية - وهي أهمهم - فتوارثها بنوه من بعده، إلى أيام يوسف بن عبد المؤمن؛ فبعث إليه محمد بن إسحاق بن محمد المسوفي المذكور بالطاعة، فقبل ذلك يوسف بن عبد المؤمن، ويعود إليه قائده علي بن الروبرتير ليختبر أمره؛ ويعقد له البيعة عليه، ويؤكد الأمر في ذلك.

وكان لمحمد بن إسحاق المذكور عدة إخوة يساهمونه في الرئاسة، فلما انتهى إليهم ابن الروبرتير، وعلموا الأمر الذي قدم لأجله، انكروا على أخيهم ذلك لأنهم لم يكن أعلمهم بمكتبة يوسف بن عبد المؤمن فخلصوا نجياً دونه، وتقبضوا عليه وعلى ابن الروبرتير، وقدموا مكانه أخاهم علي بن إسحاق بن محمد؛ ثم بلغتهم خبر وفاة يوسف بن عبد المؤمن وولاته ابنه يعقوب المنصور، فركب علي بن إسحاق أسطوله وطرق بجایة على حين غفلة من أهله؛ وعليها يومئذ السيد أبو الريبع بن عبد الله بن عبد المؤمن. وكان خارجاً في بعض مذاهبه - فاستولى عليها ابن غانية في صفر سنة إحدى وثمانين وخمسين.

وحكى ابن أبي زرع في استيلاء ابن غانية على بجاية وجهاً آخر قال: دخل المبورقي - وهو علي بن إسحاق المذكور - مدينة بجاية يوم الجمعة السادس من شعبان سنة ثمانين وخمسمائة، والناس في صلاة الجمعة.

وكان أبواب المدن قبل ذلك لا تغلق وقت صلاة الجمعة، فارتقب ابن غانية الناس حتى أحرموا بصلاة الجمعة، ثم اقتحم عليهم المدينة وعمد إلى الجامع الأعظم، وأدار به الخيل والرجل فمن بايعه خلي سبيله، ومن توقف عن بايعته ضرب عنقه» قال: «وأقام بها سبعة أشهر، ثم استرجعت من يده» قال: «ومن ذلك اليوم اتخد الناس خلق أبواب المدن يوم الجمعة وقت الصلاة» والله أعلم.

ثم استولى علي بن إسحاق على الجزائر، ثم على مازونة؛ ثم على مليانة، ثم على القلعة، ثم نازل قسطنطينة فامتنتع عليه.

واتصل الخبر بالمنصور فسرح السيد أبو زيد بن أبي حفص بن عبد المؤمن وعقد له على حرب ابن غانية، وعقد لمحمد بن إبراهيم بن جامع على الأساطيل، وإلى نظره أبو محمد بن عطوش وأحمد الصقلبي. فوصل السيد أبو زيد إلى إفريقيا وشرد ابن غانية عنها إلى الصحراء في أخبار طويلة.

ثم عاود ابن غانية الإجلاب على بلاد إفريقيا، وظاهره على ذلك قراقوش الغزي، من موالي السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الكردي صاحب مصر، وكان قد تغلب على طرابلس وما والاها.

ويبلغ المنصور أن ابن غانية قد استولى على قفصة فنهض بنفسه من حضرة مراكش ثالث شوال سنة اثنين وثمانين وخمسمائة ووصل إلى فاس فأراح بها، ثم سار إلى رباط تازا، ثم سار على التعبية إلى تونس.

وجمع ابن غانية من إليه من الملثمين والعرب وجاء معه قراقوش الغزي صاحب طرابلس، فسرح إليهم المنصور مقدمة من جيشه لنظر السيد

أبي يوسف يعقوب ابن السيد أبي حفص عمر بن عبد المؤمن، فلقيهم ابن غانية في جموعه فانتصر عليهم وانهزم الموحدون، وقبل جماعة من وجهوهم، وأسر علي بن الروبرتير في آخرين، وأمتلات أيدي العرب من أنائهم وأسلابهم.

ووصل سرعان الناس إلى المنصور وهو بتونس، فنهض إليهم في الحال ونزل القيروان، ثم أغذ السير إلى الحامة فالتقى الجماعان، وأنشروا الحرب فكانت الهزيمة على ابن غانية وأحزابه، وأفلت من المعركة بذماء نفسه ومعه خليله قراقوش وأتى القتل على أكثرهم.

ثم صبح المنصور مدينة قابس - وكانت في يد قراقوش - فافتتحها ونقل من كان بها من حرم ابن غانية وذويه في البحر إلى تونس، وثنى العنان إلى توزر فافتتحها وقتل من وجد بها، ثم إلى قصبة فنازلها أياماً، حتى نزلوا على حكمه فقتل من كان بها من الحشود وهدم سورها واستبقى أهلها، وجعل أملاكهم بأيديهم على حكم المساقاة.

ولما فرغ من أمر قصبة نهض إلى عرب إفريقيية، ففتح بهم واستباح حللهم وأموالهم وشردهم في كل وجه، ثم بعد ذلك جاؤوه تابين خاضعين فنقل أهل الفتنة والخلاف منهم إلى المغرب الأقصى، ورجع إلى مراكش، فدخلها في رجب ستة أربع وثمانين وخمسمائة.

الخبر عن انتقال العرب من جزيرتهم إلى أرض إفريقية ثم منها إلى المغرب الأقصى والسبب في ذلك

اعلم أن أرض إفريقية والمغرب لم تكن للعرب بوطن في الأيام السالفة لا في الجاهلية ولا في صدر الإسلام، وإنما كان المغرب وطناً لأمة البربر خاصة لا يشاركون فيه غيرهم.

ولما جاءت الملة الإسلامية وأظهرها الله على الدين كله زحفت جيوش

ال المسلمين من العرب إلى أرض المغرب في جملة ما زحف إليه من أقطار الأرض، لكن العرب الداخلون إلى أرض المغرب في ذلك العصر إنما كانوا يدخلون إليه غزوة مجاهدين على ظهور خيولهم، فيقضون الوطر من فتح الأقطار والأمسار، ثم ينقلب جمهورهم إلى وطنهم ومقرهم من جزيرة العرب، وإن بقي القليل منهم به فإنما كانوا يستوطنون منه الأمصار دون الbadia، ويسكنون القصور دون الخيام؛ فلم تكن العرب تسكن المغرب يومئذ بقبائلهم وخيامهم، ولا استوطنه بأحياءهم وحللهم، كما هو شأنهم اليوم؛ لأن الملك الذي حصل لهم والغلب الذي مكّنهم الله منه كان يمنعهم من سكناً الbadia، ويعدل بهم إلى الحضارة ولا بد، فكانت الخيمة بأرض المغرب معروفة رأساً؛ أو قليلة جداً لبعض البربر ومن كان يتبعها منهم وهم قليل، وإنما كان يسكن الجمهور منهم بالمدادرش وكهوف الجبال؛ واستمر الحال على ذلك إلى أواسط المائة الخامسة، فدخلت العرب أرض إفريقيا واستوطنها بحللهم وخيامهم.

ثم لما كانت أواخر المائة السادسة في دولة يعقوب المنصور رحمة الله نقل الكثير منهم إلى المغرب الأقصى، فاستوطنه بحللهم وخيامهم كذلك، وصارت أرض المغرب منقسمة بين أمتين أمة العرب أهل اللسان العربي، وأمة البربر أهل اللسان البربر، بعد أن كانت بلاده خاصة بالبربر لا يشاركون فيها غيرهم كما قلنا.

واعلم أن أمة العرب تنقسم أولاً إلى قسمين: عدنان وقحطان، ثم ينقسم كل من عدنان وقحطان إلى شعوبين عظيمين، فأمّا عدنان وهم الإسماعيلية ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، فينقسمون إلى ربيعة ومضر، وأمّا قحطان وهو اليمانية ذرية قحطان بن عابر بن صالح بن أرفخشش بن سام بن نوح عليه السلام فينقسمون إلى حمير وكهلان. هذا هو المعروف المشهور من نسب الفريقيين. وقد يذكر النسابون لكل منها شعوباً

آخر، لكننا لم نعتبرها إما لأنقراضها أو لقوة الخلاف فيها أو لقلتها جداً وأندراجها فيمن ذكرناه.

ثم يتشعب كل من هذه الشعوب الأربعية إلى قبائل وعمائر ويطون وأفخاذ وقبائل لا حصر لها، لكننا ننبه على الغرض المقصود منها فنقول: من جملة قبائل مصر:

بنو سليم بن منصور بن عكرمة بن خصبة بن قيس عيلان بن مصر.

ومن قبائلها أيضاً بنو جشم بن معاوية بن بكر بن هوازان بن منصور المذكور في النسب السابق. وقد نسبت الخنساء جشم هذا إلى جده، فقالت تهجو دريد بن الصمة:

معاذ الله ينكحني حبركي قصير الشير من جشم بن بكر

ومن قبائلها أيضاً بنو هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر المذكور أيضاً.

ومن جملة قبائل كهلان القحطانيين: بنو الحارث بن كعب بن عمرو بن علة بن جلد بن مذحج بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان. وكهلان هو ابن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

واعلم أن هؤلاء القبائل الأربعية التي ذكرناها هي التي ذكر المؤرخون أنها انتقلت إلى إفريقيا والمغرب، وقد يضاف إليهم غيرهم من قبائل العرب، لكتهم ليسوا بمشهورين كالأربعة المذكورة.

وأما خبر دخولهم إلى المغرب والسبب فيه فقد ذكر المؤرخون أنبني سليم بن منصور وبني هلال بن عامر لم يزالوا بجزيرة العرب برقة من الدهر إلى أن مضى الصدر من دولة بنى العباس، وكانوا أحيا ناجعة بأرض الحجاز ونجد، فبنوا سليم مما يلي المدينة المنورة، وبنوا هلال في جبل غزوان عند الطائف، ثم تحيز بنو سليم والكثير من هلال بن عامر إلى البحرين وعمان، وصاروا جنداً للقراطمة، ثم غلب القرامطة على بلاد الشام وظاهرهم على

ذلك بنو سليم وبنو هلال. ثم انتقلت دولة العبيدين من إفريقيا إلى مصر، وغلبوا القرامطة على الشام وانتزاعه منهم، وردوهم على أعقابهم إلى البحرين، ونقلوا أشياعهم من بني سليم وبني هلال. فأنزلوهم بصعيد مصر في العدوة الشرقية من بحر النيل فأقاموا هنالك، وكان لهم أضرار بالبلاد؛ ولما انتقلت الدولة العبيدية من إفريقيا إلى مصر كما قلنا استنابوا على إفريقيا ببني زيري بن مناد الصنهاجيين فملوكها، وكانوا يخطبون بملوك العبيدين على منابرهم ويصررون السكة باسمائهم، ويؤدون إليهم إتاوة معلومة وطاعة معروفة.

ولما انساق ملك إفريقيا إلى المعز بن باديس بن المنصور بن بلکین بن زيري بن مناد الصنهاجي كان له رغبة في مذهب أهل السنة خالف فيه أسلافه الذين كانوا على مذهب الشيعة الرافضة، وكان الخليفة من العبيدين بمصر يومئذ المستنصر بالله معد بن الظاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعز للدين الله. والمعز هذا هو الذي انتقل إلى مصر وبنى مدينة القاهرة.

وكان المعز بن باديس الصنهاجي لا تزال المراسلات والهدايا تختلف بينه وبين المستنصر العبيدي صاحب مصر كما كانت أسلافهما؛ ثم إن المعز بن باديس ركب ذات يوم لبعض مذاهبه وذلك في أول ولايته فكباه به فرسه فنادي مستغيثاً بالشيوخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهم، فسمعته العامة وكان جمهورهم سنياً؛ فثاروا بالرافضة وقتلوهم أربع قتل، وأعلموا بالمعتقد الحق ونادوا بشعار الإيمان، وقطعوا من الأذان حي على خير العمل.

وكانت هذه الواقعة في أيام الظاهر العبيدي والد المستنصر، فكتاب المعز بن باديس في ذلك، فاعتذر إليه بالعامة، فأغضى عنه.

واستمر ابن باديس على إقامة الدعوة لهم؛ والمهاداة معهم، وهو في أثناء ذلك يكتب وزيرهم القائم بأمور دولتهم أبي القاسم علي بن أحمد الجرجاني ويستميله، ويعرض ببني عبيد وشيعتهم ويغض منهم.

ثم هلك الوزير أبو القاسم سنة ست وثلاثين وأربعين، وولي الوزارة

بعد أبو محمد الحسن بن علي اليازوري، أصله من قرى فلسطين، وكان أبوه فلاحاً بها. فلما ولّي الوزارة خاطبه المعز بن باديس دون ما كان يخاطب به من قبله من الوزراء: كان يقول في كتابه إليهم: عبدكم! وصار يقول: في كتاب اليازوري: صنيعتكم! فحقد ذلك عليه، وصارت القوارص تسرى من بعضهم إلى بعض، إلى أن أظلم الجو بين المعز بن باديس وبين المستنصر العبيدي ووزيره اليازوري، فقطع ابن باديس الخطبة بهم على منابرها سنة ثلاث وأربعين وأربعين، وأحرق بنود المستنصر، ومحا اسمه من السبكة والطرز، ودعا للقائم العباسي خليفة ببغداد؛ وجاءه خطابه وكتاب عهده، فقرىء بجامع القبروان، ونشرت الرایات السود؛ وهدمت دور الإسماعيلية.

وبلغ الخبر بذلك كله إلى المستنصر بالقاهرة فقادت قيامته، ففاوض وزيره أبي محمد الحسن بن علي اليازوري في أمر ابن باديس، فأشار عليه بأن يسرح له العرب منبني هلال، ويني جسم الذين بالصعيد، وأن يتقدم إليهم بالاصطناع؛ ويستميل مشايخهم بالعطاء وتولية أعمال إفريقية وتقليلهم أمرها بدلاً من صنهاجة الذين بها لينصروا الشيعة ويدافعوا عنهم؛ فإن صدقت المخيلة في ظفرهم بابن باديس وقومه صنهاجة كانوا أولياء للدولة وعمالاً بتلك القاصية، وارتفع عنوانهم من ساحة الخلافة، وإن كانت الأخرى فلهم ما بعدها؛ وأمر العرب على كل حال أهون على الدولة من أمر صنهاجة الملوك.

فبعث المستنصر وزيره إلى هؤلام الأحياء؛ وأرضخ لأمرائهم في العطاء ووصل عامتهم ببعير ودينار لكل واحد منهم، وأباح لهم إجازة النيل، وقال لهم: «قد أعطيناكم المغرب وملك ابن باديس العبد الآباق، فلا تفتقرون بعدها!».

وكتب اليازوري إلى المعز: «أما بعد، فقد أنفذنا إليكم خيولاً فحولاً وأرسلنا عليها رجالاً كهولاً، ليقضى الله أمراً كان مفعولاً».

فسرحت العرب إذ ذاك وعبروا النيل إلى برقة، فنزلوا بها واستباحوها

وافتتحوا أمصارها، وأعجبتهم البلاد. فكتبو لإخوانهم الذين بقوا شرقي النيل يرغبونهم في البلاد، فأجازوا إليهم بعد أن أعطوا للمستنصر لكل رأس دينارين، فأخذ منهم أضعاف ما أخذوه؛ وتقارعوا على البلاد؛ فحصل لبني سليم شرقها، ولبني هلال غربها، ثم انتشروا في أقطار إفريقيا مثل الجراد، لا يؤمرون بشيء إلا أتوا عليه.

وبالجملة فلم تمر إلا مدة يسيرة حتى استولوا على ضواحي إفريقيا. ونازلوا أمصارها، واقتضوا من أهلها الإتاوة، وحضروا ابن باديس في مصره؛ وصاهرهم بينماته تأليفاً لهم، ومع ذلك فلم يوجد شيئاً والحديث في ذلك طويل وليس تتبعه من غرضنا.

قال ابن خلدون: «ولهؤلاء الهلاليين في الحكاية عن دخولهم إلى إفريقية طرق، يزعمون أن الشريف ابن هاشم كان صاحب العجائز ومكة، ويسمونه شكر بن أبي الفتوح؛ وأنه أصهر إلى الحسن بن سرحان في أخته جازية فأنكحه إليها، وولدت منه ولداً واسمه محمد، وإنه حدث بينهم وبين الشريف المذكور مغاضبة وفتنة. فأجمعوا الرحلة عن أرض نجد إلى إفريقيا، وتحيلوا عليه في استرجاع أختهم جازية المذكورة، فطالبته بزيارة؛ أبويهما، فزارها أيامهم؛ وخرج بها إلى حلّتهم، وأقام معها مدة الزيارة فارتاحلوا به وبها، وكتموا رحلتهم عنه وموهوا عليه بأنهم يباكونه به للصيد والتنص، ويروحون به إلى بيوتهم بعد بناها؛ فلم يشعر بالرحلة إلى أن فارق موضع ملكه، وصار حيث لا يملك أمرها عليهم، ففارقوه؛ ورجع إلى مكانه من مكة وبين جوانحه من حبها داء دخيل، وأنها من بعد ذلك كلفت به مثل ما كلف بها إلى أن ماتت من حبه، ويتناقلون من أخبارها في ذلك ما يعفي على خبر قيس وليلي، ويررون كثيراً من أشعارها محكمة المباني. مشقة الأطراف، وفيها المطبوع والمنتحل؛ والمصنوع لم يفقد فيها من البلاغة شيء، وإنما فقد منها الإعراب فقط، ولا مدخل له في البلاغة.

وفي هذه الأشعار شيء كثير دخلته الصنعة، وقدرت فيه صحة الرواية

فلذلك لا يوثق به؛ ولو صحت روايته ل كانت فيه شواهد بآياتهم ووقائعهم مع زناتة وحرفهم وضبط لأسماء رجالاتهم، وكثير من أحوالهم، لكننا لا نثق بروايتها؛ وربما يشعر البصیر بالبلاغة بالمعنى منها وغيره، وهم متلقون على الخبر عن حال جازية هذه والشريف خلفاً عن سلف، وجيلاً عن جيل، ويكاد القاده فيها والمستريب في أمرها أن يرمي عندهم بالجنون؛ لتواترها بينهم.

وهذا الشريف الذي يشيرون إليه هو من الهواشم، وهو شكر بن أبي الفتوح الحسن بن جعفر بن أبي هاشم محمد بن الحسن بن محمد الأكبر ابن موسى الثاني ابن عبد الله أبي الكرام بن موسى الجون بن عبد الله الكامل بن حسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وأبو الفتوح هو الذي خطب لنفسه بمكة أيام الحاكم العبيدي، وبایع له بنو الجراح أمراء طيء بالشام، وبعثوا عنه، فوصل إلى أحبابهم؛ وبایع له كافة العرب؛ ثم غلبتهم عساكر الحاكم العبيدي ورجع إلى مكة، وهل ذلك سنة ثلاثين وأربعين، فولي بعده ابنه شكر هذا، وهل ذلك سنة ثلاث وخمسين وولي بعده ابنه محمد الذي يزعم هؤلاء الهلاليون أنه من جازية هذه.

وقال ابن حزم: إن شكر بن أبي الفتوح لم يولد له قط، وإنما صار أمر مكة من بعده إلى عبد كان له.

وقال ابن خلدون: بل أخبرني من أثق به من الهلاليين لهذا العهد أنه وقف على بلاد الشريف شكر بن أبي الفتوح، وأنها بقعة من أرض نجد مما يلي القراء، وإن ولده بها لهذا العهد والله أعلم.

واعلم أن جازية بنت سرحان هذه كانت من بني دريد بن أثبيج بن أبي ربعة بن نهيك بن هلال بن عامر بن صعصعة، فهي هلالية أثبية دريدية. ومن مزاعمهم: أنها لما صارت إلى إفريقيا وفارقت الشريف ابن هاشم المذكور، خلفه عليها منهن ماضي بن مقرب من رجالات دريد، فأقاموا

عنه مدة؛ ثم غاضبته ولحقت بأخيها الحسن بن سرحان فمنعها منه، فقامت عشيرة ماضي بن مقرب معه وقاتلوا الحسن بن سرحان وعشيرته. وثارت الفتنة بينهم وقتل فيها الحسن بن سرحان، واستمرت العداوة بينهم إلى أيام الموحدين؛ فهذا سبب انتقال هؤلاء العرب من الحجاز ونجد إلى إفريقيا.

وأما سبب انتقالهم من إفريقيا إلى المغرب الأقصى؛ فقد ذكرنا أنبني سليم بن منصور وبني هلال بن عامر اقتروعوا على بلاد إفريقيا، فكان لبني سليم شرقها؛ ولبني هلال غربها، ثم تغلبوا على ضواحيها وأمصارها وضايقو ملوکها بها.

وانضم إلىبني هلال بن عامر بنو جشم بن معاوية بن بكر، فعلت أيديهم على الجميع؛ واستمر أمرهم على ذلك إلى أن كانت دولة يعقوب المنصور الموحدى رحمه الله، وثار ابن غانية ببلاد إفريقيا كما تقدم، فظاهرته العرب من جشم وهلال على الموحدين؛ وأوقعوا بمقيدة المنصور، فنهض إليهم من تونس وأوقع بالملشيين أولاً ثم بالعرب ثانياً، وقل جمعهم واتبع آثارهم إلى أن شردهم إلى صحراء برقة، وانتزع تلك البلاد من أيديهم، ثم راجعوا بصائرهم، فأنوه طائعين خاضعين حسبما قدمنا الخبر عن ذلك مستوفى.

وكان الذين قاتلوه أولاً ثم راجعوا طاعته ثانياً هم قبائل هلال بن عامر وجشم بن معاوية بن بكر كما قلنا، وهم أصحاب غرب إفريقيا، وأما بنو سليم بن منصور فلم يقاتله منهم أحد؛ فلذلك بقي بنو سليم بأرض إفريقيا.

ونقل المنصور رحمه اللهبني هلال وبني جشم إلى المغرب الأقصى حين أنوه طائعين، وكان ذلك سنة أربع وثمانين وخمسماة، فأنزل قبيلة رياح منبني هلال ببلاد الهبط، فيما بين قصر كاتمة المعروف بالقصر الكبير إلى أزغار البسيط الأفيع هناك إلى ساحل البحر الأخضر، فاستقروا بها وطاب لهم المقام، وأنزل قبائل جشم بلاد تامسنا البسيط الأفيع ما بين سلا

ومراكش، وهو أوسط بلاد المغرب الأقصى وأبعدها عن الشنايا المفضية إلى القفار لاحاطة جبل الدرن بها، فلم يسموا بعدها قراراً، ولا أبعدوا رحلة.

واعلم أن هذين اليسيطين يسميان اليوم في عرف عامة أهل المغرب بالغرب والحوز، فالغرب عبارة عن بلاد الهبط وأزغار وما في حكمها، والحوز عبارة عن بلاد تامسنا وما اتصل بها إلى مراكش، فكان لرياح بلاد الغرب، وكان لجسم بلاد الحوز.

ثم اعلم أيضاً أن قبيلة رياح هم بنو رياح بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر بن صعصعة، وهم بطون كثيرة وجلهم قد بقي بأرض إفريقية والذين انتقلوا منهم إلى المغرب الأقصى كان رئيسهم في ذلك العصر مسعود بن سلطان بن زمام الذوادي، من بني ذواد بن مرداس بن رياح فأقام معهم مدة ثم جمع جماعة من قومه وفر إلى إفريقيا، وذلك في حدود التسعين وخمسمائة، وأبدأ وأعاد هنالك في الإجلاب مع الشوار، إلى أن هلك في بعض تلك المدة.

وأقام الباقون بعد فرار كيبرهم مسعود المذكور ببلاد الهبط وأزغار إلى أن انقرضت دولة الموحدين، وكان عثمان بن نصر رئيسهم أيام المأمون الموحدي وقتلته ستة ثلاثين وستمائة.

ولما تغلب بنو مرين على ضواحي المغرب ضرب الموحدون على رياح هؤلاء البعث مع عساكرهم، فقاموا بحماية ضواحيهم، وانضم إليهم بنو عسكر بن محمد المربيون حين خالفوا إخوانهمبني حمامة بن محييو بن الملوك منهم، فكانت بين الفريقين جولة قتال فيها عبد الحق بن محييو بن أبي بكر بن حمامة أبو الملوك المربيين، وقتل معه ابنه إدريس؛ فأوجدت رياح السبيل لبني مرين على أنفسهم في طلب الثأر، فائخنوا فيهم بعد أن ملکوا المغرب، واستلهموهم قتلاً وسيأمراً مرة بعد أخرى.

وكان آخر من أوقع بهم السلطان أبو ثابت المربي ستة سبع وبعمائة تتبعهم بالقتل إلى أن لحقوا ببرؤوس الهضاب، وأسمنه الريا المتوسطة في

المرج المستبحر بأذغار؛ فصاروا إلى عدد قليل ولحقوا بالقبائل الغارمة، وذهبت رياح أدراج الرياح. هذا خبرهم على الجملة.

وأما بنو جشم أصحابنا فإن المنصور لما نقلهم إليها نقل معهم قبائل أخرى كانوا قد قاتلوه معهم، ولم يكونوا من نسبهم، ولكنهم كانوا من درجين فيهم، فكان يطلق على الجميع جشم، وهؤلاء القبائل هم المقدم والعاصم من بني هلال بن عامر؛ ثم من الأتباع منهم، وقرة من بني هلال أيضاً، والخلط من بني عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر. فهؤلاء القبائل ليسوا من جشم كما ترى؛ ولكنهم لما انغمروا فيهم وانتقلوا إلى المغرب بانتقالهم أطلق على الجميع جشم.

فاما المقدم والعاصم فهما ابنا مشرف بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر بن صعصعة؛ وأما قرة فهم بنو قرة بن عبد مناف بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال، فهؤلاء القبائل الثلاثة أعني المقدم والعاصم وقرة هلاليون، وأما الخلط فهم بطن من بني عقيل بالتصغير.

قال أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني. الخلط بنو عوف وبنو معاوية ابني المنتفق بن عامر بن عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة المذكور في الأنساب المتقدمة. فقد بان لك بهذا أن هذه القبائل الأربع أعني العاصم ومقدماً وقرة والخلط، ليسوا من بني جشم بن معاوية بن يكر من حيث النسب، وأن الثالث الأول من بني هلال بن عامر، وأن الرابعة وهي الخلط من بني عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن يكر يجتمع الجميع كما ذكرناه أولاً، والله تعالى أعلم.

ولتكلم الآن على أخبار جشم على الجملة فنقول: لما نزل بنو جشم بسيط تامسنا أقاموا به برهة من الدهر، ثم تميز جمهورهم إلى العاصم ومقدم وبني جابر وسفيان والخلط.

فاما مقدم والعاصم فكانوا مع إخوانهم بسيط تامسنا المذكور، وكان

للموحدين عليهم عسكرة وجباية، وكان شيخ العاصم لعهد الموحدين، ثم عهد المأمون بن المنصور منهم حسن بن زيد، وكان له أثر في الفتنة التي ثارت بين المأمون وبين يحيى بن الناصر بن المنصور.

ولما هلك يحيى المذكور سنة ثلث وثلاثين وستمائة أمر الرشيد بن المأمون بقتل حسن بن زيد المذكور مع قائد وقائد ابني عامر من شيوخبني جابر، كل منهما اسمه قائد فقتلوا جميعاً.

ثم صارت الرياسة لأبي عياد وبنيه، وكان رئيسهم لعهدبني مرين
عياد بن أبي عياد، وكان له تلون على الدولة في النفرة تارة والاستقامة
أخرى، فر إلى تلمسان ورجع منها أعوام تسعين وستمائة، وفر إلى السوس
ورجع منه سنة سبع وسبعمائة؛ ولم يزل هذا دأبه، وكانت له ولادة مع
السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني من قبل ذلك. ومقاماته في الجهاد
معه مذكورة وبقيت رياسته في بنية إلى أن انفرض أمرهم وتلاشوا. والله خير
الوارثين.

وأما بنو جابر بن جشم فكانت لهم شوكة أيضاً، وكان لهم أثر في الفتنة الناشئة بين المأمون بن المنصور، ويعيى بن الناصر بن المنصور؛ فكانتوا شيعة ليعيى، ولما ولّي الرشيد بن المأمون أمر بقتل قائد قائد أبني عامر، وهما يومئذ شيخاً بني جابر فقتلوا وقتل معهم حسن بن زيد شيخ العاصم كما تقدم، وكانتوا جميعاً معتقلين عند الرشيد.

وولي أمربني جابر بعدهما يعقوب بن محمد بن قيطون، ثم قبض عليه قائد الموحدين أبو الحسن بن يعلو، وكان ذلك بأمر أبي حفص المرتضى الموسوي، وولي رياسةبني جابر بعده إسماعيل بن يعقوب بن قيطون، ثم تحيز بنو جابر هؤلاء عن أحياه جشم إلى سفح الجبل بتادلا وما إليها يجاورون هنالك صنادة من البربر الساكنين بقتنه وهضابه، فيسهرون إلى البسيط تارة ويأوون إلى الجبل في حلف البربر وجوارهم أخرى، إذا دهمتهم مخافة من السلطان.

قال ابن خلدون: والرياسة فيهم لهذه العصور - يعني أواخر المائة الثامنة - في ورديعة من بطونهم، قال: أدركت شيخاً عليهم لعهد السلطان أبي عنان حسين بن علي الورديعي ثم هلك، وأقيم مقامه ابنه الناصر بن حسين، ولحق بهم الوزير الحسن بن عمر عند نزوعه عن السلطان أبي سالم المريني سنة ستين وسبعين، ونهضت إليهم عساكر السلطان فأمكناها منه، ثم لحق بهم أبو الفضل ابن السلطان أبي سالم عند فراره من مراكش سنة ثمان وستين، وناله السلطان عبد العزيز المريني وأحاط به وبهم؛ فلحق ببرابرية صناعة؛ ثم أمكناها منه على مال حمل إليهم ولحق بهم أثناء هذه الفتنة الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن المريني على عهد الوزير عمر بن عبد الله المتغلب على المغرب، وطلبه الوزير عمر فأخرجوه عنهم، وطال بذلك مراس الناصر هذا للفتنة، فنكرته الدولة وتقبضت عليه وأودعته السجن، فمكث فيه سنتين ثم تجافت عنه الدولة من بعد ذلك وأطلقته، ثم رجع من المشرق فتقبض عليه الوزير أبو بكر بن غازي المستبد بالمغرب على ولد السلطان عبد العزيز وأودعه السجن، ونقلوا الرياسة عن بيته إلى غيرهم.

والله تعالى مقلب الأمور.

وقد يزعم كثير من الناس أن ورديعة منبني جابر ليسوا من جسم، وأنهم بطن من بطون سلراته إحدى شعوب لوانة من البربر، ويستدللون على ذلك بموطنهم وجوارهم البربر، والله تعالى أعلم بحقيقة ذلك.

وأما سفيان فهم الذين كانت لهم الرياسة والشوكة عند دخول العرب إلى المغرب، كانت رياستهم يومئذ في أولاد جرمن على سائر بطون جشم، واستمرا على ذلك ساير أيام الموحدين، ولما ضعف أمربني عبد المؤمن استكثروا بهم في حرريهم، فكانت لهم عزة ودالة على الدولة بسبب الكثرة وقرب العهد بالبداوة، وخبوا ووضعوا في الفتنة مع أعقاب الملوك منبني عبد المؤمن المتنازعين على الملك، وظاهروا البعض منهم على البعض وساعات آثارهم بالمغرب.

وكان شيخهم المشهور على عهد يحيى بن الناصر الموحدني

جرمون بن عيسى السفياني، وكانت بينهم وبين الخلط عداوة، فصارت الخلط شيعة للمأمون وبنيه؛ وصارت سفيان بسبب ذلك شيعة ليعسى بن الناصر منازعة في الخلافة بمراكش، ثم قتل الرشيد بن المأمون مسعود بن حمدان شيخ الخلط ر بما نذكر بعد؛ فصاروا إلى يعسى بن الناصر، وصارت سفيان إلى الرشيد.

ثم ظهر بنو مرين بالمغرب واتصلت حروبهم مع الموحدين، ونزع جرمون سنة ثمان وثلاثين وستمائة عن الرشيد ولحق بمحمد بن عبد الحق المريني حياء مما وقع له مع الرشيد، وذلك أنه نادمه ذات ليلة حتى سكر، فقام يرقص طرباً، ثم حمل عليه وهو سكران وغريب وأساء الأدب، ثم أفاق فندهم، وفر إلى محمد بن عبد الحق، وهلك سنة تسع وثلاثين بعدها؛ وعلا كعب ابنه كانون بن جرمون عند السعيد بن المأمون، ثم خالف عليه عند نهوه منه إلى بني مرين سنة ثلاط وأربعين وستمائة، ورجع إلى آزمور فملكها، وقت ذلك في عصب السعيد فرجع عن حركته وقصد كانون بن جرمون، ففر أمامه ثم حضر معه بعد ذلك حركته إلى تلمسان، وقتل بحصن تامزردك قبل مقتل السعيد بيوم واحد، قتلت الخلط في فتنة وقعت بينهم في محلة السعيد، وهي التي جرت عليها تلك الواقعة.

وقام بأمر سفيان من بعده أخوه يعقوب بن جرمون، وقتل ابن أخيه محمد بن كانون، وحضر مع عمر المرتضى الموحدى حركة أمان أيملوين سنة تسع وأربعين وستمائة، فرحل يعقوب عن السلطان، واختل عскره بسبب ذلك؛ فرجع وأتباه بنو مرين فكانت الهزيمة، ثم عفا له المرتضى عنها، ثم قتله مسعود وعلي ابن أخيه كانون بنأخيهما محمد سنة تسع وخمسين وستمائة، ولحقاً بيعقوب بن عبد الحق المريني، وقدم المرتضى ابنه عبد الرحمن فعجز عن القيام بأمره، فقدم عميه عبد الله بن جرمون فعجز أيضاً، فقدم مسعود بن كانون فأقام شيئاً على سفيان، واستمرت حالهم مع الموحدين وبني مرين على هذا النحو من إخلاص الطاعة والنصرة تارة، والتمرد فيهما أخرى.

وقال ابن خلدون: «وأتصلت الرياسة على سفيان في بني جرمون هؤلاء إلى عهدها» قال: «وادركت شيخاً عليهم لعهد السلطان أبي عنان يعقوب بن علي بن منصور بن عيسى بن يعقوب بن جرمون بن عيسى».

وكانت سفيان هؤلاء أحياء حلوا بأطراف تامستا مما يلي آسفي، وغلبتهم الخلط على بساطتها الفسيحة، وبقي من أحياهم العارت والكلابة يتتجرون أرض السوس وقفاره. ويطلبون ضواحي بلاد حاجة من المصامدة فبقيت فيهم لذلك شدة وبأس. ورياستهم في أولاد مطاع من العارت، وطال عيشهم في ضواحي مراكش وإفسادهم، فلما استبد سلطان مراكش الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن المربي سنة ست وسبعين وسبعمائة كما نذكر استخلصهم ورفع منزلتهم، ثم استقدمهم في بعض أيامه للعرض بخيالهم ورجلهم على العادة؛ وشيخهم يومئذ منصور بن يعيش من أولاد مطاع، فتقبض عليهم أجمعين، وقتل من قتل منهم، وأودع الآخرين سجونة؛ فذهبوا مثلاً لآخرين وخضضت شوكتهم والله قادر على ما يشاء.

وأما الخلط فقد كانوا بسيط تامستا أولي عدد وقوة، وكان شيخهم هلال بن حميدان بن مقدم، ولما ولى العادل بن المنصور الموحدي خالفوا عليه وهزموا عساكره، وبعث هلال بيته إلى المأمون بن المنصور سنة خمس وعشرين وستمائة، وتبعه الموحدون على ذلك، ثم جاء المأمون ظاهروه على أمره، وتحيزت أعداؤهم إلى يحيى بن الناصر منازعه، ولم يزل هلال بن حميدان مع المأمون إلى أن هلك في حركته ستة، وبایع بعده لابنه الرشيد وجاء به إلى مراكش، وهزم سفيان واستباحهم، ثم هلك هلال بن حميدان فولي مكانه آخره مسعود بن حميدان، ثم خالف على الرشيد فاحتال الرشيد عليه حتى وفده عليه بمراكش فقتله في جماعة من قومه سنة اثنين وثلاثين وستمائة، وولي أمر الخلط بعده يحيى بن هلال وفر بقومه إلى يحيى بن الناصر وحاصروا مراكش ثم استولوا عليها وعاثوا فيها، وخرج

الرشيد إلى سجلماسة، ثم عاد إليهم سنة ثلث وثلاثين بعدها وغلبهم عليها، ثم راجعوا طاعة الرشيد وطردوا يحيى بن الناصر إلىبني معقل عرب الصحراء، فتقبض الرشيد على وشاح وعلى ابني هلال وسجنهما بأزمور سنة خمس وثلاثين وستمائة، ثم أطلقهما ثم بعد ذلك غدر بمشيختهم بعد الاستدعاء والتأنيس وقتلهم أجمعين. ثم بعد ذلك حضروا مع السعيد بن المأمون حركته إلىبني عبد الواد أصحاب تلمسان، وجروا عليه الواقعه حتى قتل فيها بسبب فتنتهم مع سفيان يومئذ، فلم يزل المرتضى يعمل الحيلة فيهم إلى أن تقبض على أشياخهم سنة اثنين وخمسين وستمائة فقتلهم، ولحق عواج بن هلال بن حميدان ببني مرين، وقدم المرتضى عليهم علي بن أبي علي من بيت الرياسة فيهم، ثم رجع عواد إلى الموحدين سنة أربع وخمسين وستمائة فأغزاهم علي بن أبي علي فقتل في غزاته تلك.

ثم كانت واقعة أم الرجالين لبني مرين على المرتضى سنة ستين وستمائة؛ فنزع علي بن أبي علي إلى بني مرين، ثم صار الخلط كلهم إلى بني مرين، وكانت الرياسة فيهم أول دولة بني مرين لأبي عطية مهلهل بن يحيى الخلطي، وأظهر إليه السلطان يعقوب بن عبد الحق، فأنكره مهلهل ابنته عائشة التي كان منها ابنه السلطان أبو سعيد بن يعقوب، ولم يزل مهلهل كثيراً عليهم إلى أن هلك سنة خمس وتسعين وستمائة، ثم قام بأمر الخلط ابنته عطية، وكان لعهد السلطان أبي سعيد وابنته السلطان أبي الحسن، وبعثه السلطان أبو الحسن سفيراً عنه إلى سلطان مصر الملك الناصر محمد بن قلاوون.

ولما هلك عطية قام بأمر الخلط ابنة عيسى بن عطية، ثم ابن أخيه رمام بن إبراهيم بن عطية، وهو الذي بلغ المبالغ من العز والترف والدالة على السلطان، والقرب من مجلسه إلى أن هلك؛ فولي أمر الخلط بعده أخوه أحمد بن إبراهيم، ثم أخوهما سليمان بن إبراهيم، ثم أخوهما مبارك بن

إبراهيم على مثل حالهم أيام السلطان أبي عنان المريني ومن بعده، إلى أن كانت الفتنة بال المغرب بعد مهلك السلطان أبي سالم المريني، واستولى على المغرب أخيه السلطان عبد العزيز، وأقطع ابنه ناحية مراكش، فكان إبراهيم بن عطية هذا معه.

ولما تقبض على أبي الفضل نقپض على مبارك المذكور. وأودع السجن إلى أن غلب السلطان عبد العزيز على عامر بن محمد الهاشمي وقتلها، فقتل معه مبارك بن إبراهيم هذا لما كان يعرف به من صحبته ومداخلته في الفتنة كما يذكر في أخبار بنى مرین، وولي ابنه محمد بن مبارك على قبيل الخلط.

قال ابن خلدون: «إلا أن الخلط اليوم دُثرت كأن لم تكن بما أصابهم من الخصب والترف منذ مائتين من السنين بذلك البسيط الأفيح، زيادة على العز والدعة، فأكلتهم السنون وذهب بهم الترف، والله غالب على أمره» أهـ.

ولما انقرضت الدولة المرينية من المغرب وجاءت دولة الشرفاء السعديين وقام منهم أبو عبد الله محمد الشيخ المعروف بالمهدي انحاشت الخلط إليه، وأظهروا الخدمة والصيحة، وغلب محمد الشيخ المذكور على فاس وأخرج أبي حسون الوطاسي عنها؛ فذهب أبو حسون المذكور إلى دولة الترك بالجزائر واستنصر بهم على السعديين فلبيوا دعوته، وقدم معه منهم عسكر جرار إلى فاس فأخرجوا محمد الشيخ السعدي عنها بعد حروب عظيمة جرت الخلط هؤلاء عليه فيها الهزيمة، فلما استقل بالأمر محمد الشيخ المذكور خلع الخلط من الجنديه ووظف عليهم الخراج ومحا اسمهم من ديوان الخدمة، ونقل أعيانهم إلى مراكش واتخذهم رهائن عنده.

ولم يزل الأمر كذلك إلى دولة السلطان أبي العباس أحمد المنصور

السعدي المعروف بالذهبي، فرأى جلاد الخلط وقتالهم يوم وادي المخازن وإيلاهم الإبلاء الحسن؛ فاختار النصف منهم وردهم إلى الجنديه، وأبقى النصف الآخر في غمار الرعية، ونقلهم إلى أزغار فاستوطنه؛ فعاثوا في تلك البلاد وأكثروا فيها القساد، ومدوا أيديهم إلى أولاد مطاع فنهبواهم وضايقوها بني حسن فكثرت الشكاية بهم إلى المنصور السعدي، فضرب عليهم مغراً سبعين ألفاً، فلم يزيدوا إلا شدة؛ فضرب عليهم بعثاً إلى تكرارين من أرض الصحراء فامتنعوا من ذلك؛ فبعث إليهم القائد موسى بن أبي جمادة العمري فانتزع منهم الخيل وأيقاهم رجاله، ثم حكم فيهم السيف فمزقهم كل ممزق؛ ومن ثم خمدت شوكتهم ولانت للغامز قناتهم، ثم ختموا أعمالهم بفعلتهم الشنعاء التي ملأت الأفواه وأسالت من الجفون الأمواه؛ وهي قتلتهم ولهم تعالى المجاهد في سبيله أبا عبد الله سيدي محمد العياشي المالكي رحمة الله. فما زلت نسمع أن قبيلة الخلط إنما سلبوها العز منذ قتلهم للولي المذكور؛ وكان ذلك في المحرم سنة إحدى وخمسين ألف، والله تعالى أعلم.

الخبر عن بنى معقل عرب الصحراء من أرض المغرب وتحقيق نسبهم وبيان شعوبهم وبطونهم

قال ابن خلدون: «هذا القبيل لهذا العهد من أوفر قبائل العرب ومواطنهم بقار المغرب الأقصى، مجاورون لبني عامر من زغبة الهلاليين في مواطنهم بقبيلة تلمسان؛ وينتهون إلى البحر المحيط من جهة الغرب، وهي ثلاثة بطون. ذوي عبيد الله؛ ذوي منصور، وذوي حسان.

ذوي عبيد الله منهم هم المجاورون لبني عامر، ومواطنهم بين تلمسان وتاوريرت في التل وما يواجهها من القبالة، ومواطن ذوي منصور من تاوريرت إلى بلاد درعة فيستولون على ملوية كلها إلى سجلمامسة وعلى درعة وما يحيذها من التل، مثل نازا وغساسة ومكتنasa وفاس وبلاط تادلا والمعدن

ومواطن ذوي حسان من درعة إلى البحر المتوسط؛ وينزل شيوخهم بلاد بول قاعدة السوس، فيستولون على السوس الأقصى وما إليه وينتجمعون كلهم في الرمال إلى مواطن الملثمين من كدالة ومسوفة ول茅ونه.

وكان دخولهم إلى المغرب مع الهلاليين في عدد قليل يقال إنهم لم يبلغوا المائتين، واعتبرتهم بنو سليم فأعجزوهن وتحيزوا إلى الهلاليين منذ عهد قديم؛ ونزلوا بأخر مواطنهم مما يلي ملوية ورمال تافيلالت، وجاوروا زناتة في القفار فعفوا وكثروا وأثروا في صحارى المغرب الأقصى؛ فغمروا رماله وتقلبوا في قيافيه، وكانوا هنالك أخلافاً لزناتة سائر أيامهم؛ وبقي منهم بإفريقية جمع قليل اندرجوا في جملةبني كعب بن سليم وداخلوهم حتى كانوا وزراء لهم في الاستخدام للسلطان واستلاف العرب. فلما ملكت زناتة بلاد المغرب ودخلوا إلى الأمسار والمدن أقام بنو معقل هؤلاء في القفار، وتفردوا في البيداء فنموا نمواً لاكماء له؛ وملكونا قصور الصحراء التي احتطها زناتة بالقفر مثل قصور السوس غرباً. ثم توات؛ ثم بودة، ثم تمنطيت؛ ثم واركلان، ثم تاسبيب، ثم تيكرارين شرقاً، وكل واحدة من هذه وطن منفرد يشتمل على قصور عديدة ذات تخيل وأنهار وأكثر سكانها من زناتة وبينهم فتن وحروب على رياستها. فحازت عرب معقل هذه الأوطان في مجالاتهم، ووضعوا عليها الإناث والضرائب وصارت لهم جباية يعتدون فيها ملكاً.

وكانوا في تلك المدة السالفة يعطون الصدقات لملوك زناتة ويأخذونهم بالدماء والطوائل، ويسمونها جمل الرحيل، وكان لهم الخيار في تعينها؛ ولم يكن هؤلاء العرب يحمون من أطراف المغرب وتلوله حمى. ولا يعرضون لسابلة سجلماسة ولا غيرها من بلاد الصحراء بأذية ولا مكره، لما كان بالمغرب من اعتزاز الدين وسد الشغور وكثرة الحامية أيام الموحدين وزناتة من بعدهم.

وكان لهم بازاء ذلك أقطاع من الدول يمددون إلى أخذه اليد السفلية

وعددهم قليل كما قلنا، وإنما كثروا بمن اجتمع إليهم من القبائل من غير نسبهم، فإن فيهم من فزاره بن ذبيان بن يغيسن بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان بن مصر، وفيهم من أشجع بن ريث بن غطفان أحياه كبيرة، يظغبون مع بني معلق بجهات سلجماسة ووادي ملوية، ولهم عدد وذكر؛ وفيهم الصباح من الأخضر؛ ويقولون إنهم من ولد أخضر بن عامر وعامر هذا هو - والله أعلم - من ولد رياح الهلاليين، وفيهم المهاية من عياض إحدى بطون الأئمجة الهلاليين؛ وفيهم العمور من الأئمجة أيضاً، وفيهم بطون آخر من بني هلال وبني سليم وغيرهم.

وأما أنسابهم عند الجمهور فخفية ومجهولة، والنسابون من عرب هلال يعدونهم من بطونهم وهو غير صحيح؛ وهم - أعني بني معلق - يزعمون أن نسبهم في أهل البيت إلى جعفر بن أبي طالب، وليس ذلك أيضاً بصحيح؛ لأن الطالبيين والهاشميين لم يكونوا أهل بادية ونجرة.

هكذا ذكر ابن خلدون، لكنه لم تكلم على جهة إحدى بطون قضاة؛ وذكر أنهم نزلوا بلاد الصعيد وملؤوها. قال: «ونزل معهم في تلك المواطن من أسوان إلى قوص بنو جعفر بن أبي طالب حين غلبهم بنو الحسن على نواحي المدينة وأخر جوهم منها؛ فهم يعرفون بينهم بالشرفاء الجعافرة، ويحترفون في غالب أحوالهم بالتجارة، اهـ كلامه. فعلى هذا لا يبعد أن تكون طائفة من هؤلاء الجعافرة قد انتقلوا من أرض الصعيد ودخلوا مع بني هلال إلى بلاد المغرب وأوطنوا صحراءه، وهم بنو معلق المذكورون؛ والناس مصدقون في أنسابهم. والله تعالى أعلم بحقائق الأمور.

ثم قال ابن خلدون: «والصحيح والله أعلم من أمرهم أنهم من عرب اليمن. فإن في اليمن بطينين يسمى كل واحد منها معلق؛ ذكرهما ابن الكلبي وغيره فأحدهما من قضاة بن مالك بن حمير؛ وهو معلق بن

كعب بن عليم بن جناب وينتهي نسبة إلى قضاة والأخر من بنى العارث بن كعب أصحاب نجران؛ الذين كان منهم بنو عبد المدان ملوك نجران في الجاهلية والإسلام، وهو معقل بن كعب بن ربيعة بن كعب بن العارث بن كعب؛ وينتهي نسبة إلى كهلان» قال: «والأنسب أن يكونوا من هذا البطن الآخر؛ وقد عده الإخباريون في بطون هلال الداخلين إلى إفريقية ل المجاورتهم في الوطن» قال: ومن إماء نسابهم أن معملاً جدهم له من الولد سجير ومحمد؛ فولد سجير: عبيد الله، وثعلب؛ فمن عبيد الله ذوي عبيد الله البطن الكبير منهم؛ ومن ثعلب الشعالبة الذين كانوا يسيط متيجة من نواحي الجزائر، وولد محمد: مختاراً ومنصوراً وجلالاً وسالماً وعثمان؛ فولد مختار بن محمد حسان وشباتة، فمن حسان ذوي حسان البطن المذكور أهل السوس الأقصى، ومن شباتة الشباتات جيرانهم هنالك، ومن جلال وسالم وعثمان الرقيطات بادية في ذوي حسان يتجمعون معهم؛ وولد منصور بن محمد حسيناً وأبا الحسين وهما شقيقان، وعمران ومنيا وهما شقيقان أيضاً وهما الأخلاف، ويقال لعمران العماني؛ ولمنيا المنبات؛ ثم يقال لجميع بطون الأربعة ولد منصور بن محمد ذوي منصور، وهم إحدى بطونهم الثلاث المذكورة والله تعالى أعلم بغيه».

فهذه أصول عرب المغرب الأقصى وكيفية دخولهم إليه واستيطانهم إياه، وبعض فصولهم قد ذكرناها ملخصة من تاريخ إمام الفن أبي زيد عبد الرحمن بن خلدون؛ ومن جمهرة الأنساب لابن حزم. وزدنا ما يحتاج منها إلى البيان بياناً والله تعالى الموفق.

ولنرجع إلى ما كنا بسيله من أخبار أمير المؤمنين يعقوب المنصور رحمة الله، فإنه لما رجع من إفريقية إلى مراكش سنة أربع وثمانين وخمسين رفع إليه أن أخيه السيد أبي حفص صاحب مرسيبة الملقب بالرشيد، وعمه السيد أبي الريبع صاحب تادلاً عندما بلغهما خبر الواقعة التي كانت على مقدمة

المنصور يافريقيية حدثاً أنفسهما بانتهتى على الخلافة، فلما قدموا عليه بالتهنئة أمر باعتقالهما خلال ما استملاً أمرهما ثم قتلهم، وعقد للسيد أبي الحسن ابن السيد أبي حفص على بجاية. وفي سنة خمس وثمانين وخمسماة شرع المنصور في إدخال ساقية الماء إلى مراكش ثم تاقت نفسه إلى الجهاد فكان منه ما نذكره.

الجواز الأول ليعقوب المنصور رحمه الله إلى الأندلس بقصد الجهاد

قال ابن أبي زرع: وفي سنة خمس وثمانين وخمسماة تحرك أمير المؤمنين يعقوب المنصور إلى الأندلس برسم غزو بلاد غربها؛ وهي أولى غزواته، فعبر من قصر المجاز إلى الخضراء يوم الخميس الثالث من ربيع الأول من السنة المذكورة ثم نهض من الخضراء حتى نزل شترن، وشن الغارات على مدينة أشبونة وأنحائها؛ فقطع الشمار وحرق الزروع وقتل وسب وأضرم النيران في القرى وأبلغ في النكبة؛ وانصرف إلى العدوة بثلاثة عشر ألفاً من السبي، فدخل فاساً في آخر رجب من السنة المذكورة.

مراسلة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب مصر ليعقوب المنصور رحمهما الله والتماسه منه الأساطيل للجهاد

كانت الفرنج قد ملكوا سواحل الشام في آخر الدولة العبيدية منذ تسعين سنة قبل هذا التاريخ، وملكوا معها بيت المقدس شرفه الله؛ فلما استولى السلطان صلاح الدين رحمه الله على ديار مصر والشام اعترض على جهادهم، وصار يفتح حصونها واحداً بعد واحد حتى أتى على جميعها.

وافتتح بيت المقدس سنة ثلث وثمانين وخمسماة، وهدم الكنيسة التي بنواها، وانقضت أمم النصرانية من كل جهة، وتتابعت أساطيلهم الكفرية بالمدد من كل ناحية لتلك التغور القربيه من بيت المقدس، واعتربوا أسطول صلاح الدين في البحر ولم تقاومهم أساطيل الإسكندرية لضعفها يومئذ عن ممانعتهم فبعث صلاح الدين صريحة إلى المنصور سنة خمس وثمانين وخمسماهه^(١) يطلب إعانته بأساطيل لمنازلة عكا وصور وطرابلس الشام، وأوفد عليه أبي العارث عبد الرحمن بن منقذ من بيتبني منقذ ملوك شيزر من حصنون الشام، وكان صلاح الدين قد ملكها من أيديهم وأبقى عليهم في دولته، فبعث صلاح الدين عبد الرحمن هذا إلى يعقوب المنصور طالباً مدد الأساطيل لتحول في البحر بين أساطيل الفرنج وبين أمداد النصرانية بالشام، ولمنازلة التغور التي ذكرنا.

ويعت معه إلى المنصور بهدية تشمل على مصحفدين كريمين منسوبيين ومائة درهم من دهن البلسان، وعشرين رطلاً من العود، وستمائة مثقال من المسك والعنبر وخمسين قوساً عربية بأوتارها، وعشرين من النصوص الهندية، وسرور عدة مثلثة، فوصل إلى المغرب فصادف المنصور بالأندلس فانتظره بفاس إلى أن رجع فلقه وأدى الرسالة وقدم الهدية.

وكان الكتاب الذي بعث به صلاح الدين من إنشاء الأديب عبد الرحيم البيضاني المعروف بالقاضي القاضي، وكان عنوان الكتاب من صلاح الدين إلى أمير المسلمين وفي أوله الفقير إلى الله تعالى يوسف بن أيوب، وبعده: الحمد لله الذي استعمل على الملة الحنيفة من است عمر الأرض، وأغنى من أهلها من سأله الفرض، وأجرى من أجرى على يده النافلة والفرض، وزين سماء الملة بدراري الدراري التي بعضها من بعض، وهو كتاب طويل.

(١) صوابه ست وثمانين [راجع كتاب الروضتين للمقدسي ج 2 ص 173].

ولما وقف عليه المنصور ورأى تجافيهم فيه عن خطابه بأمير المؤمنين لم يعجبه ذلك، وأسرها في نفسه، وحمل الرسول على مناهج البر والكرامة، ورده إلى مرسله ولم يعجبه إلى حاجته، ويقال إنه جهز له بعد ذلك مائة وثمانين سطولاً، ومنع النصارى من سواحل الشام. والله تعالى أعلم.

قال ابن خلدون^(١): وفي هذا دليل على اختصاص ملوك المغرب يومئذ بالأساطيل الجهادية. وعدم عناية الدول بمصر والشام لذلك العهد بها، وكان ابن منقد المذكور قد مدح المنصور بقصيدة يقول فيها:

سأشكر بحراً ذا عباب قطعته
إلى بحر جود ما لا خراه ساحل
إلى معدن الثقوى إلى كعبة الندى
إلى من سمت بالذكر منه الأوائل
إلى بابك المأمول ترجي الرواحل
قطعت إليك البر والبحر موقةً
بأن نداك الغمر بالشجع كافل
وأخذت بقصديك العلي والفواضل
فلا زلت للعلیاء والجود بانياً

وعدتها أربعون بيتاً، فأعطيه بكل بيت ألفاً؛ وقال له: إنما أعطيناك لفضلك ولبيتك، يعني لا لأجل صلاح الدين.

عود المنصور إلى إفريقية والسبب في ذلك

لما قدم المنصور من الأندلس إلى فاس وفرغ من شأن ابن منقد توالت إليه الأخبار بأن ابن غانية قد ظهر بإفريقيا، فنهض إليها من فاس في ثامن شعبان من تلك السنة، فدخل تونس في أول ذي القعدة منها فألقى بلا

(١) هذا النقل غير موجود في ابن خلدون سواء في النسخة المطبوعة بالقاهرة سنة 1284 أو المطبوعة بالجزائر سنة 1263 [1847] ولعل المؤلف نقله عن نسخة أخرى خطية وربما تكون هي النسخة المخطوطة التي كان وقف عليها عند أحد عمال الغرب المعروف بولد الضاوية وهي التي استعملها عند جمعه لهذا التاريخ أهـ.

إفريقية ساكنة وقد فر ابن غانية عنها إلى الصحراء حين سمع بقدومه. وفي سنة ست وثمانين وخمسمائة استولى الفرنج على مدينة شلب وباجة وبابورة من غرب الأندلس، وذلك لما علموا أن المنصور قد أبعد عنهم واشتغل بأمر إفريقية، فاغتنموا الفرصة فيها؛ واتصل الخبر بالمنصور فغاظه ذلك وأعظمه، وكتب إلى قواد الأندلس يو逼هم ويأمرهم بغزو بلاد الفرنج ويعلمهم أنه قادم عليهم في أثر كتابه، فاجتمع قواد الأندلس إلى محمد بن يوسف والي قرطبة، فخرج بهم في جيش كثيف من الموحدين والعرب وأهل الأندلس حتى نزل على شلب فشدد عليها الحصار وتتابع عليها القتال حتى فتحها وفتح قصر أبي دانس ومدينة باجة وبابورة ورجع إلى قرطبة فدخلها بخمسة عشر ألفاً من السبي وثلاثة آلاف أسير قدمهم بين يديه في القطائف خمسون علجاً في كل قطينة، وذلك في شوال سنة سبع وثمانين وخمسمائة.

وفي هذا الشهر رجع المنصور من إفريقية فانتهى إلى تلمسان فأقام بها إلى آخر السنة المذكورة، وفي فاتح محرم من سنة ثمان وثمانين وهي سنة آكروا أو خرج المنصور من تلمسان إلى فاس وهو مريض، فكان يركب في آكروا، فدخل فاساً وأقام بها مريضاً سبعة أشهر حتى أبل من علته، ثم نهض إلى مراكش فأقام بها إلى سنة إحدى وتسعين وخمسمائة؛ ثم نهض منها إلى الأندلس بقصد الجهاد، وكان ما ذكره إن شاء الله.

الغزوـة الكـبرـى بالـأـرـك من بلـادـ الـأـنـدـلـس

قال ابن خلكان: كان يعقوب المنصور رحمة الله قد خافه الفتنـش صاحـب طـليـطـلـة وـسـأـلـه الـصـلـح فـصـالـحـه إـلـى خـمـسـ سـنـينـ، فـلـمـا انـقـضـت مـدـة الـهـدـنـة وـلـمـ يـقـ منها إـلـا الـقـلـيل خـرـجـت طـائـفـة منـ الفـرنـجـ فيـ جـيـشـ كـثـيفـ إـلـى بلـادـ الـمـسـلـمـينـ، فـنـهـبـوا وـسـبـوا وـعـاثـوا عـيـناـ فـظـيـعـاـ؛ فـأـنـتـهـيـ الخبرـ إـلـى أمـيرـ الـمـؤـمـنـينـ يـعـقوـبـ الـمـنـصـورـ وـهـوـ يـمـراـكـشـ فـتـجـهزـ لـقـصـدـهـمـ فيـ جـيـشـ عـرـمـ منـ قـبـائـلـ الـمـوـحـدـينـ وـالـعـرـبـ، وـاحـتـفـلـ فيـ ذـلـكـ وـعـبـرـ الـبـحـرـ إـلـى الـأـنـدـلـسـ سـنـةـ إـحـدـى وـتـسـعـينـ وـخـمـسـمـائـةـ؛ وـاتـصـلـ بـالـفـرنـجـ عـبـورـ إـلـيـهـمـ فـجـمـعـوا خـلـقـاـ كـثـيرـاـ منـ أـقـصـىـ بـلـادـهـمـ وـأـدـانـيـهـاـ وـأـقـبـلـواـ نـحـوهـ.

قال ابن خلكان: وقد رأيت بدمشق جزء بخط الشيخ الحافظ تاج الدين عبد الله بن حموية السريسي، وكان قد سافر إلى مراكش وأقام بها مدة؛ وكتب فصولاً تتعلق بتلك الدولة، فمن ذلك فصل يتعلّق بهذه الواقعة فينبغي ذكره هـنـاـ.

قال: لما انقضت الهدنة بين أمير المؤمنين يعقوب المنصور وبين الأذفونـشـ الفـرنـجـيـ صـاحـبـ غـربـ جـزـيرـةـ الـأـنـدـلـسـ، وـقـاعـدـةـ مـلـكـتـهـ يـوـمـئـىـ طـليـطـلـةـ، وـذـلـكـ فيـ أـوـاـخـرـ سـنـةـ تـسـعـينـ وـخـمـسـمـائـةـ عـزـمـ يـعـقوـبـ الـمـنـصـورـ - وـهـوـ يـوـمـئـىـ بـمـرـاكـشـ - عـلـىـ التـوـجـهـ إـلـىـ جـزـيرـةـ الـأـنـدـلـسـ لـمـحـارـبـةـ الـفـرنـجـ، وـكـتـبـ إـلـىـ وـلـاـةـ الـأـطـرـافـ وـقـوـادـ الـجـيـوشـ بـالـحـضـورـ، وـخـرـجـ إـلـىـ مـدـيـنـةـ سـلاـ لـيـكـونـ اـجـتـمـاعـ الـعـسـاـكـرـ بـظـاهـرـهـاـ. فـأـتـفـقـ أـنـهـ مـرـضـ مـرـضاـ شـدـيدـاـ حـتـىـ يـئـسـ مـنـ أـطـبـاؤـهـ، فـتـوقـفـ الـحـالـ عـنـ تـدـبـيرـ تـلـكـ الـجـيـوشـ. وـحـمـلـ يـعـقوـبـ الـمـنـصـورـ إـلـىـ مـرـاكـشـ وـهـوـ مـرـيـضـ، فـطـمـعـ الـمـجاـوـرـوـنـ لـهـ مـنـ الـعـرـبـ وـغـيـرـهـمـ فـيـ الـبـلـادـ وـعـاثـواـ فـيـهـاـ، وـأـغـارـوـاـ عـلـىـ النـوـاـحـيـ وـالـأـطـرـافـ، وـكـذـلـكـ فـعـلـ الـأـذـفـونـشـ فـيـمـاـ يـلـيـهـ مـنـ بـلـادـ الـمـسـلـمـينـ بـالـأـنـدـلـسـ. وـاقـتـضـىـ الـحـالـ تـفـرـقـةـ الـجـيـوشـ الـتـيـ جـمـعـهـاـ يـعـقوـبـ الـمـنـصـورـ شـرـقاـ وـغـرـباـ، وـاشـتـغـلـوـاـ بـالـمـدـافـعـةـ وـالـمـمـانـعـةـ، فـكـثـرـ طـمـعـ الـأـذـفـونـشـ

في البلاد؛ وبعث رسولاً إلى أمير المؤمنين يعقوب المنصور يتهدد ويتوعد، ويطلب بعض الحصون المتاخمة له من بلاد الأندلس، وكتب إليه رسالة من إنشاء وزير له من ضعفاء المسلمين يعرف بابن الفخار، وهي : «باسمك اللهم فاطر السموات والأرض، وصلى الله على السيد المسيح روح الله وكلمته الرسول الفصيح، أما بعد، فإنه لا يخفى على ذي ذهن ثاقب؛ ولا ذي عقل لازب، أنك أمير الملة الحنيفة، كما أنت أمير الملة النصرانية، وقد علمت الآن ما عليه رؤساء الأندلس من التخاذل والتواكل، وإهمال أمر الرعية، وإخلادهم إلى الراحة؛ وأنا أسموهم بحكم القهر وخلاء الديار؛ وأسببي الذماري وأمثال بالرجال، ولا عنذر لك في التخلف عن نصرهم إذا أمكنك يد القدرة، وأنتم تزعمون أن الله فرض عليكم قتال عشرة منا بوحد منكم، فالآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً، ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بوحد منا، لا تستطيعون دفاعاً ولا تملكون امتاعاً، وقد حكي لي عنك أنك أخذت في الاحتفال، وأشرفت على ربوة القتال، وتماطل نفسك عاماً بعد عام، تقدم رجلاً وتؤخر أخرى، فلا أدرى أكان الجبن قد أبطأ بك أم التكذيب بما وعد ربك؟ ثم قيل لي إنك لا تجد إلى جواز البحر سبيلاً لعلة لا يسوغ لك التفحم معها، وهذا أنا أقول لك ما فيه الراحة لك، وأعتذر لك وعنك، على أن تفي بالعهود والمواثيق والاستكثار من الرهان، وترسل إلى جملة من عبيدهك بالمراكب والشوانى والطرائد والمسطحات؛ وأجوز بجملتي إليك فأقاتلك في أعز الأماكن لديك، فإن كانت لك فغنيمة كبيرة جلبت إليك؛ وهدية عظيمة مثلت بين يديك، وإن كانت لي كانت يدي العلية عليك، واستحققت إمارة الملتين والحكم على البرين! والله تعالى يوفق للسعادة ويسهل الإرادة، لا رب غيره ولا خير إلا خيره».

فلما وصل كتابه إلى أمير المؤمنين يعقوب المنصور مزقه وكتب على ظهر قطعة منه، وكان المنصور يضرب به المثل في حسن التوقيع كما يأتي في بقية أخباره: «أرجع لأنتم فلناسكم يمور لا يقل لكم ربها ولنخرجهم ربها إله»

وَهُمْ صَنِفُونَ^{٣٧} (النمل: ٣٧) ثُمَّ كَتَبَ الْجَوَابَ مَا تَرَى لَا مَا تَسْمَعُ فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ تَكَلَّمُ بِهِ فَأَرْسَلَهُ مَثَلًاً، وَأَنْشَدَ مَمْثَلًاً:

«وَلَا كَتَبَ إِلَّا الْمُشْرِفَيْهُ وَالْقَنِيْهُ وَلَا رَسُلَ إِلَّا الْخَمِيسُ الْعَرْمَمُ»
 ثُمَّ أَمْرَ بِالاستئثارِ، وَاسْتِدَاعِ الْجَيُوشِ مِنَ الْأَمْصَارِ؛ وَضَرَبَ السَّرَادِقَاتِ بِظَاهِرِ الْبَلَدِ مِنْ يَوْمِهِ، وَجَمَعَ الْعَسَاكِرَ، وَسَارَ إِلَى الْبَحْرِ الْمُعْرُوفِ بِزَقَاقِ سَبَتَةِ يَرِيدِ الْأَنْدَلُسِ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي زَرْعٍ: خَرَجَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَعْقُوبُ الْمُنْصُورُ مِنْ حَضْرَةِ مَرَاكِشِ يَوْمَ الْخَمِيسِ الثَّامِنِ عَشَرَ مِنْ جَمَادِيِّ الْأُولَى سَنَةِ إِحْدَى وَتِسْعَيْنَ وَخَمْسَمَائَةِ يَوْلَى السَّيِّرِ وَيَطْوِي الْمَنَاهِلَ وَلَا يَلْوِي عَلَى فَارِسٍ وَلَا رَاجِلٍ، وَالْجَيُوشَ تَتَابِعُ فِي أَثْرِهِ مِنْ سَائِرِ الْأَقْطَارِ، فَلَمَّا انتَهَى إِلَى قَصْرِ الْمَجَازِ أَخْذَ فِي إِجَازَةِ الْجَيُوشِ الْوَارَدَةِ عَلَيْهِ، لَا يَفْرَغُ مِنْ طَافَةِ إِلَّا وَقَدْ لَحَقَتْ بِهَا أُخْرَى أَجَازَ أَوْلَأَ قَبَائِلِ الْعَرَبِ، ثُمَّ زَانَةَ، ثُمَّ الْمَصَامِدَةَ؛ ثُمَّ غَمَارَةَ؛ ثُمَّ الْمَتَطْوُعَةَ مِنْ قَبَائِلِ الْمَغْرِبِ، ثُمَّ الْأَغْزَازَ وَالرَّمَاءَ، ثُمَّ الْمُوْحَدُونَ؛ ثُمَّ الْعَبِيدَ؛ ثُمَّ أَجَازَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَثْرِهِمْ فِي مُوكِبٍ عَظِيمٍ مِنْ أَشِيَّاَخِ الْمُوْحَدِينَ وَأَهْلِ النَّجَدةِ وَالْزَّعَامَةِ وَمَعَهُ فَقَهَاءَ الْمَغْرِبِ وَصَلَاحَاؤُهُ؛ وَاسْتَقَرَّ بِالْجَزِيرَةِ الْخَضْرَاءِ بَعْدَ صَلَةِ الْجَمَعَةِ الْمَوْفَى عَشَرِينَ مِنْ رَجَبِ مِنَ السَّنَةِ الْمَذَكُورَةِ، فَأَقَامَ بِهَا يَوْمًا وَاحِدًا. ثُمَّ نَهَضَ إِلَى الْعَدُوِّ قَبْلَ أَنْ تَخْمَدَ قِرَاطِعُ الْمُجَاهِدِينَ وَتَضَعُفَ نِيَّاتُهُمْ؛ فَسَارَ حَتَّى بَقَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ حَصْنِ الْأَرْكِ الَّذِي كَانَ الْعَدُوُّ نَازِلًا بِإِزَائِهِ نَحْوُ مَرْحَلَتَيْنِ، فَتَزَلَّ هَنَالِكَ وَذَلِكَ يَوْمُ الْخَمِيسِ ثَالِثُ شَعْبَانَ مِنَ السَّنَةِ؛ فَجَمَعَ النَّاسُ ذَلِكَ الْيَوْمَ وَفَاوْضُهُمْ وَوَعَظُهُمْ، ثُمَّ اخْتَصَّ أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ بِمَزِيدِ الْمَشُورَةِ، وَقَالَ لَهُمْ: «إِنَّ جَمِيعَ مَنْ أَسْتَشَرْتُهُ وَإِنْ كَانُوا أَوْلَى بِأَنْ يَأْتُوا وَمَعْرِفَةِ بِالْحَرْبِ لَكُنْهُمْ لَا يَعْرِفُونَ مِنْ قَتَالِ الْفَرْنَجِ مَا تَعْرِفُونَهُ أَنْتُمْ، لَتَمْرَسَكُمْ بِهِمْ وَتَمْرَسُهُمْ بِكُمْ»، فَأَحَالُوهُ فِي الرَّأْيِ عَلَى الْقَائِدِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ صَنَادِيدَ، فَعَوَّلَ الْمُنْصُورَ رَحْمَهُ اللَّهُ فِي ذَلِكَ عَلَى رَأْيِهِ.

وقال ابن الخطيب في رقم الحلل: إن أمير المؤمنين المنصور رحمة الله عرض جيشه، وأخذ في تقرير القرب إلى الله تعالى بين يدي جهاده، فسرح السجون؛ وأدر الأرزاق، وعين الصدقات، ورحل فنزل الأرك وقد خيمت بأحوازه محلات العدو يضيق عنها المتسع، وقام المنصور بعد أن اجتمع الناس فتحلل من المسلمين وقال: «أيها الناس اغفروا لي فيما عسى أن يكون صدر مني» فبكى الناس وقالوا: «منكم يطلب الرضى والغفران» وخطب الخطباء بين يديه محرضين ومذكرين فنشط الناس وطابت النفوس ومن الغد صدح المنصور بالنداء وأمر بأخذ السلاح والبروز إلى اللقاء، فكانت التعبة تحت الغلس.

وحكى ابن أبي زرع أن المنصور بات تلك الليلة عاكفاً بمصلاه على الركوع والسجود؛ وإنه ألغى إغفاءة فرأى ملكاً نزل من السماء في صورة بشر وبيده راية خضراء وبشره بالفتح؛ وأنشده في ذلك أبياتاً بقيت على ذكر المنصور إلى أن استيقظ وقض رؤياه على وجوه الجناد، فازداد الناس طمأنينة وبصيرة.

فلما كان يوم السبت الخامس شعبان جلس المنصور في قبه الحمراء المعدة للجهاد، ثم دعا بكبير وزرائه الشيخ أبي يحيى بن أبي حفص وقدمه على ذلك الجيش؛ وعقد له رايته وقدمه بين يديه فرفرت على رأسه الرایات، وقرعت بين يديه الطبول؛ وسار في قبيل هناتة وبين يديه القائد ابن صناديق في جيش الأندلس؛ ثم عقد المنصور لجرمون بن رياح على قبائل العرب، ولمنديل بن عبد الرحمن المغراوي على قبائل مغراوة؛ ولمحيو بن أبي بكر بن حمامدة المريني جد الملوك المرينيين على قبائلبني مرین، ولجابر بن يوسف العبد الوادي على قبائلبني عبد الواد، ولعباس بن عطيه التوجيني على قبائلبني توجين، ولتلجين بن علي على قبائل هسکورة وسائر المصامدة، ولمحمد بن منقاد على قبائل غمارة، وعقد للفقيه الصالح أبي خزر يخلف بن خزر الأولي على المتقطعة.

وقال ابن خلدون: إن الذي كان على المتطوعة يومئذ هو الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص، والكل إلى نظر الشيخ أبي يحيى بن أبي حفص؛ وبقي المنصور رحمة الله في جيش الموحدين والعبيد، وأمر الشيخ أبي يحيى بالرحيل والتقدم أمامه إلى جهة العدو.

وكان المنصور قد ضفر مع ابن صناديق من الرأي أن يبقى هو متأخراً في الموحدين والعبيد والجشم على مسافة يخفى بها عن أعين العدو؛ ويقدم الشيخ أبي يحيى ببعض الرايات والطبلول في هيئة السلطان فيلقى العدو؛ فإن كانت للمسلمين فهو المطلوب، وإن كانت عليهم كان المنصور رداً لهم: ثم يستأنف القتال مع العدو وقد انفل حده ولانت شوكته.

فسار الشيخ أبو يحيى على هذا الترتيب وابن صناديق أمامه في فرسان الأندلس وحماتها، فكان الشيخ أبو يحيى إذا أقلع بجيشه عن موضع صباجاً خلفه المنصور فيه بجيشه مساء، حتى أشرف الشيخ أبو يحيى على جموع الفرنج وهي يومئذ إلى جنب حصن الأرك ويعقال الأرك بزيادة الواو في آخره، وقد ضربت أخبيتها على ربوة عالية ذات مهاو وأحجار كبار قد ملأت السهل والوعر، ونزل الشيخ أبو يحيى بجيشه في البسيط ضحوة يوم الأربعاء التاسع من شعبان سنة إحدى وتسعين وخمسماة، وعند ابن خلkan أن ذلك كان يوم الخميس؛ قال: واقتفي المنصور في ذلك طريقة أبيه وجده فإنهم أكثر ما كانوا يصافون يوم الخميس ومعظم حركاتهم في صفر، فعجاً الشيخ أبو يحيى عساكره تعبئة الحرب؛ وعقد الرايات لأمراء القبائل؛ وأوقف كل قبيلة في مركزها الذي عين لها، فجعل عسكر الأندلس في الميمنة، وجعل زناته والمصادمة والعرب وسائر قبائل المغرب في الميسرة؛ وجعل المتطوعة والأغواز والرماة في المقدمة وبقي هو في القلب في قبيلة هنتانة.

ولما أخذ الناس مراكزهم من حومة القتال خرج جرمون بن رياح يمشي في صفوف المسلمين ويحضهم على الثبات والصبر؛ وبينما الناس

على ذلك إذ انفصلت من جيوش العدو كتيبة عظيمة من نحو عشرة آلاف فارس كلهم مدجح في الحديد، وكانت هذه الكتيبة هي شوكة ذلك الجيش وحده؛ كان الفتنش لعنة الله قد انتخبهم ووصلت أقوسته عليهم صلاة النصر ورشهما بماء المععمودية؛ وتحالفوا عند الصليبان أن لا ييرعوا حتى يقتلوا المسلمين أو يهلكوا دونهم؛ فلما برزت هذه الكتيبة نادى منادي الشيخ أبي يحيى: عشر المسلمين اثبتو في مصافكم؛ وأخلصوا الله تعالى نبتكم، واذكروا الله عز وجل في قلوبكم. وبرز عامر الزعيم من أمراء العرب، فحضر الناس على الصبر وثبتهم، وحملت كتيبة العدو حتى اندقت رماح المسلمين في صدور خيلها أو كادت، ثم تقهقرت قليلاً ثم عاودت الحملة فكانت كالأولى؛ ثم تهيأت للحملة الثالثة فدفعت حتى خالطت صفوف المسلمين، وخلص البعض منها إلى الشيخ أبي يحيى يظلونه المنصور فاستشهد رحمه الله بعد ما أحسن البلاء وقاتل قتالاً شديداً واستشهد معه جماعة من المسلمين من هناتة والمتطوعة وغيرهم، وسمى بنو الشيخ أبي يحيى ببني الشهيد وعرفوا به من يومئذ، وأظلم الجو بالغبار واختلطت الرجال بالرجال وإنفرد كل قرن بقرنه؛ وأقبلت العرب والمتطوعة فأحاطوا بالكتيبة التي دفعت إلى الشيخ أبي يحيى؛ وزحفت زنانة والمسامدة وغمارة إلى الريوة التي فيها الفتنش وجماعته؛ وكانت على ما قبل تنيف على ثلاثة ألف بين فارس ورجل، فتوغل المسلمون في تلك الأوعار إليهم وخالطوهم بها؛ واشتد القتال واستحر القتل في الكتيبة التي دفعت أولاً وانقضت عليهم العرب والمتطوعة وهناتة فطحنوهم طحناً، وانكسرت شوكة الفتنش بهلاكهم إذ كان اعتماده ومعوله عليهم.

وأسرعت خيل من العرب إلى أمير المؤمنين المنصور فأعلمه بأن الله تعالى قد فل شوكة العدو وأشرف على الانهزام؛ فعندما أمر المنصور بالرایات فرقعت وبالطبلول فقرعت، ورفع المسلمون أصواتهم بالتكبير وتسابقوا لقتال العدو وخفقت البنود؛ وزحف أمير المؤمنين نحو المعركة،

فلم يرع الفتن اللعين إلا الريات قد أقبلت تخفق من كل جهة وزعقات الطبول والأبواق وأصوات المجاهدين بالتكبير قد زلزلت الأرض فقال ما هذا؟ فقيل: هذا المنصور قد أقبل في جيشه، وما قاتلك سائر اليوم إلا طلائمه ومقدماته فقدن الله الرعب في قلبه وخشعت نفوس جموعه وزلزلت بهم الأرض زلزالها فولوا الأدبار لا يلوون على شيء، وأسعدهم يومئذ من وجد في فرسه بقية تنديه، وأتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون؛ وأحاط بعضهم بحصن الأرك يظلون أن الفتن قد تحصن به، وكان عدو الله قد دخل على باب وخرج على آخر من الناحية الأخرى؛ واقتحم المسلمون الحصن عنوة وأضروا النيران في أبوابه واحتلوا على جميع ما كان فيه وفي محله العدو من الأموال والذخائر وأنواع السلاح التي تفوت الحصر.

وقال ابن خلدون: «كان ملوك الفرنج الذين قاتلوا المنصور يومئذ ثلاثة ابن أذفونش وابن الرند والبيوج، قال: واعتصم فلهم بحصن الأرك وكانوا خمسة آلاف من زعمائهم، فاستنزلهم المنصور على حكمه حتى فودي بهم عددهم من المسلمين».

وفي القرطاس: أن عدد أسارى الأرك كانوا أربعة وعشرين ألفاً فمن عليهم المنصور وأطلقهم، قال فعز ذلك على جميع الموحدين وسائر المسلمين؛ وعدت للمنصور سقطة من سقطات الملوك.

وقال ابن الأثير: «كانت الدائرة يوم الأرك أولاً على المسلمين ثم عادت على الفرنج وانهزموا أقبع هزيمة؛ وكان عدد من قتل من الفرنج أزيد من مائة ألف، وغنم المسلمون منهم شيئاً كثيراً؛ فمن الخيام مائة ألف وثلاثة وأربعون ألفاً، ومن الخيول ستة وأربعين ألفاً وقيل ثمانون ألفاً، ومن البغال مائة ألف؛ ومن الحمير أربعين ألفاً».

قال في فتح الطيب: «جاء بها الكفار لحمل ثقلاتهم لأنهم لا إيل لهم» قال: «وأما الجوادر والأموال فلا تحصى، وبيع الأسير بدرهم؛ والسيف

بنصف درهم؛ والفرس بخمسة دراهم؛ والحمار بدرهم، وقسم المنصور الغنائم بين المسلمين بمقدار الشرع» كذا في نفح الطيب.

وفي كامل ابن الأثير: «أن يعقوب المنصور رحمة الله نادى في عسكره من غنم شيئاً فهو له سوى السلاح، وأحصى ما حمل إليه منه فكان زيادة على سبعين ألف لبس، واستشهد من المسلمين نحو عشرين ألفاً».

ثم تقدم المنصور بجيشه إلى بلاد الفرنج وأخذ يخرب المدن والقرى، ويفتح الحصون والمعاقل؛ ويقتل ويسيء ويأسر، حتى وصل إلى جبل سليمان؛ ثم ثنى عنانه راجعاً وقد امتلأت أيدي المسلمين من الغنائم، ولم يعارضه من الفرنج معارض، حتى وصل إلى إشبيلية فاستقر بها.

وأما الفتن فلأنه لما انهزم وصل إلى طليطلة في أسوأ حال؛ فحلق رأسه ولحيته، ونكث صليبيه وركب حماراً، وأقسم أن لا يركب فرساً ولا بغلأ ولا ينام على فراش ولا يقرب النساء حتى تنصر النصرانية، فجمع جموعاً عظيمة، وبلغ الخبر بذلك إلى المنصور فبعث إلى بلاد المغرب مراكش وغيرها يستنفر الناس من غير إكراه، فأثناء من المتطوعة والمرتزقة جمع عظيم؛ ثم نهض إلى الفتن فالتحقوا في ربيع الأول ستة اثنتين وتسعين وخمسماة، فانهزم الفرنج هزيمة قبيحة؛ وغنم المسلمون ما معهم من الأموال والسلاح والدواب وغيرها.

ثم تقدم المنصور إلى مدينة طليطلة فحاصرها وقاتلها قتالاً شديداً وقطع أشجارها وشن الغارت على ما حولها من البلاد، وفتح فيها عدة حصون مثل قلعة رياح ووادي الحجارة ومجريط وجبل سليمان وأفليج وكثير من أحواز طليطلة.

ثم ارتحل عن طليطلة إلى مدينة طلمونكة فدخلها عنوة بالسيف فقتل المقاتلة، وسب النساء والذرية؛ وغنم أموالها؛ وهدم أسوارها، وأضرم النيران في جوانبها؛ وتركها قاعاً صفصفاً.

وثنى عنانه إلى إشبيلية، فدخلها غرة صفر سنة ثلاط وتسعين

وخمسماهٍ؛ فرفع إليه في القاضي أبي الوليد بن رشد المعروف بالحفيد مقالات نسب فيها إلى المرض في دينه ومحنته، وكان أحد فلاسفة الإسلام وربما ألفى بعضها بخط يده فحبس، ثم أطلق وأشخص إلى مراكش وبها كانت وفاته رحمة الله.

ثم خرج المنصور من إشبيلية غازياً بلاد ابن أذفونش، فسار حتى احتل بساحة طليطلة، وبغله أن صاحب برشلونة قد أمد ابن أذفونش بعساكره وأنهم جمِيعاً بحصن مجربيط فنهض إليهم، ولما أطل عليهم انقضت جموع ابن أذفونش من قبل القتال، ثم انكفا المنصور راجعاً إلى إشبيلية.

ثم اجتمع ملوك الفرنج وأرسلوا يطلبون الصلح، فأجابهم إليه وصالحهم على مدة خمس سنين بعد أن كان عازماً على الامتناع مریداً لملازمة الجهاد إلى أن يفرغ منهم، فأناه خير علي بن إسحاق المسوفي المعروف بابن غانية وأنه دخل إفريقياً وأراد الاستيلاء عليها؛ ففت ذلك في عزمه وصالحهم على المدة التي ذكرنا.

وعقد على إشبيلية للسيد أبي زيد بن الخليفة، وعلى مدينة بطليوس للسيد أبي الريبع ابن السيد أبي حفص؛ وعلى المغرب للسيد أبي عبد الله بن السيد أبي حفص؛ ثم عبر البحر إلى المغرب فوصل إلى مراكش في شعبان سنة أربع وتسعين وخمسماهٍ.

وفي تفع الطيب: أن يعقوب المنصور لما حاصر طليطلة وضيق عليها ولم يبق إلا فتحها خرجت إليه والدة الأذفونش وبناته ونساؤه وب يكن بين يديه وسألته إبقاء البلد عليهم، فرق لهن ومنْ عليهم به، وووهب لهن من الأموال والجواهر ما جل؛ وردهن مكرمات وعفا بعد القدرة. والله تعالى أعلم.

لطيفة: قال الشيخ محبي الدين بن عربي الحاتمي رحمة الله في كتاب الفتوحات المكية ما نصه: «ولقد كنت بمدينة فاس سنة إحدى وتسعين وخمسماهٍ وعساكر الموحدين قد عبرت إلى الأندلس لقتال العدو حين

استفحـل أمرهـ على الإسـلام، فـلقيـت رجـلاً من رـجال اللهـ وـلا أـذكـى عـلى اللهـ أحـدـاً؛ وـكان مـن أـخـصـ أوـدـائـيـ، فـسـأـلـيـ ما تـقـولـ في هـذـا الـجـيـشـ هـل يـفـتـحـ لـهـ وـيـنـصـرـ في هـذـهـ السـنـةـ أمـ لـاـ؟ فـقـلـتـ لـهـ: مـا عـنـدـكـ فـي ذـلـكـ؟ فـقـالـ: «إـنـ اللهـ تـعـالـى قدـ ذـكـرـهـ فـي كـتـابـهـ، وـوـعـدـ نـبـيـهـ بـهـذـا الـفـتـحـ فـي هـذـهـ السـنـةـ، وـبـشـرـ نـبـيـهـ بـهـذـكـ بـذـلـكـ فـي كـتـابـهـ الـذـي أـنـزـلـهـ عـلـيـهـ؛ وـهـوـ قـوـلـهـ: ﴿إـنـا فـتـحـنـا لـكـ فـتـحـا مـيـنـا﴾» [الفـتـحـ: ١] فـمـوـضـعـ الـبـشـرـى فـتـحـا مـبـيـنـا مـنـ غـيـرـ تـكـرـارـ الـأـلـفـ فـإـنـهاـ لـإـطـلاقـ الـوـقـوفـ فـي تـامـ الـأـيـةـ؛ فـانـظـرـ أـعـدـادـهاـ بـحـسـابـ الـجـمـلـ؛ فـنـظـرـتـ فـوـجـدـتـ الـفـتـحـ يـكـونـ فـي سـنـةـ إـحـدـىـ وـتـسـعـينـ وـخـمـسـمـائـةـ، ثـمـ جـزـتـ إـلـىـ الـأـنـدـلـسـ وـقـدـ نـصـرـ اللهـ جـيـشـ الـمـسـلـمـيـنـ وـفـتـحـ اللهـ بـهـ قـلـعـةـ رـيـاحـ وـالـأـرـكـوـ وـكـرـكـراـ وـمـا اـنـضـافـ إـلـىـ هـذـهـ الـقـلـاعـ مـنـ الـوـلـاـيـاتـ. هـذـا عـاـيـتـهـ مـنـ الـفـتـحـ مـمـنـ هـذـهـ صـفـتـهـ، فـأـخـذـتـ لـلـفـاءـ ثـمـانـيـنـ، وـلـلـتـاءـ أـرـبـعـمـائـةـ، وـلـلـحـاءـ الـمـهـمـلـةـ ثـمـانـيـةـ؛ وـلـلـأـلـفـ وـاحـدـ؛ وـلـلـمـيمـ أـرـبـعـينـ؛ وـلـلـبـاءـ أـثـنـيـنـ؛ وـلـلـيـاءـ عـشـرـةـ؛ وـلـلـنـونـ خـمـسـيـنـ، وـأـمـا الـأـلـفـ فـقـدـ أـخـذـ عـدـدـهـ؛ وـكـانـ الـمـجـمـوعـ إـحـدـىـ وـتـسـعـينـ وـخـمـسـمـائـةـ؛ وـهـيـ سـنـوـ الـهـجـرـةـ إـلـىـ هـذـهـ السـنـةـ فـهـذـاـ مـنـ الـفـتـحـ الـأـلـهـيـ لـهـذـاـ الشـخـصـ». اـنـتـهـيـ.

ذكر ما شيده المنصور رحمة الله من الآثار بال المغرب والأندلس

كان يعقوب المنصور رحمة الله لما عزم على المسير إلى الأندلس
يقصد الجهاد أوصى إلى نوابه ووكلاه ببناء قصبة مراكش، والاعتناء بتشييد
قصورها. فمن آثاره الباقية بها إلى الآن بابها المعروف بباب أكتاور، ولا
مزيد على ضخامته وارتفاعه، وأمرهم ببناء الجامع الأعظم بها المنسوب إليه
إلى اليوم وتشييد منارة المثالى به، ومنار جامع الكتبين المضروب به المثلث
في الارتفاع وعظم الهيكل. قال ابن سعيد: «طول صومعة الكتبين بمراكش
مائة ذراع وعشرون ذراع». [١]

ولما اجتاز المنصور في سفره هذا بأرض سلا أمر أيضاً ببناء مدينة رباط الفتح؛ فأسس ستة ثلاث وتسعين وخمسين برجاً وسورها، وركبت أبوابها، وأمر ببناء المسجد الأعظم يطالعة سلا ومدرسة الجوفية منه. قال صاحب الروض المعطار: «كان يعمل في بنائه ونقل حجارته وترايه سبعمائة أسير من أسارى الفرنج في قيودها؛ وأمر ببناء جامع حسان ومنارة الأعظم المضروب به المثل في الصخامة وحسن الصنعة؛ قالوا ولم يتم بناؤه.

ولما فرغ المنصور من وقعة الأرك، واحتل بمدينة إشبيلية؛ أخذ في إتمام بناء جامعها الأعظم وتشييد منارة المشاكل للمنارين المتقدمين؛ فهو ثلاثة الأثافي بالنسبة لهما، بل قيل إنه ليس في بلاد الإسلام منار أعظم منه؛ وعمل لهذا المنار تفاصيحاً من أملح ما يكون». قال في القرطاس: «بلغت من العظم إلى ما لا يعرف قدره إلا أن الوسطى منها لم تدخل على باب المنار حتى قلعت الرخامة من أسفله. وزنة العمود الذي ركبت عليه أربعون ربيعاً من الحديد؛ وكان الذي صنعها ورفعها في أعلى المنار المذكور المعلم أبو الليث الصقلي، وموهت تلك التفاصيحة بماة ألف دينار ذهباً».

ولما كمل جامع إشبيلية وصل إلى أمر ببناء حصن البرج على وادي إشبيلية، وقد تقدم لنا في أخبار عبد المؤمن أنه هدم أسوار مدينة فاس؛ وأن حافظه المنصور هذا شرع في بنائها ثم أتمها ابنه الناصر من بعده.

ولما رجع المنصور من الأندلس إلى مراكش وجد كل ما أمر به من البناءات قد تم على أكمل حال وأحسنه مثل القصبة والقصور والجامع والصومع، وأنفق على ذلك كله من أخماس الغنائم؛ وكان قد تغير على الوكلاء والصناع الذين تولوا بناء ذلك، لأنه سعى إليه بأنهم احتاجوا بالأموال، وصنعوا للجامع سبعة أبواب على عدد أبواب جهنم؛ فلما دخله المنصور وتطرّف به أعجبه؛ فسأل عن عدد أبوابه فقيل إنها سبعة أبواب والثامن هو الذي دخل منه أمير المؤمنين، فقال المنصور عند ذلك: «لا بأس بالغالبي إذا قيل حسن».

واتخذ المنصور^(١) رحمة الله في جامعه هذا لمصلاه به مقصورة عجيبة كانت مدبرة بحيل هندسية بحيث تنصب إذا استقر المنصور ووزراؤه بمصلاه منها، وتختفي إذا انفصلوا عنها.

حکى الشريف الغرناطي شارح الحازمين عن الكاتب البارع أبي الحسن عبد الملك بن عياش أحد كتاب المنصور قال: «كانت لأبي بكر يحيى بن مجير^(٢) الشاعر المشهور وفادة على المنصور في كل سنة، فصادف في إحدى وقاداته فراغه من إحداث المقصورة التي كان أحدثها بجامعه المتصل بقصره في حضرة مراكش، وكانت قد وضعت على حركات هندسية ترتفع بها لخروجه وتنخفض لدخوله، وكان جميع من بباب المنصور يومئذ من الشعراء والأدباء قد نظموا أشعاراً أنشدوه إليها في ذلك، فلم يزيدوا على شكره وتجزيته الخير فيما جدد من معالم الدين وأثاره؛ ولم يكن فيهم من تصدى لوصف الحال حتى قدم أبو بكر بن مجير فأنشد قصيدة التي أولها:

أعلمتني ألقى عصا التسيار في بلدة ليست بدار قرار

واستمر فيها حتى ألم بذكر المقصورة فقال يصفها:

طوراً تكون بمن حوتة محبطة	فكأنها سور من الأسوار
وتكون حيناً عنهم مخبوعة	فكأنها سر من الأسرار
وكانها علمت مقادير الورى	فتصرفت لهم على مقدار
فيإذا أحست بالإمام يزورها	في قومه قامت إلى الزوار
يبعدو فتبعدو ثم تخفي بعده	كتكون الهلالات للأقمار

فطرب المنصور لسماعها وارتاح لاختراعها.

قال أبو العباس المقربي في نفح الطيب: وقد بطلت حركات هذه

(١) نسب صاحب الحل المروشية بناء المسجد والمقصورة لعبد المؤمن.

(٢) توفي بمراكش سنة ٥٨٨.

المقصورة الآن، وبقيت آثارها حسبما شاهدته سنة عشر وألف؛ والله وارث الأرض ومن عليها.

ومن شعر ابن مجير يصف خيل المنصور من قصيدة مدحه بها قوله:

نشاوى تهادت تطلب العزف والقصافا
لـ **له حلبة الخيل العتاق** كأنها
عرايس أغنتها الحجول عن الحلـ
فـ **من يقـن كالطرس** تحسب أنه
وـ **أبـلـق أعـطـى اللـيل نـصـف إـهـابـه**
وـ **ورـد تـغـشـى جـلـدـه شـفـق الدـجاـ**
وـ **أشـفـر معـ الـراح صـرفـاً أـديـمـه**
وـ **أشـهـب قـضـى الأـدـيمـ مـذـرـ**
كـما خطـ خطـ الرـاهـي بـمـهـرـقـ كـاتـبـ
تـهـبـ عـلـى الأـعـدـاء مـنـهـا عـواـصـفـ
تـرـى كلـ طـرـفـ كـالـغـرـالـ فـتـمـتـريـ
وـقدـ كانـ فيـ الـبـيـدـاء يـأـلـفـ سـرـيـهـ
ـتـنـاوـلـه لـفـظـ الـجـوـادـ لـأـنـهـ

وـمـا مـدـحـ بـهـ الـمـنـصـورـ رـحـمـهـ اللهـ قـولـ بـعـضـ شـعـرـاءـ عـصـرـهـ حينـ طـلبـ
ـمـنـهـ الـفـشـلـ الـصلـحـ فـأـجـابـ إـلـيـهـ:

ويزار من أقصى البلاد على الرجالـ
ـأـهـلـ بـانـ يـسـعـيـ إـلـيـهـ وـيـرـجـيـ
ـمـنـ قـدـ غـداـ بـالـمـكـرـمـاتـ مـقـلـداـ
ـعـمـرـتـ مـقـامـاتـ الـمـلـوـكـ بـذـكـرـهـ
ـوـدـخـلـ عـلـيـهـ الـأـدـيـبـ أـبـوـ إـسـحـاقـ إـبـرـاهـيمـ بـنـ يـعـقـوبـ الـكـانـيـ الـأـسـودـ
ـالـشـاعـرـ فـأـنـشـدـهـ:

أـزـالـ حـجـابـهـ عـنـيـ وـعـيـنيـ وـقـرـبـنـيـ تـفـضـلـهـ وـلـكـنـ وـكـانـ بـكـسـرـ النـونـ جـنـسـ مـنـ السـوـدـانـ؛ـ وـهـمـ بـنـوـ عمـ تـكـرـرـهـ؛ـ وـلـيـسـ	تـرـاهـ مـنـ المـهـابـةـ فـيـ حـجـابـ بـعـدـتـ مـهـابـةـ عـنـدـ اـقـتـرـابـيـ
--	--

اسمها للاتساب لأب أو لأم، وإنما كاتم اسم بلدة بنواحي غانة فسمى هذا الجنس بها، وكذلك تكرر اسم للأرض التي هم بها فسموا بها؛ والله أعلم.

بقية أخبار المنصور وسيرته

قال ابن أبي زرع: كان المنصور رحمة الله ذا رأي وحزم ودين وسياسة، قال: وهو أول من كتب العلامة بيده من ملوك الموحدين: «الحمد لله وحده» فجرى عملهم على ذلك. وقد تقدم لنا أن ذلك كان في دولة أبيه فالله أعلم.

وهو واسطة عقد ملوك الموحدين الذي ضخم الدولة وشرفها. وكانت أيامه أيام دعة وأمن ورخاء ورفاهية وبهجة، صنع الله عز وجل في أيامه الأمن بالشرق والمغرب والأندلس، فكانت الظعينة تخرج من بلاد نول فتنتهي إلى برقة وحدها لا ترى من يعرض لها ولا من يسومها بسوء ضبط التغور، ومحسن البلاد، وبني المساجد والمدارس في بلاد إفريقيا والمغرب والأندلس؛ وبني المستشفيات للمرضى والمجانين وأجرى عليهم الإنفاق في جميع أعماله، وأجرى المرتبات على الفقهاء وطلبة العلم؛ كل على قدر مرتبته؛ وبني الصوامع والقناطر، وحفر الآبار للماء في البرية واتخذ عليها المنازل من السوس الأقصى إلى سويفة بن مصكوك، فكانت أيامه زينة للدهر وشرفًا للإسلام وأهله.

وقال ابن خلkan: كان يعقوب المنصور رحمة الله صافي السمرة جداً، إلى الطول ما هو؛ جميل الوجه؛ أفوه؛ أعين. شديد الكحل. ضخم الأعضاء، جوهرى الصوت، جزيل الألفاظ. من أصدق الناس لهجة؛ وأحسنهم حديثاً؛ وأكثرهم إصابة بالظن، مجرياً للأمور؛ ولبي وزارة أبيه فبحث عن الأحوال بحثاً شاقياً، وطالع مقاصد العمال والولاة وغيرهم مطالعة أفادته معرفة جزئيات الأمور؛ فلما مات أبوه اجتمع رأي أشياخ الموحدين

على تقادمه فقام بالأمر أحسن قيام؛ ورفع راية الجهاد؛ ونصب ميزان العدل؛ ويسط أحكام الناس على حقيقة الشرع؛ ونظر في أمور الدين والورع، وأقام الحدود حتى في أهله وعشيرته الأقربين؛ كما أقامها في سائر الناس أجمعين؛ فاستفامت الأحوال في أيامه، وعظمت الفتوحات؛ وكان قد أمر لأول دولته بقراءة البسمة في أول الفاتحة في الصلوات، وأرسل بذلك إلى سائر بلاد الإسلام التي في ملکه؛ فأجادب قوم وامتنع آخرون، وكان ملکاً جواداً عادلاً، متمسكاً بالشرع المطهر. يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر كما ينبغي من غير محاباة؛ ويصلی بالناس الصلوات الخمس، ويلبس الصوف؛ ويقف للمرأة والضعيف ويأخذ لهم بالحق.

قال ابن خلكان: وسمعت عنه حکایة يليق أن نذكرها هنا؛ وهي أن الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن عاشر أبي حفص كان قد تزوج أخت يعقوب المنصور، فأقامت عنده ثم جرت بينهما منافرة؛ فجاءت إلى بيت أخيها يعقوب المنصور؛ فسیر الشیخ عبد الواحد في طلبها فامتنعت عليه، فشكى الشیخ عبد الواحد ذلك إلى قاضي الجماعة بمراکش، وهو أبو عبد الله محمد بن علي بن مروان؛ فاجتمع القاضي المذکور بأمير المؤمنین يعقوب المنصور، وقال له: «إن الشیخ أبي محمد عبد الواحد يطلب أهله» فسكت عنه المنصور، ومضت أيام؛ ثم إن الشیخ أبي محمد اجتمع بالقاضي المذکور في قصر المنصور بمراکش وقال له: «أنت قاضي المسلمين وقد طلبت أهلي فما جاؤوني» فاجتمع القاضي بالمنصور وقال له: «يا أمیر المؤمنین الشیخ عبد الواحد قد طلب أهله مرة وهذه الثانية» فسكت المنصور ثم بعد ذلك بمدة لقى الشیخ عبد الواحد القاضي بالقصر المذکور فقال له: «يا قاضي المسلمين قد قلت لك مرتين وهذه الثالثة أنا أطلب أهلي وقد منعوني منهم» فاجتمع القاضي بالمنصور، وقال له: «يا مولانا إن الشیخ عبد الواحد قد تكرر طلبه لأهله؛ فاما أن تسیر إليه أهله، وإما أن تعزلني عن القضاء» فسكت

المنصور وقيل إنه قال له: «يا عبد الله ما هذا إلا جد كبير» ثم استدعى خادماً وأمره سرّاً بأن تحمل أهل الشيخ عبد الواحد إليه، فحملت إليه في ذلك اليوم، ولم يتغير على القاضي ولا قال له شيئاً يكرهه؛ وطبع في ذلك حكم الشرع المطهر وانقاد لأمره؛ وهذه حسنة تعد له وللقاضي أيضاً فإنه بالغ في إقامة منار الشرع والعدل.

وكان المنصور يشتم في إلزام الرعية بإقامة الصلوات الخمس، وقتل في بعض الأحيان على شرب الخمر، وقتل العمال الذين تشکوهم الرعايا، أمر برفض فروع الفقه وإحراق كتب المذاهب وأن الفقهاء لا يفتون إلا من الكتاب والسنة النبوية؛ ولا يقلدون أحداً من الأئمة المجتهدین، بل تكون أحكامهم بما يؤدي إليه اجتهادهم من استنباطهم القضايا من الكتاب والحديث والإجماع والقياس.

قال ابن خلكان: ولقد أدركنا جماعة من مشائخ المغرب وصلوا إلينا وهم على ذلك الطريق، مثل أبي الخطاب بن دحية وأخيه أبي عمرو؛ ومحيي الدين بن عربى نزيل دمشق وغيرهم؛ وكان يعاقب على ترك الصلوات، ويأمر بالنداء في الأسواق بالمبادرة إليها، فمن غفل عنها أو اشتغل بمعيشته عزره تعزيراً بليغاً.

وكان قد عظم ملكه واتسعت دائرة سلطنته، حتى إنه لم يبق بجميع أقطار بلاد المغرب من البحر المحيط إلى برقة إلا من هو في طاعته وداخل في ولايته إلى غير ذلك من جزيرة الأندلس، وكان محسناً، محباً للعلماء مقرراً للأدباء؛ مصغياً إلى المدح؛ مثيباً عليه، وله ألف أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي كتابه الذي سماه صفوۃ الأدب وديوان العرب في مختار الشعر، وهو مجموع مليح أحسن في اختياره كل الإحسان.

وكان المنصور يضرب به المثل في حسن التوقع وإجادته وقد تقدم لنا ما وقع به على كتاب الفنش.

وحكى ابن الخطيب في رقم العدل: أن المنصور طلب يوماً من قاضيه أن يختار له رجلين لغرضين من تعليم ولد، وضبط أمر؛ فعرفه بргللين؛ قال في أحدهما: وهو بحر في علمه؛ وقال في الآخر: وهو بر في دينه، ولما خرج المنصور أحضرهما واحتبرهما فقصرا بين يديه؛ وأكذبا الدعوى؛ فوقع المنصور على رقعة القاضي: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ظهر الفساد في البر والبحر، قال ابن الخطيب: وهذا من التوقيع العريق في الإجادة والصنعة.

وكان مجلس المنصور رحمة الله مجلس الفضلاء والأدباء وأرباب المعارف والفنون. حكى أبو الفضل التيفاشي قال: جرت مناظرة بين يدي ملك المغرب يعقوب المنصور، وكانت بين الفقيه أبي الوليد بن رشد المعروف بالحفيد؛ والرئيس الوزير أبي بكر بن زهر بضم الزاي، وكان الأول قرطبياً، والثاني إشبيلياً، فقال ابن رشد لابن زهر في تفضيل قرطبة: «ما أدرى ما تقول غير أنه إذا مات عالم بإشبيلية فأزيد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها، وإن مات مطرب بقرطبة فأزيد بيع آلات حملت إلى إشبيلية».

وهذا الوزير ابن زهر هو أحد أعيان وزراء الدولة الموحدية، وزير المنصور ولائيه من قبله.

قال ابن خلkan: كان ابن زهر من أهل بيت كلهم علماء رؤساء حكماء وزراء، نالوا المراتب العلية، وتقدموا عند الملوك؛ ونفذت أوامرهم وكان يتذكر وروده على الحضرة بمراكش فيقيم بها ويرجع إلى الأندلس، ومما قاله بمراكش يتلمس إلى ولد له صغير تركه بإشبيلية:

ولى واحد مثل فرش القطا	صغير تخلف قلبي لديه
نأت عنه داري فيها وحشتي	لذاك الشخص وذاك الوجه
تشوقني وتشوقته	فيبكى علي وأبكى عليه

لقد تعب الشوق ما بيننا فمنه إلى ومني إليه
قال العلامة الأديب أبو العباس المقربي في نفح الطيب: أخبرني
الطبيب الماهر الثقة الصالح العلامة سيدى أبو القاسم بن محمد الوزير
الغضانى الأندلسي الأصل، الفاسى المولد والنشأة، حكيم حضرة السلطان
أبى العباس المنصور بالله السعدى، أن ابن زهر لما قال هذه الآيات وسمعها
يعقوب المنصور أرسل المهندسين إلى إشبيلية - يعني من غير علم من ابن
زهر - وأمرهم أن يحيطوا علمًا ببيوت ابن زهر وحارته، ثم يبنوا مثلها
بحضرة مراكش. فعلوا ما أمرهم به في أقرب مدة، وفرشها بمثل فرشه؛
وجعل فيها مثل آلاته، ثم أمر ببنقل عيال ابن زهر وأولاده وحشمه وأسبابه
إلى تلك الدار؛ ثم احتال عليه حتى جاء إلى ذلك الموضع فرأه أشبه شيء
ببيوته وحارته، فاختار لذلك وظن أنه نائم وأن ذلك أحلام، فقيل له: ادخل
البيت الذى يشبه بيتك، فدخله فإذا ولده الذى يتلوك إليه يلعب في البيت؛
فحصل له من السرور ما لا مزيد عليه ولا يعبر عنه. «هكذا هكذا وإنما

ومن أطباء المنصور الوزير الطبيب الشهير أبو بكر بن طفيلي من أهل وادي آش، كان حاذقاً بصناعة الطب والجراحات. ومن أطبائه أيضاً الحفيدي بن رشد المتقدم الذكر. ومن كتابه الكاتب البارع أبو الحسن عبد الملك بن عياش القرطبي النشأة، اليابوري الأصل. والفقهي البارع أبو الفضل بن طاهر من أهل بحایة، ومن الفقهاء الذين كانوا ي مجلسونه وسامروننه الفقيه الحافظ أبو بكر بن الجد، والفقهي القاضي أبو عبد الله بن الصقر، وغيرهم رحم الله الجميع.

وفاة يعقوب المنصور رحمه الله

قال ابن أبي زرع: لما رجع المنصور من الأندلس إلى مراكش أخذ البيعة لولده أبي عبد الله محمد الملقب بالناصر لدين الله. فبايعه كافة الموحدين وسائر أهل الأمصار والأقطار، فلما تمت البيعة للناصر المذكور وجلس في محل الخلافة وجرت الأحكام والأوامر باسمه وعلى يديه في حياة أبيه دخل المنصور قصره فلزمه.

وقال ابن خلkan: لما وصل المنصور إلى مراكش - يعني بعد قدومه من الأندلس - أمر باتخاذ الأحواض والروابي وألات السفر للتوجه إلى بلاد إفريقية، فاجتمع إليه مشايخ الموحدين وقالوا له: يا سيدنا قد طالت غيتنا بالأندلس؛ فمنا من له خمس سنين وغير ذلك. فتنعم علينا بالمهلة هذا العام وتكون الحركة في أول سنة خمس وتسعين وخمسماة، فأجابهم إلى سؤالهم؛ وانتقل إلى مدينة سلا وشاهد ما فيها من المترهات المعدة له.

وكان قد بني بالقرب من المدينة المذكورة مدينة عظيمة سماها رباط الفتح على هيئة الإسكندرية في الاتساع وحسن التقسيم وإنقان البناء وتحصينه وتحسينه، وبنها على البحر المتوسط الذي هناك، وهي على نهر سلا مقابلة لها من البر القبلي، وطاف تلك البلاد وتنزه فيها ثم رجع إلى مراكش.

قال ابن خلkan: وبعد هذا اختلفت الروايات في أمره، فمن الناس من يقول: إنه ترك ما كان فيه وتجرد وساح في الأرض حتى انتهى إلى بلاد الشرق؛ وهو مستخف لا يعرف وما ت خاماً، ومنهم من يقول: إنه لما رجع إلى مراكش كما ذكرناه توفي في غرة جمادى الأولى، وقيل في ربيع الآخرة في سابع عشرة، وقيل في غرة صفر؛ ولم ينتقل شيء من أحواله بعد ذلك إلى حين وفاته. وقيل توفي بمدينة سلا.

قال ابن خلkan: ثم حكى لي جمع كثير بدمشق أن بالقرب من

المجدل - البليدة التي من أعمال البقاع العزيزي - قرية يقال لها حمار، وإلى جانبها مشهد يعرف بقبر الأمير يعقوب ملك المغرب، وكل أهل تلك التواحي متلقون على ذلك وليس عندهم فيه خلاف، وهذا القبر بينه وبين المجدل مقدار فرسخين من جهتها القبلية بغرب، قال: وكان أوصى أن يدفن على قارعة الطريق ليترحم عليه من يمر به.

قال المقربي في نفح الطيب: هذه مقالة عامة لا يشتبها علماء المغرب، وسبب هذه المقالة تولع العامة به، فكذبوا في موته؛ وقالوا: إنه ترك الملك وحکموا ما شاع إلى الآن وذاع مما ليس له أصل، ثم نقل عن الشريف الغرناطي مثل ذلك فانظروه.

قال مؤلفه عفا الله عنه: وعندي^(١) أن إنكار ما حکاه ابن خلکان ليس بجيد، وهب أن أهل المغرب قالوا ذلك تولعاً به فما بال أهل المشرق يتولعون به ويستخدمون له المشهد ثم يتفرق كبارهم وصغيرهم على أنه قبر يعقوب ملك المغرب من غير أصل ولا مستند، هذا بعيد في العادة، بل لا بد أن يكون لذلك أصل والله أعلم بحقيقةه. نعم، ما تزعمه عامة المغرب في حمة أبي يعقوب التي بقرب مدينة فاس أنها منسوبة ليعقوب المنصور هذا، وأنه رصد لها عفريتين يوقدان عليها إلى الأبد، وأن حرارة مائتها بسبب ذلك الإيقاد، وأن الشفاء الذي حصل للمستحبين إنما هو ببركة يعقوب المنصور،

(١) قول المؤلف وعندي أن إنكار ما حکاه ابن خلکان ليس بجيد الخ فيه نظر لا يخفى على من تبع أحوال معتقدات العامة في عظمائها بعد الموت كالشيعة في أئمتها وغيرهم من الغلاة في التعظيم للنبي الظهور في السياسة والصلاح، فقد ذكر المؤلف نفسه أن أصحاب الروكي لا يصدقون بموته ولا زال البعض من أصحاب الكتابي يعتقد حياته وكم لهذا في التاريخ من نظير زد على ذلك أن كلام مؤرخي المغاربة أولى بالاعتبار في هذا المقام والحق ما قاله الغرناطي في شرح المقصورة بعد كلام طويل وكذب الكافة من العامة بوفاته ولهم في ذلك حکایات يقولونها إلى الآن كلها تخرض وأباطيل اهـ.

وجعلوا له زوجة أو بنتاً اسمها شافية اشتقاقاً من لفظ الشفاء الحاصل بتلك العين كله باطل، وإنما حرارة العين لخاصية أودعها الله في أصلها ومنبعها، وكذا الشفاء الحاصل بها إنما هو بخاصية في ذلك الماء؛ ولعلها ما فيه من الكبريتية؛ فإننا نرى أصحاب التجرب يلتحخون بالكبريت المعالج فيشفون؛ وكم من عين على وجه الأرض في المشرق والمغرب؛ وببلاد المسلمين والكفار على هذه الحالة كما أخبر بذلك غير واحد.

وقال الجوهرى في الصراح الحمة العين الحارة يستشفي بها الأعاء والمرضى وفي الحديث العالم كالحمة اهـ ومثله في القاموس؛ بل ذكر فيه مدينة تفليس - وهي قصبة كرجستان عليها سوران - قال وحمامتها تتبع ماء حاراً بغير نار.

وقد ذكر ابن أبي زرع في القرطاس حمة أبي يعقوب هذه، وذكر معها حمتين آخرين فقال: «وبالقرب أيضاً من مدينة فاس على مسيرة أربعة أميال منها حمة عظيمة تعرف بحمة خولان، ما ذرها في أشد ما يكون من السخونة؛ وبالقرب أيضاً منها حمة وشنانة وحمة أبي يعقوب وهي من الحمات المشهورة بالمغرب» اهـ. كلامه فقد ذكر أبي يعقوب بلفظ الكنية فهو غير يعقوب المنصور قطعاً، ولعله أبو يعقوب الأشقر الآتني ذكره في أحداث المائة السابعة.

ولنرجع إلى الكلام على وفاة المنصور عند علماء المغرب فنقول: قال ابن الخطيب في رقم الحلل: توفي يعقوب المنصور رحمه الله في الثاني والعشرين من شهر ربیع الأول سنة خمس وتسعين وخمسماة، ودفن بمجلس سكتاه من مراكش؛ وكذب العامة بموته ولوعاً وتمسكاً به، فادعوا أنه ساح في الأرض اهـ.

وقال ابن أبي زرع: لما حضرت المنصور الوفاة قال ما ندمت على شيء فعلته في خلافتي إلا على ثلات وددت أنني لم أفعلها، الأولى: إدخال العرب من إفريقيا إلى المغرب مع إني أعلم أنهم أهل فساد. والثانية: بناء

رباط الفتح أنفقت فيه بيت المال وهو بعد لا يعمر. والثالثة: إطلاقي أسارى الأرك، ولا بد لهم أن يطلبوا بثأرهم.

قلت ما ذكره رحمة الله في رباط الفتح من أنه لا يعمر قد تخلف ظنه فيه، فهو اليوم من أعمراً أمصار المغرب وأحضرها حرسه الله وحرس سائر أمصار المسلمين من آفاق النقصان وطوارق الحدثان.

ولذكر ما كان في هذه المدة من الأحداث فنقول: في سنة أربعين وخمسة هدم علي بن عيسى بن ميمون - وكان من رؤساء البحر في دولة اللمتونيين - صنم قادس، وقادس هذه هي الجزيرة المسماة في لسان العامة اليوم بقالص؛ وكان بها صنم عظيم على صورة رجل وبيه مفتاح يقال إن حكماء اليونان اتخذوه طلسمًا هناك، كان من خاصيته أن يمنع هبوب الريح فيما جاوره من البحر المتوسط. فكانت السفن لا تجري هناك على ما قبل، فلما ثار ابن ميمون المذكور بالجزيرة المذكورة ظن أن تحت الصنم مالاً فهدمه فلم يوجد شيئاً.

وفي السنة المذكورة توفي أبو علي منصور بن إبراهيم المسطاسي دفين آزمور، وكان كبير الشأن من أهل العلم والعمل ومن أشياخ أبي شعيب السارية.

وفي سنة أربع وأربعين وخمسة توفي الإمام الهمام الحافظ البارع أبو الفضل عياض بن موسى البصبي. قال ابن خلkan: توفي بمراكش يوم الجمعة سابع جمادى الآخرة، وقيل: في شهر رمضان من السنة المذكورة، ودفن بباب آيلان داخل المدينة، وذلك في دولة عبد المؤمن بن علي.

وفي سنة تسع وخمسين وخمسة توفي الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل بن محمد بن عبد الله بن حرزهم، ينتهي نسبه إلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، وهو من أهل مدينة فاس؛ وبها توفي آخريات شعبان من السنة المذكورة، وكان فقيهاً زاهداً صوفياً، قال أبو الحسن

المذكور: «اعتكفت على قراءة الإحياء سنة، فجردت المسائل التي تنتقد عليه وعزمت على إحراق الكتاب، فنمت فرأيت قائلاً يقول: جردوه واضربوه حد الفريدة؛ فضررت ثمانين سوطاً، فلما استيقظت جعلت أقلب ظهري ووجدت الألم الشديد من ذلك فتبت إلى الله، ثم تأملت تلك المسائل فوجدتها موافقة للكتاب والسنة». وقد تقدم لنا ما اتفق له مع السلطان في جنازة أبي الحكيم بن برجان.

وفي سنة إحدى وستين وخمسمائة توفي الشيخ القدوة أبو شعيب أيوب بن سعيد الصنهاجي الملقب بسارية من أهل مدينة آزمور، وبها توفي يوم الثلاثاء عاشر ربيع الثاني من السنة المذكورة، وكان رضي الله عنه شديد المراقبة والورع والخوف من الله تعالى، وكان إذا وقف في صلاته يطيل القيام، فلذلك لقب بالسارية، ونقلت عنه في الورع والخوف حكايات انظر التشوف.

قال مؤلفه عفا الله عنه كنت زرت ضريح هذا الشيخ سنة ثمانين ومائتين وألف، ومدحته بقصيدة سلكت فيها مسلك الأدباء من النسب وغيره؛ وأنشتها عند ضريحه فرأيت لها بركة والحمد لله؛ فأحببت أن أذكرها هنا وهي هذه:

على الفؤاد ومن ضنى على البدن على القصور على الأطلال والدمن بالشمس حسناً ولا في اللين بالغصن بذلك التضار وصون البيض والحسن مأوى السرور فعادت موقف الحزن كأن بأسهم المحذور لم يكن نفسني وفاجاني في المهد بالمتن حتى كأني رضعت العصب في اللبن أيام عيش لنا أحلى من الوسن	الله يا رب ما هيئت من شجن وقفت فيك ركاباً طالما وقفت أيام فيك حسان ما أشبهها وفيك أسد من الملوك عادتها يحملون منك عراصاً كنت أعهدها عاثت يد الدهر فيهم منذ أزمنة قوم عرفت نداهم قبل معرفتي ومذ ترعرعت لم أعلق بغيرهم قضيت حق الشباب في منازلهم
---	--

فوده هدنة تبني على دخن
 ولا أحلى مكاناً ليس بالخشون
 إلا حصلت على رزق من الإحن
 حرب البيوسوس وأبني أبو الفتن
 سوى فضيلته في دهره الزمن
 ذرعاً فشكواك لي ضرب من الوهن
 ولو تعلقت منه بابن ذي يزن
 أيدي العفة به في الشام واليمن
 وأسمع الناس كفأ بالندى الهلن
 وأحکم الناس للفروض والستن
 يتلو مناقبه في السر والعلن
 جداول اليمن في الأحياء والمدن
 به علا ذكر آزمور في الوطن
 ألفى بها بدل الأهلين والسكن
 واجعل الترب لي مسكاً بلا ثمن
 به أكون من الأحداث في جنن
 سفو المذهب بالجند والقرني
 به القبائل في المقام والظعن
 حتى اكتسى شهرة النيران في القرن
 أهل الجرائم والأوزار والمحن
 وليس لولا حلاك الزهر بالحسن
 ولست أرجو سواك منه ينعشني
 إذا بلغتك قدت الدهر بالرسن
 فإن نظرت فكل الخير يشملني
 وطهر القلب ما لأمراض والدرن
 أرى بها علمي والبر في قرن

من ظن بالدهر خيراً فهو منخدع
 لا أنتهي منهلاً إلا شرفت به
 ولا أصحاب من هذا الورى بشراً
 حتى توهمت أنني جئت لهم
 وما الذي الفضل من ذنب يلام به
 فعد يا قلب عن شكري أضيق بها
 ولست أحسب هذا الدهر مرعوباً
 حلاً لقد علقت يدي بمن علقت
 بأعظم الناس متزاً ومنزلة
 وأشمخ الناس قيراً في الورى وعلا
 ذاك الولي الذي كل الأنام غداً
 أبو شعيب الذي من بحره انشعبت
 بدر غداً في سماء المجد مكملاً
 أرض إذا الضرع المحروم يممها
 أود من أجل ثاويها حجارتها
 كيف لا تطبي قلبي منازل من
 مجلبي الغياهب مبذول المواهب مقد
 بحر الحقيقة والغرث الذي لهجت
 ما زال يرقى النرى من كل صالحه
 يا خير من أمه العافي ولاذ به
 إني خدمتك في شعر عنشت به
 اشکو إليك سقاماً أنت مبرئه
 وشد أزرني فإني كنت معتقداً
 وانظر بفضلك من وافق معتفياً
 وأعظم المسؤول منك النفس تصلحها
 وامتحنه نوراً وتوفيقاً ومعرفة

فجد بما رمت من جداؤك يا أملبي
 سقى ضريحك غيث ما يزال به
 بجاه أفضل خلق الله كلهم
 عليه أزكي صلاة الله ما تلبيت
 والأآل والصحاب والأزواج قاطبة
 فبحر جودك عذب ليس بالأجن
 بستان أنسك وهو مورق الفتن
 محمد ذي المزايا الغر والمن
 صحف وما نسج القريض ذو لسن
 ومن قفا نهجهم في كل ما زمن

واعلم أن التعلق بأولياء الله رضي الله عنهم يجب أن يكون مع استحضار أن الله تعالى هو المطلوب على الحقيقة، والفاعل للأشياء كلها؛ لا معبد غيره؛ ولا مرجو سواه، وإنما التمسك بأهل الله لأجل التبرك بهم والاستشفاع بهم إلى الله تعالى، لأنهم أبواب الله والdalون عليه، فعننا الله بهم وأفاض علينا من مدهم آمين.

وفي سنة تسع وستين وخمسين توفي الشيخ الفقيه العالم أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف المعروف بابن قرقول - صاحب كتاب مطالع الأنوار، الذي وضعه على مثال كتاب مشارق الأنوار للمقاضي عياض - كان من الأفضل، وصاحب جماعة من علماء الأندلس؛ وتوفي بمدينة فاس يوم الجمعة أول وقت العصر السادس شوال من السنة المذكورة؛ وكان قد صلى الجمعة في الجامع ذلك اليوم، فلما حضرته الوفاة تلى سورة الإخلاص وجعل يكررها بسرعة، ثم تشهد ثلاثة مرات وسقط على وجهه ساجداً فوقع ميتاً رحمة الله .

وفي سنة سبعين بعدها توفي الفقيه أبو الحسن علي بن عبد الله بن إبراهيم بن محمد الانصاري المعروف بالمتطي، ومتطيية قربة بأحواز الجزيرة الخضراء، وهو المؤتّق المشهور؛ لازم بمدينة فاس خاله أبي الحجاج المتطيي وبين يديه تعلم عقد الشروط، وله كتاب كبير في الوثائق سمّاه النهاية والتمام في معرفة الوثائق والأحكام؛ ثم انتقل إلى سبتة فاستوطنها ولازم مجالس علمائها بالمناقشة والتفقه، ومهر في كتابة الشروط واشغل بها حتى لم يكن في وقته أقدر منه عليها؛ وكان له في السجلات اليد الطولي، وطبع

عليها حتى كاد طبعه لا يواتيه في سواها بل كان طبعه في ذلك أكثر من فقهه، ثم ولـي القضاء بـشـريـشـ، وأصـابـهـ خـضـرـ لـازـمـهـ نـحـوـ السـتـيـنـ؛ ثـمـ تـوـفـيـ مـسـتـهـلـ شـعـبـانـ مـنـ السـنـةـ المـذـكـورـةـ.

وفي سـنـةـ السـتـيـنـ وـسـبـعـينـ وـخـمـسـمـائـةـ تـوـفـيـ وـحـيدـ عـصـرـهـ، وـأـعـجـوبـةـ دـهـرـهـ؛ الـولـيـ الـعـارـفـ الشـيـخـ أـبـوـ يـعـزـىـ يـلـنـورـ بـنـ مـيمـونـ، قـالـ قـومـ: إـنـهـ مـنـ هـزـمـيـرـ إـيـرـجـانـ؛ وـقـبـلـ مـنـ بـنـيـ صـبـحـ مـنـ هـسـكـورـةـ؛ مـاتـ وـقـدـ نـيـفـ عـلـىـ الـمـائـةـ بـنـحـوـ الـثـلـاثـيـنـ سـنـةـ، وـدـفـنـ يـجـبـلـ إـيـرـجـانـ فـيـ أـوـاـئـلـ شـوـالـ مـنـ السـنـةـ المـذـكـورـةـ. كـانـ الشـيـخـ أـبـوـ مـديـنـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ يـقـولـ: «رـأـيـتـ أـخـبـارـ الصـالـحـيـنـ مـنـ زـمـنـ أـوـيـسـ الـقـرـنـيـ إـلـىـ زـمـانـنـاـ هـذـاـ فـمـاـ رـأـيـتـ أـعـجـبـ مـنـ أـخـبـارـ أـبـيـ يـعـزـىـ»ـ قـالـ: «وـنـظـرـتـ فـيـ كـتـبـ التـصـوـفـ فـمـاـ رـأـيـتـ مـثـلـ إـلـاحـيـاءـ لـلـغـزـالـيـ»ـ وـكـانـ لـبـاسـ الشـيـخـ أـبـيـ يـعـزـىـ بـرـنـساـ أـسـوـدـ مـرـقـوـعاـ إـلـىـ أـسـفـلـ مـنـ رـكـبـيـهـ، وـجـةـ مـنـ تـلـيـسـ مـطـرفـ، وـشـاشـيـةـ مـنـ عـزـفـ؛ وـكـانـ يـتـعـيـشـ مـنـ نـبـاتـ الـأـرـضـ، وـلـاـ يـشـارـكـ النـاسـ فـيـ مـعـاـيـشـهـمـ؛ وـكـانـ طـوـيـلـاـ رـقـيقـاـ أـسـوـدـ اللـوـنـ، وـكـانـ إـذـاـ جـنـهـ الـلـيـلـ دـخـلـ غـيـضةـ كـثـيـرـةـ السـبـاعـ يـتـعـبـدـ فـيـهـاـ، فـإـذـاـ قـرـبـ الـفـجـرـ أـعـلـمـ أـصـحـابـهـ؛ وـأـحـوـالـهـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ وـكـرامـاتـهـ كـثـيـرـةـ.

وفي سـنـةـ ثـلـاثـ وـسـبـعـينـ بـعـدـهـاـ تـوـفـيـ الشـيـخـ الـعـارـفـ أـبـوـ الـحـسـنـ عـلـيـ بـنـ خـلـفـ بـنـ غـالـبـ الـقـرـشـيـ دـفـنـ قـصـرـ كـتـامـةـ، نـشـأـ بـشـلـبـ مـنـ بـلـادـ الـأـنـدـلـسـ وـقـرـأـ بـقـرـطـبـةـ؛ وـاستـقـرـ آخـرـاـ بـقـصـرـ كـتـامـةـ وـبـهـ تـوـفـيـ فـيـ السـنـةـ المـذـكـورـةـ، وـقـبـلـ إـنـ فـاتـهـ كـانـ سـنـةـ ثـمـانـ وـسـتـيـنـ قـبـلـ هـذـاـ التـارـيـخـ وـالـلـهـ أـعـلـمـ. وـكـانـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ مـتـمـكـنـاـ فـيـ عـلـمـ الـقـوـمـ؛ وـكـانـ الـأـوـلـيـاءـ يـحـضـرـونـ مـجـلسـهـ، وـهـوـ مـنـ تـلـامـذـةـ أـبـيـ الـعـبـاسـ بـنـ الـعـرـيفـ الـمـتـقـدـمـ الذـكـرـ.

وفي سـنـةـ ثـمـانـيـنـ وـخـمـسـمـائـةـ تـوـفـيـ الشـيـخـ أـبـوـ عـبـدـ اللـهـ تـاـوـدـيـ الـعـلـمـ مـنـ أـهـلـ مـدـيـنـةـ فـاسـ، وـمـنـ أـصـحـابـ الشـيـخـ أـبـيـ يـعـزـىـ؛ وـكـانـ يـعـلـمـ الصـيـبـانـ فـيـ أـخـذـ الـأـجـرـ مـنـ أـوـلـادـ الـأـغـنـيـاءـ فـيـرـدـهـ عـلـىـ أـوـلـادـ الـفـقـراءـ، وـمـاتـ بـفـاسـ فـيـ السـنـةـ المـذـكـورـةـ. وـهـذـهـ النـسـبـةـ إـلـىـ بـنـيـ تـاـوـدـيـ وـهـيـ قـبـيلـةـ بـقـربـ فـاسـ.

وفي سنة إحدى وثمانين بعدها توفي الإمام المشهور أبو زيد عبد الرحمن بن الخطيب أبي محمد عبد الله بن أحمد السهيلي الخثعمي صاحب كتاب الروض الأنف وغيره من التأكيل الحسان، وصاحب الآيات المشهورة في الدعاء وهي :

أنت المعدل لكل ما يتوقع	يا من يرى ما في الضمير ويسمع
يا من إليه المشتكى والمفزع	يا من يرجى للشدائـد كلها
أمنـن فإنـ الخبرـ عنـكـ أـجـمـعـ	يا من خزائن رزقه في قولـ كـنـ
فـ بالـ اـ فـ تـ قـارـ إـلـيـكـ فـ قـرـيـ أـدـفعـ	ماـ لـيـ سـوـىـ فـقـرـيـ إـلـيـكـ وـسـيـلـةـ
فـ لـ شـنـ رـدـدـتـ فـأـيـ بـابـ أـفـرعـ	ماـ لـيـ سـوـىـ قـرـعـيـ لـبـابـ حـيـلـةـ
إـنـ كـانـ فـضـلـكـ عـنـ فـقـيرـكـ يـمـنـعـ	وـمـنـ الـذـيـ أـدـعـوـ وـأـهـتـفـ بـاسـمـهـ
الـفـضـلـ أـجـزـلـ وـالـمـوـاهـبـ أـوـسـعـ	حـاشـيـ لـجـودـكـ أـنـ تـقـنـطـ عـاصـيـاـ

كان بيلدته سهيل وهي قرية بالقرب من مالقة يتسع بالغفاف ، ويتبlix بالكفاف ، حتى نمى خبره إلى السلطان بمراكب فطلبـهـ إـلـيـهاـ وأـحـسـنـ إـلـيـهـ ؛ وأـقـبـلـ بـوـجـهـهـ غـاـيـةـ الـإـقـبـالـ عـلـيـهـ ، فـأـقـامـ بـهـاـ نـحـوـ ثـلـاثـ سـنـينـ ؛ ثـمـ تـوـفـيـ بـهـاـ يـوـمـ الـخـمـيسـ السـادـسـ وـالـعـشـرـينـ مـنـ شـعـبـانـ مـنـ السـنـةـ المـذـكـورـةـ ، وـدـفـنـ وـقـتـ الـظـهـرـ خـارـجـ بـابـ الـرـبـ أـحـدـ أـبـابـ مـرـاكـشـ ؛ وـكـانـ رـحـمـهـ اللـهـ ضـرـبـرـأـ نـفـعـنـاـ اللـهـ تـعـالـيـ بـهـ .

وفي سنة تسعين وخمسين توفي ولـيـ اللـهـ تـعـالـيـ أـبـوـ مـحـمـدـ عبدـ الـحـلـيمـ بنـ عـبـدـ اللـهـ الـمـرـاسـيـ المعـرـوفـ بـالـغـمـادـ مـنـ صـلـحـاءـ سـلاـ ، كانـ رـحـمـهـ اللـهـ عـبـدـ صـالـحـاـ ؛ يـدـورـ عـلـىـ الـمـكـاتـبـ ؛ وـيـسـتـوـهـ بـالـدـعـاءـ مـنـ الصـيـانـ ، وـيـبـكـيـ عـلـىـ نـفـسـهـ ؛ وـلـهـ كـرـامـاتـ ، وـتـوـفـيـ بـيـلدـهـ الـمـذـكـورـ ؛ وـقـبـرـهـ مـعـرـوفـ مـلـاـصـقـ لـلـمـسـجـدـ الـأـعـظـمـ قـرـبـ بـابـ الـكـبـيرـ مـنـ جـهـةـ الـقـبـلـةـ .

وفي سنة ثلاث وتسعين وخمسين توفي الشـيـخـ أـبـوـ يـعـقوـبـ يـوسـفـ بنـ عـلـيـ الـمـبـتـلـيـ . الـمـعـدـودـ فـيـ سـبـعـةـ رـجـالـ مـنـ صـلـحـاءـ مـرـاكـشـ ؛ كـانـ رـضـيـ اللـهـ عـلـيـ الـمـبـتـلـيـ .

عنه كبير الشأن، فانسلاً صابراً راضياً على ربه فيما ابتلاه به من داء الجذم؛ سقط بعض جسده ذات يوم، فصنع طعاماً كثيراً للفقراء شكرأً لله تعالى على ذلك؛ وكان يسكن بحارة الجلми العتيقة قبلي مراكش، وبها مات في شهر رجب من السنة المذكورة، ودفن خارج باب أغمات عند رابطة الغار، واحتفل الناس لجنازته رضي الله عنه.

وفي سنة أربع وستين بعدها توفي الشيخ العارف بالله تعالى، أبو مدين شعيب بن الحسن الأنصاري؛ الولي الكبير المشهور، أصله من حصن قطنية من عمل إشبيلية، ثم انتقل إلى العدوة فأخذ عن الشيخ أبي الحسن بن حرزم؛ وعن الشيخ أبي يعزى وبه انتفع وعليه تخرج، وكان الشيخ أبو مدين رضي الله عنه من العارفين الراسخين، قد خاص من الأحوال بحاراً، ومن المعارف أسراراً؛ وجال في حدائق سنة في بلاد المغرب من سبعة ومراكش وفاس، ولازم بفاس الشيخ ابن حرزم كما قلنا؛ ثم سمع بخبر الشيخ أبي يعزى فقصده وأخذ عنه وظهرت عليه بركته.

قال الشيخ أبو مدين: «لما قدمت فاساً لقيت بها الأشياخ، فسمعت رعاية المحاسب على أبي الحسن بن حرزم، وكتاب السنن للترمذى على أبي الحسن بن غالب؛ وأخذت طريقة التصوف على أبي عبد الله الدفاق وأبي الحسن السلاوي» قال: «وكنت أزور الشيخ أبي يعزى مراراً فقال لي جماعة من الفقهاء المجاورين لأبي يعزى قد ثبتت عندنا ولادة أبي يعزى؛ ولكننا نشاهد يلمس بطون النساء وصدورهن ويتنقل عليهم فيieran ونحن نرى أن لمseen حرام؛ فإن تكلمنا في هذا هلكنا، وإن سكتنا حرنا»، فقلت لهم: «أرأيتم لو أن ابنة أحدكم أو اخته أصابها داء لا يطلع عليه إلا الزوج، ولم يوجد من يعانيه إلا طبيب يهودي أو نصراني؛ ألسنتم تجيزون ذلك مع أن دوائكم مظنون؟ ودواء أبي يعزى أنتم على يقين منه؟» فبلغ كلامي أبي يعزى فاستحسنـه.

قال محمد بن إبراهيم الأنباري: «خرج الشيخ أبو مدين ألف تلميذ؛ وجاءه رجل ليعرض عليه فجلس في الحلقة فقال له أبو مدين: «لم جئت؟» قال: «الأقبس من نورك» فقال له: «ما الذي في كمك؟» فقال له: «مصحف» فقال له: «افتحه واقرأ أول سطر يخرج لك» ففعل، فخرج له قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شَعِيبًا كَانُوا هُمُ الظَّاهِرُونَ﴾ [الاعراف: ٩٢] فقال له أبو مدين: «أما يكفيك هذا؟» فاعترف الرجل وتاب. وكراماته رضي الله عنه كثيرة.

وكان استوطن في آخر عمره بجایة؛ وكثير عليه الناس، وظهرت على يده كرامات فوشى به بعض علماء الظاهر عند يعقوب المنصور؛ وقال له: «إنا نخاف منه على دولتكم، فإن له شبهاً بالإمام المهدى؛ وأنباءه كثيرة وكل بلد» فوقع منه ذلك، فكتب لصاحب بجایة يبعثه إليه وأوصاه بالاعتناء به، وأن يحمله إليه خير محمل ففعل.

ولما كان الشيخ أبو مدين رضي الله عنه بالطريق مرض مرض موته، فلما وصل وادي يسر قرب تلمسان اشتد به مرضه فنزلوا به هناك فكان آخر كلامه: الله الحق؛ فتوفي ودفن برابطة العباد قرب تلمسان. وسمع أهل تلمسان بجنازته فحضروها، وكانت من المشاهد العظيمة.

وفي سنة خمس وسبعين وخمسماة: توفي الشيخ الفقيه الصالح أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المهدوي صاحب كتاب الهدایة، أقام نحو أربعين سنة لم تفته صلاة في جماعة إلا يوماً واحداً لعدن عاقه عن ذلك؛ دخل مدينة فاس ومعه نحو من أربعين ألفاً من المال، فما زال ينفقها في سبيل الخير حتى لم يبق له إلا دار سكنه فباعها من بعض أهل فاس وأعمره المشتري لها، فلما خرجت منها جنازته حازها المشتري المذكور؛ وكانت وفاته يوم الجمعة الخامس والعشرين من جمادى الأولى من السنة المذكورة.

واعلم أنا قد قدمنا أن الشيخ أبي مدين كان تلميذاً للشيخ أبي يعزى، وكان الشيخ أبي يعزى تلميذاً للشيخ أبي شعيب الساربة؛ وكان الشيخ أبو

شعيب تلميذاً للشيخ أبي بنور الدكالي نفعنا الله بجمعهم وأفاض علينا من مددهم آمين.

ولترجع إلى أخبار الدولة الموحدية فنقول:

الخبر عن دولة أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد الناصر لدين الله بن يعقوب المنصور بالله

بويع لأبي عبد الله محمد الناصر لدين الله في حياة والده يعقوب المنصور، ثم جددت له البيعة بعد وفاته وذلك يوم الجمعة الثاني والعشرين من ربيع الأول سنة خمس وتسعين وخمسماة، وهو اليوم الذي توفي فيه أبوه، فأقام بمراكش بقية ربيع الأول وربيع الثاني؛ ثم نھض في فاتح جمادى الأولى إلى فاس؛ فأقام بها بقية السنة المذكورة.

ثم غزا جبال غمارة من أجل علوان الغماري الشائر بها ففتحها، ثم رجع إلى فاس فأتم بناء سورها الذي كان خربه عبد المؤمن وبين قصبتها ورتب أمرها، وأقام بها إلى سنة ثمان وتسعين وخمسماة؛ فعاد إلى مراكش وأقام بها إلى أن كان ما نذكره.

غزو الناصر بلاد إفريقية وولاية الشيخ أبي محمد بن أبي حفص عليها والسبب في ذلك

لما هلك المنصور رحمه الله قوي أمر يحيى بن إسحاق - المعروف بابن خانية بإفريقيا - واستولى على أعمال قراقوش الغزي صاحب طرابلس وعلى المهدية، وتغلب على بلاد الجريد؛ ثم نازل تونس سنة تسعة وتسعين وخمسماة. وافتتحها عنوة لأربعة أشهر من حصارها في ختام المائة السادسة، وقبض على السيد أبي زيد وابنه ومن كان معه من الموحدين؛

وطالب أهل تونس بالنفقة التي أنفق. وبسط عليهم العذاب حتى هلك في الامتحان كثير من بيوتاتهم. ثم دخل في دعوته أهل القيروان وغيرها من البلاد، وانتظمت له أعمال إفريقية؛ وفرق العمال؛ وخطب للخليفة العباسى.

وأتصل بالناصر وهو بمراكش هذا كله فامتعض لذلك، وشاور الموحدين في أمر إفريقية؛ فأشاروا عليه بمسالمة ابن غانية، وأشار الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص بالنهوض إليها والمدافعة عنها، فعمل على رأيه؛ ونهض إليها سنة ستمائة وبعث الأسطول في البحر لنظر يحيى بن أبي زكريا الهزرجي.

وأتصل ذلك بابن غانية فبعث ذخائره وحرمه إلى المهدية مع علي بن الغاني من قرابته وولاه عليها.

ولما قرب الناصر من إفريقية خرج ابن غانية من تونس إلى القيروان ثم إلى قصبة، واجتمع إليه العرب وأعطوه الرهائن على المظاهره والدفاع؛ وسار إلى حامة مطماطة؛ ثم إلى جبلبني دمر فتحصن به.

ووصل الناصر إلى تونس، ثم سار في اتباع ابن غانية إلى قصبة ثم إلى قابس، ثم عاد إلى المهدية فعسكر عليها، واتخذ الآلة لحصارها؛ وسرح الشيخ أبي محمد عبد الواحد لقتال ابن غانية في أربعة آلاف من الموحدين سنة اثنين وستمائة، فلقيه بجبل تاجورة من نواحي قابس وأوقع به؛ وقتل أخاه جبارة بن إسحاق؛ واستنقذ السيد أبي زيد من معتقله.

وأما الناصر فإنه استمر محاصراً للمهدية وبها يومئذ علي بن الغاني، وكان يدعى بالحاج، وكان شهماً محارباً فامتنع على الناصر وأبدى من مكاييد الحرب وخداعه ما يقصر عنه الوصف، وأشجع الموحدين وبالغ في نكاياتهم؛ فكأنوا يسمونه الحاج الكافر. ثم نزل على الأمان وأحسن إليه الناصر إحساناً تاماً، وسماه بالحاج الكافي بالياء بدل الراء لما رأى من مراعاة

لصاحبه وحسن عهده معه . واستشهاد الحاج الكافي هذا في وقعة العقاب الآتية :

وكان فتح المهدية في السابع والعشرين من جمادى الأولى سنة اثنين وستمائة ، وولي الناصر عليها محمد بن يغمور الهرغى ؛ وارتحل عنها في عشرين من جمادى الثانية ؛ فدخل تونس غرة رجب وأقام بها بقية السنة وأكثر الذي بعدها .

ولما كان رمضان من سنة ثلاثة وستمائة أشاع الناصر الحركة إلى المغرب ، واستخلف على إفريقيا ثقته ووزيره الشيخ أبي محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص الهمتاني جد الملوك الحفصيين بعد مراجعة وامتناع .

قال ابن خلدون : امتنع الشيخ أبو محمد إلى أن بعث إليه الناصر في ذلك بابنه يوسف فأكابر مجيئه وأذعن ، ويقال إن الناصر قال له : « يا أبي محمد أنت تعلم ما تجشمناه من المشاق والصواieri في استنقاذ هذا القطر ، ولا آمن عليه من عدو متوب ، ولا يقوم بحمایته إلا أنا أو أنت . فامض إلى حفظ ممالكنا المغربية وأقيم أنا ، أو قم أنت وأرجع أنا ». فقنعه الحياة حينئذ وأذعن للإقامة ، واشترط شروطه المعروفة ؛ وهي أن يقيم ثلاثة سنين ريثما تترتب الأحوال ثم يعود إلى وطنه ، وأن يحكمه الناصر فيما يحيشه معه من الجندي ويرضاه من أهل الكفاية ، وأن لا يتعقب أمره في ولاية ولا عزل ؛ فقبل الناصر شروطه .

ولما عزم الناصر على التهوض إلى المغرب خرج إليه أهل تونس رافعي أصواتهم بين يديه إشتفاقاً من عود ابن خانية إليهم ، فاستدعاي وجوهم وكلمهم بنفسه ؛ وقال : إننا قد اخترنا لكم من يقوم مقامنا فيكم وأثرواكم به على شدة حاجتنا إليه وهو فلان ، فتبادر الناس بولايته . وشيع الناصر إلى باجة ورجع والياً على جميع بلاد إفريقيا ، واستقل بأمرها ونهيها .

فمن هنا ورثت الملوك الحفصيون سلطنة تونس وإفريقيا ، ووقف الناصر

إلى المغرب فدخل مراكش في ربيع سنة أربع وستمائة. ولما استقر بالحضره وفدت عليه الوفود. وهنأته الشعرا بالفتح. فكان من ذلك ما أنشده ابن مرج الكحل وهو قوله:

ولما توالى الفتح من كل وجهة
تركتنا أمير المؤمنين لشکره
بما أودع السر الإلهي عنده
فلا نعمة إلا تؤدي حقوها

فاستحسن الكتاب منه ذلك ووقع أحسن موقع، وأشار بذلك إلى العلامة السلطانية عند الموحدين؛ فإنها كانت آن يكتب السلطان بيده بخط غليظ في رأس المنشور: الحمد لله وحده، وقد تقدم ذلك والله أعلم.

فتح جزيرة ميورقة

كانت جزيرة ميورقة لبني غانية المسوفيين من عهد علي بن يوسف بن تاشفين اللمتوني، وكان يعقوب المنصور قد بعث إليها أسطوله مراراً فامتنعت عليه، ولما ولی ابنه الناصر وغزا إفريقية وجه إليها من ثغر الجزائر أسطولاً مع عمه السيد أبي العلاء؛ والشيخ أبي سعيد بن أبي حفص فنازلوها ثم اقتحموها عنوة، وقتلوا صاحبها عبد الله بن إسحاق المسوفي.

وانصرف السيد إلى مراكش بعد أن ولی عليها عبد الله بن طاع الله الكومي، ووفد أهلها على الناصر فأكرم وفادتهم. وولی القضاء عليهم الفقيه الجليل المحدث أبي محمد عبد الله بن سليمان الأنصاري المعروف بابن حوط الله، ذكره ابن الخطيب في الإحاطة فقال: «كان مشهوراً بالعقل والفضل، معظمًا عند الملوك معلوم القدر لديهم، يخطب في مجالس الأمراء والمحافل الجمهورية مقدماً في ذلك، ذا بلاغة وفصاحة إلى أبعد مضمار، ولی قضاء إشبيلية وقرطبة ومرسية وسبتة وسلا وميورقة فتظاهر بالعدل،

وُعرف بما أبطن من الدين والفضل، وكان من العلماء العاملين. مجانياً لأهل البدع والأهواء، بازع الخط؛ حسن التقى إلى غير ذلك.

ثم ولَى الناصر على ميورقة عمه السيد أبي زيد؛ وجعل ابن طاع الله على قيادة البحر وبعد السيد أبي زيد ولديها السيد أبو عبد الله بن أبي حفص بن عبد المؤمن، ثم أبو يحيى بن علي بن أبي عمران التينملي؛ ومن يده أخذها النصارى سنة سبع وعشرين وستمائة وكان الحادث بها عظيماً.

ثورة ابن الفرس وما كان من أمره

كان عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن الفرس من طبقة العلماء بالأندلس، ويعرف بالمهر، وحضر مجلس يعقوب المنصور في بعض الأيام وتكلم بما خشي عاقبته في عقده، فخرج من المجلس واختفى مدة؛ ثم القحطاني المراد بقوله ﴿لَا تَقْرُمِ السَّاعَةَ حَتَّى يَخْرُجَ رَجُلٌ مِّنْ قَحْطَانٍ يَسْوِقُ النَّاسَ بِعَصَاهِ يَمْلأُهَا عَدْلًا كَمَا ملئتْ جُورًا الْحَدِيثَ﴾. وكان مما نسب إليه من الشعر قوله:

تأهيلوا لوقوع الحادث الجلل	قولا لأبناء المؤمن بن علي
ومنتهمي القول والغلاب للدول	قد جاء سيد قحطان وعالماها
بالأمر والنهي بحر العلم والعمل	والناس طرع عصاه وهو سائقهم
ويادروا أمره فالله ناصره	والله خادع أهل الزيف والميل

فبعث الناصر إليه الجيوش فهزمه، وقتل وسيق رأسه إلى مراكش فنصب بها وسكنت الفتنة.

وقد ثار أيضاً في سنة ستمائة رجل من آل البيت من العبيديين واسمهم محمد بن عبد الله بن العاصد - وهذا العاصد هو آخر خلفاء الشيعة بمصر - فثار حافده محمد بن عبد الله المذكور بمجال ورغبة من أحوال فاس؛ فظفر به

وقتل وعلق رأسه بباب الشريعة أحد أبواب فاس، وأحرق جسده في وسط الباب المذكور، وركبت مصارعه فسمى الباب بباب المحروق بعد أن كان يسمى بباب الشريعة.

ثم في سنة عشر وستمائة ثار ولد هذا المحروق بجبل غماره وادعى أنه الفاطمي؛ وتبعه خلق كثير من أهل الجبل والبادية، فبعث إليه الناصر جيشاً فظفر به وقتل.

وفي سنة إحدى وستمائة بنى عامل الريف من قبل الناصر - واسمه يعيش - سور بادس ولمدية ومليلية حيطة وتحصيناً من فجأة العدو.

وفي سنة أربع وستمائة أمر الناصر بتجديده سور مدينة وجدة وإصلاحها، فشرع في ذلك في فاتح رجب من السنة المذكورة. وفيها أيضاً أمر الناصر ببناء دار الوضوء والسباعية بإزار جامع الأندلس بفاس، فبنيت وجلب إليها الماء من العين التي خارج باب الحديد؛ وأمر ببناء الباب الكبير المدرج الذي بحصن الجامع المذكور وأنفق في ذلك كله من بيت المال.

وفيها أيضاً أمر ببناء مصلى القرويين، وأمر أن لا يصلى بمصلى الأندلس؛ فأقام الناس يصلون بعدها القرويين ثلاثة سنين ثم عادوا يصلون بالأندلس والقرويين معاً، كما كانوا أولاً بعد أن شهد أنها قديمة.

وفي شوال من السنة المذكورة نهض الناصر من فاس إلى مراكش فأقام بها إلى أن كان ما ذكره.

غزوة العقاب التي محن الله فيها المسلمين

ثم اتصلت الأخبار بالناصر وهو بمراكبش أن الفتن لعنه الله قد استطال على ثغور المسلمين بالأندلس، وأنه يغير على قراها وينهب الأموال ويسبى النساء والذرية؛ فأهمه ذلك وأقلقه وكتب إلى الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص صاحب إفريقية يستشيره في الغزو؛ فأبى عليه فحالله وأخذ في الحركة للجهاد.

وكان الناصر معجبًا برأيه، مستبدًا بأمره؛ ففرق الأموال على القواد والأجناد؛ وكتب إلى جميع بلاد إفريقية والمغرب وببلاد القبلة يستنفر المسلمين لغزو الكفار فأجابه خلق كثير، وألزم كل قبيلة من قبائل العرب بحصة من الخيل والرجل تخرج للجهاد، فتقدمت عليه الجيوش من سائر الأقطار، وتسارع الناس إليه خفافاً وثقالاً من البوادي والأماصار.

فلما تكاملت لديه الحشود وتواترت بحضرته الجنود خرج من مراكش في ناسع عشر شعبان سنة سبع وستمائة؛ فانتهى إلى قصر المجاز فأقام به وشرع في إجازة الجيوش من أوائل شوال إلى أواخر ذي القعدة من السنة المذكورة، فتلقاء هنالك قواد الأندلس وفقهاوها ورؤساؤها؛ وأقام بطريف ثلاثة، ثم نهض إلى إشبيلية في أمم لا تحصى - وجيوش لا تستقصى قد ملأت السهل والوعر.

حکى بعض الثقات من مؤرخي المغرب أنه اجتمع مع الناصر في هذه الغزوة من أهل المغرب والأندلس ستمائة ألف مقاتل، وكان الناصر رحمة الله قد أعجبه ما رأى من كثرة جنوده؛ وأيقن بالظفر فقسم الناس على خمس فرق، فجعل العرب فرقة؛ وزناته وصنهاجة والمصامية وغمارة وسائر أصناف قبائل المغرب فرقة؛ وجعل المتطرفة فرقة، وجعل جند الأندلس فرقة؛ والموحدين فرقة؛ وأمر كل فرقة أن تنزل ناحية، واهتزت جميع بلاد

الفرنج لجوازه، وتمكن رعبه في قلوبهم، فأخذوا في تحصين بلادهم وإخلاء ما قرب من المسلمين من قراهم وحصونهم. وكتب إليه أكثر أمرائهم يسألونه السلم ويطلبون منه العفو، ووقد عليه منهم ملك ينبلونة مستسلماً خاضعاً طالباً للصلح؛ فيقال إنه قدم بين يديه كتاب النبي ﷺ الذي كتبه إلى هرقل ملك الروم يستشفع به؛ وقد كان هذا الكتاب وقع إليه وراثة من بعض سلفه، فاحتفل الناصر لقدمه؛ وصف له الجيوش من باب مدينة قرمونة إلى باب إشبيلية أربعين ميلاً، ثم عقد له الصلح ما دامت دولة الموحدين؛ وصرفه إلى بلاده مكرماً مسخناً بجميع مطالبه.

وعند ابن خلدون أن الذي وفدى على الناصر في هذه الغزوة هو البيبيوج أحد الملوك الثلاثة الذين شهدوا وقعة الأرك؛ قال: وهو الذي مكر بالناصر يوم العقاب، قدم عليه وأظهر له التنصح وبذل له أموالاً؛ ثم غدر به وجر عليه الهزيمة والله أعلم.

ثم خرج الناصر من إشبيلية غازياً بلاد قشتالة في أوائل صفر سنة نمان وستمائة، فسار حتى نزل حصن سلبطرة وهو حصن منيع وضع على قمة جبل، وقد تعلق بأكتاف السحاب ليس له مسلك إلا من طريق واحد في مضائق وأوعار؛ فنزل عليه لناصر وأدار به الجيوش، ونصب عليه أربعين منجيقاً فهتك أرياضه؛ ولم يقدر منه على شيء.

قالوا: وكان وزيره أبو سعيد بن جامع قد تمكن من الناصر، فأقصى شيخ الموحدين وأعيانهم وذوي الحنكة والرأي منهم عن بساطه، وانفرد هو به فكان يشير على الناصر في غزوته هذه بآراء كانت سبب الضعف والنلومن، وجلبت الكثرة على المسلمين من ذلك أن الناصر لما أعيده أمر الحصن عزم على النهوض عنه إلى غيره؛ فأشار عليه ابن جامع بأن لا يتجاوزه حتى يفتحه، فيقال إنه أقام على ذلك الحصن ثمانية أشهر فنيت فيها أزواب الناس؛ وقللت علوقاتهم؛ وكلت عزائمهم، وفسدت نياتهم؛ وانقطعت الأمداد عن

المحلة فغلت بها الأسعار، ودخل فصل الشتاء فاشتد البرد وأصاب المسلمين كل ضر، ويقال إنه من طول مقام الناصر على ذلك الحصن عشش الخطاف في جانب خبائه وباض وأفرخ وطارت فراخه وهو مقيم على حاله.

وأتصل بالفشل لعنه الله ما آلت إليه أمر المسلمين من الضجر وقلة المادة وتشوش البواطن واختلاف الرأي، فاختتم الفرصة وبعث الحاشرين في مدائنه ودعا كل من قدر على حمل السلاح من رعيته، فاجتمع له من ذلك ما لا حصر له.

ثم خالف الناصر إلى قلعة رياح فنزل لها، وبها يومئذ أبو الحجاج يوسف بن قادس من قواد الأندلس وزعماها، كان قد ترتب في ذلك الحصن في جماعة من الخييل لحمايته وضبطه، فحاصره الفتنش وبالغ في التスピيق عليه؛ فكان ابن قادس يكتب لأمير المؤمنين الناصر يعلمه بحاله ويستمدده على عدوه، وهو على حصن سلطنة؛ فكان الوزير ابن جامع إذا وصلت إليه كتب ابن قادس أخفاها عن الناصر لثلا يرحل عن الحصن قبل فتحه، فلما طال الحصار على ابن قادس وفتى ما عنده من الأقوات والسلاح ويتسع من إمداد الناصر إياه وخشي على من في الحصن من النساء والذرية صالح الفتنش على تسليم الحصن له وخروج المسلمين آمنين على أنفسهم، ففعل؛ واستولى الفتنش على قلعة رياح.

وسار ابن قادس إلى الناصر ليجتمع به ويعلمه بالأمر على وجهه؛ وسار معه صهر له بعد أن عزم ابن قادس عليه أن يرجع فأبى، وقال: إن قتلت قتلت معك! ولما وصل إلى الوزير ابن جامع أمر بحبسه وحبس صهره معه، ثم دخل على الناصر فقال له: إن ابن قادس قد دفع الحصن إلى العدو ثم قدم عليك وأراد الدخول عليك.

وكان الناصر قد تغير باطنه على أهل الأندلس، واتهمهم بكتمان أمر العدو عنه حين كان بمراكش؛ فلما قدم ابن قادس في هذه المرة وقال له ابن

جامع ما قال أمر بقتله هو وصهره قطعاً بالرماح رحمهما الله.

فتحت جيوش الأندلس على ابن جامع وفسدت نياتهم على الناصر، وأحس ابن جامع بذلك فأمر بإحضار قوادهم فحضروا بين يديه، فقال اعتزلوا جيش الموحدين فلا حاجة لنا بكم كما قال الله تعالى : «لَوْ حَرَجُوكُمْ فَيُكَوِّنُ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا حَبَالًا» [النوبة: 47]. وستنظر بعد هذا في أمر كل فاجر.

ولما علم الناصر بحال الفتش وما هو عليه من القوة وكثرة الجموع واستيلائه على قلعة رياح التي هي أمنع ثغور المسلمين شق ذلك عليه؛ وامتنع من الطعام والشراب حتى مرض من شدة الوجد، ثم شدد في قتال سلططرة وبذل الأموال الجليلة حتى فتحها صلحًا وذلك في أواخر ذي الحجة من سنة ثمان وستمائة، ثم زحف الفتش إلى الناصر ونهض الناصر إليه فالتحق الجمعان بموضع يعرف بحصن العقبان، فضرب المتصاف وضرب للناصر قبته الحمراء المعدة للقتال على رأس ربيبة، وقعد أمامها على درنته وفرسه قائم بإزاره؛ ودارت العبيد بالقبة من كل ناحية ومعهم السلاح التام ووقفت الساقات والبنود والطبلول أمام العبيد مع الوزير ابن جامع؛ وأقبلت جموع الفرنج على مصافها كأنها الجراد المتشر، فتقدمت إليهم المتقطعة وحملوا عليهم أجمعون وكانوا مائة وستين ألفاً، فغابوا في صفوهم وانطبقت عليهم الفرنج فاقتتلوا قتالاً شديداً فاستشهد المتطوعة عن آخرهم هذا وعساكر الموحدين والعرب والأندلس ينظرون إليهم لم يحرك إليهم منهم أحد.

ولما فرغ الفرنج من المتطوعة حملوا بأجمعهم على عساكر الموحدين والعرب حملة منكرة. فلما انتصب القتال بين الفريقين فرقت قواد الأندلس وجيوشها لما كانوا قد حقدوه على ابن جامع في قتل ابن قادس أولأـ، وتهديدهم وطرده لهم ثانياً، فجرروا الهزيمة على المسلمين ولا حول ولا قوة إلا بالله؛ وتبعهم قبائل البربر والموحدون والعرب، وركبتهم الفرنج بالسيف وكشفوهم عن الناصر حتى انتهوا إلى الدائرة التي دارت عليه من العبيد

والحشم، فألفوها كالبنيان المرصوص لم يقدروا منها على شيء؛ ودفع الفرنج بخيالهم المدرعة على رماح العبيد وهي مشرعة إليهم فدخلوا فيها والناصر قاعد على درقته أمام خيائه يقول: «صدق الرحمن وكذب الشيطان» حتى كانت الفرنج تصل إليه، وحتى قتل حوله من عبيد الدائرة نحو عشرة آلاف؛ ثم أقبل إليه بعض فرسان العرب على فرس له أنشى فقال له: إلى متى قعودك يا أمير المؤمنين وقد نفذ حكم الله وتم أمره وفني المسلمين؟ فعند ذلك قام الناصر إلى جواد له سابق كان أمامه فأراد أن يركبه فترجل العربي عن فرسه وقال له: اركب هذه الحرة فإنها لا ترضي بعار، فلعل الله ينجيك عليها فإن في سلامتك الخير كله. فركبها الناصر، وركب العربي جواده، وتقدم أمامه في كوكبة عظيمة من العبيد محطة بهم، والفرنج في أعقابهم تقتلهم ونادي الفتن يومئذ: ألا لا أسر إلا القتل، ومن أتى بأسير قتل هو وأسيره؛ فحكمت سيف الفرنج في المسلمين إلى الليل.

وكانت هذه الرزية العظيمة يوم الاثنين الخامس عشر صفر سنة تسع وستمائة. فذهبت قوة المسلمين بالمغرب والأندلس من يومئذ ولم تنصر لهم بعدها راية مع الفرنج إلى أن تدارك الله رمق الأندلس بالسلطان المنصور بالله يعقوب بن عبد الحق المربي رحمه الله كما سنقص خبر ذلك مستوفى عند الوصول إليه إن شاء الله.

قال ابن الخطيب: لما لحق الناصر بإشبيلية حمل السيف على طائفة كبيرة من توجهت إليهم الظنة. وقال ابن خلدون: ثم رجعت الفرنج إلى الأندلس بعد الكاثمة للإغارة على بلاد المسلمين، فلقيتهم السيد أبو زكريا بن أبي حفص بن عبد المؤمن قريباً من إشبيلية فهزمهم واتعنث المسلمون بها واتصلت الحال على ذلك.

وفاة الناصر رحمه الله

قال ابن أبي زرع: لما قدم الناصر إلى مراكش منصرفًا من وقعة العقاب أخذ البيعة لولده يوسف الملقب بالمتصر، فباعيه كافة الموحدين؛ وخطب له على جميع متابر المغرب والأندلس في العشر الأواخر من ذي الحجة سنة تسع وستمائة.

ولما تمت له البيعة دخل الناصر قصره واحتجب فيه عن الناس وإنغمس في لذاته مصطباحاً ومحبباً إلى شعبان من سنة عشر وستمائة فمات مسموماً بتدبير وزرائه عليه في ذلك، قال: وكانت وفاته يوم الأربعاء الحادي عشر من شعبان المذكور.

وقال ابن خلkan: تقول المغاربة إن الناصر رحمه الله كان قد أوصى إلى عبيده المستغلين بحراسة بستانه بمراكش أن كل من ظهر لهم بالليل فهو مباح الدم لهم، ثم أراد أن يختبر قدر أمره عندهم فتذكر وجعل يمشي في البستان ليلاً فعندما رأوه جعلوه غرضاً لرمادهم، فجعل يقول: أنا الخليفة أنا الخليفة؛ فما تحققوا حتى فرغوا منه والله أعلم بصحة ذلك.

قلت: الصحيح في وفاة الناصر ما ذكره الوزير ابن الخطيب في رقم الحلل قال: «ثم صرف الناصر وجهه إلى غزو الأندلس في عزم لم يبلغ إليه ملك قبليه، ولما احتل رياط الفتح من سلا نزل به الموت فتوفي ليلة الثلاثاء عاشر شعبان سنة عشر وستمائة فانحل العزم وتفرق الجموع^(١) والبقاء له وحده.

(١) وذكر صاحب كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب وهو أبو محمد عبد الواحد المراكشي أنه اختلف في سبب وفاته وأصلح ما بلغه في ذلك أنه أصابته سكتة من ورم في دماغه وذلك يوم الجمعة الخامس خلون من شعبان فأقام ساكتاً لا يتكلّم يوم السبت والأحد والاثنين وأشار عليه الأطباء بالفصيد فأبى ذلك وتوفي يوم الأربعاء العاشر خلون من شهر شعبان من سنة ٦١٥ ودفن يوم الخميس، صلى عليه خاصة الحشم أهـ.

الخبر عن دولة أمير المؤمنين يوسف المنصور بالله ابن الناصر بن المنصور رحمه الله

لما هلك محمد الناصر لدين الله بريع ابنه أبو يعقوب يوسف بن محمد بن يعقوب المنصور وهو ابن ست عشرة سنة، ولقب بالمنتصر بالله؛ وغلب عليه الوزير أبو سعيد بن جامع ومشيخة الموحدين، فقاموا بأمره؛ واستبدوا عليه؛ وتأخرت بيعة الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص من إفريقية لصغر سن المنصور، ثم وقعت المحاولة من الوزير ابن جامع وصاحب الأشغال عبد العزيز بن أبي زيد فوصلت بيعته حينئذ، واشتغل المنصور عن تدبير الأمر والجهاد بما يقتضيه الشباب.

وعقد للسادات على عمالات ملكه؛ فعقد للسيد أبي إبراهيم إسحاق بن يوسف بن عبد المؤمن - ويلقب بالظاهر - على فاس وأعمالها، وهو أخو المنصور ووالد عمر المرتضى الآتي ذكره. وعقد لعمه السيد أبي إسحاق بن المنصور على إشبيلية وما أضيف إليها، ولعمه أبي عبد الله محمد بن المنصور على بلنسية وشاطبة وأعمالها؛ ولعمه أبي محمد عبد الله بن المنصور على مرسيه ودانية وأعمالها. وبعث معه الشيخ أبي زيد بن يرجان وكان من أشياخ الموحدين ودهائهم.

وفي دولة المنصور هذا فشل أمر الموحدين وذهبت ريحهم، وأشرفت دولتهم على الهرم؛ واستولى الفتن على المعاقل التي أخذها المسلمون؛ وهزم حامية الأندلس في كل جهة؛ واستبدلت السادة بالأطراف، والثائت الأمور بالأندلس والمغرب أجمع. أما الأندلس فبتكمال العدو عليها وفناء حماتها؛ وأما المغرب فبخلاء كثير من قراه وأمساره من وقعة العقاب.

ثم ظهرت بنو مرين بجهة فاس سنة ثلات عشرة وستمائة؛ وكانتوا موطنين بصحراء فيجيج وما والاها، فاقتحموا المغرب في هذه السنين لخلائه

من المحامية، واكتسحوا بساحتها بالغارات؛ وانحازت رعایاه إلى المعاقل والمحصون؛ وكثُرت الشكایات بهم إلى المنتصر؛ وهو مقيم بمراكش فكتب إلى السيد أبي إبراهيم صاحب فاس يأمره بغزوهم، فخرج إليهم وهو ببلاد الريف؛ فأوقعوا به وقعة شناء كانت باكورة فتحهم، وعاد السيد مفلولاً إلى فاس؛ وأصحابه عراة بين يديه يخصفون عليهم من ورق النبات المعروف بالمشعلة؛ فسميت السنة سنة المشعلة، وكانوا قد أسروا السيد أبي إبراهيم ثم عرفوه فأطلقواه. ثم صمدت بنو مرين بعدها إلى تازا فقلوا حاميتها؛ وعظمت شوكتهم بالغرب على ما ذكره بعد إن شاء الله.

وفي سنة أربع عشرة وستمائة هزم المسلمين بقصر أبي دانس من الأندلس، وهي من الهزائم الكبار التي تقرب من هزيمة العقاب؛ لأن العدو كان قد نزل قصر أبي دانس وحاصره، فخرج إليه جيش إشبيلية وجيش قرطبة وجيشه جيان وحشود بلاد غرب الأندلس لاستنقاذ قصر أبي دانس؛ وكان ذلك بأمر المنتصر، فساروا يؤمنون العدو؛ فلم تقع عينهم على عينه إلا وقد خامر قلوب المسلمين الرعب وولوا الأدبار لما كان قد رسم في نفوسهم من بأسه يوم العقاب، فتكالب العدو بعدها على المسلمين وتمرس بهم وهان عليه أمرهم، وخشع نفوسهم له. ولما فروا منه في هذه الخرجة ركبهم بالسيف وقتلهم عن آخرهم، ورجع الفتش إلى قصر أبي دانس فحاصره حتى اقتحمه عنوة وقتل جميع من به من المسلمين.

وفي سنة ثمان عشرة وستمائة توفي صاحب إفريقية الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص؛ فباعي الموحدون بإفريقية ابنه أبي زيد عبد الرحمن، فقام بالأمر وأطfa الناثرة؛ وأفاض العطاء ومهد التواحي ورتب الأمور حتى ورد كتاب المنتصر من مراكش لثلاثة أشهر من ولايته بتأشيره وتولية السيد أبي العلاء الأكبر مكانه، وهو إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن. فقدم إفريقية في ذي القعدة سنة ثمان عشرة وستمائة، ووالى

الهزائم على ابن غانية الثائر بإفريقية حتى شرد إلى الصحراء، وأبو العلاء هذا هو الذي بنى البرجين اللذين على باب المهدية وحصنهما، وهو الذي بنى برج الذهب بإشبيلية أيام ولادته عليها في دولة أبيه، وأقام أبو العلاء بإفريقية إلى أن توفي بتونس منها في شعبان سنة عشرين وستمائة.

واستولى على إفريقية بعده ابنه أبو زيد بن إدريس؛ وساعت سيرته في الناس، وأقام على ذلك إلى دولة العادل عبد الله بن المنصور صاحب مراكش فعزله وولى مكانه عبد الله بن عبد الواحد بن أبي حفص.

ثم غلب عليه آخره أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص، وتداول ملك إفريقية بيته من بعده؛ واستبدوا بها واقتطعواها عن نظربني عبد المؤمن أصحاب مراكش، فلم تعد إليهم بعد.

وأما يوسف المنصور فإنه استمر مقیماً بمراكش على لذاته إلى أن توفي، وكان من خبر وفاته أنه كان مولعاً باتخاذ الحيوان واستئنافه؛ فكان يؤتى إليه بأصناف البقر من الأندلس فيرسلها في بستانه الكبير من حضرة مراكش، ويحمل بعضها على بعض للتناسل؛ فخرج ذات يوم للتطفوف على تلك البقر والنظر إليها، فتوسط قطيعاً منها وقد ركب فتشيا فأنكرته بقرة شرود كانت في ذلك القطيع فطعنته في صدره طعنة أتت عليه من حينه، وذلك في عشي يوم السبت الثاني عشرة من ذي الحجة سنة عشرين وستمائة ولم يخلف إلا حملأ من جارية له.

قال ابن خلkan: لم يكن فيبني عبد المؤمن أحسن وجهأ من المنصور ولا أبلغ في المخاطبة، إلا أنه كان مشغولاً براحته؛ فلم يربح عن حضرته فضلت الدولة في أيامه والله تعالى أعلم.

الخبر عن دولة أمير المؤمنين عبد الواحد المخلوع ابن يوسف بن عبد المؤمن رحمه الله

لما هلك المنصور في التاريخ المتقدم اجتمع الوزير ابن جامع والموحدون وبايعوا للسيد أبي محمد عبد الواحد بن يوسف وهو أخو المنصور.

قال ابن أبي زرع: بايعوه على كره منه بقية المنصور من قصبة مراكش وهو يومئذ في سن الشيخوخة، وكان عالماً فاضلاً متربعاً، فاستقام له الأمر نحو شهرين، وخطب له في جميع أعمال الموحدين ما عدا مرسيّة؛ فإن ابن أخيه السيد أبي محمد عبد الله بن المنصور الملقب بالعادل كان والياً عليها، وكان وزيرها بها الشيخ أبي زيد بن يرجان المعروف بالأصفر؛ وكان من دهاء الموحدين، وكان المنصور رحمه الله إذا رأه يستعيد بالله من شره؛ ويقول: ماذا يجري على يديك من الفتنة يا أصفر؟ وكان من خبره أنه لما بويغ المخلوع أمر بإطلاق ابن يرجان لأنه كان محبوساً على ما عند ابن خلدون، فأطلق ثم صده ابن جامع عن ذلك، وأنفذ أخاه أبي إسحاق في الأسطول ليغريه إلى ميورقة، فلاذ ابن يرجان حينئذ بعد الله بن المنصور صاحب مرسيّة، ونزل منه منزلة الوزير وأغرىه بالتوبيخ على الأمر، وشهد له أنه سمع من المنصور رحمه الله العهد له بالخلافة من بعد الناصر. وقال له فيما قال: إنك أحق بالخلافة من عبد الواحد، أنت ولد المنصور وأخو الناصر وعم المنصور، ولذ الرأي وحسن السياسة والحزم. ولو دعوت الموحدين إلى يبعثك لم يختلف عليك اثنان.

وكان الناس على كره من ابن جامع وولاة الأندلس يومئذ كلهم بنو المنصور، فأصغى إليه عبد الله هذا؛ وكان متربداً في بيته عممه؛ فبرز إلى مجلس حكمه؛ واستدعى من بمرسيّة وأعمالها من الموحدين والفقهاء والأشياخ فدعاهم إلى بيته؛ فبايعوه وتسمى بالعادل؛ وكان إخوه أبو العلاء

الأصغر صاحب قرطبة وأبو الحسن صاحب غرناطة وأبو موسى صاحب مالقة فباعوه سراً، وكان أبو محمد بن أبي عبد الله بن أبي حفص بن عبد المؤمن المعروف بالبياسي صاحب جيان وقد عزله المخلوع بعمه أبي الربيع بن أبي حفص فانتقض وبائع للعادل، وزحف مع أبي العلاء صاحب قرطبة وهو آخر العادل إلى إشبيلية وبها عبد العزيز آخر المنصور والمخلوع، فدخل في دعوتهما؛ وامتنع السيد أبو زيد بن أبي عبد الله آخر البياسي عن بيعة العادل وتمسك بطاعة المخلوع، وخرج العادل من مرسيه إلى إشبيلية فدخلها مع أبي زيد بن يرجان، وبلغ الخبر إلى مراكش فاختلف الموحدون على المخلوع؛ وبادروا بعزل ابن جامع وتغريبه إلى هسکورة لكراهيتهم له، وجرت خطوب أفضت إلى خلع عبد الواحد وقتله.

وفي القرطاس: أن عبد الواحد العادل كتب إلى أشياخ الموحدين الذين بحضوره مراكش يدعوهم إلى بيعته وخلع عبد الواحد، ووعدهم على ذلك الأموال الجزيلة والمنازل الرفيعة والولايات الجليلة، فسارعوا إلى ذلك، ودخلوا على عبد الواحد وتهذدوه بالقتل إلا أن يخلع نفسه وبابيع للعادل؛ فأجابهم إلى ذلك؛ فخرجوا عنه، ووكلوا بالقصر من يحفظه، وكان ذلك يوم السبت الحادي والعشرين من شعبان سنة إحدى وعشرين وستمائة.

فلما كان يوم الأحد بعده دخلوا على عبد الواحد القصر وأحضروا القاضي والفقهاء والأشياخ فأشهدوا على نفسه بالخلع وبابيع للعادل؛ ثم دخلوا عليه بعد مضي ثلاثة عشرة ليلة من خلعه فخفقاه حتى مات؛ وانتهوا قصره واستولوا على أمواله وحريمه، فكان عبد الواحد هذا أول من خلع وقتل من بني عبد المؤمن، وصار أشياخ الموحدين لخلفائهم كالأتراك لبني العباس؛ فكان فعلهم ذلك سبباً لذهب ملكهم وانقراض دولتهم. والله تعالى لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. وكانت وفاة عبد الواحد المخلوع الخامس رمضان المعظم سنة إحدى وعشرين وستمائة.

الخبر عن دولة أبي محمد عبد الله العادل ابن المنصور رحمة الله

بويع له البيعة الأولى بمرسية من بلاد الأندلس متتصف صفر سنة إحدى وعشرين وستمائة. وتلقب بالعادل في أحكام الله؛ ثم خلص له الأمر وبايده كافة الموحدين؛ وخطب له بحضورة مراكش أواخر شعبان من السنة المذكورة.

وتوقف عن بيته السيد أبو زيد بن أبي عبد الله أخو البياسي كما ذكرناه آنفًا، وكان واليًا على بلنسية وشاطبة ودانية؛ ولما رأى السيد أبو محمد البياسي أخاه السيد أبي زيد توقف عن بيعة العادل وضبط بلاده ثار هو ببياسة وما انصاف إليها من قرطبة وجيان وقيجاطة وحصون الشر الأوسط وتلقب بالظاهر؛ وإنما دعي البياسي لقيامه من بياسة؛ فوصلت بيعة الموحدين من مراكش إلى العادل ومعها كتاب أبي زكريا يحيى ابن الشهيد شيخ هتنانة بقصة المخلوع وما كان من أمره، فصادف وصولها هيحان هذه الفتنة فشغل العادل بها عن مراكش، وبعث أخاه السيد أبا العلاء الأصغر وهو إدريس بن المنصور في جيش كثيف إلى البياسي فحاصره بياسة. ولما اشتد عليه الحصار أظهر الطاعة والانتقاد وبائع للعادل حتى إذا أفرج عنه أبو العلاء عاد إلى النكث؛ وبعث إلى الفتن يستنصره على العادل؛ وضمن له أن ينزل له عن بياسة وقيجاطة؛ فكان أول من سن إعطاء الحصون والبلاد للفرنج. فوجه إليه الفتن بجيشه من عشرين ألفاً. ولما توافت لديه جموع الفرنج نهض من قرطبة يريد إشبيلية حتى إذا دنا منها خرج إليه السيد أبو العلاء الأصغر - وهو الذي دعي بعد بالمأمون - فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً؛ فانهزم السيد أبو العلاء واستولى البياسي والفرنج على محلته بما فيها من أداث وسلاح ودواب وغير ذلك.

ولما رأى العادل ما وقع بأخيه وجنده خشي أن يتفاقم داء الباباسي ويتمدد عباب فنته إلى مراكش؛ فترك أخاه أبا العلاء قبالتة وعبر البحر إلى العدوة. ولما احتل بقصر المجاز دخل عليه عبد الله بن عبد الواحد بن أبي حفص المدعو بعبو فقال له العادل كيف حالك؟ فأنسده:

حال متى علم ابن المنصور بها جاء الزمان إلى منها تائبا
فاستحسن ذلك منه وولاه إفريقية. وهذا البيت لأبي الطيب المتنبي وإنما تمثل به عبو لموافقة اسم منصور فيه لاسم والد العادل فحسن التمثيل به.

وانتهى العادل في سيره إلى سلا فأقام بها وبعث عن شيخوخ جشم عرب تامستا، وكان لابن يرجان عنانية واختصاص بهلال بن حميدان أمير الخلط، فشقائق جرمون بن عيسى أمير سفيان عن الوصول إلى العادل، ثم بادر العادل إلى مراكش وقاده في طريقه إليها من العرب شداده، ثم دخلها واستوزر أبا زيد بن عبد الواحد بن أبي حفص وتغير لابن يرجان، فقصد باطنه وسعى في إفساد الدولة، وغلب أبو زكريا بن الشهيد شيخ هناته؛ ويوسف بن علي شيخ تينملل على أمر العادل. ثم خالفت عليه عرب الخلط وهسکورة، وعاثوا في نواحي مراكش؛ وخربوا بلاد دكالة فخرج إليهم ابن يرجان فلم يعن شيئاً، فأنفذ إليهم العادل عسكراً من الموحدين لنظر إبراهيم بن إسماعيل ابن الشيخ أبي حفص فانهزم وقتل، وأضطررت الأحوال على العادل؛ وخرج ابن الشهيد ويوسف بن علي إلى قبائلهما للحشد ومدافعة هسکورة والعرب؛ فاتفقا أيضاً على خلع العادل وأضطررت الأمور.

ولما انتهى إلى أبي العلاء صاحب الأندلس ثغر أخيه العادل وما هو فيه بمرأكش من الاضطراب دعا لنفسه ياشبيلية فجوع بها، وأجاجه أكثر أهل الأندلس؛ وتلقب بالمؤمن وباي له السيد أبو زيد صاحب بلنسية وهو آخر الباباسي، وكان ذلك في أوائل شوال سنة أربعين وعشرين وستمائة.

ولما تمت بيعته كتب إلى الموحدين الذين بمراكنش يدعوهم إلى بيعته ويعلّمهم باجتماع أهل الأندلس والموحدين الذين بها عليه، ووعدهم في ذلك ومناهم، فكان منهم بعض توقف؛ ثم أجمع رأيهم على مبادئه وخلع أخيه العادل؛ فدخلوا عليه قصره وسألوه أن يخلع نفسه فامتنع؛ فوثبوا عليه ودسوا رأسه في خصة ماء كانت هناك وقالوا له: لا نفارقك أو تشهد على نفسك بالخلع. فقال: اصنعوا ما بدا لكم والله لا أموت إلا أمير المؤمنين. فوضّعوا عمامته في عنقه وخفقوا ورأسه في الخصة حتى فاظ؛ وكان خيراً فاضلاً رحمة الله؛ وكانت وفاته في الحادي والعشرين من شوال سنة أربع وعشرين وستمائة. وكتبوا بيعتهم إلى أبي العلاء المأمون؛ وبعثوا بها إليه مع البريد؛ ثم بدا لهم في بيعة المأمون بعد انفصال البريد عنهم فنكثوها، وبايعوا يحيى بن الناصر بن المنصور وأضطربت الأحوال بالمغرب والأندلس؛ وطما عباب الفتنة بهما وكان ما ذكره.

الخبر عن دولة المأمون بن المنصور ومزاجمة يحيى بن الناصر له

كان المأمون وهو أبو العلاء إدريس بن يعقوب المنصور لما بلغه انتقاض الموحدين والعرب بالحضرية على أخيه وتلاشي أمره دعا لنفسه ياشبيلية وبايعه أهل الأندلس والموحدون بالحضرية كما قلنا، ثم لما انفصل البريد ببيعته من الحضرية ندم الموحدون على ذلك لما يعلموه من شهادته وصرامتها وتخليقه بأخلاق الحجاج بن يوسف، وتحجّفوا أن يأخذهم بدم عمّه عبد المخلوع؛ ثم أخيه عبد الله العادل، فاتفق رأيهم على مبادئه يحيى بن الناصر بن المنصور وهو شاب غير كما يقل عذاره، وإنما وقع اختيارهم عليه ليكون أطوع لهم، فإن سنه يومئذ كانت ستة عشر سنة؛

فبایعوه بجامع المنصور من قصبة مراكش بعد صلاة العصر من يوم الأربعاء الثامن والعشرين من شوال سنة أربع وعشرين وستمائة، وامتنع عرب الخلط وقبائل هسکورة من بيعته وقالوا: قد بایعنا المأمون فلا ننکث بيعته؛ وتأخر قدوم المأمون إلى مراكش وبقي بالأندلس لأسباب يأتي شرحها؛ وأقام يحيى بمراكش واستتب أمره بها بعض الشيء، وجهز جيشاً من الموحدين والجند إلى قتال الخلط وهسکورة؛ وهم يومئذ في طاعة المأمون، فانهزم جيش يحيى وقتل منه خلق كثير وعاد مفلولاً إلى مراكش، ثم اطلع يحيى على مداخلة أبي زيد بن يرجان للعرب وهسکورة في الغارة على مراكش واطلع على ذلك أيضاً أبو ذكريا يحيى بن الشهيد فقتل أبو زيد بن يرجان وأبنه عبد الله، ونصب رؤوسهما على باب الكحل وطوف أجسادهما بأسواق المدينة؛ ثم اضطررت الأحوال على يحيى وانتقضت البلاد، وغلت الأسعار وعم الخراب والفساد بلاد المغرب؛ واستحوذ بنو مرين على ضواحيه وضايقوا الموحدين في كثير من أمصاره، واقتضوا جيابته ونبغت الثوار في الأقطار على ما ذكره.

ثورة محمد بن أبي الطواجين الكتامي بجبال غماره

ولما كانت سنة خمس وعشرين وستمائة ثار بجبال غمارة محمد بن أبي الطواجين الكتامي المتني، وكان أبوه من قصر كتامة منقبضاً عن الناس؛ وكان يتحل صناعة الكيمياء، فكان يلقب بأبي الطواجين لكثره الظروف التي كان يستعملها في ذلك بزعمه. وتلقن ذلك عنه ابنه هذا، ثم ارتحل إلى سبتة ونزل علىبني سعيد بأحوازها، وادعى صناعة الكيمياء فتبعه الغوغاء، ثم ادعى النبوة وشرع الشرائع وأظهر أنواعاً من الشعوذة فكثر تابعوه، ثم اطلعوا على خبيه فنبذوا إليه عهده؛ وزحفت إليه عساكر سبتة فقر عنهم؛ ثم قتله

بعض البرابرة غيلة بوادي لاو بين بلادبني سعيد وبلادبني زياد؛ وابن أبي الطواجيين هذا هو الذي تسبب في قتل الشيخ أبي محمد عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه على ما نذكره بعد أن شاء الله.

أخبار الثوار بالأندلس وما أكَلَ إِلَيْهِ أَمْرُ الْمُوْحَدِينَ بِهَا

لما ضعف أمر الموحدين بال المغرب وكثرت الفتن في أقطاره ونواحيه، وانتزى السادات منهم بنواحي الأندلس كل في عمله واستظهر كل واحد منهم على أمره بالطاغية ونزلوا له عن كثير من الحصون فسدت من أجل ذلك ضمائر أهل الأندلس عليهم، وتصدى للثورة على الموحدين محمد بن يوسف بن هود الجذامي ملوك الطوائف بسرقسطة، وكان يؤمل لها وربما امتحنه الموحدين لذلك مرات، فخرج في نفر من الأجناد سنة خمس وعشرين وستمائة؛ وجهز إليه والتي مرسيه يومئذ السيد أبو العباس بن أبي عمران موسى بن يوسف بن عبد المؤمن عسكراً فهزمهم، وزحف إلى مرسيه فدخلها واعتقل السيد بها؛ وخطب للخلفية المستنصر العبابي صاحب بغداد، وفي ذلك يقول ابن الخطيب في رقم الحلل عند ذكره لبني هود هؤلاء:

وكان من أعقابه الأمير محمد بن يوسف الأخير
وكان بأسلاً شديد البأس وبaidu المستنصر العبابي

ثم زحف إليه السيد أبو زيد بن محمد بن أبي حفص بن عبد المؤمن وهو آخر العبابي المتقدم ذكره من شاطية وكان والياً بها كما مر، فهزمه ابن هود ورجع إلى شاطية واستجاش بالمؤمن، وهو يومئذ بإشبيلية؛ فخرج في العساكر ولقيه ابن هود فانهزم، واتبعه المؤمن إلى مرسيه فحاصره مدة. وامتنعت عليه فأقلع عنه ورجع إلى إشبيلية. ثم انتقض على السيد أبي زيد بيلنسية زيان بن أبي الحملات مدافع بن أبي الحجاج يوسف بن سعيد بن

مردنيش، وخرج عنه إلى أبدة وذلك سنة ست وعشرين وستمائة؛ وكانبني مردنيش هؤلاء أهل عصابة وأولي بأس وقوه؛ فتوقع أبو زيد احتلال أمره، وبعث إليه ولاطفه في الرجوع فأبي، فخرج أبو زيد من بلنسية ولحق بطاغية برشلونة، ودخل في دين النصرانية والعياذ بالله؛ وبايع أهل شاطبة لابن هود؛ ثم تباعت بلاد الأندلس على بيته، ودخل في طاعته أهل قرطبة وإشبيلية بعد رحيل المأمون عنه إلى مراكش؛ ولم يبق للموحدين بالأندلس سلطان.

ثم في سنة تسع وعشرين وستمائة ثار محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر بحصن أرجونة من أعمال قرطبة؛ ودعا لأبي زكرياء الحفصي صاحب إفريقية. ثم دخل في طاعته أهل قرطبة؛ وتنازع ابن الأحمر وابن هود رئاسة الأندلس، وتجاذبوا حبل الملك بها؛ وكانت خطوب استولى لطاغية فيها على كثير من حصون الأندلس، ثم استقر قدم ابن الأحمر في الملك وأورثه بنيه من بعده والله غالب على أمره.

قدوة أبي العلاء المأمون بن المنصور من الأندلس إلى مراكش وما اتفق له في ذلك

قد تقدم لنا أن الموحدين بمراكش خنقوا العادل وبايعوا أخاه المأمون، وبعد انفصال البريد بالبيعة ندموا وبايعوا ابن أخيه يحيى بن الناصر؛ فوصلت بيعة الموحدين إلى المأمون، وهو يومئذ ياشبيلية، فسر بها وأمر باقرائها على منابر الأندلس، ثم أخذ في التجهيز والحركة إلى مراكش دار ملكهم؛ فسار حتى إذا وصل إلى الجزيرة الخضراء اتصل به الخبر أن الموحدين قد نكثوا بيته، وبايعوا ابن أخيه يحيى. فوجم لذلك وأطرق ملياً ثم أشد متمثلاً يقول حسان رضي الله عنه:

لتسمعن وشيكأ في ديارهم الله أكبر يا ثارات عثمانا

ثم كتب من حينه إلى ملك قشتالة يستنصره على الموحدين ويسأله^(١) أن يبعث له جيشاً من الفرنج يجوز بهم إلى العدوة لقتال يحيى ومن معه من الموحدين فشرط عليه صاحب قشتالة أن يعطيه عشرة حصون مما يلي بلاده يختارها هو وأن يبني بمراكب إذا دخلها لجيش النصارى الذين معه كنيسة يظهرون بها دينهم ويضربون فيها نوقيسهم لصلواتهم، وأن من أسلم منهم لا يقبل منه إسلامه ويرد إلى إخوانه فيحكمون فيه بأحكامهم إلى غير ذلك؛ فأسعفه المأمون في جميع ما طلبه منه.

وكان يحيى بن الناصر صاحب مراكش لما رأى اختلاف أحواله بها كما قلنا ومباعدة أكثر أهل المغرب لعمه المأمون خرج فاراً بنفسه إلى تينمل؛ وكان ذلك في جمادى الآخرة سنة ست وعشرين وستمائة؛ ولما فر يحيى عن الحضرة قدم أشياخ الموحدين الذين بها والياً يضبطها للمأمون ريثما يقدم عليهم. وجددوا له البيعة؛ وكتبوا إليه يخبروه بفرار يحيى إلى الجبل؛ ويرغبون إليه في القدوم عليهم، وكتب إليه أيضاً هلال بن حميدان أمير الخلط؛ واستمر يحيى معتصماً بالجبل أربعة أشهر، ثم بذله فعاد إلى مراكش وقتل عامل المأمون الذي قدمه الموحدين بها؛ واستمر بها نحو سبعة أيام، ثم خرج إلى جبل جليز وعسكر به؛ وأقام متظراً لقدوم المأمون ودفعه عن مراكش. ثم بعث صاحب قشتالة إلى المأمون جيشاً من اثنى عشر ألفاً برسم الخدمة معه والمقاتلة دونه على الشروط المتقدمة، وكان وصولهم إليه في رمضان سنة ست وعشرين وستمائة؛ ثم عبر بهم من الجزيرة الخضراء إلى سبتة في ذي القعدة من السنة المذكورة، وهو أول من أدخل عسكر الفرنج أرض المغرب واستخدمهم بها. فراح بسبتة أياماً ثم نھض إلى مراكش حتى إذا دنى منها لقيه يحيى بجيوش الموحدين وذلك عشي يوم السبت الخامس والعشرين من ربيع الأول من السنة الداخلة؛ فانهزم يحيى

(١) انظر ما كتبه المؤلف في هذه المسألة في كتاب «كشف العرين عن ليوثبني مرين» أثناء كلامه على دولة السلطان تاشفين الموسوس بن أبي الحسن المرنيسي.

وفر إلى الجبل وقتل كثير من جيشه.

ودخل المأمون حضرة مراكش وبابعه الموحدون، وصعد المنبر بجامع المنصور - وكان علامة أديباً بليغاً - فخطب الناس ولعن المهدي على المنبر وقال: لا تدعوه بالمهدي المعصوم وأدعوه بالغوري المذموم؛ ألا لا مهدي إلا عيسى، وإنما قد نبذنا أمره النحس. ولما انتهى إلى آخر خطبة قال: معاشر الموحدين لا تظنوا أنني أنا إدريس الذي تدرسون دولتكم على يده، كلا إنه سيأتي بعدي إن شاء الله.

ثم نزل وأمر بالكتب إلى جميع البلاد بمحو اسم المهدي من السكة والخطبة وتغيير سنته التي ابتدعها للموحدين وجرى عليها سلفهم؛ ونعي عليها التداء للصلوة باللغة البربرية وزيادته في أذان الصبح: والله الحمد، وغير ذلك من السنن التي اختص بها المهدي، وأمر بتدوير الدر衙م التي ضربها المهدي مربعة وقال كل ما فعله المهدي وتابعه عليه أسلاقنا فهو بدعة ولا سبيل إلى إيقائه، وأبدأ في ذلك وأعاد.

ثم دخل قصره فاحتاجب عن الناس ثلاثة، ثم خرج في اليوم الرابع فأمر بأشياخ الموحدين وأعيانهم فحضروا بين يديه؛ فقال لهم يا معاشر الموحدين إنكم قد أظهرتم علينا العناد. وأكثرتم في الأرض الفساد؛ ونقضتم العهود وبدلتم في حرثنا المجهود، وقتلتم الإخوان والأعمام؛ ولم ترقبوا فيهم إلا ولا ذمام. ثم أخرج كتاب يبعثهم الذي بعثوا به إليه؛ واحتج عليهم بنكثهم الذي نكثوا بعده؛ فقامت الحجة عليهم فبهتوا وسقط في أيديهم والتفت إلى قضية المكيدي - وكان بإزاره قد قدم معه من إشبيلية - فقال له: ما ترى أيها القاضي في أمر هؤلاء الناكثين؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى يقول: **﴿وَمَنْ نَكَثَ فَلَئِنْكُنْ يَنْكُثُ عَلَىٰ تَقْسِيمٍ﴾** [الفتح: ١٠] الآية. فقال المأمون: صدق الله العظيم فإنما نحكم فيهم بحكم الله **﴿وَمَنْ لَرْ بَحْكُمُكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾** [المائدة: ٤٥] ثم أمر بجمع أشياخ الموحدين وأشرافهم فسجعوا إلى مصارعهم وقتلوا من عند آخرهم ولم يبق على كبارهم ولا صغيرهم حتى أنه أتي بابن أخت له صغير يقال إن سنه كان ثلاط عشرة

سنة وكان قد حفظ القرآن، فلما قدم للقتل قال له: «يا أمير المؤمنين اعف عني لثلاث» قال: ما هن؟ قال: «صغر سني؛ وقرب رحمي، وحفظي لكتاب الله العزيز» فيقال إن المأمون نظر إلى القاضي كالمستشير له وقال له: «كيف ترى قوة جأش هذا الغلام وإقدامه على الكلام في هذا المقام؟» فقال القاضي: «يا أمير المؤمنين إنك إن تذرهم يضلون عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً» فأمر به فقتل رحمه الله، ثم أمر بالرؤوس فعلقت بدائير سور المدينة.

ذكر ابن أبي زرع أنها كانت تنيف على أربعة آلاف رأس وكان الزمان زمن قيظ فنتت بها المدينة وتآذى الناس بريحها، فرفع إليه ذلك فقال: «إن هنها مجانيين وأن تلك الرؤوس حروز لهم لا يصلح حالهم إلا بها. وإنها لعطرة عند المحبين وتننة عند المبغضين! ثم أنسد:

أهل الحرابة والفساد من الورى يعزون في التشبيه للذكار فوق الجنو وفدي ذرى الأسوار والعدل مالوف بكل جوار	بالقطع والتعليق في الأشجار فساده فيه الصلاح لغيره فرقوسهم ذكرى إذا ما أبصرت وكذا الفصاص حياة أرباب النهى	لو عم حلم الله سائر خلقه ما كان أكثرهم من أهل النار
--	---	--

وهذه الفتكة التي ارتكبها المأمون من الموحدين أنسفت فتكة الحارث بن ظالمة؛ والبراض الكناني والحجاج بن حكيم، وهي التي استأصلت جمهورهم؛ وأماتت نحوتهم، وأذن المأمون للنصارى القادمين معه في بناء الكنيسة وسط مراكش على شرطهم المتقدم فضرروا بها نوافيهم. وكانت الكنيسة في الموضع المعروف بالسجينة.

وقبض على قاضي الجماعة بمراكش وهو أبو محمد عبد الحق بن عبد الحق فقيده ودفعه إلى هلال بن حميدان الخلطي فحبسه حتى افتدي منه بستة آلاف دينار.

وأقام المأمون بمراكش خمسة أشهر؛ ثم نهض إلى الجبل لقتال

يعيسي بن الناصر ومن معه من الموحدين، وذلك في رمضان سنة سبع وعشرين وستمائة. فالتقى معه على الموضع المعروف بالكاعنة، فانهزم يعيسي وقتل من عسكره ومن أهل الجبل خلق كثير سبق من رؤوسهم إلى مراكش أربعة آلاف رأس.

وفي هذه السنة استبد الأمير أبو زكريا ابن الشيخ أبي محمد بن أبي حفص الهاشمي باغريقية وخلع طاعة الموحدين.

وفي سنة ثمان وعشرين بعدها نفذت كتب المأمون إلى سائر البلاد بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وفيها خرجت بلاد الأندلس كلها من ملك الموحدين. ونفاهم عنها ابن هود لتأثير بها وقتلتهم العامة في كل وجه.

وفي سنة تسع وعشرين بعدها خرج على المأمون أخوه السيد أبو موسى عمران بن المنصور بمدينة سبتة وتسمى بالمؤيد؛ فاتصل الخبر بالmAمون فخرج إليه، وبلغه في طريقه أن قبائلبني فازاز ومكلاته قد حاصروا مكتابة وعاثوا في نواحيها؛ فسار إليهم وحبس مادة فسادهم؛ وعاد إلى سبتة فحاصر بها أخيه السيد أبي موسى مدة فلم يقدر منه على شيء، وكانت سبتة من أحسن مدن المغرب؛ ولما طالت غيبة المأمون عن الحضرة اغتنم يعيسي بن الناصر الفرصة فنزل من الجبل واقتحمها مع عرب سفيان وشيشهم جرمون بن عيسى؛ ومعهم أبو سعيد بن وأنور بن شيخ هشتناء، وعاثوا فيها وهدموا كنيسة النصارى التي بنيت بها وقتلوا كثيراً من يهودها وسبوا أمواهم، ودخل يعيسي القصر فحمل منه جميع ما وجده به إلى الجبل.

واتصل الخبر بالمأمون وهو على حصار سبتة، فارتاحل عنها مسرعاً إلى مراكش وذلك في ذي الحجة من السنة المذكورة؛ ولما أبعد عن سبتة عبر أبو موسى صاحبها إلى الأندلس فباعه ابن هود وأعطاه سبتة؛ فعوضه ابن هود عنها بالمرية فكان السيد أبو موسى بها إلى أن مات.

وانتهى الخبر إلى المأمون وهو في طريقه بأن ابن هود قد ملك سبتة، فتوالت عليه الفجائع فمرض أثناً وثلاثين يوماً ومات بوادي العبيد وهو قافل من حصار

سبتة، وكانت وفاته في آخر يوم من سنة تسع وعشرين وستمائة. وكانت أيامه أيام شقاء وعناء ومتازعة، افترقت دولـة المـوـحدـينـ فيها فرقـتينـ ؟ فـرـقةـ مـعـهـ وـفـرـقةـ مـعـ يـحـيـيـ بـنـ النـاصـرـ.

وكان محق دولة الموحدين واستئصال أركانها وذهب نخوتها على يده، قالوا ولو لا أن الأمور قد استحالت إلى ما ذكر لكان المأمون موافقاً لأبي المنصور في كثير من الخلل؛ ومتبيناً سنته في الأحوال.

تكاثر الظبا على خداش فما يدرى خداش ما يصيده
يشير إلى حاله معهم؛ وأنه لم يدرى ما يتلافى من ذلك والله تعالى
أعلم.

الخبر عن دولة أبي محمد عبد الواحد الرشيد
أين العامون ابن المنصور رحمة الله

لما هلك المأمون بوبع ابنه عبد الواحد ولقب بالرشيد.
قال ابن أبي زرع : بوبع له بالخلافة بوادي العبيد ثانٍ يوم من وفاة أبيه
وهو الأحد فاتح محرم سنة ثلاثين وستمائة ، وسنّه يومئذ أربع عشرة سنة ؛
وكان الذين أخذوا له البيعة كانوا بن جرمن السفياني ؛ وشعيب بن أو قاليط
الهسكوني ، وفرنسيل قائد جيش الفرنج ، فإنه لما مات المأمون كتمت
 Jarvis به بعد موته وأسمها حباب ، وكانت فرنجية الأصل ؛ ومن دهاء النساء

وعقلائهم وهي أم الرشيد؛ فاستدعت هؤلاء النفر الثلاثة وكانوا عمدة جيش المأمون يركب كل واحد منهم في أزيد من عشرة آلاف من قومه وأعوانه؛ ولأن أهل الحل والعقد من الموحدين قد أتت عليهم فتكت المأمون، فجاؤوا إليه فأعلمتهم بموت الخليفة، ورغبت إليهم في بيعة ابنها الرشيد والقيام معه وبذلت لهم على ذلك أموالاً جمة، ووعدتهم مع ذلك أنهم إذا فتحوا الحضرة - وكان يحيى قد استولى عليها كما قلنا - تجعلها لهم فيما إذا فبايعوه، وأخذوا البيعة له على سواهم. فباع الناس طوعاً وكرهاً خوفاً من سيوفهم.

ولما تم أمره جعل أباه في تابوت وقدمه أمامه وسار إلى مراكش؛ وسمع يحيى وأهل مراكش بما شرطته حباب للقواعد الثلاثة من جعل مديتها فيينا، فخرجوا لقتال الرشيد بأجمعهم.

واستخلف يحيى على مراكش أبا سعيد بن وانودين، والتلى الجمعان فاقتتلوا فانهزم يحيى وقتل أكثر من معه، وصبح الرشيد مراكش فتحصن منه أهلها فأمنهم وصالح قائد الفرنج وأصحابه على فيها بخمسة آلاف دينار.

ودخل الرشيد مراكش واستقر بها؛ وكان قد وصل في صحبة عمه السيد أبو محمد سعد بن المنصور؛ فحل من تلك الدولة بمكان، وكان إليه التدبير والحل والعقد وبعد استقرار الرشيد بمراكش قدم عليه عمر بن أوقاريط الهمسكيوري صحبة أولاد المأمون الذين كانوا بإشبيلية، وفهم ابن هود عنها وكان ابن أوقاريط هذا منحرفاً عن المأمون أيام حياته فتلدم بصحبة هؤلاء الأولاد وقدم على الرشيد فتقبله؛ واتصل بالسيد أبي محمد وحسن منزلته لديه.

ثم لما هلك السيد أبو محمد لحق ابن أوقاريط بقومه ومعتصمه؛ وكشف وجه الخلاف، وأخذ بدعاوة يحيى بن الناصر؛ واستنفر له قبائل الموحدين؛ ونهض إليهم الرشيد سنة إحدى وثلاثين وستمائة؛ واستخلف على الحضرة صهره أبا العلاء إدريس، وصعد إليهم الجبل فأوقع بيحى وجماعه بمكانتهم من هزرجة واستولى على معسكرهم؛ ولحق يحيى ببلاد سجلماسة،

وأنكفاً الرشيد راجعاً إلى حضرته، واستأمن له كثير من الموحدين الذين كانوا مع يحيى فأمنهم ولهفوا بحضرته؛ وكان كبيرهم أبو عثمان سعيد بن زكريا القدميوي؛ وجاء الباقيون على أثره بعد أن شرطوا عليه إعادة ما كان أزاله المأمون من رسوم المهدي وستنه فأعیدت. واطمأنوا لإعادة رسوم الدعوة المهدية واستقامت الأحوال في هذه الأيام؛ إلى أن كان ما ذكره.

فتنة الخلط مع الرشيد واستيلاؤهم على حضرة مراكش

كان مسعود بن حميدان كبير الخلط قد أخراه عمر بن أوقاريط بالخلاف لصحبة بينهما، وكان مدللاً ببأسه وكثرة جموعه، يقال إن الخلط كانوا يومئذ يناهزون الثاني عشرة ألف فارس سوى الرجل والأتباع والحشود، فمرض مسعود في الطاعة وتناقل عن الوقادة إلى الحضرة.

ولما علم بعقد الموحدين واجتماع كلمتهم على الرشيد غاظه ذلك وأخذ في السعي للفرقة والشتات بينهم، فأعمل الرشيد الحيلة في استدعائه؛ وصرف عساكره إلى بعض الجهات حتى خلا لمسعود الجو وذهب عنه الريب؛ واستقدمه الرشيد فأسرع اللحاق بالحضور؛ وقدم معه معاوية عم عمر بن أوقاريط، فقبض على معاوية وقتل لحيته، واستدعي الرشيد ابن حميدان إلى المجلس الخلافي للحديث فتقبض عليه وعلى خمسة وعشرين من أصحابه من كبار الخلط وقتلوا ساعتين بعد جولة وهيبة، وقضى الرشيد حاجة في نفسه منهم.

ولما بلغ خبر مقتلهم إلى قومهم قدموا عليهم يحيى بن هلال بن حميدان؛ وأجلبوا على سائر التوادي؛ وأعلنوا بدعة يحيى بن الناصر، واستقدموه من مكانه بقاصية الصحراء، ودخلتهم في ذلك عمر بن أوقاريط؛ وزحفوا لحصار مراكش، وخرجت العساكر لقتالهم ومعهم عبد الصمد بن يلوان؛ فدافع ابن أوقاريط بجموعه في تلك العساكر فانهزموا؛ وأحيط بجند الناصرى فقتلوا، وتفاهم الأمر بالحضور وعدم الأقوات، واعترض الرشيد

على الخروج إلى جبل الموحدين؛ فخرج إليها وسار منها إلى سجلماسة فملكتها، واشتد الحصار على مراكش؛ واقتحمها يحيى بن الناصر وأنصاره من الخلط وهسكة فنهبوا وساة أثراهم فيها؛ واضطربت أحوال الخلافة بها، وتغلب على السلطان السيد أبو إبراهيم بن أبي حفص الملقب بأبي حافة؛ وهذه الفتنة كانت ستة اثنين وثلاثين وستمائة.

هجوم نصارى جنوة على مدينة سبتة وحصارهم إياها

وفي هذه السنة أعني ستة اثنين وثلاثين وستمائة نازل الفرنج الجنوبيون سبتة بأجفان لا تحصى؛ ونصبوا عليها المنجنيقات والآلات المعدة للحصار، واستمروا على ذلك إلى أن دخلت ستة ثلاثة وثلاثين بعدها؛ فلم يقدروا منها على شيء؛ ولما اشتد الحصار على أهل سبتة صالحوا الفرج في الإفراج عنهم بأربعمائة ألف دينار فقبلوا؛ وأفلعوا عنهم بعد الحصار الشديد والتضييق العظيم.

عود الرشيد إلى مراكش وفرار يحيى عنها إلى بني معقل ومقتله بهم

وفي هذه السنة أعني سنة ثلاثة وثلاثين وستمائة خرج الرشيد من سجلماسة يقصد مراكش؛ وخطب جرمون بن عيسى وقومه من سفيان فأجابوه؛ وعبروا وادي أم الربيع؛ وبرز إليه يحيى في جموعه. والتقى الفريقان فانهزمت جموع يحيى واستحر القتل فيهم؛ ودخل الرشيد إلى الحضررة ظافراً؛ وأشار ابن أوقاريط على الخلط بالاستصراخ بابن هود صاحب الأندلس والأخذ بدعوه؛ فنكثوا بيعة يحيى وبعثوا وفدهم إلى ابن هود صحبة ابن أوقاريط، فاستقر هناك ولم يرجع إليهم قولاً، فعلم الخلط أنها حيلة من ابن أوقاريط وأنه تخلص من الورطة.

وخرج الرشيد من مراكش وفار يحيى عنها إلى بني معقل وأقام بها أيام، وفرق في فقهائها وصلحاتها أموالاً ورباعاً مغلة. وسرح الوزير السيد أبي محمد إلى غماره وفاز لجيابة أموالهما.

وكان يحيى بن الناصر لما نكث الخلط بيعته لحق بعرب معقل فأجراه ووعدوه النصرة واشتتوا عليه في المطالب فأسف بعضهم بالمنع فاغتاله في جهة تازا؛ وسيق رأسه إلى الرشيد بفاس؛ فبعث إلى مراكش وأوزع إلى نائبه بها أبي علي بن عبد العزيز بقتل العرب الذين كانوا في اعتقاله وهم حسن بن زيد شيخ العاصم، وقائد ابنا عامر شيخاً بني جابر فقتلهم، وانكفاء الرشيد راجحاً إلى حضرته سنة أربع وثلاثين وستمائة.

وكان ابن أوقاريط لما فصل ابن هود صاحب الأندلس أقام عنده إلى هذه السنة فركب البحر في أسطول من أساطيل ابن هود وقد صد مدينة سلا - وبها يومئذ السيد أبو العلاء صهر الرشيد - فنازلها وكاد يغلب عليها ثم رجع عنها بلا طائل.

وفي سنة خمس وثلاثين بعدها بايع أهل إشبيلية للرشيد، وتقضوا طاعة ابن هود؛ وتولى كبر ذلك أبو عمر بن الجدع؛ ووصل وفدهم إلى الحضرة ومرروا في طريقهم بسبعة، فافتدى أهلها بهم في بيعة الرشيد، وقدموا على الحضرة؛ وولى عليهم الرشيد أبي علي بن خلاص منهم، وانصرف وفد إشبيلية وبسبعة راضين.

واستقدم الرشيد رؤساء الخلط وكانوا راجعوا طاعته بعد مقتل يحيى فقدموا عليه وتقبض عليهم، وبعث عساكره فاستباحوا حللهم وأحياءهم، ثم أمر بقتل مشيختهم وقتل معهم ابن أوقاريط، وكان أهل إشبيلية قد بعثوا به إليه فقطع دابرهم.

وفي سنة ست وثلاثين وستمائة وصلت بيعة محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر الشاعر بالأندلس على ابن هود وكان قد بايع أولاً أبي زكريا الحفصي صاحب إفريقية ثم بدا له فرد البيعة إلى الرشيد.

استيلاء العدو على قرطبة

وفي هذه السنة كان استيلاء العدو - دمره الله - على مدينة قرطبة قاعدة بلاد الأندلس ودار مملكتها. وذلك يوم الأحد الثالث والعشرين من شوال من السنة المذكورة.

وفي سنة سبع وثلاثين بعدها انتشر بنو مرين ببلاد المغرب وأشتدت شوكتهم به، وزحف إليهم الرشيد فهزموه، ثم زحف ثانية وثالثة فهزموه. وأقام في محاربتهم سنتين ورجع عنهم إلى الحضرة، فاشتد عدوائهم بالمغرب؛ وألحوا على مكتنase حتى أعطوا الإناثة لبني حمامة منهم، واتصل أغلبهم في نواحيها.

وفي سنة تسع وثلاثين وستمائة قتل الرشيد كاتبه ابن المومياني لمداخلة له مع بعض السادة وهو عمر بن عبد العزيز بن يوسف، ووقف الرشيد على كتب بخطه غلط الرسول بها فدفعها بدار الخلافة فوقع إلى الرشيد قتله.

وفاة الرشيد رحمه الله

مات الرشيد رحمه الله غريقاً في بعض صهاريج بستانه بحضور مراكش وذلك يوم الخميس تاسع جمادى الآخرة سنة أربعين وستمائة، ويقال إنه أخرج من الماء حياً فحُمّل ومات.

وذكر أبو عبد الله أكنوسوس أن غرق الرشيد كان في البركة الكبرى التي بدار الهناء من أجداول اليوم، قال: وكان يقال لها البحر الأصغر لأن ملوك بني عبد المؤمن الذين أنشؤوها كانوا يرسلون فيها الزوارق والفالك الصغار يقصد الترفة والفرجة. والله تعالى أعلم.

الخبر عن دولة أبي الحسن السعيد على بن المأمون بن المنصور رحمه الله

لما هلك الرشيد بوبع أخيه أبو الحسن على المدعو السعيد بتعيين أبي محمد بن وانودين، وتلقب بالمعتضد بالله واستوزر السيد أبي إسحاق ابن السيد أبي إبراهيم بن يوسف بن عبد المؤمن. ويحيى بن عطوش، وتقبض على جملة من مشيخة الموحدين واستتصفى أموالهم، واصططع لنفسه رؤساء العرب من جسم؛ واستظهر بجماعتهم على أمره، وكان شيخ سفيان كانون بن جرمون كبير مجلسه؛ وكان خصم بنى مرين قد تفاقم بالمغرب وداوهم قد أعضل، فخرج السعيد سنة اثننتين وأربعين وستمائة لتمهيد بلاد المغرب، فاتته إلى سجلماسة، وكان صاحبها عبد الله بن ذكريا الهزرجي قد انتقض عليه فقتله واستولى عليها ثم رجع حتى نزل المقرمة من أرض فاس.

وعقد المهادنة مع بنى مرين وقفل إلى مراكش، فكانت هذه على دخن فلم يلبث إلا يسيراً حتى عاود النهوض إليهم سنة ثلاثة وأربعين بعدها، واستخلف السيد أبي زيد ابن السيد أبي إبراهيم أخي الوزير المذكور آنفًا على مراكش، واستعمل أخيهما السيد أبي حفص وهو المرتضى على سلا، وسار نحو بنى مرين؛ فجمع له أميرهم أبو بكر بن عبد الحق جموع زنانة وصمد نحوه حتى إذا نراءى الجمuan وتهيا القوم للقاء خالف كانون بن جرمون إلى آزمور فاستولى عليها وغلب الموحدين عليها، فرجع السعيد أدراجه في أتباعه، ففر كانون عنها فاعتراضه السعيد فأوقع به، واستلحم كثير من قومه سفيان واستولى على ما كان لهم من مال وماشية، ولحق كانون بنبي مرين؛ ورجع السعيد إلى الحضرة.

ثم تقدم الأمير أبو بكر بن عبد الحق المريني إلى مكناسة فضايقها؛ وخطب طاعة أهلها، فثارت العامة بمكناسته على واليها من قبل السعيد فقتلته.

وحلّر شيوخها وكبارها من سطوطه فحولوا الدعوة إلى الأمير أبي ذكريya الحفصي صاحب إفريقية، وكان استبد على بنى عبد المؤمن ورام التغلب حتى على كرسיהם بمراكش؛ فبایعه أهل مكناسة بمواطأة الأمير أبي بكر بن عبد الحق. فإنه كان يدعوه إليه في أول أمره، وكذلك آخره السلطان يعقوب بن عبد الحق من بعده ثم استقل بنفسه واستبد بأمره عندما تم له ملك المغرب حسبما نقصه بعد إن شاء الله.

وفي هذه السنة بعث أهل إشبيلية وأهل سبتة بطاعتهم للأمير أبي ذكريya الحفصي أيضاً، وبعث أبو علي بن خلاص صاحب سبتة إليه بهدية مع ابنه في أسطول أنشأ لذلك فرق عند إقلاعه من المرسى، وقبل هذه المدة يسيراً كان الأمير أبو ذكريya الحفصي قد تغلب على تلمسان وبايعه أصحابها يغمراسن بن زيان العبد الوادي؛ وهو جد ملك بنى زيان أصحاب تلمسان والمغرب الأوسط؛ فعظم قدر أبي ذكريya بسبب هذه القيادات التي انتالت عليه من سائر الجهات؛ وحدثته نفسه بالتوثيق على كرسي الخلافة بمراكش، وغضّ بنو عبد المؤمن بمكانة؛ وعظم عليهم استبداده ثم طمعه في كرسיהם وقراره عزّهم مع أنه ما كان إلا جدولًا من بحرهم وفرعاً من دوحتهم؛ والأمر كله لله.

نهوض السعيد من مراكش إلى غزو الثوار بالمغاربة ومحاصرته يغمراسن بن زيان وما آتى إليه الأمر من مقتله رحمه الله

لما بلغ السعيد وهو بمراكش استبداد الأمير أبي ذكريya بن أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهاشمي بإفريقية وبمبايعة أمراء الجهات له أعمل نظره في الحركة إلى هؤلاء الثوار والنهوض لتذويق هذه الأقطار.

وكان السعيد شهماً حازماً يقطأ بعيد الهمة، فنظر في أعطاف دولته وفاوض الملاً من الموحدين في تشريف أطرافها وتقويم أودها؛ وحرك

همهم؛ وأثار حفائظهم، وأرائهم كيف اقطع عنهم الأمر شيئاً فشيئاً؛ فابن أبي حفص اقطع إفريقية؛ وبغمراسن بن زيان اقطع المغرب الأوسط ثم أقام فيه الدعوة الحفصية، وابن هود اقطع الأندلس وأقام فيها دعوة بني العباس، وابن الأحمر بالجانب الآخر منها مقيم للدعوة الحفصية أيضاً، وهؤلاء بنو مرين قد تغلبوا على ضواحي المغرب ثم سموا إلى تملك أمصاره، وإن سكتنا على هذا فيوشك أن يختل الأمر؛ وتتفرض الدولة، فتدامروا وتدعوا إلى النهوض إليهم فحشد السعيد الجنود، وجهز العساكر وأزاح عللهم، واستغفر عرب المغرب وما يليه، واحتشد كافة المصامدة.

ونهض من مراكش آخر سنة خمس وأربعين وستمائة يريد مكناسة وبني مرين أولاً، ثم تلمسان وبغمراسن ثانياً، ثم إفريقية وابن أبي حفص ثالثاً.

ولما نزل بوادي بهت أخذ في عرض عساكره وتميزها، فخرج الأمير أبو بكر بن عبد الحق من مكناسة ليلاً وحده يتجسس الأخبار فأشرف على جموع السعيد فرأى ما لا قبل له به؛ فعاد إلى قومه وأفرج للسعيد عن البلاد، وتلاحت به بنو مرين من أماكنها التي كان الأمير أبو بكر أنزلهم بها؛ واجتمعوا عليه بمحصن تازا، وطامن بلاد الريف.

وتقدم السعيد إلى مكناسة فخرج إليه أهلها يطلبون منه العفو، وقدموا بين أيديهم الشيخ الصالح أبا علي منصور بن حرزوز، وتلقوه بالصبيان من المكاتب على رؤوسهم الألواح وبين أيديهم المصاحف، وخرج النساء حاسرات يطلبن العفو فعفا عنهم.

ثم ارتحل إلى تازا في أتباعبني مرين، وانتقل أبو بكر بن عبد الحق إلىبني يزناسن ثم راجع نظره في مسالمة الموحدين والدخول في أمرهم؛ فبعث بيبيته إلى السعيد وهو يومئذ بتازا مع جماعة من وجوهبني مرين فقبلها السعيد وعفا لهم عما سلف؛ فسأله وفدهم أن يستكفي بالأمير أبي بكر في أمر تلمسان وصاحبها بغمراسن بن زيان، وقد كتب إليه الأمير أبو بكر أيضاً

بذلك يقول: «يا أمير المؤمنين ارجع إلى حضرتك وقوني بالجيش وأنا أكفيك أمر يغمراسن وأفتح لك تلمسان»؛ فاستشار السعيد وزرائه فقالوا: «لا تفعل فإن الزناتي أخو الزناتي لا يخذه ولا يسلمه»، فكتب إليه السعيد بأن يبعث إليه جماعة من قومه يعسكرون معه، فأمده الأمير أبو بكر بخمسةمائة من قبائلبني مرين وعقد عليهم لابن عمه أبي عياد بن أبي يحيى بن حمامه وخرجوا تحت رايات السعيد ونهض من تازا يريد تلمسان.

وعند ابن أبي زرع أن السعيد لما فرغ من أمر مكناسة عسكر بظاهر فاس وهناك أتته بيعةبني مرين؛ قال: ثم ارتحل السعيد عن فاس في الرابع عشر من محرم سنة ست وأربعين وستمائة؛ وخفق القمر تلك الليلة خسوفاً كلياً، وأصبح السعيد غادياً يريد تلمسان؛ فلما ركب فرسه انكسرت لولؤة المنصوري فتطير ونزل؛ ولم يرتحل إلا في اليوم السادس عشر من الشهر المذكور.

ولما سمع يغمراسن باقبال السعيد إليه خرج من تلمسان في عشيرته وقومه من سائربني عبد الواد، وتحملوا بأهليهم وأولادهم إلى قلعة تامزركت قبلة وجدة فاعتصموا بها؛ ووفد على السعيد الفقيه عبدون وزير يغمراسن مؤدياً للطاعة وسامعاً في مذاهب الخدمة ومتولياً من حاجات الخليفة بتلمسان ما يدعوه إليه ويصرفه في سبيله، ومعتلداً تخلف يغمراسن عن الوصول إلى حضرة السعيد؛ فلرج السعيد في شأنه ولم يعذرها، وأبي إلا مباشرة طاعته بنفسه؛ وساعدته في ذلك كانون بن جرمون السفياني صاحب الشورى بمجلسه ومن حضر من الملا، وردوا الفقيه عبدون إلى يغمراسن ليستقدمه فتناقل يغمراسن عن القدوم خشية على نفسه.

واعتمد السعيد الجبل في عساكره حتى أanax بها في ساحة القلعة وأخذ بمخنتهم ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع ركب مهجراً في وقت القيلولة على حين خففة من الناس ليتطوف بالقلعة، ويتقرى مكامنها؛ فبصر به فارس منبني عبد الواد يعرف بي يوسف الشيطان كان أسفل الجبل يقصد الحراسة، واتفق أن يغمراسن بن زيان وابن عمه يعقوب بن جابر كانوا قربين منه؛

فعرفوا السعيد فانقضوا عليه من بعض الشعاب أمثال العقبان، وطعنه يوسف الشيطان ف kep عن فرسه، وعمد يعقوب بن جابر إلى وزيره يحيى بن عطوش فقتلها؛ ثم استلهموا لوقتهم مواليه ناصحاً من العلوج، وعنبراً من الخصياب؛ وقائد جند النصارى، وهو أخو القمط، ووليداً يافعاً من ولد السعيد، ويقال: إنما كان ذلك يوم عبي السعيد العساكر وصعد الجبل للقتال وتقدم أمام الناس، فاقتطعه بعض الشعاب المتوعرة في طريقه؛ فتواثب عليه هؤلاء الفرسان وكان ما ذكرناه. وذلك من لعنة صفر سنة ست وأربعين وستمائة.

وانتهى الخبر إلى المحلة فارتجمت وماجت، وأخذ أهلها في الفرار؛ وبادر يغمراسن إلى السعيد فنزل إليه وهو صريع على الأرض، فحياء وفداء وأقسم له على البراءة من دمه! والسعيد رحمه الله واجم بمصرعه يوجد بنفسه إلى إن فاظ، وانتهب المعسكل بجملته.

واستولى بنو عبد الواحد على ما كان به من الأخبية الحسنة والفالات الرفيعة، واحتضن يغمراسن بفسطاط السلطان، فكان له خالصة دون قومه؛ واستولى على الذخيرة التي كانت فيه منها مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه، يزعمون أنه أحد المصاحف التي انتسخت لعهد خلافته؛ وإنه كان في خزائن قرطبة عند ولد عبد الرحمن الداخل، ثم صار في ذخائر لم تلونه فيما صار إليهم من ذخائر ملوك الطوائف بالأندلس، ثم صار إلى خزائن الموحدين من يد لم تلونه.

قال ابن خلدون: وهو لهذا العهد في خزائنبني سرين فيما استولوا عليه من ذخيرة آل زيان، وذلك عند غلب السلطان أبي المحسن المريني على تلمisan سنة سبع وثلاثين وسبعمائة كما نذكره اهـ.

وقد تقدم لنا الخبر عن هذا المصحف العثماني وفيه مخالفة لبعض ما هنا، وسيأتي لنا في دولة السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني ما يخالف ذلك كله والله أعلم بحقيقة الأمر.

ومن الذخائر التي صارت ليغمراسن من فساطط السعيد العقد المنتظم

من خرزات الياقوت الفاخر والدر النفيس المشتمل على مئين متعددة من حصباته . وكان يسمى بالثعبان .

ثم صار إلى بني مرين أيضاً إلى أن تلف في البحر عند غرق الأسطول بالسلطان أبي الحسن بمرسى بجاية مرجعة من تونس حسبما ذكره بعد إلى ذخائر من أمثاله وطرف من أشباهه مما يستخلصه الملوك لأنفسهم ويعدونه من ذخائرهم .

ولما سكنت الفتنة وركد عاصف تلك الهيئة نظر يغمراسن في شأن مواراة الخليفة فجهزه ورفعه على أعواده ، فدفنه بالعباد بمقدمة الشيخ أبي مدین رضي الله عنه . ثم نظر في شأن حرم وأخته تاعزونت الشهيرة الذكر بعد أن جاءها واعتذر إليها مما وقع ، وأصحابهن جملة من مشيخة بني عبد الواد إلى مأمتنهن ، فألحقوهن بدرعة من تخوم طاعتهم فكان ليغمراسن بذلك حديث جميل في الإبقاء على الحرم ورعاي حقوق الملك . وأما أهل محلة السعيد فإنهم بعد نهوضهم تداعوا واجتمعوا إلى عبد الله بن السعيد ، وقلوا قاصدين مراكش .

وأتصل الخبر بالأمير أبي بكر بن عبد الحق وهو يومئذ يبني يزنسن ، وقدمت عليه الحصة التي كان وجهها مع السعيد ، فتحقق الخبر ، وانتهز الفرصة في الموحدين فاعتراض عسكرهم بجهات تازا ، فقتل عبد الله بن السعيد واستلبهم واستولى على ما بقي من أثاثهم ، ثم جد السير إلى مكناسة فدخلها وملكها ؛ ولحق فل الموحدين بمراكش ، فباعوا عمر المرتضى كما ذكره إن شاء الله .

الخبر عن دولة أبي حفص عمر المرتضى ابن السيد أبي إبراهيم بن يوسف بن عبد المؤمن رحمة الله

لما توفي أبو الحسن السعيد كان عمر المرتضى والياً من قبله بقصبة رباط الفتح من سلا كما قدمنا ، فاجتمع الموحدون بجامع المنصور من قصبة مراكش

وقدوا له البيعة وبعثوا بها إليه، ونهض هو متوجهاً إلى مراكش فلقيه وفدهم أثناء طريقه بتامسنا، واجتمع عليه أشياخ العرب فبايعوه أيضاً واستقام أمره وتلقب بالمرتضى، وعقد ليعقوب بن كاتون علىبني جابر؛ ولعمه يعقوب بن جرمون على عرب سفيان بعد أن كان قومه قدموه عليهم، ودخل الحضرة واستوزر أبيا محمد بن يونس من قرابته وقبض على حاشية السعيد. ثم وصل آخوه السيد أبو إسحاق الذي كان وزيراً للسعيد من قبل ناجياً من وقعة تامزدكت آخذأ على طريق سجلماسة فاستوزره أيضاً وأسند إليه أمره واستولى أبو بكر بن عبد الحق أميربني مرين بعد مهلك السعيد على رباط تازا ومكناة، ثم استولى سنة سبع وأربعين وستمائة على فاس وأعمالها؛ فاقتصر عن المرتضى بلاد الغرب كلها ولم يبق له إلا بلاد الحوز من سلا إلى السوس.

ولأول دولة المرتضى كان استيلاء العدو على إشبيلية إحدى قواعد الأندلس فإن طاغية قشتالة وهو الإصبنبيول خذله الله حاصرها سنة خمس وأربعين وستمائة. وفي يوم الاثنين الخامس من شعبان من السنة بعدها ملكها صلحأ بعد منازلتها حولاً كاملاً وخمسة أشهر، وانتقل كرسي المملكة الإسلامية بالأندلس إلى غرناطة وذلك في دولةبني الأحرم.

وفي سنة تسع وأربعين وستمائة ملك الأمير أبو بكر المريني سلا ورياط الفتح، ووفد على المرتضى بمراكش موسى بن زيان الونكاسي وأخوه علي بن زيان من قبيلبني مرين، وأغروه بقتالبني عبد الحق فأسعفهم. ولما انتهى إلى أمان إيمولين أشع يعقوب بن جرمون السفياني قضية الصلح بينهما، وأصبح راحلاً وقد استولى الجزء على قلوب الجيش، فانفضوا ووقعوا الهزيمة من غير قتال، ووصل المرتضى إلى الحضرة وأغضى ليعقوب عما صدر منه.

وفي سنة خمسين وستمائة استرجع المرتضى سلا ورياط الفتح من يدبني مرين.

وفي سنة إحدى وخمسين بعدها فر من حاشية المرتضى علي بن يدر

منبني باداسن ولحق ببلاد السوس وتحصن ببعض جبالها ثم حاصر تارودانت قاعدة بلاد السوس فاستولى عليها، واستخدم الشبانات وذوي حسان من عرب معقل، وأطاعته قبائل جزولة واستفحل أمره، واستولى على بسائط السوس فوجه إليه المرتضى عدة جيوش فهزم البعض وقتل البعض، ثم جاء أبو دبوس من بعد المرتضى فنهض إليه، وحاصره ببعض حصونه قرب تارودانت.

ولما اشتد عليه الحصار رغب في الإقالة ومعاودة الطاعة فقبل ذلك منه أبو دبوس وأفلح عن حصاره وعاد إلى الحضرة. ولما استولى بنو مرين على مراكش سنة ثمان وستين وستمائة استبد على بني يدر هذا عليهم وتملك قطر السوس واستولى على تارودانت وسائر قراه ومعاقله، وأرهف حده للعرب وسامهم الهضيمة، فزحفوا إليه وقتلوه في السنة المذكورة. ثم توارث قطر السوس من بعده جماعة من عشيرته، واستمر ملكهم عليه إلى زمان السلطان أبي الحسن المريني فغلبهم عليه وانقرض أمرهم.

رجوع إلى أخبار عمر المرتضى

وفي سنة اثنين وخمسين وستمائة خرج أبو الحسن بن يعلو قائد المرتضى في جيش من الموحدين إلى تامسنا ليكشف أحوال العرب ومعه يعقوب بن شيخبني جابر قبض عليه وعلى وزيره ابن مسلم وطير بهما إلى الحضرة معتقلين.

وفي سنة ثلاثة وخمسين بعدها خرج المرتضى من مراكش لاسترجاع فاس وأعمالها من يدبني مرين المتعظيين عليها، واحتفل في الاحتشاد، وبالغ في الاستعداد، فكان جيشه ثمانين ألف فارس من الموحدين والعرب والأغراز وأهل الأندلس والفرنخ فسار حتى نزل جبلبني بهلول قبلة فاس وكانت هيبةبني مرين وناموسهم قد تمكن من قلوب جيش المرتضى، فكانوا منذ قربوا من أحواز فاس لا ينامون إلا غراراً، فانطلق ذات ليلة فرس لبعض

الجنديين وجرى بين الأخيبة، وجرى الناس خلفه ليأخذوه؛ فلن أهل المحلة أن بني مرين قد أغروا عليهم؛ فركبوا خيولهم، وما ج بعضهم في بعض؛ وانقلبوا منهزمين لا يلرون على شيء.

وأتصل الخبر بأبي بكر بن عبد الحق وهو بفاس فخرج للوقت واحتوى على جميع ما في محله الموحدين من الأخيبة والأئم والسلاح والمال، ومر المرتضى على وجهه فدخل مراكش في جمع قليل من الأشياخ والإفرنج وأقام بها وأعرض عنبني مرين وتسلى عنهم سائر أيامه وازدادت شوكة الموحدين ضعفاً.

واستبد أبو القاسم العزفي بسببة واستتب أمره بها، وتوارث الرياسة بها عشيرته من بعده زماناً إلى أن خلبهم عليها بنو مرين.

وفي سنة خمس وخمسين وستمائة استولى أبو بكر بن عبد الحق على سجلamasة، وتقبض على واليها عبد الحق بن اصكوا بمداخلة خديم له يعرف بمحمد القطراني، وشرط على الأمير أبي بكر أن يكون هو الوالي عليها فامضى له شرطه، وأنزل معه بها جماعة من رجالاتبني مرين حتى إذا هلك أبو بكر بن عبد الحق أخرجهم محمد القطراني واستبد بأمر سجلamasة وراجع دعوة المرتضى، واعتذر إليه، واشترط عليه الاستبداد فامضى له شرطه إلا في أحكام الشريعة، وبعث أبا عمر بن حجاج قاضياً من الحضره وبعض السادة للنظر في القضية؛ وقاداً من النصارى بعسكر للحماية، فأعمل القاضي ابن حجاج الحيلة في قتل القطراني، وتولى الفتوك به قائد النصارى؛ واستبد السيد بأمر سجلamasة بدعوة المرتضى.

واستفحلاً أمر بني مرين أثناء ذلك. ونزل الأمير يعقوب بن عبد الحق
بساقط تامسنا، فسرح إليهم المرتضى عساكر الموحدين لنظر يحيى بن
عبد الله بن وانودين؛ فأجفلوا إلى وادي أم الريبع، واتبعهم الموحدون
وألحووا عليهم فعطف عليهم بنو مرين واقتتلوا ببطن الوادي فانهزمت عساكر
الموحدين، وغدر بهم بنو جابر؛ وكان في مليل الوادي كثيير يحرس عنها

الماء فتبعدوا كأنها أرجل، فسميت الواقعة من أجل ذلك بأم الرجلين وذلك في سنة ستين وستمائة. وبقي المرتضى يعالج أمر علي بن بدر التاجر بالسوس إلى سنة اثنين وستين وستمائة. فأقبل الأمير يعقوب بن عبد الحق في جموعبني مرين حتى نزل على مراكش، واتصل الحرب بينه وبين الموحدين بظاهرها أيامًا؛ هلك فيها عبد الله بن يعقوب بن عبد الحق، فبعث المرتضى إلى أبيه يعقوب بالتعزية ولاطفه؛ وضرب إناوه يبعث بها إليه في كل سنة، فرضي يعقوب وارتحل عنها؛ وقيل إن مقتل عبد الله بن يعقوب كان سنة ستين قبل وقعة أم الرجلين والله تعالى أعلم.

انتقاض أبي دبوس على المرتضى واستيلاؤه على مراكش وقتل المرتضى عقب ذلك

لما ارتحلبني مرين عن مراكش بعد مهلك عبد الله بن يعقوب فر من الحضرة قائد حروب المرتضى وابن عمّه وهو السيد أبو العلاء إدريس الملقب بأبي دبوس ابن السيد أبي عبد الله محمد ابن السيد أبي حفص عمر بن عبد المؤمن، لسعاده تمكنت فيه عند المرتضى، وأنه يطلب الأمر لنفسه؛ فأحسن أبو دبوس بالشر ولحق بيعقوب بن عبد الحق فأدركه عند مقدمه إلى فاس قافلاً من منازله مراكش، فأقبل عليه الأمير يعقوب وبالغ في إكرامه، فطلب منه أبو دبوس الإعانة على حرب المرتضى، وكان بطلاً محرياً وضمن له فتح مراكش وشرط له المقاومة فيما يغلب عليه من السلطان وما يستفيده من الذخيرة والمال. فآمدته الأمير يعقوب بخمسة آلاف منبني مرين، وبالكمالية من المال؛ وبالمستجاد من آلة الحرب من طبول وبنود ونحو ذلك، وكتب له مع ذلك إلى عرب جشم - وأميرهم يومئذ علي بن أبي الخطي - أن يكونوا معه يداً واحدة، فسار أبو دبوس حتى وصل إلى سلا فكتب منها إلى العرب وأشياخ الموحدين والمصامدة الذين في طاعة المرتضى يدعوهم

إلى بيته، ويعدهم ويمنيهم؛ فتلقته وفود العرب والهساكرة وصنهاجة آزمور ببعض الطريق فبایعوه، وساروا معه حتى نزل بلاد هسکورة. ثم كتب إلى خاصته من وزراء المرتضى أن يعلمهونه بحال البلد والدولة فراجعوه أن أسرع السير وأقبل ولا تخشن شيئاً، فإنما قد فرقنا الجند في أطراف البلاد وهذا وقت انتهاز الفرصة. فزحف أبو دبوس إلى مراكش حتى إذا انتهى إلى أغمات وجد بها الوزير أبي زيد بن يكية في جيش من حاميته، فناجهه الحرب فانهزم ابن يكية وقتل عامة أصحابه.

وسار أبو دبوس يوم مراكش ومعه سفيان وبيني جابر وكثيرهم يومئذ علوش بن كانون السفياني، فلما دنوا من مراكش أغارت علوش على باب الشريعة منها والناس في صلاة الجمعة حتى ركز رمحه بمصراع الباب. ودخلت سنة خمس وستين وستمائة والمرتضى بمراكش غافل عن شأن أبي دبوس، والأسوار خالية من الحامية والحراس. فقصد أبو دبوس باب أغمات وتسور البلد من هنالك ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها، وصمد إلى القصبة فاقتحمها من باب الطبول واستولى عليها.

وقال ابن أبي زرع: إن دخول أبي دبوس مراكش كان من باب الصالحة وذلك ضحى يوم السبت الثاني والعشرين من المحرم سنة خمس وستين وستمائة، والصالحة التي أضيف إليها هذا الباب هي بستان كبير من جملة بساتين أجdal دار الخلافة بمراكش ولا زال هذا البستان مشهور بهذا الاسم إلى الآن، وهو من إنشاء عبد المؤمن بن علي رحمة الله؛ فقد ذكر الشيخ أبو عبد الله بن محمد عذاري الأندلسي في كتاب «البيان المغرب» عن أخبار المغرب: أن بستان المسرة الذي يظاهر جنان الصالحة أنشأه عبد المؤمن بن علي كبير الموحدين. قال: وهو بستان طوله ثلاثة أميال وعرضه قريب منها فيه كل فاكهة تشتهي، وجلب إليه الماء من أغمات واستبط له عيوناً كثيرة».

قال ابن اليسع: وما خرجت أنا من مراكش في سنة ثلاثة وأربعين

وخمسمائة إلا وهذا البستان الذي غرسه عبد المؤمن يبلغ مبيع زيتونه وفواكهه ثلاثة ألف دينار مؤمنية على رخص الفاكهة بمراكبش . اهـ .

قلت : ولشهرة هذا البستان وموقعه من الناس لهجت به صبيانهم وسجعوا به فيقولون : « يا جردة مالحة ، أين بت سارحة ؟ في جنان الصالحة » في أسرع غير هذه تجري على ألسنة الصبيان . والله أعلم .

رجوع إلى خبر أبي دبوس

قال ابن أبي زرع : لما اقتحم أبو دبوس مراكش سار حتى وقف بباب البنود من القصبة فغلقت الأبواب دونه ، وقام عبيد المخزن عليها يقاتلونه .

ولما رأى المرتضى أن أبا دبوس قد التححف معه كساء دار الملك خرج من القصر ناجياً بنفسه من باب الفاتحة ومعه الوزير أبو زيد بن يعلو الكومي ، وأبو موسى بن عزوز الهاشمي ، ثم انتقل منها إلى كدمية ؛ ثم إلى شفشاوة ثم لحق آخرًا بأزمور ونزل على صهر له منبني عطوش كان والياً عليها من قبله . وكان ابن عطوش هذا قد أسره العدو فافتكه المرتضى بمال جسم وزوجه ابنته وولاه آزمور . فلما وقعت عليه الكائنات بمراكبش ذهب إليه مستجيرًا به ومطمئناً إليه فكان من جزائه له أن قبض عليه وقيده ، وكتب إليه أبي دبوس يعلمه بشأنه ؛ فكتب أبو دبوس إليه يستكشفه في شأن الذخيرة فأنكر المرتضى أن يكون قد أذخر شيئاً وحلف على ذلك ومت إليه بالرحم حتى كاد أبو دبوس يعطف عليه ، ثم أغراه خاصته به فوجه إليه من قتلته في الطريق وأتى إليه برأسه ، وسار ابن عطوش بفعلته هذه أظلم من الخيفقان .

وكان مقتل المرتضى في العشر الأواخر من شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين وستمائة . وكان رحمه الله يتمي إلى التصوف والزهد والورع ، وتسمى بثالث العمررين ، وكان مولعاً بالسماع لا يكاد يخلو منه ليلاً ولا نهاراً وكان في أيامه رخاء مفرط لم ير أهل مراكش مثله .

وقال ابن الخطيب: كان المرتضى فاضلاً خيراً عفيفاً، محمد السيف؛
مائلاً إلى الهدنة رحمة الله.

الخبر عن دولة أبي العلاء إدريس الواقف بالله المعروف بأبي دبوس

لما تقدم أبو دبوس حضرة الخلافة على المرتضى وفر المرتضى عنها ملكها أبو دبوس واستتب أمره بها وبابيعه كافة الموحدين وأهل العقد والحل من الوزراء والفقهاء والأشياخ، وكان ذلك بجامع المنصور يوم الأحد الثالث والعشرين من المحرم سنة خمس وستين وستمائة، واستقل أبو دبوس بملكه مراكش وأعمالها، وتلقب بالواشق بالله، والمعتمد على الله. وبذل العطاء ونظر في الولايات، ورفع المكوس عن الرعية.

ولما اتصل بالأمير يعقوب بن عبد الحق ما كان من أبي دبوس واستيلائه على المملكة كتب إليه يهنته بالفتح، ويطلب منه أن يمكنه من الشرط الذي شرط له؛ فلما وصل إليه الكتاب أدركته النخوة، وغلب عليه الكبر؛ وقال للرسول: قل ليعقوب بن عبد الحق يغتنم سلامته، ويعث إلى بيته حتى أقره على ما بيده وإنما غزوه بجنود لا قبل له بها، فعاد الرسول إلى الأمير يعقوب؛ وأبلغه الخبر ودفع إليه كتاب أبي دبوس فإذا هو يخاطبه مخاطبة الخلفاء لعمالهم، والرؤساء لخدمهم، فتحقق الأمير يعقوب نكته وغدره، فنهض إليه في جموعبني مرين وعساكر المغرب.

فلما أشرف على مراكش خام أبو دبوس عن اللقاء وتحصن بداره، ولجا إلى أسواره، فتقدم الأمير يعقوب حتى نزل على مراكش وحاصرها أيامًا وعاش في نواحيها، وانتسف ما حولها.

ولما رأى أبو دبوس ما نزل به منه كتب إلى قرييه يغمرا سن بن زيان صاحب تلمسان يطلب منه أن يشغل عنه الأمير يعقوب بما وراءه من أعمال

فاس والمغرب وأنسى له الهدية في ذلك، وأكده العهد في المواصلة والمناصرة، فأجابه يغمراسن إلى ذلك. نهض من حينه فشن الغارات على ثغور المغرب، وأضرم نار الفتنة بها.

واتصل ذلك بالأمير يعقوب وهو محاصر لمراكش، فرجع عوده على بدئه وسار إلى يغمراسن فناجزه الحرب، وانتصف منه على ما ينبغي وحسم مادة فساده.

ثم كر راجعاً إلى مراكش في شعبان سنة ست وستين وستمائة، ولما عبر وادي أم الرياح شن الغارات على التواحي، وبث السرايا في الجهات، وطال عيشه في البلاد، وأبدأ في ذلك وأعاد؛ حتى ضاقت صدوربني عبد المؤمن بمراكش وتکدر عيشهم. فحرضهم أولياوهم من عرب جشم، وأغروهـم باستنهاض أبي دبوس لمدافعة عدوه، ووعدوهم النصر من أنفسهم؛ فتحرك أبو دبوس لذلك؛ واشرأبت نفسه إلى القتال، فحشد وأبلغ، ويرز من الحضرة في جوش ضخمة وجموع وافرة.

ولما علم الأمير يعقوب بخروجه ودنوه منه أظهر من نفسه العجز عن لقائه، وكـر راجعاً إلى جهة بلاده، يستجره بذلك ليبعـد عن الحضرة ومدـها. وتمـادـي أبو دبوـس في اـتبـاعـه حتـى اـنـتـهـيـ إلىـ وـادـيـ وـدـغـفـوـ، فـكـرـ عـلـيـهـ الـأـمـيرـ يـعـقـوبـ وـالـتـحـمـ القـتـالـ، وـقـامـتـ الـحـرـبـ عـلـىـ سـاقـ؛ فـلـمـ تـمـضـ إـلـاـ سـاعـةـ حتـىـ انهـزـمـ الـمـوـحـدـيـنـ، وـأـطـلـقـ أـبـوـ دـبـوـسـ عـنـانـهـ لـلـفـرـارـ يـرـيدـ مـرـاكـشـ؛ فـأـدـرـكـتـهـ خـيلـ بـنـيـ مـرـيـنـ؛ وـتـنـاـوـلـتـهـ رـمـاـحـهـ، وـخـرـ صـرـيـعـاـ لـلـدـيـنـ وـلـلـفـمـ؛ وـاحـتـرـأـسـهـ وـجيـءـ بـهـ إـلـيـ الـأـمـيرـ يـعـقـوبـ فـسـجـدـ شـكـراـ لـلـهـ تـعـالـىـ. ثـمـ بـعـثـ بـهـ إـلـيـ فـاسـ، وـتـقـدـمـ هوـ إـلـيـ مـرـاكـشـ فـاستـولـيـ عـلـيـهـ فـيـ أـوـاـلـ مـحـرـمـ سـنـةـ ثـمـانـ وـسـتـيـنـ وـسـتـيـمـائـةـ وـفـرـ المـوـحـدـيـنـ كـانـواـ بـمـرـاكـشـ إـلـيـ جـبـلـ تـيـنـمـلـ، فـبـاـيـعـواـ إـسـحـاقـ بـنـ أـبـيـ إـبـرـاهـيمـ أـخـاـ الـمـرـتـضـيـ، فـبـقـيـ ذـبـالـةـ هـنـالـكـ إـلـيـ سـنـةـ أـرـبـعـ وـسـبـعـيـنـ وـسـتـيـمـائـةـ فـقـبـضـ عـلـيـهـ؛ وـجيـءـ بـهـ إـلـيـ السـلـطـانـ يـعـقـوبـ بـنـ عـبـدـ الـحـقـ هوـ وـاـيـنـ عـمـهـ السـيـدـ أـبـوـ سـعـيدـ بـنـ أـبـيـ الـرـبـيعـ وـوزـيـرـ الـقـبـائـلـيـ وـأـوـلـادـ فـقـتـلـوـ جـمـيـعـاـ، وـانـقـرـضـتـ دـوـلـةـ بـنـيـ عـبـدـ الـمـؤـمـنـ مـنـ الـأـرـضـ، وـذـهـبـتـ مـحـاسـنـ مـرـاكـشـ يـوـمـئـذـ.

بذهباب دولتهم والبقاء لله وحده لا رب غيره ولا معبد سواه.

ولنذكر ما كان في هذه المدة من الأحداث:

ففي سنة إحدى وستمائة توفي الشيخ أبو العباس أحمد بن جعفر الخزرجي المعروف بالسيتي دفين مراكش، وذلك يوم الاثنين الثالث من جمادى الآخرة من السنة المذكورة، ودفن خارج باب تاغزوت: وكان شيخه أبو عبد الله الفخار من أصحاب القاضي أبي الفضل عياض.

وكان الشيخ أبو العباس رضي الله عنه جميلاً الصورة أبيض اللون حسن الشباب فصريح اللسان، قادرًا على الكلام؛ لا يناظره أحد إلا أفحمه. حتى كان موقع الحجج من الكتاب والسنة موضوعة على طرف لسانه، وكان مع ذلك حليماً صبوراً عطوفاً، يحسن إلى من يؤذيه؛ ويحلم عن من يسنه عليه برأه باليتامي والمساكين، رحيمًا بهم؛ يجلس حيث أمكنه الجلوس من الأسواق والطرقات ويحضر الناس على الصدقة، و يأتي بما جاء في فضلها من الآيات والآثار فتثال عليه من كل جانب، فيفرقها على المساكين وينصرف. وكان له مع الله تعالى في التوكيل عليه عقد أكيد، ومقام حميد؛ قد ظهر أثره على روضته المباركة بعد وفاته.

حدث أبو القاسم عبد الرحمن بن إبراهيم الخزرجي قال: بعثني أبو الوليد بن رشد من قرطبة، وقال لي: إذا رأيت أبي العباس السيتي بمراكش. فانظر مذهبة واعلمني به. قال: فجلست مع السيتي كثيراً إلى أن حصلت على مذهبة: فأعلمته بذلك، فقال لي أبو الوليد: هذا رجل مذهبة أن الوجود ينفع بالوجود.

وقال الوزير ابن الخطيب كان سيدي أبو العباس السيتي رضي الله عنه مقصوداً في حياته، مستغاثاً به في الأزمات، وحاله من أعظم الآيات الخارقة للعادة، ومبني أمره على انفعال العالم عن الجود، وكونه حكمة في تأثير الوجود. له في ذلك أخبار ذائعة وأمثال باهرة.

ولما توفي ظهر هذا الأثر على تربته، وانسحبت على مكانه عادة حياته، وقع الإجماع على تسليم هذه الدعوى وتخطي الناس مباشرة قبره بالصدقة إلى بعثها له من أماكنهم على بعد المدى، وانقطاع الأماكن القصوى، تحملهم أجنحة نياتهم؛ فتهوي إليه بمقاصدهم من كل فج عميق، فيجدون الشمرة المعروفة، والكرامة المشهورة.

وفي سنة عشر وستمائة كان الوباء العظيم بالمغرب والأندلس.

وفي سنة ست عشرة وستمائة توفي الشيخ الفقيه الصالح أبو إسحاق إبراهيم بن محمد السلمي البليفيقي، ينتهي نسبه إلى العباس بن مردار السلمي صاحب رسول الله ﷺ. كان أبو إسحاق رحمة الله من كبار العلماء العاملين، والزهاد المحققين، مثابراً على الاجتهاد والانقطاع إلى الله تعالى؛ وظهرت عليه ببلده المرية من عدوة الأندلس كرامات واجتمع عليه خلق كثير، وشاع ذكره هنالك؛ فوشوا به إلى الخليفة صاحب مراكش وهو يوسف المنتصر الموحدي، فكتب إلى عامله على المرية يأمره بتوجيهه الشيخ أبي إسحاق مكرماً غير مروع.

ولما عزم العامل على توجيهه قام العامة والأتباع دون الشيخ وأرادوا أن يحولوا بينه وبين العامل، فقال لهم الشيخ: «طاعة السلطان واجبة» ولما انتهى إلى مراكش ودخل على المنتصر هابه وجله وندم على ما كان منه إليه، ثم بالغ في إكرامه، وبعد ذلك مرض الشيخ أبو إسحاق وتوفي في السنة المذكورة واحتفل الناس لجنازته وحضرها النساء والرجال، وكسر العامة نعشة واقتسموا أعوداته تبركاً بها، وقبره مشهور بمراكش بسوق الدقيق منها ويقرب ضريحه مسجد جامع ينسب إليه وال العامة تقول جامع سيدى إسحاق بدون لفظ الكنية وليس كذلك.

وفي سنة سبع عشرة وستمائة كان الجراد والقطط والغلاء الشديد بال المغرب وفيها ألف الف فقيه أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي المراكشي الدار عرف بابن الزيارات كتابه المسمى «بالتلشفوف إلى رجال التصوف»، وذكر

فيه أنه لم يتعرض لذكر أحد من أولياء زمانه الأحياء غير أنه ذكر أن من جملة أولياء زمانه الذين كانوا قيد الحياة الشيخ الصالح الصوفي أبي محمد صالح بن ينضار بن عفیان الدکالی ثم الماجری نزیل ریط آسفی . قال : وهو الآن یفتر من الجھاد ، والمحافظة على المواصلة والأوراد ، ومن کلامه الفقیر ليس له نهاية إلا الموت ، قال : وحدثني عنه تلامذته بعجائب من الكرامات والكلام على الخواطر ; وهو على سنن المشايخ الأول رضي الله عنه .

وفي سنة اثنين وعشرين وستمائة توفي الشيخ أبو محمد عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه ، وقيل فيما بعد ذلك إلى سنة خمس وعشرين ؛ وتوفي رضي الله عنه شهيداً بجبل العلم من جبال غماره وقبره هناك مشهور من أعظم مزارات المغرب .

وكان سبب شهادته أن محمدأ بن أبي الطواجيين الكتامي كان قد ثار بتلك البلاد وانتقل صناعة الكيمياء ، ثم ادعى النبوة حسبما سلف وتبعد على ضلالته طغاة غماره والبربر . فكان عدو الله يغص بمکان الشيخ رضي الله عنه ، لما آتاه الله من شرف التقوى والاستقامة المؤيد بشرف النسب الصميم والعنصر الكريم ؛ فسول له الشيطان أنه لا يتم أمر مخرقه في تلك الناحية إلا بقتل الشيخ فدس له جماعة من أتباعه وأشياخه فرصدوا الشيخ حتى نزل من خلوته في سحر من الأسحار إلى عين هنالك قرب الجبل المذكور فتوضا منها وولى راجعا إلى محل عبادته وارتقاء فجره فعدوا عليه وقتلوه ؛ ومن الشائع أنه ألقى عليهم ضباب كثيف أضلهم عن الطريق ودفعوا إلى شواهد تردوا منها في مهاوي سحيبة تمزقت فيها أشلاءهم ولم يرجع منهم خبر .

والشيخ عبد السلام هذا هو ابن مشيش بن أبي بكر بن علي بن حرمة بن عيسى بن سلام بتشديد اللام بن مزوار بفتح الميم وبالراء المهملة أخيراً ابن حیدرة واسمه علي بن محمد بن إدريس بن عبد الله بن الحسن المتنى ابن الحسن السبط ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم .

وفي هذه السنة أيضاً استأسد العدو الكافر على المسلمين بالأندلس وتواتت له عليهم الهزائم بمواضع متعددة واستولى على كثير من الحصون واستلهم منهم عدة ألاف حتى خلت المساجد والأسواق.

وفي سنة أربع وعشرين وستمائة اشتد الغلاء بالمغرب والأندلس حتى بيع القفيز من القممح بخمسة عشرة ديناراً، وعم الجراد بلاد المغرب.

وفي سنة ست وعشرين وستمائة كان السيل العظيم بفاس هدم من سورها القبلي نحو مسافتين وهدم من جامع الأندلس ثلاثة بلاطات وهدم دوراً كثيرة وفنادق متعددة من علوة الأندلس.

وفي سنة ثلاثين وستمائة كان الغلاء ببلاد المغرب وكثُر بها الجوع والوباء حتى بلغ القفيز من القممح ثمانين ديناراً وخلت الأمصار من أهلها.

وفي سنة خمس وثلاثين وستمائة عاود الغلاء والوباء أرض المغرب فأكل الناس بعضهم بعضاً وكان يدفن في الحفيير الواحد المائة من الناس.

وفي سن ست وأربعين وستمائة وقع الحريق بأسواق فاس فاحترقت حارة باب السلسلة بأسرها إلى حمام الرحمة وبالله تعالى العصمة والتوفيق.

تم الجزء الثاني

وبليه الجزء الثالث أوله ابتداء دولة بنى مرين

فهرس الموضوعات

3	الدولة المراطية
3	الخبر عن الدولة الصنهاجية اللمتونية المراطية وأوليتها
.....	ال الخبر عن رياضة يحيى بن إبراهيم الكدالي وما كان من أمره مع الشيخ
5	أبي عمران الفاسي رحمة الله
7	الخبر عن دخول عبد الله بن ياسين أرض الصحراء وابتداء أمره بها
.....	شروع عبد الله بن ياسين في الجهاد وإعلانه بالدعوة وما كان من أمره في
9	ذلك
11	الخبر عن رياضة يحيى بن عمرو بن تكلاكين اللمتوني
.....	الخبر عن غزو عبد الله بن ياسين ويحيى بن عمر سجلماسة والسبب في
12	ذلك
13	الخبر عن رياضة أبي بكر بن عمر اللمتوني وفتح بلاد السوس
14	فتح بلاد المصامدة وما يتبع ذلك من جهاد برغواطة وفتح بلادهم وذكر نسيهم
15	الكلام على برغواطة
18	وفاة عبد الله بن ياسين
20	غزوة أبي بكر بن عمر بلاد المغرب سوى ما تقدم وفتحه إليها
20	عود أبي بكر بن عمر إلى بلاد الصحراء والسبب في ذلك
22	الخبر عن دولة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتوني
24	وفاة زينب الفزاوية
24	بناء مدينة مراكش
27	فتح مدينة فاس وغيرها من سائر بلاد المغرب
30	فتح سبتة وطنجة وما ترتب عليه من جهاد بالأندلس
33	الخبر عن الغزوة الكبرى بالزلقة من أرض الأندلس
.....	بقية أخبار أمير المسلمين في الجهاد وما اتفق له مع ملوك الأندلس وكبارهم

ابن عباد	50
بقية أخبار أمير المسلمين يوسف بن تاشفين سوى ما تقدم	57
الخبر عن دولة أمير المسلمين أبي الحسن علي بن يوسف بن تاشفين اللمنوني	61
خروج يحيى بن أبي بكر بن يوسف بن تاشفين على عمه أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين	61
أخبار الولاة بالمغرب والأندلس	63
أخبار أمير المسلمين علي بن يوسف في الجهاد وجوازه الأول إلى بلاد الأندلس	65
استيلاء العدو على سرقسطة	66
ولاية الأمير تاشفين بن علي بن يوسف على بلاد الأندلس وأخباره في الجهاد	68
ولاية الأمير تاشفين بن علي بن يوسف على بلاد الأندلس وأخباره في الخبر عن دولة أبي المعز تاشفين بن علي بن يوسف ابن تاشفين اللمنوني	70
الأحداث في أيام المتنوين	71
وفاة أبي الفضل بن التحوي	74
وفاة أبي العباس أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء اللهالمعروف بابن العريف ..	76
وفاة أبي الحكم عبد السلام بن برجان التخمي	76
وفاة أبي ينور المشترائي دفين دكالة	77
الدولة الموحدية	78
الخبر عن دولة الموحدين من المصامدة وقيامها على يد محمد بن تومرت المعروف بالمهدى	78
بقية أخبار المهدى وبعض سيرته إلى وفاته	94
أول من أحدث : «أصبح والله الحمد» في أذان الصبح	96
وفاة المهدى رحمه الله	97
أصل كتاب الجفر	97
الخبر عن دولة أبي محمد عبد المؤمن بن علي الكومي وأوليتها	99
بيعة عبد المؤمن بن علي والسبب فيها	101

103	غزوة عبد المؤمن الطويلة التي استولى فيها على المغاربة
107	فتح مدينة فاس
108	فتح مراكش واستصال بقية اللمتونيين
108	قصربني العشرة سلا
110	حدوث لقب «أمير المؤمنين» بالمغرب
110	ثورة محمد بن هود السلاوي المعروف بالماسي
113	انتقاض أهل سبتة على الموحدين وخبر القاضي عياض رحمة الله معهم
116	أخبار الأندلس وفتورها
117	وفاة الإمام أبي بكر بن العربي المعاوري
119	قدوم عبد المؤمن إلى سلا ووفادة أهل الأندلس عليه بها
120	غزو إفريقية وفتح مدينة بجاية
122	فتح المرية وبساطة وأبدة
123	قدوم عبد المؤمن مدينة سلا وتولية أولاده على التواحي بها
124	إيقاع عبد المؤمن بعد العزيز وعيسى أخيو المهدى والسبب في ذلك
125	إيقاع يحيى بن يغمور بأهل بلة وإسرافه في ذلك
126	أمر عبد المؤمن بتحريق كتب الفروع ورد الناس إلى الأصول من الكتاب والسنة
126	نقل المصحف العثماني من قرطبة إلى مراكش وبناء جامع الكتبين بها
131	نكبة الوزير ابن عطية والسبب فيها
135	غزو إفريقية ثانيةً وفتح المهدية وغيرها من الشغور
139	توظيف عبد المؤمن الخراج على أرض المغرب
140	بناء عبد المؤمن جبل طارق
140	بناء عبد المؤمن مدينة البطحاء
141	عبور عبد المؤمن إلى جبل طارق والسبب في ذلك
142	قدوم كومية قبيلة عبد المؤمن عليه بمراكش والسبب في ذلك
143	استعداد عبد المؤمن وإنشاؤه الأساطيل بسواحل المغرب وما يتبع ذلك من وفاته رحمة الله
145	بقية أخبار عبد المؤمن وسيرته
146	الخبر عن دولة أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن بن علي

149.....	بناء فنطرة تانسيفت
148.....	ثورة سبع بن منغداد بجبل غمارة
	الجواز الأول لأمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن إلى الأندلس بقصد الجهاد
149.....	غزو أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن بلاد إفريقية وفتح مدينة قصبة
152.....	والسبب في ذلك
	الجواز الثاني لأمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن إلى الأندلس برسم
153.....	الجهاد وما يتصل بذلك من وفاته رحمه الله
156.....	بقية أخبار أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن وسيرته
	الخبر عن دولة أمير المؤمنين المنصور بالله يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي
	خروج علي بن إسحاق المسوفي المعروف بابن غانية على يعقوب
159.....	المنصور
160.....	غلق أبواب المدن يوم الجمعة
	الخبر عن انتقال العرب من جزيرتهم إلى أرض إفريقيا ثم منها إلى
161.....	المغرب الأقصى والسبب في ذلك
162.....	قصة جازية بنت سرحان
163.....	دخول عرب هلال وجسم المغرب الأقصى
169.....	معنى الغرب والحوز في عرف أهل المغرب
	الخبر عن بني معلق عرب الصحراء من أرض المغرب وتحقيق نسبهم
177.....	وبيان شعوبهم وبطونهم
181.....	الجواز الأول ليعقوب المنصور رحمه الله إلى الأندلس بقصد الجهاد
	مراسلة السلطان صلاح الدين يوسف بن أبيوب صاحب مصر ليعقوب
181.....	المنصور رحمهما الله والتماسه منه الأساطيل للجهاد
183.....	اختصاص أهل المغرب بالأساطيل الجهادية دون غيرهم
183.....	عود المنصور إلى إفريقيا والسبب في ذلك
185.....	الغزوة الكبرى بالأرك من بلاد الأندلس
193.....	ابن رشد الحفيظ
194.....	ذكر ما شيد المنصور رحمه الله من الآثار بالمغرب والأندلس

198.	بقية أخبار المنصور وسيرته
199.	أمر المنصور بقراءة البسمة في أول الفاتحة
199.	حكاية عجيبة
203.	وفاة يعقوب المنصور رحمه الله
204.	حمة أبي يعقوب
206.	وفاة القاضي عياض رحمه الله
206.	وفاة الشيخ أبي الحسن بن حرزهم رحمه الله
207.	وفاة الشيخ أبي شعيب دفين آزمور
209.	وفاة ابن قرقول
209.	وفاة الفقيه أبو الحسن الأنصاري المنيطي
210.	وفاة الشيخ أبي يعزى
210.	وفاة الشيخ أبي الحسن بن غالب دفين القصر
210.	وفاة الشيخ التاودي المعلم
211.	وفاة الإمام السهيلي
211.	وفاة الشيخ الغمام دفين سلا
211.	وفاة الشيخ يوسف بن علي دفين مراكش
212.	وفاة الشيخ أبي مدین
213.	وفاة الشيخ المهدوي صاحب كتاب الهدایة
	الخبر عن دولة أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد الناصر لدين الله بن
214.	يعقوب المنصور باش
	غزو الناصر بلاد إفريقية وولاية الشيخ أبي محمد بن أبي حفص عليها
214.	والسبب في ذلك
217.	فتح جزيرة ميورقة
218.	ثورة ابن الفرس وما كان من أمره
220.	غروة العقاب التي ممحص الله فيها المسلمين
225.	وفاة الناصر رحمه الله
	الخبر عن دولة أمير المؤمنين يوسف المنتصر باش ابن الناصر بن المنصور
226.	رحمه الله
	الخبر عن دولة أمير المؤمنين عبد الواحد المخلوع ابن يوسف بن عبد

المؤمن رحمة الله 229
الخبر عن دولة أبي محمد عبد الله العادل ابن المنصور رحمة الله 231
الخبر عن دولة المأمون بن المنصور ومزاحمة يحيى بن الناصر له 233
ثورة محمد بن أبي الطواجيين الكتامي بجبال غمارة 234
أخبار الثوار بالأندلس وما آلت إليه أمر الموحدين بها 235
قدوم أبي العلاء المأمون بن المنصور من الأندلس إلى مراكش وما اتفق له في ذلك 236
الخبر عن دولة أبي محمد عبد الواحد الرشيد ابن المأمون ابن المنصور رحمة الله 241
فتنة الخلط مع الرشيد واستيلاؤهم على حضرة مراكش 243
هجوم نصارى جنوة على مدينة سبتة وحصارهم إياها 244
عود الرشيد إلى مراكش وفرار يحيى عنها إلىبني معقل ومقتله بهم 244
استيلاء العدو على قرطبة 246
وفاة الرشيد رحمة الله 246
الخبر عن دولة أبي الحسن السعيد علي بن المأمون بن المنصور رحمة الله 247
نهوض السعيد من مراكش إلى غزو الثوار بالمغاربة ومحاصرته يغمراسن ابن زيان وما آلت إليه الأمر من مقتله رحمة الله 248
الخبر عن دولة أبي حفص عمر المرتضى ابن السيد أبي إبراهيم بن يوسف ابن عبد المؤمن رحمة الله 252
استيلاء العدو على إشبيلية 253
رجوع إلى أخبار عمر المرتضى 254
انتقام أبي دبوس على المرتضى واستيلاؤه على مراكش ومقتل المرتضى عقب ذلك 256
رجع إلى خبر أبي دبوس 258
الخبر عن دولة أبي العلاء إدريس الولاني بالله المعروف بأبي دبوس 259
وفاة الشيخ أبي العباس السبتي دفين مراكش 261
وفاة الشيخ أبي إسحاق البليغي رحمة الله 262
الشيخ أبو صالح دفين آسف 263
وفاة الشيخ عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه 263

فهرس الأعلام والقبائل

- ابن الأفطس ٣٣ - ٣٤ - .٤٤
- ابن أوقاريط .٢٤٤
- ابن باديس .١٦٦
- ابن بشكوال .١٢٦
- ابن جامع .٢٣٠ - ٢٢٩ - ٢٢٣
- ابن جنون .٧٣
- ابن الجياني .١٠٧
- ابن حبوس .٤٤
- ابن حزم .١٦٧ - ١٨٠
- ابن الحمارة .١٠٨
- ابن حميدان .٢٤٣
- ابن حيدرة (علي بن محمد بن إدريس) .٢٦٣
- ابن الخطيب .٢٦ - ٣٣ - ٧٠ - ٩٠ - ٩٥
- ٢١٧ - ٢٠٥ - ٢٠١ - ١٨٨ - ١٠٠ - .٩٧
- .٢٦١ - ٢٥٩ - ٢٣٥ - ٢٢٥ - ٢٢٤ - ٢٥ - ١٦ - ١٥ - ٤ - ٨ - ١٠
- ٥٧ - ٥٦ - ٥٥ - ٣٥ - ٣٤ - ٢٩ - ٢٧
- ٨٤ - ٨٣ - ٨٢ - ٨٠ - ٧٣ - ٦٤ - ٥٨ - ٩٩ - ٩٨ - ٩٠ - ٨٩ - ٨٦ - ٨٥ - ١١٩ - ١١٦ - ١٠٤ - ١٠٣ - ١٠١ - ١٠٠

حروف (١)

- آل زيان .٢٥١
- إبراهيم بن إسحاق اللمنوني .٥٤
- إبراهيم بن إسحاق العزرجي .٩٢
- إبراهيم بن إسحاق بن أبي حفص .٢٣٢
- إبراهيم بن تاشفين .١٠٥ - ٧١
- إبراهيم بن تاعماشت .٨٩
- إبراهيم بن جامع .١٠٨ - ١٠٧
- إبراهيم بن عطية .١٧٦
- إبراهيم بن همشك .١٤٩
- إبراهيم بن يحيى .٦
- ابن أبي حفص .٢٤٩
- ابن أبي زرع .٣٥ - ٤٣ - ٤٩ - ٥١
- ٥٥ - ٩٠ - ٩٤ - ١٤٨ - ١٥٨ - ١٦٠
- ١٨١ - ١٨٨ - ١٩٨ - ٢٠٣ - ٢٠٥
- ٢٢٩ - ٢٣٩ - ٢٤١ - ٢٥٠ - ٢٥٧ - ٢٥٨
- ابن أبي الطواجيين .٢٣٥
- ابن الأثير .٢٣ - ٣٥ - ٤٠ - ١٩١ - ١٩٢
- ابن الأحمر .٢٤٩
- ابن أذفونش .١٤٩ - ١٥١ - ١٩١ - ١٩٣

.227 – 216 – 215 –	.166 – 158 – 152 – 146 – 136 –
ابن الفخار .186	179 – 177 – 176 – 174 – 172 – 167
ابن قاس .223	– 221 – 216 – 191 – 189 – 183 –
ابن قتيبة .98	.251 – 229 – 224
ابن القصيرة .46	ابن خلكان 4 – 50 – 47 – 41 – 35 – 21 –
ابن القيسى .120	79 – 78 – 76 – 72 – 69 – 64 – 57 –
ابن الكلبى .179	99 – 90 – 89 – 86 – 83 – 82 –
ابن مجبر .197	185 – 157 – 156 – 145 – 144 – 100
ابن مرج الكحل .217	– 201 – 200 – 199 – 198 – 189 –
ابن مردنيش .149	.228 – 225 – 206 – 204 – 203
ابن مسلم .254	ابن ذي النون .208 – 44 – 33
ابن مسلمة .44	ابن رذمير .67 – 66 – 65 –
ابن مطروح .156 – 146	ابن رشيد .127
ابن متقد .183	ابن رشيق .55
ابن المومياني .264	ابن رميلة .48
ابن هود .235	ابن الرند .191
– .249	ابن زهر .202
ابن يرجان .232	ابن سعيد .194
ابن اليسع .257	ابن صمادح .55 – 44
ابن يغمور .85	ابن صناديد .189 – 188
ابن يكيت .141	ابن طاع الله .218
أبو إبراهيم إسحاق بن يوسف بن عبد المؤمن .107 – 120 – 147 – 226 –	ابن عباد .33 – 43 – 42 – 39 – 38 – 35 – 45
.227 – .244	.55 – 54 – 52 – 51 – 50 – 48 – 47 –
أبو أحمد بن عطية .131	ابن عبد العزيز .52
أبو إسحاق .147 – 153 – 154 – 155 –	ابن عبد العظيم الأزمرى .25
أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف (ابن فرقول) .209	شابن عبد الملك .77
	ابن عبد المنعم الحميري .35
	شابن عزرون .119
	ابن عطية .122 – 134 – 132 –
	.145 – 184 – 183 – 168 – 161 – 160
	ابن غانية .161 – 160 – 168 – 183 – 184

- أبو بكر محمد بن مجير .196.
 أبو بكر يحيى بن مجير .156.
 أبو ثابت المربي .169.
 أبو جعفر بن عطية القضاعي 111 - 119 - 124 - 131 - 132 - 134 .
 أبو الحارث عبد الرحمن بن مقدد .182.
 أبو الحجاج المتيطي .209.
 أبو الحجاج يوسف بن سليمان .123.
 أبو الحجاج يوسف بن عمر .146.
 أبو الحجاج يوسف بن قادس .222.
 أبو الحسن .151.
 أبو الحسن الأنصاري (المتيطي) .209.
 أبو الحسن بن أبي حفص .181.
 أبو الحسن بن أبي سعيد بن يعقوب .175
 أبو الحسن بن غالب القرشي 210 - .212
 أبو الحسن بن يعلو 171 - 254.
 أبو الحسن السلاوي .212.
 أبو الحسن عبد الملك بن عياش 123 - .202 - 196
 أبو الحسن علي بن حرزهم 74 - 77 - .206
 أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني .170.
 أبو الحسن علي بن يوسف بن تاشقين .51
 أبو الحسن التخمي .74.
 أبو الحسن المربي 129 - 230 - 247 - .254 - 251
 أبو إسحاق إبراهيم السلمي .262.
 أبو إسحاق إبراهيم الكانمي .197.
 أبو إسحاق بن أبي إبراهيم 253 - 247 - .229.
 أبو إسحاق بن المنصور .226 - .229.
 أبو الأنصار عبد الله بن أبي غفير .17.
 أبو بكر بن إبراهيم بن تافلوت .65.
 أبو بكر بن الجد 119 - .202.
 أبو بكر بن حبيش الباقي .123.
 أبو بكر بن زهر .201.
 أبو بكر بن زيدون .39.
 أبو بكر بن الصائغ (ابن باجة) .157.
 أبو بكر بن طفيل القيسي .123.
 أبو بكر بن عبد الحق المربي 247 - .253 - 250 - 249 - .248
 .255
 أبو بكر بن العربي .58.
 أبو بكر بن عمر 13 - 14 - 15 - 19 - .20
 .21 - 22 - 23 - .20
 أبو بكر بن غازي .172.
 أبو بكر بن القصيرة 41 - .45.
 أبو بكر بن ماخوخ 104 - .105.
 أبو بكر بن مزدلي .104.
 أبو بكر بن يوسف 49 - 89 - .94.
 أبو بكر رضي الله عنه .164.
 أبو بكر الطرطوشى .58.
 أبو بكر عبد الله بن محمد بن أدهم .40.
 أبو بكر محمد بن طفيل 157 - .202.
 أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي .117.
 أبو بكر محمد بن عبد الملك .127.

- | | |
|--|--|
| أبو زكريا يحيى بن أحمد القيسى .127
أبو زكريا يحيى بن الشهيد 231 - 232 - 234
أبو زكريا يحيى بن الحفصى 228 - 236 - 240 - 245 - 248 .
أبو زيد بن أبي إبراهيم .247
أبو زيد بن أبي حفص 151 - 154 - 160 - 160 - 154 - 232 - 235 - 236 .
أبو زيد بن أبي عبد الله 230 - 231 .
أبو زيد بن إدريس .228
أبو زيد بن خليفة .193 .
أبو زيد بن يرجان 214 - 215 - 218 - 218 .
أبو زيد .234 - 230 - 229 - 226 .
أبو زيد بن يعلو الكوفي .258
أبو زيد بن يكيرت 123 - 257 .
أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون .180
أبو زيد عبد الرحمن بن السهيلي 211 - 227 .
أبو سالم المرينى .172 - 176 .
أبو سعيد بن أبي الريبع .260
أبو سعيد بن جامع 221 - 226 .
أبو سعيد بن عبد المؤمن 147 - 149 - 151 .
أبو سعيد بن وانودين 240 - 242 .
أبو سعيد بن يعقوب .175 .
أبو سعيد يخلف بن الحسن 123 - 125 - 127 .
أبو سليمان داود بن عائشة .44 .
أبو شعيب السارىة 77 - 206 - 207 - 213 - 208 . | أبو حسون الوطاسي .176 .
أبو حسين بن منصور 180 .
أبو حفص 249 .
أبو حفص بن عبد المؤمن 146 - 149 - 152 .
أبو حفص بن واجاج .109 .
أبو حفص عبد الله .18 .
أبو حفص عمر بن تافراكين .124 .
أبو حفص عمر بن علي آصناك 85 - 92 .
أبو حفص عمر بن واياك 73 .
أبو حفص عمر بن يحيى 71 - 92 - 72 - 113 - 111 - 108 - 107 - 106 - 131 - 125 - 122 - 120 - 119 - 114 - 148 - 146 - 145 - 142 - 136 - 180 - 151 - 150 .
أبو حفص المرتضى .247 - 171 .
أبو الحكم بن بطال .125 .
أبو الحكم (ابن برجان) 76 - 77 .
أبو الحكيم بن برجان .207 .
أبو خزر يخلف بن خزر الأوربي .188 .
أبو الخطاب بن دحية 24 - 200 .
أبو داود .241 .
أبو ديوس 254 - 257 - 258 - 259 - 260 .
أبو الريبع .180 .
أبو الريبع بن أبي حفص 193 - 230 .
أبو الريبع بن عبد الله بن عبد المؤمن 159 .
أبو زكريا بن عبد المؤمن 147 - 149 - 151 - 152 - 153 - 158 . |
|--|--|

- | | |
|--|---|
| أبو عبد الله الدقاق .212.
أبو عبد الله سيدى محمد العياشى .177.
أبو عبد الله الفخار .261.
أبو عبد الله محمد بن إبراهيم .147.
أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المهدوى .213.

أبو عبد الله بن أبي زلفى .63.
أبو عبد الله بن أبي العباس التيفاشى .145.

أبو عبد الله محمد بن إسحاق (أمعار) .25.

أبو عبد الله محمد بن الأصبغ (ابن المناصف) .74.

أبو عبد الله محمد بن يقاوت .5.

أبو عبد الله محمد بن الطلاع .74.

أبو عبد الله محمد بن علي بن مروان .199.

أبو عبد الله محمد بن فاطمة .66.

أبو عبد الله محمد بن فرج الكومي .139.

أبو عبد الله محمد بن يحيى (ابن البراء) .59.

أبو عبد الله محمد المهدوى .176.

أبو عبد الله محمد (الناصر لدين الله) .214 - 203.

أبو عبد الله اليفرنى .129.

أبو عثمان سعيد بن زكريا القدمىوی .243.

أبو عثمان سعيد بن ميمون الصنهاجى .123. | أبو الشيص الخزاعي .100.

أبو طالب عقيل بن عطية .134.

أبو الطيب الصتبي 95 - 232.

أبو عامر بن الجد .125.

أبو العباس أحمد العباسى .58.

أبو العباس أحمد بن جعفر الخزرجي .261.

أبو العباس أحمد بن عبد السلام .200.

أبو العباس أحمد بن عبد السلام .157.

أبو العباس أحمد بن رمilla القرطبي .45.

أبو العباس بن المنصور بالله (الذهبى) .129.

أبو العباس بن أبي عمران بن عبد المؤمن .235.

أبو العباس بن القاسم .108.

أبو العباس الصنهاجى (ابن العريف) 76 .210 -

أبو العباس المقرى 26 - 196 - 202.

أبو العباس المنصور بالله السعدي .202.

أبو عبد الله .154.

أبو عبد الله أكتسوس .246.

أبو عبد الله بن أبي حفص بن عبد المؤمن 193 - 218.

أبو عبد الله بن الحاج 63 - 65.

أبو عبد الله بن الصقر .202.

أبو عبد الله بن صناديد .187.

أبو عبد الله بن عبد المؤمن 146 - 147.

أبو عبد الله التاودى .210. |
|--|---|

- أبو الفضل عياض .261.
 أبو الفضل يوسف بن محمد (ابن النحوبي) .74 - 75.
 أبو القاسم بن الحاج .119.
 أبو القاسم بن حمدين .68 - 75 - 77.
 أبو القاسم بن محمد الوزير .201.
 أبو القاسم التجيبي السبتي .127.
 أبو القاسم عبد الرحمن الخزرجي .261.
 أبو القاسم العزفي .255.
 أبو القاسم علي بن أحمد الجرجاني .164.
 أبو الكمال تميم بن زيري اليفرني .18.
 أبو الليث الصقلي .195.
 أبو محمد .245.
 أبو محمد بن أبي عبد الله بن أبي حفص البهاسي .230 - 231.
 أبو محمد بن حامد .4.
 أبو محمد بن عبد المؤمن .137 - 146 - 147.
 أبو محمد بن عطوش .160.
 أبو محمد بن يونس .253.
 أبو محمد الحسن بن علي اليازوري .165.
 أبو محمد الدكالي الماجري .263.
 أبو محمد سعد بن المنصور .242.
 أبو محمد عبد الحق بن واتودين .123 - 247.
 أبو محمد عبد الحليم بن عبد الله المراسي (الغماد) .211.
 أبو محمد عبد السلام بن مشيش .235 - 263.

- أبو عطية مهلهل بن يحيى .175.
 أبو عقيل عطية .132.
 أبو علي بن خلاص .245 - 248.
 أبو علي بن عبد العزيز .245.
 أبو علي الحسن .148 - 151.
 أبو علي منصور بن إبراهيم المسطاطي .206.
 أبو علي منصور بن حرزوز .249.
 أبو عمر بن الجد .245.
 أبو عمر بن حجاج .255.
 أبو عمran .149 - 150 - 151.
 أبو عمran الفاسي .151.
 أبو عمran موسى بن تمار .92.
 أبو عمرو .200.
 أبو عنان حسين بن علي الورديعي .172.
 أبو عنان المربيني .174 - 176.
 أبو العلاء .217 - 227 - 228 - 230.
 أبو العلاء الأصغر .230 - 231 - 232 - 232 - 242.
 أبو العلاء المأمون .233.
 أبو العلاء المعربي .98.
 أبو عياد بن أبي يحيى بن حمامه .171 - 250.
 أبو غضير محمد بن معاذ بن اليسع .17.
 أبو الغمر بن عزرون .116 - 118.
 أبو الفتوح .167.
 أبو الفضل .176.
 أبو الفضل ابن السلطان أبي سالم .172.
 أبو الفضل بن طاهر .202.
 أبو الفضل التيفاشي .201.

- أبو يحيى بن أبي حفص ١٨٨ - ١٨٩ .
أبو يحيى بن تاشفين ٦٧ .
أبو يحيى بن علي التينملي ٢١٨ .
أبو يحيى بن يكيرت ٩٢ - ٨٥ .
أبو يعقوب الأشقر ٢٠٥ .
أبو يعقوب المراكشي ٧٤ - ٢٦٢ .
أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ١٢٧ - ١٤٥ - ١٣١ .
أبو يعقوب يوسف المبتلي ٢١١ .
أبو يعقوب يوسف المنصور ٢٢٦ .
أبو يعلي يلثور بن ميمون ٢١٠ - ٢١٢ - ٢١٣ - ٢١٤ .
أبو ينور المشترائي ٧٧ .
أبو يوسف يعقوب بن أبي حفص ١٦١ .
الأتراك ٢٣٠ .
الأثبج الهلاليين (قبيلة) ١٢١ - ١٧٠ - ١٧٩ .
أثبيجية ١٦٧ .
أحمد الكرواني ١٥٨ .
أحمد بن إبراهيم ١٧٥ .
أحمد بن خراسان ١٣٦ .
أحمد بن عطية ٧١ - ١٠٥ .
أحمد بن يوسف (المستعين بالله) ٦٦ .
أحمد الصقلي ١٦٠ .
أحمد الغزالى رضي الله عنه ٩٠ .
الأخضر ١٧٩ .
الأدارسة ١٧ .
أدباء الأندلس ٥٧ .
الأذفونش ٣٣ - ٣٩ - ٣٨ - ٣٥ - ٤١ - ٤٠ .
- أبو محمد عبد العزيز بن شداد بن تميم الصنهاجي ٧٩ .
أبو محمد عبد الله بن أبي حفص ١٤١ .
أبو محمد عبد الله بن سليمان ١٢١ - ١٢٣ .
أبو محمد عبد الله بن سليمان الانصاري ٢١٧ .
أبو محمد عبد الله بن المنصور ٢٢٦ - ٢٢٩ .
أبو محمد عبد الله الوانشريسي ٨٢ - ٨٣ - ٩٤ - ٩٣ - ٩٢ - ٨٩ - ٨٨ - ٩٣ - ٩٢ - ٩١ .
أبو محمد عبد المجيد بن عبدون ٥٦ .
أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهناتي ١٥٨ - ١٨٩ - ١٩٩ - ٢١٦ - ٢٢٧ - ٢٢٦ - ٢٢٥ .
أبو محمد عبد الله بن يوسف ٢٢٩ .
أبو محمد عبد الله بن الحضرمي ٩٢ .
أبو محمد (المعتز بالله) ١٢ .
أبو مدين شعيب بن الحسن الانصاري ٢١٢ - ٢٥٢ .
أبو مروان عبد الملك المصمودي ٤٨ .
أبو المعز تاشفين بن علي ٧٠ .
أبو منصور عيسى بن أبي الأنصار ١٧ - ١٨ .
أبو موسى ٢٣٠ .
أبو موسى بن عزوز الهناتي ٢٥٨ .
أبو موسى عمران بن المنصور ٢٤٠ .
أبو هاشم ٤٦ .
أبو الوليد بن رشد (الحفيد) ٢٥ - ٦٨ - ٢٦١ .
أبو الوليد بن رشد (الحفيد) ١٥٧ - ١٩٣ - ٢٠١ - ١٩٣ .

- | | |
|--|---|
| 233 - 232 - 222 - 187 - 184 - 126
.254 - 235 -
أهل بجایة 202.
أهل بطليوس 148.
أهل البلاد الأندلسية 59.
أهل البلاد المغربية 59.
أهل البيت 179.
أهل تاکرارت 106.
أهل تامسنا 17.
أهل تلمسان 213.
أهل تونس 137 - 215 - 216
.240 -
أهل الجبل 86 -
أهل الجبل والبادیة 219.
أهل الجزیرة 41.
أهل جلیقیة 35.
أهل درعة 12 - 110.
- أهل درن 70 - 93.
أهل الدمنة 31.
أهل الديوان 142.
أهل زویلة 135.
أهل سبیة 108 - 113 - 114 - 115 -
.248 - 244 - 116
.110 - 107 -
أهل سجلماسة 12 -
أهل سلا 110.
أهل السنة 80 - 164.
أهل السوس الأقصى 6 - 7 - 180.
أهل شاطبة 236.
أهل شریش 116 - 117.
أهل شلب 120.
أهل الصحراء 57. | 49 - 48 - 47 - 46 - 45 - 44 - 42 -
- 64 - 54 - 53 - 52 - 51 - 50 -
.65.
أذفونش بن سانجة 153.
الأذفونش الفرنجي 185.
أساری الأرك 191 - 296.
أساری الفرنج 195.
الإسماعیلیة 162.
أشیع بن ریث بن غطفان (قبیله) 179.
الأشعیریة 80 - 83.
الأشیاخ 255.
أشیاخ الموحدین 119 - 198.
الأغزار 27 - 189 - 187 - 154 -
.255 - 67 - 64 -
الإفرنج (قبیله) 42 - 213.
الإمام المهدی 213.
الإمامیة 80.
أم الرشید 242.
أمم البربر 162.
أمم العرب 162.
أمم السودان 5.
أمم النصرانیة 52 - 67 - 182.
الأموی 110.
الأمویة 17.
انجاد مغراوة 28.
أهل أزمور 207.
أهل أغمات 85 - 93.
أهل إشبيلیة 117 - 124 - 245 - 248.
أهل إفريقيا 121 - 137 - 139.
أهل الأمصار 148.
أهل الأندلس 33 - 35 - 119 - 120. |
|--|---|

أولاد مطاع .177	أهل العدوتين .70.
أويس القرني .210	أهل العقد والحل .259.
حرف (ب)	أهل الفتنة .161.
البتر 101	أهل قرطبة 40 - 119 - .236
البجيلة (قوم من الراضية) 14.	أهل شنالة 35.
البخاري 156 - .241.	أهل قصبة 138.
بلدان بن محمد المسوفي 116 - .118.	أهل القironان 215.
البرابرة البتر .142.	أهل ليلة 125.
برابرية المغرب (قبائل) 4.	أهل المعجوسة 4.
برابرية صناكة .172.	أهل المحلة 255.
البراسن الكناني .239.	أهل محلة السعيد 252.
البرانس (قبيلة ببرية) 3 - .101 - 22 - 17 - 16 - 15 - 3 - .258.	أهل مدائن مكناسة 28.
- 82 - 79 - 68 - 35 - 29 - 24 - 23 - .204 - 57 - 55.	أهل مدينة فاس 213 - 210 - 206 - .61
157 - 154 - 144 - 110 - 103 - 84 - .204 - 204 - 189 - 129 - .237.	أهل مراكش 70 - 131 - .220.
- 223 - 172 - 171 - 162 - 161 - .263 - 235 - .117 - 57 - .248.	أهل المغرب والأندلس 220.
البربر 14 - 15 - 16 - 17 - 18 - 19 - .30 - .208.	أهل مكناسة 138.
برغواطة 14 - .236.	أهل المهدية 187.
البرهانس 35 - .66 - .208.	أهل النجدة 113.
البريد 233 - .172.	أهل نفيس 24 - .113.
البسوس (قبيلة) 208 - .180.	أهل هزرجة 93.
بطون جشم .204.	أهل هيلانة 113.
بطون هلال .154.	أهل وادي آش 202.
البقاع العزيزي .245.	الأوياش 124.
بكار بن إبراهيم .27.	أوربة 147 - .154.
بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجيين .17.	أولاد المأمون 242.
	أولاد جرمون .172.

- . بنو رهينة .٣٠.
- . بنو رياح بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر بن صعصعة .١٦٩.
- . بنو زغبة .١٥٨.
- . بنو زياد .٣.
- . بنو زيان .٢٤٨.
- بنو زيرى بن مناد الصنهاجيين .١٢٠ .
- . ١٦٤ - ١٣٥.
- . بنو سعيد .٢٣٤.
- . بنو سفيان .١٧٠.
- بنو سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس .١٦٣ - ١٦٤ - ١٦٦ - .
- . ١٧٩ - ١٧٨ - ١٦٨.
- . بنو الشهيد .١٩٠.
- . بنو الشيخ أبي يحيى .١٩٠.
- . بنو صبيح .٢١٠.
- . بنو عابد .٩٩.
- . بنو عامر .١٧٧.
- . بنو العباس .٥٨ - ١٠٩ - ٢٣٠ - ٢٤٩.
- . بنو عبد الحق .٢٥٣.
- بنو عبد المؤمن .٩٩ - ١٠٠ - ١٢٢ - ١٧٢ - .
- . ٢٦٠ - ٢٤٨ - ٢٣٠ - ٢٢٨ - .
- . بنو عبد المدان .١٨٠.
- بنو عبد الواد .١٠٤ - ١٠٦ - ١٠٨ - ١٢٩ - .
- . ٢٥٢ - ٢٥٠ - ١٧٥ - .
- . بنو عبيد .١٦٤.
- . بنو عسكر بن محمد المرينيون .١٦٩.
- . بنو عشرة .١٠٨.
- . بنو عطوش .٢٥٨.
- . بنو عطية المغاروبين .١٢.

- . بنات الأذفونش .١٩٣.
- . بنو أذفونش .٦٤.
- . بنو أمية .١٠٩ - ١٢٦.
- . بنو إسرائيل .١٢٩.
- . بنو باداسن .٢٥٤.
- . بنو باديس .٥٣.
- . بنو بدر .٢٥٤.
- . بنو تاودي .٢١٠.
- . بنو توجين .١٠٤.
- . بنو جابر .١٧٠ - ٢٤٥ - ١٧٢ - ١٧١ - ٢٥٣ - .
- . بنو جامع .١٥٢.
- . بنو الجراح .١٦٧.
- . بنو جرمون .١٧٤.
- بنو جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور .١٦٣ - ١٦٥ - ١٦٨ - .
- . ١٧٠ - .
- . بنو جعفر بن أبي طالب .١٧٩.
- . بنو الحارث بن كعب .١ - ١٨٠.
- . بنو حسن .١٧٧ - .
- . بنو حماد .١٢١.
- . بنو حمامه بن محمد .١٦٩ - ٢٤٦.
- . بنو حمود .٢٨ - ٣٠.
- . بنو خزرون بن فلفل المغاروبين .١٢.
- . بنو دحير .٣.
- بنو دريد بن أثيج بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر بن صعصعة .١٦٧ - .
- . بنو ذواد بن مرداس بن رياح .١٦٩.
- . بنو الرند .١٥٢.

- بنو عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر .170

بنو عوف .170

بنو غانية المسوفين 158 - 217

بنو فاتن بن تامصبت بن ضري بن زجيك بن مادغيس الأبر 99 - 142

بنو فازاز 240

بنو فشتال 3.

بنو كعب بن سليم 178

بنو مدرار المكناسيون 12.

بنو مراسن 29.

بنو مردش 236.

بنو مررين 106 - 173 - 171 - 169 - 108

- 234 - 227 - 226 - 176 - 175

253 - 252 - 251 - 249 - 247 - 246

.259 - 256 - 255 - 254 -

- بنو معاوية 170.

- بنو معقل 175 - 178 - 179 - 179.

بنو معنصر بن حماد المغراوي 28.

بنو مغراوة 106.

بنو مكلاة 240.

بنو مكود 30.

بنو المنصور 229.

بنو منقد 182.

بنو موسى 3.

- بنو هلال بن عامر 163 - 164 - 165 -

.179 - 170 - 168 - 166

.235 بنو هود الجداميين 66 - 66

بنو وارت 3.

بنو ورتنيبو 5.

بنو ورياكيل 80.

بنو ومانوا 104 - 105 - 106 .106

بنو يادين 106.

بنو يحفش 27.

بنو بزناسن 249 - 252 .252

بنو يعلى بن محمد بن صالح 18 .18

بنو يفرن 15 - 18 - 20 - 22 - 23 - 28 .28

.29 -

بنو يلومي 104 - 106 .106

بهلولة (قبيلة) 27.

البياسي 232 - 235 .235

حرف (ت)

تاشفين بن علي بن يوسف 68 - 69 .69

- 104 - 103 - 73 - 72 - 71 - 70 .70

113 - 111 - 110 - 107 - 106 - 105 .105

.131 - 116 - 115 .115

تاشفين بن ماخوخ 105 .105

تاشفين بن ماخوخ 105 .105

تكرورة (قبيلة) 197 .197

تلجين بن علي 188 - 212 .212

تميم بن المعز الصنهاجي 49 .49

تميم بن بلکین 53 - 55 .55

تميم بن معنصر المغراوي 28 .28

تميم بن يوسف بن تاشفين 30 - 61 .61

.68 - 67 - 64 - 63 .63

تومرت (قبيلة) 78 .78

حرف (ث)

الشالية (قبيلة) 100 - 180 .180

ثعلب بن سجير 180 .180

- | | |
|--|-------------------------------------|
| جيش المأمون .242. | ثمود .133. |
| جيش المرابطين .23. | الثار .116. |
| جيش المرتضى .254. | ثوار الأندلس .118. |
| جيش النصارى .237. | حرف (ج) |
| جيش يحيى .234. | جابر بن يوسف العبدى الوادى .188. |
| جيوش الأندلس ١٥٥ - ١٨٨ - ٢٢٣ . | جاربة .166 - 167. |
| جيوش زناتة .104. | جبارة بن إسحاق .215. |
| جيوش صنهاجة .121. | جبایة .171. |
| جيوش الفرنج .147. | جرمون بن رياح .188 - 189. |
| جيوش كومية .142. | جرمون بن عيسى السفيانى .173 - 232 . |
| جيوش لمترة ٧٠ - ٩٣ - ١٥٤ - ١٥٤ . | .244 - 240. |
| جيوش المسلمين .162 - 194 . | جزولة (قبيلة) .254 - 27 . |
| جيوش الموحدين ١٠٩ - ١١١ - ١٠٩ - ١٤٨ . | الجسم .169 - 168 - 163 - 93 - 170 . |
| .223 - 189 - 154 - 154 . | .247 - 232 - 189 - 172 . |
| حرف (ح) | الجعافرة (قبيلة) .179 . |
| الحاج الكافى .215 - 216 . | عفدر الصادق .97 - 98 . |
| الحارث (قبيلة) .174 . | عففر بن أبي طالب .179 . |
| الحارث بن العزيز الصنهاجى .121 . | جلال بن محمد .180 . |
| الحارث بن ظالم .239 . | الجلالقة .42 - 64 . |
| حباب .241 . | جموع لمطة .108 . |
| الحجاج بن يوسف .233 . | جند الأندلس .220 . |
| الحجاف بن حكيم .239 . | جند النصارى .243 . |
| حسان .236 . | الجنديون .255 . |
| حسان بن مختار بن محمد .180 . | جهينة (قبيلة) .179 . |
| حسن بن زيد .171 - 245 . | الجوهري .205 . |
| الحسن بن سرحان .166 - 168 . | جيش إشبيلية .227 . |
| الحسن بن العزيز الصنهاجى .121 . | جيش جيان .227 . |
| الحسن بن علي الصنهاجى .120 - 121 - 139 - 136 - 135 . | جيش العبيد .189 . |
| | جيش الفرنج .241 . |

- | | |
|---|---|
| دولة بنى الرند .153
دولة بنى زيري بن مناد الصنهاجيين ٣.
دولة بنى العباس .163
دولة بنى عبد المؤمن ٢٦٠.
دولة بنى مرين ٢٦ - ١٧٥.
دولة الترك .176
الدولة الحمودية .٣٣.
دولة زناته .٣٥.
دولة السعديين ١٣٠ - ١٧٦.
دولة السلطان أبي العباس أحمد المنصور السعدي (الذهبي) .177.
دولة السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المرابطي .251.
دولة صنهاجة .152.
دولة عبد المؤمن بن علي .20٦.
دولة العبدية .16٤.
الدولة العبيدية .13٥ - ١٦٤ - ١٨١.
الدولة العلوية .٢٦.
الدولة العلوية السجلamasية .١٣٥.
الدولة اللمتونية .15٩.
دولة اللمتونيين .20٦.
دولة المرابطين ١٨ - ٣٠ - ٧٥ - ١١٠.
الدولة المربرتية .17٦.
دولة الملثمين .٣.
دولة المتصر .22٦.
دولة الموحدين ٢٦ - ٧٨ - ١٠٤ - ١٢٦ - .
الدولة الموروثية ٧٨ - ٢٠١ - ٢١٤.
دولة يعقوب المنصور .16٨ - ١٦٢. | الحسن بن عمر .١٧٢.
الحسين .13٣.
حسين بن منصور بن محمد .١٨٠.
حشود بلاد غرب الأندلس .22٧.
الحفصيون ٨٥ - ١٥١ - ١٠١ - ٢١٦.
الحفيظ بن رشد .20٢.
حمامة بن مطهر .10٤ - ١٠٦.
الحموديون (قبيلة) .٣٠.
حمير (قبيلة) ٣ - ٤ - ١٦٢.
حنظلة بن صفوان الكلبي .١٦.
حرف (خ)
خالد بن الوليد رضي الله عنه .١١١.
خزرون بن فلفل المغراوي .١٢.
الخطيب ابن مروزق .12٧.
الخلط (قبيلة) ١٧٥ - ١٧٤ - ١٧٣ - ١٧٠ - .
٢٤٤ - ٢٤٣ - ٢٣٢ - ٢٣٧ - ١٧٧ - ١٧٦ - .
.24٥ - .
الخليفة العباسي .21٥.
الخليل .13٣.
الخنساء .16٣.
حرف (د)
داود بن عائشة .٣٠ - ٤٦.
دريد بن أثيج .16٧.
دريد بن الصمة .16٣.
دريدية .16٧.
الدولة الأموية .١٢.
دولة الأمويين .٣٠.
دولة بنى الأحمر .25٣.
دولة بنى أمية .3٣. |
|---|---|

- الزيديانين .130
الزيدية .97
زيري بن عطية المغراوي .18
زينب بنت إسحاق التفزاوية ١٥ - ٢٠ - ٢٣

حرف (س)

- سالم بن محمد .180
سانجة ابن ملك النصاري .63
سبع بن منقاد .148
سعير بن معقل .180
سدراة (قبيلة) ٢٧ - ١٧٢
سدراتي .119
السجدين .176
السعيدة ٢٤٧ - ٢٥٠ - ٢٤٩ - ٢٤٨ - ٢٥١
سعيد بن العاص .127
السعيد بن المأمون ١٧٣ - ١٧٥
سعيد بن هشام المصمودي .١٧
سعيد الغماري .157 - ١٥٨
سفيان (قبيلة) ١٧٢ - ١٧٤ - ١٧٣ - ١٧٥
سفیان .232 - ٢٤٤ - ٢٤٧ - ٢٥٧
سکوت البرغواطي .31 - ٣٠ - ٢٨
السلطين .122
سلیمان بن إبراهیم .175
سلیمان بن خلوف .92
سلیمان بن عبد الله الكامل بن حسن
الشئنی .78
سلیمان بن محمد بن وانودین .106
سهیل .211
سویقة بن مصکونک .198

حرف (ن)

- ذوی حسان ١٧٧ - ١٧٨ - ١٨٠ - ٢٥٤
ذوی عبید الله بن سجیر ١٧٧ - ١٨٠ .
ذوی منصور ١٧٧ - ١٨٠ .

حرف (ر)

- الرافضة .164
ربيعة (قبيلة) .162
الرشید بن المأمون ١٧١ - ١٧٣ - ١٧٥ - ١٧٦
الرشید بن هلال بن حميدان .174
الرقیقات .180
رماء (قبيلة) ٢٧ - ١٥٤ - ١٨٧ - ١٨٩
رمام بن إبراهيم بن عطية .173
الروبرتير .71 - ١٠٤ - ٣٠٥
الروم (قبيلة) ٤٧ - ٧١ - ١٠٤ - ١٠٥ - ٢٢١
رياح (قبيلة) ١٢١ - ١٦٩ - ١٧٠
حرف (ز)
- الزرعاقة .187
زغبة .121
زمور بن صالح .17 - ٦١ - ٦١
زناتة (قبيلة) ١٥ - ٢٩ - ٢٧ - ٢٢ - ٢١ - ٢١
ـ ١٦٧ - ١٤٤ - ١٦٦ - ١٠٥ - ٩٩ - ٦٨
ـ ٢٢٩ - ١٩٩ - ١٨٩ - ١٨٧ - ١٧٨
ـ ٢٤١
زواغة (قبيلة) .27
زيان بن أبي الحملات .235
زيد بن ثابت .127

- | | |
|--|--|
| <p>صالح بن طريف البرغواطي ١٥ - ١٦.</p> <p>صالح بن طريف المتنبي ١٨.</p> <p>صالح بن عمران ٣١.</p> <p>الصباح (قبيلة) ١٧٩.</p> <p>صحبة عبد الحق بن منفداد ١٠٨.</p> <p>الصحراويون ٤٢ - ٤٤ - ٤٥.</p> <p>صهينة (قبيلة) ٢٧.</p> <p>صرىحة (قبيلة) ١٨٢.</p> <p>صطفورة ٩٩.</p> <p>الصفيرية (قبيلة) ١٦.</p> <p>الصقالبة (قبيلة) ٣٠.</p> <p>صلاح الدين يوسف بن أيوب الكردي ١٦٠ - ١٨١ - ١٨٢.</p> <p>صناعة ١٧١.</p> <p>صنهاجة (قبيلة) ٣ - ٤ - ٥ - ٦ - ٩ - ١٠ - ١١ - ١٩ - ٢٠ - ٢٧ - ٤٧ - ٧٠ - ٨٠ - ١٤٧ - ١٤٨ - ١٣٧ - ١٠٥ - ٩٤ - ١٥٤.</p> <p>حرف (ض)</p> <p>ضربي بن زجيك ٩٩.</p> <p>حرف (ط)</p> <p>الطاليون ١٧٩.</p> <p>طاهر بن كباب ٧٠ - ١٠٥.</p> <p>الطرطوشي ٥٥ - ٧٩.</p> <p>طريف البرغواطي ١٦.</p> <p>طيء (قبيلة) ١٦٧.</p> <p>حرف (ظ)</p> <p>الظافر ٢٣١.</p> <p>الظاهر العبيدي ١٦٤.</p> | <p>السيد أبو الحسن علي ١٢٣.</p> <p>السيد أبو حفص عمر ١٢٣.</p> <p>السيد أبو سعيد ١٢٢.</p> <p>السيد أبو سعيد عثمان ١٢٣.</p> <p>السيد أبو محمد عبد الله ١٢٣.</p> <p>سيدي أبو الرجال ٧٧.</p> <p>سير بن أبي بكر اللمتوني ٢٣ - ٣٠ - ٥٠ - ٥٦ - ٥٣ - ٥٥ - ٥٤ - ٥٣ - ٥١.</p> <p>سير بن الحاج ٧٣ - ١٠٦.</p> <p>حرف (ش)</p> <p>شافية ٢٠٥.</p> <p>الشباتات ١٨٠ - ٢٥٤.</p> <p>شبانة بن مختار بن محمد ١٨٠.</p> <p>الشريف ابن هاشم ١٦٦.</p> <p>الشريف الغرناطي ٢٠٤.</p> <p>شعيب بن أوقاريط الهمسكوني ٢٤١.</p> <p>شكربن أبي الفتح ١٦٦ - ١٦٧.</p> <p>شمعون بن يعقوب عليه السلام ١٥.</p> <p>الشيخ أبو سعيد بن أبي حفص ٢١٧.</p> <p>الشيخ أبو شعيب ٢١٤.</p> <p>الشيخ أبو محمد بن أبي حفص ٢١٥.</p> <p>الشيخ أبو مدين ٢١٠ - ٢١٣.</p> <p>الشيخ أبو بنور الدكالي ٢١٤.</p> <p>الشيعة ١٧ - ٨٠ - ١٦٥.</p> <p>الشيعة الرافضة ١٦٤.</p> <p>الشيعة العبيدين ٣.</p> <p>شيخ الموحدين ٢٢١.</p> <p>حرف (ص)</p> <p>صاحب بجاية ٢١٣.</p> |
|--|--|

- عبد العزيز المريني .176
 عبد الله .200
 عبد الله أحمد أمير المؤمنين العباسى .60
 عبد الله - أمغار (والد المهدى) .78
 عبد الله بن أبي بكر المعاافرى .117
 عبد الله بن إسحاق المسوفى .217
 عبد الله بن إسماعيل بن الشريف .130
 عبد الله بن بلکین بن بادیس بن حبیس .55
 عبد الله بن جرمون .173
 عبد الله بن حبیس الصنهاجى .39
 عبد الله بن حمودة السرخسى .185
 عبد الله بن الزیر .127
 عبد الله بن زکريا الهزرجي .247
 عبد الله بن السعید .252
 عبد الله بن سلیمان .125
 عبد الله بن طاع الله الكومي .217
 عبد الله بن عباد .43
 عبد الله بن عبد الواحد بن أبي حفص (عيو) .228 - 232
 عبد الله بن محمد بن أدهم .39
 عبد الله بن محمد بن الرند .152
 عبد الله بن محمد بن العربي المعاافرى .58
 عبد الله بن محمد بن فاطمة .63
 عبد الله بن محمد عذارى الأندلسي .257
 عبد الله بن مزدلي .67
 عبد الله بن المعتمد .49 - 46

حرف (ع)

- عائشة بنت مهلهل .175
 العادل بن المنصور الموحدى .174 - 230 - 231 - 232 - 233 - 236
 العاصم (قبيلة) .170
 عامر بن محمد الهمتاتى .176 - 190
 عامل بن مهیب .120
 العباس بن بختي .32 - 31
 عباس بن عطیة التوجیني .188
 العباس بن مرداس السلمي .262
 عبد الجلیل بن وہبون .50
 عبد الحق بن ابراهیم .86 - 85
 عبد الحق بن أصکوا .255
 عبد الحق بن محبیو بن أبي بکر بن حمامۃ .169
 عبد الرحمن بن أبي یفلوسن المرينى .174 - 173 - 172
 عبد الرحمن بن معاویة .5
 عبد الرحمن الناصر الأموی .110
 عبد الرحمن الناصر لدین الله .38
 عبد الرحیم بن عبد الرحمن بن الفرس .218
 عبد الرحیم البیسني .182
 عبد السلام بن محمد الكومي .132 - 141
 عبد الصمد بن یلوان .243
 عبد العزیز (أخ المهدی) .124
 عبد العزیز بن أبي زید .226 - 230
 عبد العزیز ابن السلطان أبي سالم .172

- | | |
|---|--|
| عبد الله المهدى .109
عثمان بن عفان رضي الله عنه 126
- 206 - 127
عثمان بن محمد 180.
عثمان بن نصر 169.
العجم 110.
عدنان (قبيلة) 162
العنراء البتوول 133
- 121 - 120 - 82 - 79 - 68
149 - 148 - 144 - 137 - 135 - 126
- 160 - 156 - 154 - 152 - 150 -
172 - 168 - 167 - 165 - 163 - 162
- 187 - 185 - 184 - 178 - 177 -
220 - 215 - 205 - 190 - 189 - 188
- 247 - 245 - 233 - 224 - 223 -
.256 - 254 - 253
عرب إفريقية 40
عرب ناسينا 232
عرب الجزائر 100.
عرب جشم 256 - 256
عرب الخلط 232 -
.253 - 240
عرب سفيان 175.
عرب معقل 254 - 245 - 178
.249
عرب المغرب 180.
عرب هسكورة 232
عرب هلال 158 - 179
عرب اليمن 179
عز الدين بن الأثير 4. | عبد الله بن المنصور 228
عبد الله بن ياسين الجزوئي 7 - 8 - 9 -
- 18 - 15 - 14 - 13 - 12 - 11 - 10
.19
عبد الله بن يعقوب بن عبد الحق 256
عبد الله العادل 233 -
عبد مؤمن 81.
عبد المؤمن بن علي 70 - 72 - 71 -
94 - 92 - 90 - 89 - 82 - 81 - 80 -
103 - 102 - 101 - 100 - 99 - 97 -
- 108 - 107 - 106 - 105 - 104 -
115 - 114 - 113 - 111 - 110 - 109
- 120 - 119 - 118 - 117 - 116 -
127 - 126 - 124 - 123 - 122 - 121
- 136 - 135 - 134 - 132 - 128 -
142 - 141 - 140 - 139 - 138 - 137
- 152 - 146 - 145 - 144 - 143 -
.258 - 257 - 214 - 195 - 157
عبد المخلوع 233
عبد الملك بن المستعين بن هود (عماد
الدولة) 66.
عبد الملك المظفر 18.
عبد مناف (قبيلة) 110.
عبد الواحد (الرشيد) 200 - 230 - 241
العبيد 187 - 189 - 189 -
العييدي 110 - 110 - 167
العيديون 109 - 164 - 218
عبيد الله بن سجير 180.
عبيد الله الشيعي 14.
عبيد الله المعترضي 15. |
|---|--|

- 74 - 73 - 70 - 69 - 65 - 63 - 62
- 89 - 85 - 84 - 82 - 77 - 76 - 75
- .217 - 159 - 131 - 103 - 91
- العماد بن جريل الأصبهاني 144 - .145
- عمر بن أوقاريط الهمسكيوري 242 - .243
- عمر بن تافراكين 86.
- عمر بن الخطاب رضي الله عنه 59 - .164
- عمر بن سليمان المسوفي 23 - .30
- عمر بن صالح الصنهاجي 116.
- عمر بن عبد العزيز بن يوسف 246.
- عمر بن عبد الله 172.
- عمر بن محمد بن الأفطس 43 - .56
- عمر بن يحيى الهمتاني 101.
- عمران بن منصور بن محمد 180.
- عمران بن موسى 153.
- عمران بن موسى 173 - 226 - .252
- العمانية 180.
- العمور (قبيلة) 179.
- عواج بن هلال بن حميدان 175.
- عياد بن أبي عياد 171.
- عياض (قبيلة) 179.
- عياض بن موسى 104.
- عيسي بن عطية 124 - 125 - 238.
- غانم بن محمد بن مردنيش 152.
- الغزالى 55 - .210
- غزوة ماسة 113.
- غمارة (قبيلة) 29 - 30 - 147 - 148 - 158 - .

- العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس بن حماد 80.
- عساكر لمتونة 86.
- عساكر المغرب 259.
- عساكر الموحدين 143 - 148 - 193 - .255
- عسکر الأندلس 189.
- عسکر بجاية 105.
- عسکر المرابطين 93.
- عسکرة 171.
- عشيرة ماضي بن مقرب 168.
- عطية بن مهلهل 134 - 175 - .130
- عقبة بن نافع الفهري 129 - .130
- علوش بن كانون السفياني 257.
- علي بن أبي الخلطي 256.
- علي بن أبي طالب رضي الله عنه 80.
- علي بن أبي علي 175.
- علي بن إدريس بن يعقوب المنصور (المعتضيد بالله) 129.
- علي بن إسحاق المسوفى (ابن غانية) 159 - 160 - .193
- علي بن بدر 253 - 256.
- علي بن الروبرتير 159 - .161
- علي بن زيان 253.
- علي بن عبد الله البجلي الرافضي 14.
- علي بن العزيز بن المعتز الرندي 153.
- علي بن عيسى بن ميمون 206.
- علي بن الغانى 215.
- علي بن هلال 175.
- علي بن يوسف بن تاشفين 25 - 61 - .

قبائل بني توجين .188.	.263 - 245 - 190 - 188 - 187
قبائل بني عبد الواد .188.	غيانة (قبيلة) .30.
قبائل بني مرين .188 - 250 - 253.	فازاز .245.
قبائل تامستا .110.	الطاطيسي .219.
قبائل جشم بن معاوية بن بكر .168.	الفرنج (قبيلة) .35 - 54 - 50 - 41 - 40
قبائل حاجة .14.	120 - 69 - 68 - 66 - 65 - 63 - 56
قبائل دكالة .110.	- 139 - 138 - 137 - 135 - 122 -
قبائل رجراجة 14 - .110.	185 - 184 - 182 - 181 - 155 - 147
قبائل زناتة 18 - .154.	- 224 - 223 - 192 - 189 - 187 -
قبائل صنهاجة 61 - .80.	.254 - 244 - 237 - 231
قبائل كهلان القحطانيين .163.	الفرنج الجنوبيون .244.
قبائل مدionate .104.	فرنج صقلية .135.
قبائل مصر .163.	فرنيل .241.
قبائل مغراوة .188.	فزانة بن ذبيان بن بغيض بن ريث (قبيلة) .179.
قبائل المغرب 17 - .140 - 115 - 27 -	الفضل عياض بن موسى اليحصبي .206
.187 - .189.	الفنتش (قبيلة) .63 - 63 - 67 - 64 - 119 -
قبائل الموحدين .242.	192 - 191 - 190 - 185 - 141 - 122 -
قبائل هرغة .93.	- 223 - 222 - 220 - 200 - 197 -
قبائل هسكورة .234.	.231 - 227 - 226 - 224
قبائل هلال بن عامر .168.	حرف (ق)
قبائل هوراء .110.	قائد الفرنج .242.
قبيلة رياح .168.	قائد وقائد أبني عامر .171.
قططان .218.	القائم بن يحيى بن العزيز .120.
قططان بن عامر بن شالع .162.	القادر بن ذي النون .33.
القططاني .218.	القاسم بن محمد المكتاسي .28.
قرافوش الغزي .160 - .161 - .214.	القاسمي عياض .113 - 114 - 115 - 116 -
القرامطة .163 - .164.	.209 -
قرة (قبيلة) .170.	القبائي .260.
قضاعة (قبيلة) .179 - .180.	
قضاعة بن مالك بن حمير .179.	

- 105 - 104 - 94 - 93 - 89 - 86 .178 - 116 - 114 - 108 - 106 .لواثة 27 - 172 .ليلي 166 حرف (م) المأمون 235 - 239 - 237 - 236 - 240 .241 - 242 - 241 .المأمون الموحدى 169 المأمون بن أحمد المنصور 129 - 171 - .174 .مازونة 160 .العاسى 115 .ماضى بن مقرب 167 مالك بن وهب الأندلسى 83 - 84 - 85 - .88 المتطوعة 149 - 188 - 187 - 189 - 190 .223 - 220 - 192 .المتوكل على الله عمر بن الأفطس 39. مجاهد العامرى 33 .المجسمة (قبيلة) 85 مجوس (قبائل) 18. محمد بن إبراهيم الأنبارى 213 محمد بن إبراهيم بن جامع 154 - 160 محمد بن أبي الطواجين 234 - 263 محمد بن إسحاق بن محمد المسوفى .159 محمد بن أسود 83 محمد بن تميم الكذالى 23. محمد بن تومرت 25 - 69 - 70 - 72 - .13	القبط 251. القرميس 54 القومى الأحدب 151. قواد الأندلس 155 - 184 - 223 .قواد لمتونة 64. قيس 166 قيس عيلان بن مصر 99. الكانم (قبيلة) 197. كانون بن جرمون السفيانى 173 - 241 - .250 .كتامة (قبيلة) 3. كدالة (قبيلة) 3 - 5 - 7 - 8 - 10 - 178 .كدمية 86. كروان (قبيلة ببريرية) 157 - 158 .كفار السودان 22. كعنان بن حام (قبيلة) 3. كنفيسة (قبيلة) 86 - 93 كهلان (ابن سبا بن يشحب بن .يعرب بن قحطان) 163. كهلان (قبيلة) 162 - 180 .كومية (قبيلة) 99 - 101 - 142 - 143 - .158 .الكلابة (قبيلة) 174. الكيا الهراسى 79. حرف (ل) لقوط بن يوسف بن علي المغراوى 15 لماتية 27 لمتونة (قبيلة) 3 - 4 - 5 - 7 - 10 - 11 - .85 - 78 - 73 - 71 - 63 - 61 - 13
---	---

- | | |
|--|---|
| محمد بن يحيى بن فانوا ٥٩ - ١٠٤ .
محمد بن يغمور الهرги ٢١٦ .
محمد بن يوسف بن نصر (ابن الأحمر) ٢٣٦ - ٢٤٥ .
محمد بن يوسف بن هود الجذاميين ٢٣٥ - ١٨٤ .
محمد بن يوسف بن وانودين ١٥٣ .
محمد القطراني ٢٥٥ .
محمد الناصر ل الدين الله ٢٢٦ .
محبوب بن أبي بكر بن حمامه المريني ١٨٨ .
محبي الدين بن عربي الحاتمي ١٩٣ - ٢٠٠ .
مختار بن محمد ١٨٠ .
مخدوم بن أبي بكر بن باجة الحكيم ٦٥ .
المخضب بن عسكر ١٠٨ .
المخلوع ٢٣٠ - ٢٣١ .
مداشة (قبيلة) ٣ .
مدرك التلکانی ٢٣ .
مدينة (قبيلة) ٢٧ .
مدیونة (قبيلة) ٢٧ .
المرابطون (قبيلة) ٩ - ١٢ - ١١ - ١٠ - ٩ - ٢٨ - ٢٧ - ٢٢ - ١٩ - ١٤ - ١٣ - ٥٤ - ٤٤ - ٤٠ - ٣٤ - ٣٢ - ٣١ - ٢٩ - ٧٧ - ٧٥ - ٧١ - ٦٨ - ٦١ - ٥٦ - ٥٥ - ١٠٤ - ١٠٣ - ٩٦ - ٩٤ - ٩٢ - ٩٠ - ١١٨ - ١١٧ - ١١٦ - ١١٥ - ١١٤ - ١٠٧ - ١٢٤ - ١٢٢ - ١٩٢ .
المرتزقة ١٤٣ - ١٤٣ . | .٩٥ - ٨٩ - ٨٣ - ٨١ - ٧٩ - ٧٤ .
محمد بن تینغمر المسوفي ٣٢ .
محمد بن الحاج المتنوبي ٥٦ - ٦٤ .
محمد بن الحجاج ١١٩ .
محمد بن الحسن بن سرحان ١٦٦ .
محمد بن الحسن بن محمد الأكبر ١٦٧ .
محمد بن سليمان ٨٦ .
محمد بن الطلاع ٣٨ .
محمد بن عائشة ٦٣ - ٦٤ .
محمد بن عبد الحق المريني ١٧٣ .
محمد بن عبد الله بن العاضد ٢٦ - ٢١٨ .
محمد بن عبد المؤمن ١٢٤ - ١٤٤ .
محمد بن علي بن الحاج ١٤١ .
محمد بن علي الكرمي ١٤١ .
محمد بن علي المسوفي (ابن غانية) ٦٨ - ١٥٩ .
محمد بن قلاوون ١٧٥ .
محمد بن كانون ١٧٣ .
محمد بن مبارك ١٧٥ - ١٧٦ .
محمد بن مردنس ١٢٢ - ١٤١ - ١٥٠ .
محمد بن مزدلي ٦٦ .
محمد بن معقل ١٨٠ .
محمد بن المنصور ٢٢٦ .
محمد بن منقاد ١٨٨ .
محمد بن ميمون ٧١ - ١٠٥ .
محمد بن هود الماسي ١١٧ - ١٣١ .
محمد بن هود بن عبد الله السلاوي ١١٤ - ١١٣ - ١١١ . |
|--|---|

- | | |
|--|--|
| <p>مضر (قبيلة) .162</p> <p>مطروح القيسي .109</p> <p>مظفر .118</p> <p>معاوية .243</p> <p>المعتمد بن عبد الله .31 - 32 - 35 - 40 - 41</p> <p> المعز بن باديس بن المنصور .164</p> <p> المعز بن يوسف .34</p> <p>المعتصر المغراوي .27</p> <p>معقل بن كعب بن ربيعة .180</p> <p>معقل بن كعب بن علي بن جناب .180</p> <p>المغاربة .225</p> <p>مخراوة (قبيلة) .13 - 20 - 22 - 23</p> <p> .28 - 29 - 32 - 35 - 154</p> <p> مغيلة (قبيلة) .27</p> <p>المغيرة بن شعبة .133</p> <p>المقدم (قبيلة) .170</p> <p> المقري .204</p> <p> مكناة (قبيلة) .27 - 107</p> <p> المكيدى .238</p> <p> الملثمون (قبيلة) .3 - 35 - 73 - 82</p> <p> .109 - 125 - 160 - 168 - 178</p> <p> ملك إفريقية .228</p> <p> المماليك .87</p> <p> ملوك الأندلس .49 - 57</p> <p> ملوك زناتة .12</p> <p> ملوك السعديين .130</p> <p> ملوك العبيدين .164</p> | <p> المرتضى .175 - 253 - 254 - 255 - 256</p> <p> .257 - 258 - 259 - 260</p> <p> مرزدغ الصنهاجي .147</p> <p> مزدلي بن تيلكان اللمنوني .31 - 56 - 62</p> <p> المستعين بن هود .33 - 34 - 35 - 36</p> <p> المستنصر العباسى .235</p> <p> المستنصر العيدي .164 - 165 - 166</p> <p> المستنصر بالله معد بن الظاهر .164</p> <p> سراتة (قبيلة) .3</p> <p> مسعود بن حمدان .173 - 174 - 175 - 176</p> <p> مسعود بن سلطان بن زمام الذوادي .169</p> <p> مسعود بن كانون .173</p> <p> مسعود بن وآتودين .12 - 13 - 14 - 15</p> <p> مسفية (قبيلة) .85</p> <p> المسلمين .40 - 41 - 43 - 44 - 46</p> <p> .47 - 48 - 51 - 52 - 53 - 54</p> <p> .55 - 56 - 57 - 64 - 66 - 84</p> <p> .139 - 186 - 190 - 264</p> <p> المسناوى .130</p> <p> مسوقة .3 - 10 - 104 - 178</p> <p> مشايخ المغرب .200</p> <p> مشايخ صنهاجة .35</p> <p> مشرف بن أثيج بن أبي ربيعة .170</p> <p> المصاصدة (قبيلة) .7 - 16 - 24 - 25 - 27</p> <p> .29 - 68 - 78 - 85 - 86 - 89 - 93</p> <p> .96 - 99 - 101 - 142 - 154 - 174</p> <p> .187 - 188 - 189 - 190 - 220</p> <p> .249 - 256</p> |
|--|--|

- 114 - 113 - 111 - 109 - 108 -
 122 - 121 - 118 - 117 - 116 - 115
 - 140 - 131 - 129 - 125 - 124 -
 149 - 148 - 147 - 146 - 142 - 141
 - 168 - 161 - 159 - 153 - 150 -
 175 - 174 - 173 - 172 - 171 - 169
 - 189 - 187 - 185 - 184 - 178 -
 220 - 217 - 215 - 214 - 203 - 191
 - 230 - 229 - 227 - 225 - 223 -
 236 - 235 - 234 - 233 - 232 - 231
 - 243 - 240 - 239 - 238 - 237 -
 255 - 254 - 252 - 251 - 249 - 248
 .260 - 259 - 257 -
 موسى بن أبي جمادة العمري 177.
 موسى بن أحمد الصنهاجي 76.
 موسى بن زيان الونكاسي 253.
 موسى بن سعيد 116.
 المؤطا 241.
 المؤمن بن علي 218.
 ميسرة المضغري 16.
 ميمون بن بدر اللمنوني 125 - 118 -
حرف (ن)
 الناصر بن حسين بن علي الورديغي
 .172
 - 215 - 195 - الناصر بن عبد المؤمن
 222 - 217 - 218 - 219 - 216
 .229 - 225 - 224 - 223 -
 الناصر بن يعقوب المنصور 107.
 نجران 180.
- .193 - 191 - 149 - ملوك الفرنج
 ملوك فرنج الجزيرة 149.
 ملوك المغرب 183.
 الملوك المرينيين 188.
 ملوك الموحدين 117 - 198.
 ممدوح بن خناجة 65.
 مملكة المرابطين 26.
 مملكة الموحدين 26.
 منيا بن منصور 180.
 المنبات 180.
 المنتصر 227 - 229 -
 المتفق بن عامر بن عقيل 170.
 متليل بن عبد الرحمن المغاراوي 188.
 المنصور بن أبي عامر 12 - 18 - 130 -
 230 - 203 - 201 - 170 - 161 - 160
 .241.
 منصور بن محمد 180.
 منصور بن يعيش 174.
 المنصوري 250.
 المهاية (قبيلة) 179.
 - 86 - 85 - 84 - 81 - 80 - المهدي 78 -
 94 - 93 - 92 - 91 - 90 - 89 - 87 -
 - 107 - 102 - 101 - 100 - 97 - 96 -
 238 - 147 - 124 - 122 - 117 - 115
 .243 -
 مهدي بن تولي اليحفشي 27.
 مهدي بن يوسف الكزناني 27 - 28.
 المسوحدون 70 - 71 - 72 - 73 - 74 -
 97 - 96 - 94 - 93 - 89 - 86 -
 107 - 106 - 105 - 104 - 102 - 101

نساء الأذفونش ١٩٣.

النصارى ٤٣ - ٥٢ - ٥٦ - ٦٣ - ٦٤ - ٦٧ -

١٥٣ - ١٤١ - ١٣٧ - ١٣٦ - ١٢٢ - ٦٩

- ٢٥٥ - ٢٣٩ - ٢١٨ - ١٨٣ - ١٥٥ -

نصارى المرية ١٢٢.

النصرانية ١٨٢.

نوح ١٣٣.

حُرْفُ (هـ)

الهادى (محمد بن هود بن عبد الله السلاوى) ١١٠.

هارون بن سعيد العجلي ٩٧ - ٩٨.

الهاشميون ١٧٩.

هامان ١٣٣.

هرغة (قبيلة) ٧٨ - ٨٥ - ٨٦ -

هرقل ٢٢١.

هزرجة ٢٤٢.

الهساكر ٢٥٧.

هشاتنة (قبيلة) ١٨٨ - ١٠٨ - ٩٣ - ٨٥ -

- ١٨٩ - ١٩٠ - ٢٤٠.

هشام بن عبد الملك بن مروان ١٦.

هلال (قبيلة) ١٦٨.

هلال بن حميدان الخلطي ١٧٤ - ٢٣٢ -

- ٢٣٧.

هلال بن عامر ١٦٣.

هلاطية ١٦٧.

الهلاليون ١٦٦ - ١٦٧ - ١٧٠ - ١٧٨ -

اليمانية ١٦٢.

اليهود ١٣٧.

حُرْفُ (وـ)

واجاج بن زلو اللمطي ٦ - ٧.

والدة الأذفونش ١٩٣.

وانودين بن خزرون ١٢.

ورديعة ١٧٢.

وريكة ١٥.

وشاح بن هلال ١٧٥.

وفد إشبيلية ٢٤٥.

وفد سبطة ٢٤٥.

وفود الأندلس ٦٨ - ١١٧.

وفود العرب ٢٥٧.

وقعة الأرك ١٩٥ - ٢٢١.

وقعة أم الرجالين ٢٥٦.

وقعة البحيرة ٩٠ - ٩٧.

وقعة تامزركت ٢٥٣.

وقعة طريف ١٢٩.

وقعة العقاب ٢٢٥ - ٢٢٦.

وقعة وهران ١٠٦.

ولاة الأندلس ١٥٣.

ولد أحضر بن عامر ١٧٩.

ولد رياح الهلاليين ١٧٩.

ولد عبد الرحمن الداخل ٢٥١.

ولد منصور بن محمد ١٨٠.

حُرْفُ (يـ)

يعيى بن إبراهيم الكدالى ٥ - ٦ - ٧ -

- ١١ - ١٠.

يعيى بن إسحاق ١٠٤ - ١١١ - ٢١٤.

يعيى بن أبي بكر الصحراوي ١٠٧ -

- ١١٤.

يعيى بن أبي بكر بن يوسف بن

تاشفين ٥٦ - ٦١ - ٦٢.

- 189 - 188 - 187 - 186 - 185 -
 يحيى بن أبي حفص الهمتاني 158.
- 195 - 194 - 193 - 192 - 191 - 190 -
 يحيى بن أبي زكريا الهزرجي 215.
- 200 - 199 - 198 - 197 - 196 -
 يحيى بن العزيز الصنهاجي 70 - 105 -
 214 - 213 - 205 - 204 - 202 - 201
 .218 - 217 -
 يحيى بن الناصر بن المنصور 171 -
 يعلى بن محمد بن الخير بن محمد بن
 خزر المغراوي 32.
- يعلى بن يوسف 29.
 يعيش 219.
 يغمراسن بن زياد العبد الروادي 248 -
 259 - 250 - 251 - 252 - 249
 .260.
- يوسف بن أحمد البطروجي 117 - 118 -
 119 - 124 -
 يوسف بن أيوب 182.
 يوسف بن بدر 104.
- يوسف بن تاشفين 14 -
 23 - 22 - 21 - 14 -
 31 - 30 - 29 - 28 - 27 - 25 - 24
 - 41 - 40 - 39 - 38 - 35 - 33 - 32
 - 50 - 49 - 48 - 46 - 45 - 43 - 42
 - 60 - 59 - 58 - 57 - 56 - 55 - 51
 .110 - 61
- يوسف بن سليمان 136.
 يوسف بن عبد المؤمن 147 - 148 -
 155 - 153 - 152 - 150 - 149
 .156 - 157 - 158 - 159 -
 يوسف بن علي بن عبد الرحمن بن
 وطاس 15 - 16 - 232 -
 يوسف بن مخلوف 108 - 113.
 يوسف بن منقاد 148.
- يعقوب بن تميم بن المعز بن باديس
 الصنهاجي 79 - 80.
 يحيى بن سكوت البرغواطي 31 - 34.
 يحيى بن عبد الله بن وأنور الدين 255.
 يحيى بن عطوش 247 - 251.
 يحيى بن علي المسوبي (ابن غانية) 107 -
 118 - 114.
- يعقوب بن عمر اللمتوني 11 - 12 - 13 -
 يحيى بن هلال بن حميدان 174 - 243.
 يحيى بن يغمور 101 - 104 - 118 -
 125.
- يعقوب بن يسلبيتين 122 - 124.
 يعقوب بن جابر 250 - 251 -
 يعقوب بن جرمون 173 - 253.
 يعقوب بن عبد الحق المريني 171 -
 260 - 259 - 255 - 175 - 173
 .224.
- يعقوب بن عبد المؤمن 156 - 157 -
 158.
- يعقوب بن كانون 253.
 يعقوب بن محمد بن قيطون 171.
 يعقوب المنصور 26 - 107 - 119 - 159.

يوسف بن وانودين ٨٥ - ١٠٤ - ١٠٦ -	١٩١.
.108	يوسف العقاب ٢٢٧.
يوسف الشيطان ٢٥٠ - ٢٥١.	١٣٣ - ١٦ - ١٧ -
يوسف المتصر ٢٢٥ - ٢٢٨.	١٠٣.

فهرس الأماكن

- أرض الحجاز .163
- 177 - 22 - 6 - 3 - .179
- أرض الصحراء .3
- أرض سلا .195 - 144
- أرض السوس .174
- أرض العدوة .51
- أرض فاس .247
- أرض قفارة .174
- أرض المسلمين .151
- أرض المصامدة .6
- 162 - 161 - 142 - 18 - .264 - 237
- أرض نجد .167 - 166 - 163
- .194 - 189 - الأركو
- .177 - 170 - أزغار
- .153 - 118 - أستجة
- .203 - 182 - 79 - 78 - إسكندرية
- .58 - 60 - أشبوونة
- .66 - 118 - 152 - 155 - أسوان
- .31 - 32 - 34 - 35 - 38 - 39 - إشبيلية

حرف (ا)

- 208 - 206 - 175 - 173 - آزمور
- .258 - 247

حرف (ا)

- .236 - 122 - 118 - أبدة
- .219 - أبواب فاس
- .246 - أجدال
- .141 - أحواز بطليوس
- .29 - أحواز تلمسان
- .209 - أحواز الجزيرة الخضراء
- .51 - أحواز سلا
- .32 - أحواز شدونة
- .192 - أحواز طليطلة
- .30 - 218 - 254 - أحواز فاس
- .125 - أحواز لبلة
- .90 - أحواز مراكش
- .171 - أحياج جشم
- .188 - الأرك
- .74 - الأرجوزة
- .169 - 161 - 192 - 168 - أرض إفريقية

أمسار المغرب .	113	- 50 - 49 - 48 - 46 - 42 - 41 - 40
- 35 - 34 - 33 - 12 - 5 - 3	الأندلس	117 - 66 - 56 - 55 - 54 - 53 - 52
- 53 - 52 - 51 - 47 - 44 - 42 - 38		- 131 - 125 - 124 - 120 - 118 -
- 68 - 67 - 65 - 59 - 58 - 56 - 55		151 - 150 - 148 - 147 - 146 - 141
- 107 - 93 - 78 - 73 - 72 - 69		- 192 - 156 - 155 - 154 - 153 -
123 - 122 - 120 - 118 - 116 - 110		217 - 212 - 202 - 201 - 195 - 193
- 136 - 132 - 127 - 125 - 124 -		- 230 - 228 - 226 - 224 - 220 -
183 - 182 - 181 - 147 - 143 - 141		242 - 238 - 236 - 235 - 233 - 231
- 189 - 187 - 186 - 185 - 184 -		.253 -
203 - 201 - 198 - 195 - 194 - 193		أشكوبية .69.
- 222 - 220 - 219 - 218 - 209 -	الإصينيول	.53 -
228 - 227 - 226 - 225 - 224 - 223		أطراف تامستا .174.
- 235 - 234 - 233 - 232 - 229 -		أعمال المغرب .22.
251 - 249 - 245 - 244 - 240 - 236		- 89 - 85 - 54 - 30 - 23 -
.264 - 262 - 253 -		.257 - 94 - 93
أنجاد الموحدين .116		.118 -
إيميلوين .253		أفراغة 60 -
حرف (ب)		إفريقيبة 3 -
باب آيلان .89 -		140 - 139 - 136 - 135 - 129 - 109
باب إشبيلية .211		- 151 - 149 - 148 - 143 - 141 -
باب أغمات .257 - 212		165 - 164 - 163 - 160 - 154 - 152
باب أڭناور .194		- 178 - 169 - 168 - 167 - 166 -
باب البنود .258		205 - 193 - 184 - 183 - 181 - 180
باب تاغزوت .261		- 220 - 217 - 216 - 215 - 214 -
باب تلمسان .21		240 - 236 - 232 .. 228 - 227 - 226
باب الحديد .219		.249 - 248 - 245 -
باب دكالة .154		أفليج 63 - 64 -
باب الرب .211		.192 -
باب الشريعة .257 - 219 -		أقصى المغرب .83.
		أقطار إفريقيبة .166.
		أم الرجال .256.
		أم العلو .121.

برقة 102 - 139 - 165 - 198 - 200.	باب الصالحة .257
بساط تامسنا .255	باب الطبول .257
بساتين أجdal .256	باب الفاتحة .258
البسيط .70	باب القنطرة .63
بسيط تامسنا 170 - 174 .	الباب الكبير المدرج .219
بسيط متبعة .180	باب الكحل .234
البصرة .127	باب المحروق 118 - 219
البطحاء .140	باب مدينة قرمونة .221
- 56 - 44 - 43 - 39 - 34 - 33 .	باب مراكش .122
149 - 148 - 141 - 120 - 117 - 66 .	باب المنار .195
. - 193 -	باب المهدية .228
بطوية .104	بابورة .141
بغداد .58	باجة 117 - 141 - 184 - 216
بلد شريش .116	باديس .143
بلنسية 49 - 56 - 226 - 231 - 232 .	بحایة 55 - 70 - 73 - 80 - 81 - 105
. - 236 - 235 .	147 - 146 - 135 - 123 - 121 - 120 -
بلنسية 63 - 64 - 67 .	. - 149 - 153 - 159 - 160 - 160 - 181 .
بلطة .34	البحر الأخضر .168
بوسکاون .77	بحر الأندلس .60
بوانشريس .82	البحر الغربي المحيط .73
بودة .178	البحر المحيط 5 - 21 - 60 - 60 - 177 - 178 .
بونة .121	. - 200 - 203 - 206 .
بلاد أربوسة .65	بحر النيل 8 - 164 .
بلاد أزغار .169	البحرين .163 - 164 .
بلاد إفريقيا 49 - 102 - 120 - 135 - 136 .	البحيرة .89 .
- 140 - 143 - 146 - 152 .	برتغال 66 - 129 .
- 160 - 168 - 198 - 203 - 220 .	برج الذهب .228 .
بلاد ابن آذونش .193	برشلونة 65 - 193 - 236 .
بلاد الإسلام .195	برغواطة 17 - 18 - 78 - 108 - 113 .
بلاد الإنونج .73	.114 .

بلاد الشريف شكر بن أبي القتوح .167	بلاد الأندلس ١٥ - ٤٠ - ٣٢ - ٥٥ -
بلاد الصحراء ١١ - ٦٢ - ١٧٨.	١٢٦ - ١٠٢ - ٧٥ - ٧٠ - ٦٨ - ٦٣ -
بلاد الصعيد .179	- ١٤٩ - ١٤٦ - ١٤٣ - ١٣٨ - ١٢٨ -
بلاد طنجة ٣٠ - ٣٣ - .34	٢٤٠ - ٢٣٦ - ٢٣١ - ٢١٠ - ١٨٦ - ١٥٩
بلاد العدوة ٦٨ - ٧٣ - ١٢٦ .	.٢٤٦ -
بلاد الغرب ١٦٩ - ٢٥٣ .	بلاد البربر ٣.
بلاد غرب الأندلس ٦٦ - ٦٨ - ١٥٤ .	بلاد بني زييات ٢٣٥.
بلاد غمارة ٢٨ - ٣١ - ٢٩ - ١٤٧ - ١٠٣ .	بلاد بني سعيد ٢٣٥.
.١٤٨	بلاد بني يزناسن ٣٢.
بلاد فازار ٣٠ .	بلاد بول ١٧٨.
بلاد الفرنج ٥٢ - ٦٣ - ٦٦ - ٦٨ - ١٤٣ .	بلاد تادلا ١٨ - ٣٠ - ٢١ - ١٧٧ -
بلاد فندلاوة ٢٩ .	بلاد تازا ١٠٩.
بلاد القبلة ١٠ - ٢٠ - ٦١ - ١٤٣ - ٢٢٠ .	بلاد تأسينا ١٥ - ٣٠ - ١٦٨ - ١٦٩ .
بلاد قشالة ٢٢١ .	بلاد الجريد ٢١٤.
بلاد كدميوه ١٤ .	بلاد الجنون ٦٧.
بلاد المسلمين ١٥١ - ١٨٥ - ٢٠٥ .	بلاد حاجة ١٧٤.
بلاد المشرق ٧٩ .	بلاد الحوز ١٦٩ - ٢٥٣.
بلاد المصامدة ١٠ - ١٣ - ١٤ - ١٨ - ٣٠ .	بلاد درعة ١٣ - ١٠٣ - ١٧٧ -
.٩٣ - ٧٠ - ٩٢ .	بلاد دكالة ٢٣٢.
بلاد المغرب ٢٠ - ٢١ - ٢٩ - ٣٠ - ٣١ .	بلاد ركراكة ٩٣.
.٤٩ - ٥٠ - ٦١ - ٦٣ - ٧٥ - ٩٠ .	بلاد رودة ١٤.
١٠٣ - ١٢٨ - ١٤٣ - ١٤٦ - ١٧٨ - ١٧٩ .	بلاد الريف ٣٢ - ٢٢٧ - ٣٢ - ٢٤٩ .
.١٩٢ - ٢٠٠ - ٢١٢ - ٢٣٤ - ٢٤٦ .	بلاد زناتة ٢٠ - ٣٢ - ١٠٤ - ١٠٦ -
.٢٤٧ - ٢٤٦ .	بلاد سجلماسة ٢٤٢.
بلاد المغرب الأقصى ١٦٩ .	بلاد السودان ٣ - ٥ - ٨ - ١٠ - ١١ - ١٣ -
بلاد مكلاة ٣٠ .	.٧٣ - ٢١ - ٢٢ - ٦٠ - ٦٣ -
بلاد مكتنسة ٢٨ .	بلاد السوس ١٣ - ١٤ - ٣٠ - ٢٥٤ .
بلاد ملوية ٢٩ .	بلاد الشام ١٦٣.
بلاد نول ١٣٩ - ١٩٨ .	بلاد الشرق ٢٠٣.
بلاد الهبط ١٦٨ - ١٦٩ .	بلاد شرق الأندلس ٦٣ - ٦٧ - ١٥٠ .

- 120 - 116 - 115 - 113 - 108 -	. بلاد هزرجة 93.
149 - 141 - 139 - 130 - 125 - 123	. بلاد هسكورة 257.
- 177 - 175 - 173 - 171 - 158 -	. بلاد ورغة 29.
251 - 250 - 249 - 248 - 213 - 184	. بيسة 54 - 122 - 118 -
. 259 -	. 231 - 191 - 182.
تلمسان الجديدة 35.	البيوج 221.
تمنطيط 178.	بيت المقدس 181 -
. 32.	. اليداء 72.
تونس 178.	حرف (ت)
توات 161.	- تادلا 15 - 114 - 109 - 104 -
. 178.	. 180.
تونس 85.	. تارودانت 14 -
214 - 183 - 168 - 161 - 160 - 151	. 254 -
. 252 - 228 - 216 - 215 -	- تازا 110 -
. 178.	. 252 - 250 - 249
تيمكاريين شرقاً 178.	. تاسبيب 178.
- 94 - 93 - 92 - 85 - 72 - 70 -	. تاسلاخت 17.
109 - 108 - 106 - 103 - 101 - 97	. تاعزونت 252.
- 144 - 142 - 128 - 123 - 122 -	. تاكرارت 72.
. 237 - 232 - 156 -	. تاكمارت 132.
. 81.	. تامستا 16 -
حرف (ث)	. تاملوكالات 16.
الثغر الأعلى 44.	. تاوريرت 177.
. 217.	. تربية المهدى 132.
ثغر الجزائر 135 -	. التعيبة 160.
ثغور الأندلس 39.	. تفليس 205.
. 260.	. تكراريين 177.
حرف (ج)	. تكررور 198.
جامع إشبيلية 151 - 195.	. التل 177.
الجامع الأعظم 160 - 194.	- تلمسان 31 - 72 - 71 - 70 - 62 - 32 -
جامع الأندلس 29 - 219 -	107 - 106 - 105 - 104 - 103 - 82
. 127.	

- | | |
|---|--|
| جبل علودان .30
جبل غزوان .163
جبل الفتح 140 - .154
جبل كيليز .93
جبل الموحدين .244
جبل نفوسه .137
جبل وانشريس .32
الجزائر 32 - 160 - 135 - 121 - 120 - 180 - 176
جزائر بني مرغنة .60
الجزائر الشرقية 68 - .159
الجزيرة 10 - .41
جزيرة الأندلس 35 - .200
الجزيرة الخضراء 34 - .154
.62 - 39 - 237 - 236 - 187 - 156
الجزيرة الخضراء الأندلسية .52
جزيرة العرب 162 - .163
جزيرة صقلية .139
جزيرة طريف .32
جزيرة ميورقة 62 - .217
159 - 159 - 230 - 141
حرف (ح)
حارة باب السلسلة .264
حارة الجذمي العتيقة .212
الحامة .161
حامة مطماطة .215
حامية الأندلس .226
الحجاز 62 - .168
حصن الأرراك 187 - .191 | جامع تينملل 86 - .102
جامع حسان .195
جامع سيدى إسحاق 262
جامع قربطة 75 - .126
جامع القرويين 29.
جامع الكتبين 25 - .194
جامع المنصور 234 - 252 - 238 - .259
جاية .213
الجبانة .91
جبال الذهب 22 - .73
جبال المصامدة 25 - .69
جبال غمارة 29 - 104 - 103 - .214
.263 - 234 - 219
جبال غياثة .104
جبال فازاز .20
جبال ورغة .218
جبل إيرجان .210
جبل بني يهلول .254
جبل بني دمر .215
جبل تاجررة .215
جبل تطوان .18
جبل تيزيران .148
جبل تيطري 70 - .105
جبل تينملل .260
جبل جليز .237
جبل الدرن 14 - 25 - 78 - 92 - .169
جبل سليمان .192
جبل سيرات .105
جبل طارق 140 - .141
جبل العلم .263 |
|---|--|

حمة أبي يعقوب .205 - 204	.66 حصن أرجنة
حمة خولان .205	.153 حصن أزكندر
حمة وشنانة .205	.63 حصن أفلبيج
حنين .122	.15 حصن برباط
الجوز .169	.195 حصن البرج
حومة وادي شردوغ .62	.54 حصن البلاط
الخضراء .41 - 43 - 51 - 181	.249 حصن تازا
حرف (د)	.99 حصن تاكراوت
دار المرابطين .7	.173 حصن تامزردكت
دار الندوة .133	.222 حصن سلطرة
دار ال�ناه .246	.153 حصن شقيقة
داينة .33 - 226 - 131 - 231	.158 حصن شترلين
درعة .12 - 252 - 178 - 30 - 13 - 12	.223 حصن العقبان
دكالة .77	.141 حصن القصر
دمشق .203 - 200 - 185 - 127	.51 حصن لبيط
ديار ابن عشرة .108	.54 حصن المدور
ديار الشام .181	.141 حصن المرنكش
ديار مصر .181	.231 حصون الغر الأوسط
ديار ملاكة .81	.182 حصون الشام
حرف (ر)	.69 حصون غرب الأنجلس
رابطة العباد .213	.29 حصون وطاط
رابطة الغار .212	.217 - 240 - 242 الحضرة
رابطة ماسة .111	.236 حضرة أرجونة
رابطة وهران .71	.250 حضرة السعيد
رباط تازا .253	.27 حضرة مراكش
رباط سلا .143	.158 - 125 - 76 - 27 - 160
رباط الفتح .119 - 195 - 203 - 206	.187 - 202 - 228 - 230
رباط ماسة .110	.160 - 231 - 238
	.144 حلق المعمورة
	.204 حمارنة (قرية)
	.264 حمام الريحة

سواحل الشام .183	ريط آسفى .263
السودان .197	رحبة الحنطة .77
سور باب جوهر .151	رمال مافيلاس .178
سور باديس .219	رندة ١١٩ - .153
سور الحجر .25	روضة المهدى .128
سور سبتة .115	الريف .29
السوس ٧ - ١٤٣ - ١١٠ - ٨٦ - ٨٥ - ٨١ - ٢٥٦ - ٢٥٣ - ١٧٨ - ١٧١	حرف (ز)
السوس الأقصى ٦٠ - ٦٠ - ١٩٨ - ١٧٨ - ١٣٩ - ٦٠	الزراب .34
سوسة ١٣٥ - ١٣٧	رغبة الهلاليين .177
سوق الدقيق .262	زفاف سبتة (بحر) .187
سوق العطارين .٧٦	زنبل .52
سلا ١٥ - ١١٤ - ١١٣ - ١٠٩ - ١٠٨ - ١٨ - ١٢٢ - ١٢١ - ١٢٠ - ١١٩ - ١٥٣ - ١٤٦ - ١٣٦ - ١٢٥ - ١٢٤ - ١٢٣ - ٢١٧ - ٢١١ - ١٦٨ - ١٥٦ - ١٥٤ - ٢٥٣ - ٢٥٢ - ٢٤٧ - ٢٤٥ - ٢٣٢ - ٢٢٥ - ٢٥٦	زربلة .137
سيارات .١٠٥	الزلاقة .٤٤ - .٥٠
سيرز .١٨٢	
حروف (ش)	حروف (س)
شاطئية .٢٢٦ - .٢٣٥ - ٢٣١	ساحة طليطلة .193
الشام ١٢٧ - ١٨٢ - ١٨١ - ١٦٧ - ١٦٤	سبتة ١٨ - ٤٩ - ٤٠ - ٣١ - ٣٠ - ٢٩ - ٢٨ - ١٤٨ - ١٤٣ - ١٢٣ - ١٠٤ - ٦٥ - ٥٥ - ٢٣٧ - ٢٣٤ - ٢١٧ - ٢٠٩ - ١٥٤ - ٢٥٥ - ٢٤٨ - ٢٤٥ - ٢٤٠
.٢٠٨ - ١٨٣	سجل ماسة ١٢ - ٣٠ - ٢٨ - ٢٣ - ٢١ - ١٣ - ١٧٨ - ١٧٧ - ١٧٥ - ١٥١ - ١١٣ - ٢٥٥ - ٢٥٣ - ٢٤٧ - ٢٤٤ - ١٧٩
.٣٢ - ١٥ - ١٥	السجينة ٢٥ - .٢٣٩
.٩٩	سرقسطة ٣٢ - ٦٦ - ٥٦ - ٤٩ - ٣٥ - ٣٣ - ٦٧ - .٢٣٥ - ٦٧ - .٢٣٥
شرق الأندلس ٣٢ - ٦٠ - ٦٢ - ٦٦ - ٦٧	سطيف .١٢١
.١٤١	سفح الجبل .١٧١
.١٦٦	السقيفة .١٣٣
شرقي النيل	سلبورة .٢٢٣

حرف (ط) الطائف .163 طرابلس .214 - 182 - 160 - 137 طرطوشة .131 - 118 - 65 - 44 طريف .220 - 149 طريق المعدن .124 طلبيرة .153 - 120 طلمنكة .192 طليطلة .53 - 52 - 49 - 40 - 35 - 33 طلايوت .185 - 68 - 66 - 65 - 64 - 63 طنجة .153 - 141 - 193 - 192 طنجة .107 - 60 - 31 - 30 - 29 - 28 طلايوت .143 - 141 - 123 طلايوت .65	شريش .210 - 119 - 117 - 116 الشعراء .132 شفشاوة .258 شقرة .54 شب .210 - 184 - 117 شترن .65 - 68 - 155 - 154 - 118 - 181 شتمرية .118
حرف (ص) صحارى برق .168 صحارى المغرب الأقصى .178 الصحراء .24 - 22 - 20 - 13 - 7 - 5 .228 - 184 - 160 - 39 - 34 صحراء فجيج .226 الصخيرة .54 الصعيد .165 الصفاصاف .105 - 70 صعيد مصر .164 صفاقس .137 - 135 صقلية .139 - 138 - 135 صلب الفتح .72 صلب الكلب .72 صنهاجة .220 صنهاجة آزمور .257 صور .182 صومعة الكتبين .194	حرف (ع) العدوة .51 - 52 - 53 - 67 - 69 - 124 العدوة الأندرسون .264 - 262 - 26 - 29 - 135 العدوة الأندلسية .103 العدوة الشرقية .164 العدوتين .147 - 78 - 17 العدوة القرطاجين .219 - 29 العدوة المغاربة .135 - 60 العراق .78 العقبان .251 عكا .182 عمان .163 عين خميس .144 عين غبولة .144 - 119
حرف (ض) ضريح المهدى .129 ضواحي إفريقيا .166 ضواحي المغرب .169	

القاهرة .165

قبة الشراب .127

قبة المنصور .229

قبير الأمير يعقوب .204

قبير المهدى .122 - .144

قبير باديس بن حبوس الصنهاجى .118 - .211

القبلة .34 - .177 - .211

قبلة تلمسان .177

قبيلة فاس .254

قبيلة وجدة .250

قرطبة .49 - .40 - .39 - .38 - .35 - .12

- .78 - .77 - .76 - .68 - .66 - .65 - .63

.123 - .120 - .119 - .118 - .114 - .107

- .146 - .141 - .127 - .126 - .125 -

.184 - .153 - .151 - .150 - .148 - .147

- .231 - .230 - .217 - .210 - .201 -

.261 - .251 - .246 - .236

فرمونة .54 - .118 - .117 - .141

قرى فلسطين .165

قرية يليسكاون .77

قسطنطينة .160 - .121

قشالة .237 - .253

القصبة .63 - .73 - .109 - .118 - .124

.258 - .257

قصبة رباط الفتح .252

قصبة كرجستان .205

قصبة مراكش .194 - .229 - .234 - .252

قصر أبي دانس .184 - .227

قصر ابن عشرة .121

قصر كاتمة .120 - .168 - .210 - .234

حروف (غ)

- .198 غانة .177 - 169 - 139 - 177 الغرب .168 غرب إفريقيا .141 - 184 - 67 - 141 غرب الأندلس .185 غرب جزيرة الأندلس .118 - 63 - 55 - 53 - 44 - 39 غرناطة .125 - 147 - 151 - 153 - 154 - 230 .253 - .177 غساسة .220 غماراة

حروف (ف)

- فاس - 34 - 30 - 29 - 28 - 27 - 26 - 12
- 107 - 82 - 75 - 72 - 63 - 62 -
117 - 116 - 115 - 114 - 113 - 108
- 130 - 129 - 124 - 123 - 120 -
167 - 160 - 157 - 154 - 136 - 131
- 183 - 182 - 181 - 177 - 176 -
210 - 205 - 204 - 195 - 193 - 184
- 227 - 226 - 219 - 214 - 212 -
260 - 256 - 255 - 254 - 250 - 245
.264 -

حرف (ق)

- .215 - 161 - 137 قابس
 - قادس .206.
 - .243 قاصية الصحراء
 - .206 قالص .

كركرا .194	قصر المجاز .232 - 220 - 181 - 149
كركي .69	قصر مصمودة .158
كريفلة (موقع) .19	قصر المنصور .199
كهف الضحاك .70	قصور إفريقية .137
كهوف العجال .162	قصور السوس غرباً .178
الكونفة .127	قصور الصحراء .178
كومية .81	القصوى .133
حرف (ل)	قطر السوس .254
لاردة .67	قطبانية .212
لبطيط .51	قصبة .215 - 152 - 153 - 160 - 161 - 160
لبلة .117 - 118 - 119 - 124 - 125 .125	قصبة عمران بن موسى الصنهاجي .152
لمتونة .54 - 56	القلعة .121 - 160
لمدية .219	قلعة أيبوب .67
حرف (م)	قلعة تامر زدكت .250
ماردة .118 - 152	قلعة جابر .151
مسامة .14	قلعة حماد .171 - 74
مالقة .53 - 55 - 151 - 153 - 211 .211	قلعة رياح .222 - 194 - 151 - 222 - 192 - 194 - 151 - 223
	قلعة فازار .28 - 27
متسططة .209	قنصرة .151
المجدل .204	قطدرة تانسيفت .149
مجريط .65 - 192 .192	قوص .179
المحللة .52 - 55 - 222 - 251 .251	قيجاجة .231
محللة الأذفونش .45 - 47 .47	الغفروان .6 - 7 - 130 - 161 - 215
محللة زناتة .105 .105	حرف (ك)
محللة السعيد .173 .173	الكافعة .240
محللة العبيد .155 .155	كانم .198
محللة لمتونة .105 .105	كبكب .89
محللة المسلمين .155 .155	كمديورة .93 - 258
محللة الموحدين .71 - 122 - 255 .255	

- 125 - 124 - 121 - 120 - 119 - محلة التنصاري .45
 134 - 132 - 131 - 129 - 127 - 126 - مداشر مكناسة 20 - 30.
 - 143 - 142 - 141 - 136 - 135 - مداشر 162.
 151 - 150 - 149 - 148 - 147 - 146 - مدرسة الجوفية 195.
 - 158 - 156 - 154 - 153 - 152 - المدور 54.
 176 - 174 - 173 - 172 - 169 - 161 - المدينة 127.
 - 192 - 185 - 184 - 181 - 180 - مدينة آكسيف 32.
 203 - 201 - 199 - 195 - 194 - 193 - مدينة أغمات 14 - 15 - 19.
 - 214 - 212 - 211 - 206 - 205 - المدينة البيضاء 26.
 222 - 220 - 219 - 218 - 217 - 215 - مدينة تاڭرارت 32.
 - 231 - 230 - 228 - 227 - 225 - مدينة الدمة 30.
 239 - 237 - 236 - 234 - 233 - 232 - مدينة الزهرا 38.
 - 245 - 244 - 243 - 242 - 240 - مدينة شفشاوة 14.
 252 - 249 - 248 - 248 - 247 - 246 - مدينة صدقة 27.
 - 257 - 256 - 255 - 254 - 253 - مدينة صفرو 27.
 .262 - 261 - 260 - 259 - 258 - مدينة عوسجة 28.
 مرسي بجایة .252.
 مرسي هنین .143.
 154 - 149 - 141 - 67 - 65 - مرسيبة 49 .
 - 230 - 229 - 226 - 217 - 210 - .
 .235 - 231 -
 - 83 - 71 - 59 - 55 - 52 - 44 - الصرية .
 .262 - 240 - 122 - 118 - 106 - المسجد الأعظم .211.
 مسجد تيملل .122.
 المسجد الجامع بحضور مراكش .128.
 مسجد حزاب .83.
 مسجد طريانة .82.
 مسجد مراكش .25.
 مسجد المهدي .129.
- 40 - 35 - 32 - 30 - 26 - 25 - مراكش 25
 - 69 - 67 - 62 - 61 - 54 - 53 - 48
 - 77 - 76 - 75 - 73 - 72 - 71 - 70
 - 93 - 91 - 90 - 89 - 87 - 83 - 82
 - 110 - 109 - 108 - 103 - 97 - 94
 118 - 117 - 116 - 114 - 113 - 111

مكناة	.167 - 166 - 160 - 127 - 79	مشترية .77
مكناسة	246 - 177 - 154 - 82 - 29	المشرق .6 - 15 - 80 - 81 - 90
	.253 - 252 - 250 - 249 - 247	- 172 - 140 - 130 - 110
مكناسة الزيتون	.26	.205
مكناسة القديمة	.116	مصر .218 - 183 - 164 - 121 - 79
مكناسة تاكرارت	.116	مصلى الأندلس .219
ملالة	.100 - 80	مصلى القرويين .219
ملوية	.23 - 178 - 177 - 104 - 23	المعدن .177
مليانة	.160	المعمرة .51
	.219	المغرب .16 - 15 - 12 - 10 - 5 - 3
منداس	.104 - 106	- 33 - 25 - 24 - 23 - 21 - 19 - 17
منورقة	.159	- 78 - 74 - 69 - 58 - 55 - 35 - 34
المهدية	.51 - 135 - 120 - 80 - 79	- 100 - 94 - 93 - 84 - 82 - 80
	.136 - 137 - 138 - 139 - 143 - 214	114 - 113 - 110 - 107 - 103 - 102
	.215 - 216	- 139 - 136 - 135 - 130 - 129 -
المسيرة	.52	163 - 162 - 161 - 158 - 156 - 148
ميورقة	.159 - 217 - 218 - 229	- 173 - 172 - 170 - 169 - 165 -
حرف (ن)		201 - 198 - 193 - 182 - 178 - 175
نجد	.168	- 217 - 216 - 206 - 205 - 204 -
تفليس	.14 - 7 - 6	233 - 227 - 226 - 225 - 224 - 220
نهر سلا	.203	- 248 - 247 - 246 - 240 - 235 -
النيل	.165	- 263 - 262 - 260 - 257 - 249
		.264
حرف (ه)		المغرب الأقصى .3 - 81 - 103 - 123
هرغة	.86	- 143 - 161 - 162 - 168 - 169
هزيمة إبرجان	.210	.177
هسكورة	.113 - 210 - 230 - 244	المغرب الأوسط .3 - 31 - 32 - 103
هنتاتة	.231 - 232	.110 - 119 - 116 - 115 - 114 - 113
هنين	.99	المغاربة .62
هلالة	.89	.247 - 246 - 245 - 244 - 243 - 242

